

الموسوعة البوذية





بوذا



الموسوعة البوذية

إعداد : علي مولا



.... كثيرة هي التساؤلات؟..هل كانت البوذية دين ام فلسفة ؟ ..فلا اهمية لنوع البطاقة " فالزهرة التي نسميها وردة تطلق الرائحة الزكية نفسها مهما كان اسمها "...فالحقيقة ليس لها بطاقة ، والانسان كائن وليس تعريف ...ومتى كانت الحقيقة احتكار ، بوذية كانت او مسيحية او هندوسية او اسلام ، فالبطاقات التي تلصق على الشيع والاديان ليست الا عائقا امام التفهم الحر للحقيقة ، وهي تدخل في عقل الناس احكاما مسبقة مسيئة .

.. البوذية من أكبر الديانات الوضعية والفلسفات في العالم .

ظهرت قبل حوالي 2500 سنة في شمال شرقي الهند ، وانتشرت في معظم أنحاء العالم

وعبرت شمالاً عن طريق جبال الهملايا إلى الصين والتيبت ،وكوريا ،واليابان .

وفي الجنوب وصلت الى سيريلانكا ، وتايلاند وبورما ، وكمبوديا ، وفيتنام .

وانتشرت في بعض أنحاء أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا خلال القرن العشرين الميلادي .

.. ويقدر عدد البوذيين في العالم بنحو 300 مليون .

وتتمحور الديانة البوذية حول ثلاثة أمور - الجواهر الثلاث – أولها ، الأيمان ببوذا كمعلم مستنير

للعقيدة البوذية ، ثانيها الأيمان ب " دهارما " ، وهي تعاليم بوذا وتسمى هذه التعاليم بالحقيقة

ثالثها وآخرها ، المجتمع البوذي . تعني كلمة بوذا بلغة بالي الهندية القديمة " الرجل المتيقظ "

وتترجم أحياناً بكلمة المستنير .

فهرس المحتويات



المصادر

قصة الحضارة : ويل ديورانت

الموسوعة العالمية

موسوعة ويكبيديا

بوذا: واليولار اهولا

دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند : د. محمد ضياء الأعظمي

موسوعة الأديان القديمة : د. كامل سعفان

الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب : د. مانع بن حماد الجهمي

فكر الهند . كبار مفكري الهند ومذاهبهم : ألبير شويتزر

مقارنات الأديان : الشيخ محمد أبو زهرة

آداب الهند : لويس رينو

الأصول الأولى للبوذية

إن أولى المعلومات عن حياة بوذا لا تعدوا كونها مجرد آثار شفوية متناثرة، لم تظهر أولى الترجمات الكاملة لحياته إلا بعد وفاته بسنين، غير أن المؤرخون يُجمعون على .أن تاريخ مولده كان في منتصف القرن الـ6 قبل الميلاد

ولد بوذا واسمه الحقيقي "سيدارتا غاوتاما"، في "كاپيلافاستو"، على الحدود الفاصلة بين الهند والنيبال. كان والِدُه حاكما على مملكة صغيرة.

تقول الأسطورة أنه وعند مولده تنبأ له بعض الحكماء بأن تكون له حياةٌ استثنائية وأن يصبح أحد اثنين، حكيما أو سُلطانا.

تربّى الأمير الشاب في رعاية والده وعاش حياة باذخة وناعمة، حتى إذا بلغ سن التاسعة والعشرين، أخذ يتدبر أمرهُ وتبين له كم كانت حياته فارغة ومن غير معنى. قام بترك الملذات الدنيوية، وذهب يبحث عن الطمأنينة الداخلية وحالة التيقظ .. الاستنارة، محاولا أن يخرج من دورة التناسخ.. حسب التقاليد الهندوسية.

قام بممارسة اليوغا لبعض السنوات، وأخضع نفسه لتمارين قاسية وكان الزهد والتقشف شعاره في هذه المرحلة من حياته .

بعد سبع سنوات من الجُهد، تخلى "غاوتاما" عن هذه الطريقة، والتي لم تعُد تقنعه، واتبع طريقا وسطا بين الحياة الدنيوية وحياة الزّهاد.

كان يجلس تحت شجرة التين، والتي أصبحت تُعرف بشجرة الحكمة، ثم يأخذ في ممارسة التأمل، جرب حالات عديدة من التيقظ، حتى أصبح "بوذيساتفا"، أي أنه صار مؤهلا لأن يَرتقي إلى أعلى مرتبة وهي بوذا.

في إحدى الليالي وبينما كان جالسا تحت شجرة التين، بلغ حالة الاستنارة، وأصبح بوذا، أي المتيقظ (أو المستنير). بعد أن بلغ أعلى درجات الحقيقية، شرع بوذا يدعو إلى مذهبه، فتنقل من قرية إلى قرية، أخذ يجمع الناس من حوله، وأسس لطائفة من الرهبان عرفت باسم "سانغا".

كرس بوذا بقية حياته لتعليم الناس حقيقة دعوته

يسجل التراث البوذى ما لا يقل عن ٢٤ بوذا سبقوا (بوذا جوتاما) ، وليس هناك دليل على وجودهم تاريخيًا ، وإنما وجودهم مؤكد (كحقيقة تجلت) ، وأعلنها بوذا جوتاما . وينسب إلى بوذا قوله : (لقد جاء عدد من بوذا – أى المصلحين الدينيين – قبلى ، فلست وحيداً فريداً فيما أتيت ، وإنما قصدى أن أنير الطريق أمامكم ، كما فعل الأولون) .

ولقد تردد مثل هذا القول على ألسنة رسل اللّه ، بوحى من اللّه سبحانه ، كما تردد على ألسنة بعض الفلاسفة والمصلحين ، لأن التاريخ الدينى والإصلاحى لايمكن أن يقف عند مرحلة ، أو عند شخص واحد .

ويتصدر التراث البوذى فترة زمنية تقدر بمائة وعشرين ألف سنة سبقت العصر الذى عاش فيه (جوتاما) ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، غير أن هذه ليست سوى أرقام رمزية – المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢١٦ .

الملكة (مايا) زوج (شُدْ ذو ذانا) ملك (كابيلا فاستو) الواقعة عند سفح الهميلايا – بعد أن أدت شعائرها الدينية ، وقطعت على نفسها عهود (أبوساذا) ، وهى عهود تقال فى أربعة أيام من كل شهر – دخلت مخدعها الرسمى المزذان ، ورأت رؤيا :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ، ويأخذونها إلى جبال الهميلايا ، ويضعونها على هضبات (ماتوسيلا) ، ثم رأت ملكات هؤلاء

الملوك الأربعة يأتين إليها ، ويأخذنها إلى بحيرة (أنوتانا) ، ويغمسنها في الماء ، ليزلن عنها الصِّبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ، ويعطرنها بالعطور ، ويزينها بالزهور المقدسة ، ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلاً من فضة ، عليه قصر من ذهب ، وهناك أعددن لها سريراً إلهيًا رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ، وهاهنا انقلب (بوذا ساتفا) [1] فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب ، فلما بلغه هبط منه إلى جبل الفضة ، آتيًا إليه من جهة الشمال ، وفي جعبته التي أشبهت جبلاً من فضة كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ، وبعدئذ نفخ في الصور ، ودخل قصر الذهب ، ودار تجاه اليمين دورات ثلاثًا ، حول سرير (مايا) ، ثم ضرب جنبها الأيمن ، وظهر لها كأنه يدخل رحمها ، وبهذا تلقى حياة جديدة .

* جمع الملك البراهمة ليفسروا الحلم ، فقالوا : سيكون لك ابن ، ولو سكن ذلك الولد بيتًا فسيكون ملكًا على الدنيا بأسرها ، أما إن ترك داره فسيكون (بوذا) ، يرفع الغشاوة عن عيون الناس .

وحملت الملكة به عشرة أشهر ، كأنه الزيت في القدح .

ولما آن أوانها رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها في (دينا داذا) .

كان في الطريق حرج كبير ، رغبت الملكة في أن تستريح به ، وأمسكت بفرع شجرة من أشجار (الملح) ، فأجاءها المخاض ، ووضعت وليدها ، وهي لم تزل ممسكة بالغصن .

نزل (بوذا ساتفا) كما ينزل الواعظ من منبَرة ، ووقف لا يلوثه القذر ، ولاتدنسه شائبة ، مشرقًا بالضوء ، كأنه جوهرة مَوضوعة على ثوب بنارس .

وقيل إنه ولد في مدينة لوميني سنة ٦٢٣ ق . م جنوب غربي نيبال .

---

(١) كائن أصبح أهلاً لأن يدخل الراحة الأبدية Nirvana ، ويصبح بوذا ، لكنه يرفض - بمحض إرادته - هذا الامتياز في المكانة ، ليظل بين كائنات الكون التي لاتزال غير مستنيرة ، ويعمل من أجل خلاصها . . إنه شخص مبجل بطولي ، بل معبود ، من أجل احتماله الشقاء وكده ورحمته للآخرين .

وعند مولده ظهر فى السماء ضوء لامع ، فرأى الأعمى ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها ، تمد له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمه . . وعاش عيشة الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور (كأنه إله) .

كان أبوه يقيه – مدفوعًا بحبه الأبوى – شر الاتصال بما تعانيه البشرية من آلام وأحزان ، وكان يقوم على تسليته أربعة آلاف راقصة . . ولما بلغ رشده عرضت عليه خمسمائة أميرة ليختار إحداهن زوجة له .

ولما كان ينتمى إلى طبقة (الكشاترية) ، تعلم الفنون العسكرية ، لكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء ، حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية التى كانت شائعة فى عصره .

وتزوج ، وأصبح أبًا سعيداً بزوجته وابنه (راهولا) ، ينعم بالثراء والدعة وطيب الأحدوثة .

وتروى النصوص أنه التقى – على التوالى – برجل يعذبه المرض ، ثم برجل فى آخر مراحل الوهن والشيخوخة ، ثم بجثة محمولة إلى المحرقة ، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء . وبينما هو يفكر فى هذه الوقائع رأى رجلاً مقدسًا ، حليق الرأس ، جوالاً ، وآخر من الذين نذروا أنفسهم للسعى إلى حياة الزهد ، للتحرر من عبث الحياة ، وهكذا تحول (سدهاتا) إلى حياة الزاهد المتجول ، آملاً فى أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشرى .

* قال بوذا : (لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ، ماذا تكون ؟ ولما وجدتنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة ، بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ، ماذا تكون ؟ كذلك المرض ، وكذلك الدنس . . . فلما رأيت فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لايولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرڤانا) .

انضم إلى جماعة من النساك ، وظل فترة من الوقت يعمل بجد تام سعيًا وراء الحقيقة الروحية ، متخذاً منهج الزهد ، وأخيراً وجد أنه لم يتقدم كثيراً فى

سعيه ، على الرغم من أن نظام الزهد الذى اتبعه بلغ من الصرامة حداً أذاب الشحم واللحم ، واقترب كثيراً من الموت .

لبث ستة أعوام يحاول أساليب رياضة النفس (اليوجا) ، وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات بالروث ، وانتهى بالتدرج إلى أن جعل طعامه حفنة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياب الوبر ، وانتزع شعر رأسه ولحيته ، لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب .

كان ينفق الساعات الطوال واقفًا أو راقدًا على الشوك ، وكثيراً ما كان ينام بين الجثث الغضة المكشوفة التى يجتمع عليها الطير والوحش .

ثم أدرك أن ما يبحث عنه لايمكن الوصول إليه عن هذا الطريق .

وقال : (قلت لنفسى : ماذا لو قلّلت من طعامى ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتى من عصير الفول أو العدس أو البازلاء أو الحمص . . . فضمر جسمى ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عيناى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محْجَرَيهما ، كما يبرق الماء عميقًا وطيئًا فى بئر . . . ولما كنت أمدّ

يدى لألمس جَلد بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم ، وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، (إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية) .

وتساءل : (ما مصدر مايعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟) .

* ترك الزهاد ، ومضى حتى وصل إلى ضفة نهر جايا Gaya ، وهو رافد يصب فى نهر الجانج ، جلس تحت شجرة البو Bo-tree ، وأخذ التأمل الجاد ، على طريقة الرجال المقدسين فى الهند ، عازمًا على أن يظل فى تأمله ، حتى يصل إلى الاستنارة التى يسعى إليها .

ويخبرنا التراث البوذى كيف هاجمه الشيطان (مارا Mara) وبناته الثلاث ،

وكيف حاولوا بحيلهم المختلفة أن يجعلوه يحيد عن تحقيق هدفه ، أن يصبح بوذا (المستنير) ، غير أن جهودهم ذهبت هباء .

وهذا الخبر يشبه خبراً ورد في (متى صَحْ ٤ : ٧ و ٨) من تجربة الأربعين يومًا في المسيحية ، إذ كان الشيطان يحاول إغراء السيد المسيح .

وبعد ليلة من الصراع الروحي أمكنه أن يتغلب على جميع العوامل الشريرة التي تربط الناس - في رأي البوذية - بهذا العالم الفاني .

وهكذا استيقظ بوذا ، ودخل في نطاق الوجود الأزلي المثالي . . أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة ، يتعاقبان في مجرى الحياة تعاقبًا لا ينتهي ، ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ، وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد ، وخيبة أمل جديدة ، وحزن جديد ، وألم جديد .

رأى (أن السعادة مستحيلة ، فلا هي ممكنة في هذه الحياة الدنيا ، كما يظن الوثنيون ، ولا هي ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم أنصار كثير من الديانات ، أما ما يمكن أن يظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذي نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا) .

ويقال إن أول موعظة ألقاها بوذا عن (الحقيقة الخالدة) كانت في الهواء الطلق ، في حديقة غزلان ، قرب (بنارس) ، وتعرف هذه الموعظة في التراث البوذي بـ (موعظة تحريك عجلة الدهاما Dhama - الحقيقة الأزلية) .

قال في هذه الموعظة : (الميلاد مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والموت مؤلم ، والحزن والعويل واليأس والابتئاس مؤلمة كلها ، والاتصال بما لا يسر من أشياء مؤلم ، وعدم حصول المرء على ما يرغب مؤلم) .

ويمكن (العثور على المتعة هنا وهناك ، ويتركز بالذات في اشتهاء الشهرة ، واشتهاء الوجود ، واشتهاء العدم) .

وقد أشار (جوتاما) إلى تعاليمه ، ناعتًا إياها بأنها (الطريق الوسط) بين حياة الشهوات ، وهي (منحطة وسوقية وعادية ودنيئة وباطلة) ، وبين حياة الزهد المنطوي على تعذيب الذات ، وهي (أليمة ودنيئة وباطلة) .

* لقد زعم لنفسه (الاستنارة) ، لكنه لم يّدع الوحى ، فما قال قط للناس إن إلهًا كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه كان أكثر صبرًا ومجاملة من أى معلم آخر .

(وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم ، إنها السبيل السامية ذات الشُّعب الثمانى ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النيّة ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة مانعنى به ، وسلامة التركيز) .

إن السلوك الأخلاقى يقوم على أساس الحب والحنان ، وينبع من الحكمة ، أو من عقل مستنير ، ولكن لتحقيق الحكمة ، ولمراعاة الحب والحنان ، فإن انضباط النفس يعد أمرًا مطلوبًا . . وهكذا فإن السلوك الأخلاقى والانضباط والحكمة هى الحقائق الثلاث للحياة الخيرة .

والحكمة لاتتوقف عند كشف طبيعة الأشياء ، وأسباب المعاناة ، بل تلح على قهر المعاناة ، من خلال تنحية كل ضروب الرغبة والأنانية ، وغرس حب شامل فى عمقه ومداه .

ولاتتحقق الحكمة دون انضباط ، ومن ثم يمارس المرء الجهد الحق ، والانتباه العقلى الحق ، والتركيز الحق ، حتى تكون : ١- الحيلولة دون نشوء الشر ، وحالات القصور الذهنى . ٢- التخلص من مثل هذا الشر وتلك الحالات الموجودة بالفعل . ٣- إحلال الخير ، وحالات الصحة الذهنية . ٤- تطوير الخير ، وحالات الصحة الذهنية الموجودة بالفعل والارتقاء بها نحو الكمال .

ويتمثل الانتباه العقلى الحق فى كون المرء واعيًا بمختلف نشاطه ، ومُتنبها له ، وذلك يشمل نشاط الجسم ، والحس والشعور ، والإدراك ، والتفكير والوعى .

وكون المرء واعيًا بنشاطه ، ومنتبهًا له ، يعنى فهم طبيعة النشاط ، كيف ينشأ ، وكيف يختفى ، وكيف يتم تطويره ، والسيطرة عليه ، والتخلص منه .

أما سلامة التركيز فمسألة تتعلق بإعادة خلق ذات المرء ، بوصفه شخصًا

مستنيراً ، فالجهل والاستنارة والمعاناة والسعادة تضرب جذرها فى نشاط المرء العقلى ، وقد ورد فى (الدهما بادا) أن :

(العقل يسبق كل حالات القصور ، وهو عمادها ، فهى جميعها مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث شخص ما ، أو تصرف بعقل دنس ، فإن الشقاء سيلاحقه ، كما تلاحق عجلات العربة حافر الثور ، والعقل يسبق حالات الكمال ، وهو عمادها ، فهى جميعًا مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث أو تصرف بعقل نقى ، فإن السعادة ستتبعه كظله الذى لايفارقه) .

وعادة مايتم التمييز بين أربع مراحل من التركيز . . وفى المرحلة الأولى يركز المرء على التخلص من الشهوة ، وسوء النية ، والكسل ، والهم ، والقلق ، والشك ، وهذا النشاط الذهنى القاصر وغير الصحى تحل محله مشاعر البهجة والسعادة .

وفى المرحلة الثانية يركز المرء على النفاذ ببصيرته عبر النشاط الذهنى ، والوصول إلى ماوراءه ، على الرغم من احتفاظه بالوعى بالبهجة والسعادة .

وفى المرحلة الثالثة يمضى المرء إلى ما وراء النشاط الذهنى المسئول عن البهجة ، ويحقق اتزانًا تتخلله السعادة .

وفى المرحلة الرابعة يكون اتزان كامل ، ووعى كلى ، يتجاوز السعادة والتعاسة فى آن معًا .

وسلامة القول تعنى – بصفة عامة – تجنب كل قول يفضى إلى التعاسة ، واستخدام العبارات التى تجلب السعادة ، ويشمل التطبيق السلبى : لا كذب ، لا نميمة ، لا اغتياب ، ولا حديث يجلب الكراهية أو الغيرة أو العداء ، أو الفرقة ، ولا حديث يتسم بالشدة أو الوقاحة ، أو يشوبه الخبث ، أو ينقصه الأدب والاحتشام ، ولا ثرثرة بسبب من الكسل أو الخبث أو الحمق . . والتطبيق الإيجابى : يتمثل فى قول الحق ، والتحدث برقة وود ، وأن يتضمن الحديث فائدة ، ومراعاة الوقت المناسب والمكان المناسب ، وإلا فالصمت النبيل .

وسلامة السلوك تعنى تجنب الإيذاء ، والبعد عن أى نشاط يضر بالنفس ، أو بالآخرين .

وسلامة العيش باستبعاد المهن التى تؤذى الآخرين ، مثل الاتجار فى الأسلحة ، والخمور ، والمخدرات ، والسموم ، والدعارة . . . إلخ – الفكر الشرقى القديم ص ١٩٨ / ٢٠١ .

* ولقد سبق (جوتاما) البسطامي الصوفيَّ المسلمَ إلى إدراك حقيقة مايعتمل فى الذات من إيمان ، وهو ما لا يُحوج إلى شواهد ونُصُب ، (لاحاجة بك إلى السفر إلى «جايا» ، أيها البرهمى ، كن رحيمًا بالكائنات جميعًا ، فإذا أنت لم تنطق كذبًا ، وإذا أنت لم تقتل روحًا ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمنًا فى حدود إنكارك ذاتك – فماذا تجنى من الذهاب إلى «جايا» ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه «جايا») .

لقد رفض أن يبدى رأيًا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هى هى البدن أو شيئًا متميزًا عنه ، أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم . . وهو يسمى هذه المشكلات (غاية التأمل النظرى

وصحراءه ، وبهلوانه ، والتواءه ، وتعقيده) .

وهو بهذا لم يخرج عن (جوهر) الفلسفة (الجانتية) ، وإن كان قد عمل على تطويرها ، ونَحابها منحى إيجابيًا ، وإن كان محدودًا .

قيل إن أحد أتباعه سأله : سيدى ، هل هناك إله ؟ فأجاب : أترانى قلت إن هناك إلهًا ؟

دهش السائل ، وراجعه قائلاً : إذن ليس هناك إله ، ياسيدى ، فأجاب : أترانى قلت ليس هناك إله ؟

ومع أن الخبر روى عن كونفوشيوس وأحد تلاميذه ، فإن المفكريْن الكبيريْن جمع بينهما الواقع المعيش ، والبحث عن طريقة لتجنب الشرور ، أو لتيسير الحياة ، دون الوقوف عند تدخل قوى غير مرئية .

* دنا أحدهم من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما قائلاً : أين

يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة الكبرى - التراب والماء والنار والهواء - بحيث لاتترك وراءها أثراً ؟) .

أجابت الآلهة التي تؤلف حاشية براهما : (إننا - يا أخانا - لاندري من ذلك شيئًا ، لكن هناك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلي ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، من بيده الأمر والتدبير في جميع الشئون ، فهو ضابط كل شيء ، وخالق كل شيء ، وسيد كل شيء . . هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن ، وكل ماسيكون ، إنه أقوى وأعظم ، سلّه يجبك) .

- أين إذن هذا البراهما العظيم ؟

- (إننا - ياأخانا - لاندري أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ، ولا من أين جاء ، ولكن - ياأخانا - إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء ، وسطع المجد ، عندئذ سيتبدى للناظرين ، لأن بادرة ظهوره هي إشراق الضوء ، وسطوع المجد) .

ولم يمض وقت طويل حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك ، وسأله ، وكرر السؤال ثلاثًا ، فأخذ براهما العظيم السائل ، ونحاه جانبًا ، وقال :

(إن هذه الآلهة التي تتألف منها حاشية براهما تعتقد أني - يا أخي - أرى كل شيء ، وأتبين كل شيء ، ولهذا لم أجبك في حضرتهم ، لكنني - أيها الأخ - لست أدري أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى ، بحيث لاتترك وراءها أثراً) .

هذه السخرية المريرة من الآلهة ومن الفلاسفة هي معيار انقطاع الإنساني عن الإلهي ، أو هي ثمرة الشعور بعدم القدرة على اعتناق الحياة ، واستثمار خصوبتها . . إنه العقم والجفاف والضياع .

سئل الإمام علي : أين يذهب ضوء الشمعة ؟ فأجاب : وأين يذهب دهن المريض ؟

إنها محاجة لاتقوم على (العلم) ، بل على الاعتراف بعدم العلم ، أو على عدم الاعتراف بالجهل .

وما دام الجهل سابقًا على المحاجة ، وما دام العقل لايملك كل المفاتيح ، فكل شئ مباح ، وأوسع الأبواب ستظل مغلقة .

* كان بوذا يقول لتلاميذه : (انتشروا فى الأرض كلها ، وانشروا هذه العقيدة ، وقولوا للناس : إن الفقراء والمساكين والأغنياء والأعيان كلهم سواء ، وكل الطبقات - فى رأى هذه العقيدة - تتحد لتفعل فعل الأنهار ، كلها تصب فى البحر) .

ولكن هل تصب فى البحر لتجدد ماءه ، أو لتقلل من ملوحته ، أو لتزيد من سعته ، أو لتعوضه عن البخر ، أو لتفقد فعاليتها ، وتعلن نهاية رحلتها ؟!

لقد رفض بوذا التضحية فى سبيل الآلهة ، وفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا طقسًا لا ينتفع به غير الكهنة .

ورفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة .

وربأ بنفسه عن الرقى والعزائم والتراتيل .

جاء فى (قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٨١ / ٨٤) : إنه (يقدم للناس دينًا حرًا أكمل الحرية ، بدلاً من جمود الفكر ، ومن صناعة الكهنوت ، ويفتح طريقًا للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء) .

لماذا ؟ أليس هذا (السلوك) غاية ؟ أتكون الغاية هى الزهد فى الحياة ، وكف النفس عن الاستمتاع بها وإعلائها ؟

أحسب أن هذا الرجل كان أقدر على الاعتراف بأن (ماوراء الواقع) هو ما نجهله ، وهو ما لا سبيل إلى معرفته ، وما علينا إلا أن نتعامل مع الواقع ، مع مانعلمه ، حتى إذا جد جديد ، وانكشف غطاء (الماوراء) أو الميتافيزيقا ، وصارت (فيزيقا) ، فإن ديننا لن يتغير ، لأننا من البداية نتعامل فى حدود معرفتنا .

(إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سببًا فى سعادتك أو شقائك ، لأن السعادة والشقاء دائمًا نتيجة سلوكنا نحن ، وشهواتنا نحن) .

هذا جميل ، ولكن كيف ؟ أتكون السعادة فى عدم الحاجة إلى السعادة ؟ أهى وضع النفس فى بالّون ينطلق من قمة الهميلايا الباردة إلى شعاب الغَيْب ؟ وأين نحن من الناس ، ومن العوامل البيئية والطبيعية ، ومن تسلط الحكومات ؟

إنه يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها (قوة وراء الطبيعة) ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيمًا .

فهل تتحقّق مسيرة المجتمعات البشرية دون ثواب وعقاب ؟

ولو أن الناس عاشوا فرادى (جزراً معزولة) ، وتخلوا عن طبيعتهم (الاجتماعية) ، ألا يعنى هذا نهاية العالم ، أوْ بمعنى آخر (قتل الحياة) ؟!

إن من طبيعة (الحى) التعلق بالحياة ، حتى وهى تتسرب من شفتيه وأطرافه .

ليس من السهل التخلى عن (الوجود) ، وإلا ففيم كانت العلوم والفنون ؟ أليست هى أقوى المحاولات التى توصل إليها الإنسان لاستمرار (البقاء) ؟!

إن إرادة الاستمرار التى صنعت العلوم والفنون هى التى صنعت الشرور والآثام ، وصنعت القوانين وقواعد السلوك ، وصنعت كذلك الجنة والمطهر والجحيم . . فإذا عجزت الدنيا عن تحقيق (العدالة) التى هى قوام الحياة الكريمة ، فلابد من التعلق بحياة أخرى تتحقق فيها هذه (العدالة) .

هذا هو النزوع الروحى والنزوع العقلى معًا . . لكن بوذا عمل على سجن الروح ، وعلى سجن العقل معًا .

إنه يرى أن (هذا العقل الذى ينسج خُيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر ، إن هو إلا شبح توهمناه ، وكل ماهو موجود حقًا هو الإحساسات نفسها ، والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية ، فى هيئة تذكارات ، وأفكار ، حتى هذه « الذات » النفسية ليست كائنًا قائمًا بذاته ، متميزاً من سلسلة الحالات العقلية . . ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافًا إلى ذلك مايتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية

وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات . . إن تعاقب هذه الحالات لاتسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والبيئة والظروف) .

(إن هذه النفس ، أو هذه الذات ، أو هذا العقل ، يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد في وجوده ، فليس القديس بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه) .

ليكن ، فما جدوى هذا العقل ؟ وما جدوى الحواس والتذكارات التي تزود العقل بوقود حركته ؟ وأين تذهب (الميول والاتجاهات) ؟ أين تفرغ الميول والاتجاهات طاقتها ؟ وكيف يفكر في الخلود من لا يفكر في الوجود ؟ إن العدمية تلغي كل شيء ، كل شيء !!

ومع هذا يقع في هاوية (التناسخ) ، مع تناقضها الكامل مع (العدمية) ، إذ هي صورة من صور (البقاء) المتجدد في الدنيا (على الأقل) .

وكما يقول ديورانت : (لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض بين علم نفسه

العقلي ، وبين قبوله لمذهب التقمص قبولاً أعمى) .

(إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ ، أو تقمص الروح في أجسام متتالية ، له في الهند قوة وشمول ، بحيث يعتنقه كل هندوسي ، على أنه بديهة أو فرض ، لابد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه) .

يحكي البيروني عن ملك من ملوكهم (أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعًا كذلك فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم اسيديو : « إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة ، فافعلوا ما تريدون ، فقد قصد إعلامهم ، وقد قضيت حاجته) .

وترتبط عقيدة التناسخ (سمسارا) ارتباطًا وثيقًا مع شريعة كارما – الأعمال الصالحة – التي تقول إن خلق الإنسان ومركزه الاجتماعي وثروته إنما تحدها هذه الشريعة ، وهي تنص على أن المرء يحمل عبء أخْطائه ، كما يجازى على

أعماله الصالحة إلى الأبد ، وأن الروح تمر من تجسيد إلى تجسيد حتى تصل به فى النهاية إلى (الموكشا - الخلاص) ، وأن من يحيا طبقًا للقواعد ، طاهرًا ، سيد نفسه ، منعزلاً ، صادقًا ، مستوفيًا واجبات طبقته ، فسوف يرتفع فى كل تجسيد إلى درجة أعلى فى الطهارة ، وفى ترتيب طبقته .

وهكذا ، إلى أن يصل إلى مرحلة تؤهله لأن يدرك الحقيقة ، حيث تتلقى روحه الوحى بشخصية البراهمان ، وهنا فقط تتوجه روحه عن التجسيد .

والخلاص النهائى - تبعًا للنظرية الهندوسية - لايعنى فقط الانسحاب من الحياة اليومية ، بل من العالم أجمع ، بما فى ذلك الجنة ، وعالم الآلهة . . فالعالم ما هو إلا (عجلة) تدور معها الولادة والوفاة ، حتى أبد الآبدين ، أما الحقيقة الدائمة فهى الروح .

فكيف إذن تتخلص الروح من هذه العجلة ، يستحيل على الروح تحقيق ذلك إلا بعد استنفادها لعقيدتى (الكارما - الأعمال الصالح) ، و(السمسارا - تناسخ الأرواح) - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص٦٩ / ٧٠ .

* صارت البوذية ديانة ، لكن هذا لم يكن من عمل بوذا نفسه ، بل من عمل أتباعه .

حين دعا إلى (النرفانا) لم يضع لها معالم ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يمكن أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير المقدسة ، وما أوسع مجالات المجاز .

إنها حالة من السعادة يبلغها الإنسان باقتلاعه شهوات نفسه اقتلاعًا تامًا ، وهى اتحاد الفرد بالله ، وهى انعدام شعور الفرد بفرديته ، وهى تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ، وهى فردوس من السعادة بعد الموت .

والحديث عن الاتحاد بالله ، أو السعادة بعد الموت ، يتجاوز فلسفة بوذا التى لاتؤمن بالخلود ، وهذا دليل على تطور فى المذهب ، وتأثر بغيره من المذاهب .

وعلى الرغم من ازدراء بوذا للمعجزات ، انتحل تلاميذه ألف حكاية من الأعاجيب التى تمت على يديه ، فقد سار عبر نهر الجانج فى لمحة بفعل السحر ،

وأسقط من يده شظية من الخشب كان يخلل بها أسنانه فنبتت شجرة ، وعندما اختتم وعظه ذات يوم (اهتز العالم من أقصاه إلى أقصاه) .

* ولما دنت حياته الطويلة - ٨٠ عاماً - من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، وحدثت فى تعاليمه تحويرات وإضافات وأساطير لم يكن بوذا ليرتضيها . . لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائمًا يحفزهم على الشك فى صحّة مايقول ، حتى يفسح لهم مجال التفكير الحر . . وكانت آخر كلماته لرهبانه : إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد) - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص٦٥ / ٨٨ .

وكان أتباعه خلال الأربعين سنة التى قضاها فى ممارسة نشاطه العام - من جميع الطبقات ، ومن كافة المهن والأعمال .

وبعد سبعة أيام من وفاته ، فى مدينة كوشنجارا ، أو كوزنجارا ، جنوب حدود نيبال ، وتسمى الآن (كازيا Kasia) - تمّ إحراق جثته ، وأقيم احتفال مهيب ، على غرار ما كان يحدث فى حالة وفاة الملك فى تلك الأيام ، وقسم رماد جثته بالتساوى على ثمانى مجموعات ، ونقلت كل مجموعة نصيبها حيث

أقامت فوقه ضريحًا مقدسًا ، على غرار أشكال تخليد وتكريم الموتى المعروفة فى الهند باسم (ستوپا Stupa) ، وأصبح الضريح مركزًا لعبادة عامة البوذيين ، ثم تطور إلى الصورة التى عرفت فى جنوب شرق آسيا باسم (باغودا Pagoda) .

ويصر البوذيون على أنك (إذا أردت أن تفهم العقيدة البوذية فلابد أن تمارسها) ، لأن تعاليم العقيدة أريد لها - منذ البداية - أن ينفذها أولئك الذين ارتبطوا بالحياة البوذية ، وأن ترتبط بمواقف الحياة عند التلميذ خطوة خطوة . . وهذا لون من الاعتذار عن فشلها فى موطنها الأصلى ، وتغلب البرهمية عليها .

* وفى عام ٣٢٦ ق . م تصدى الملك الهندى فور Forus لجيوش الإسكندر ، ومع أنه هزم فقد أعجب به الإسكندر لشجاعته ، وولاه على جميع مافتح من بلاد الهند ، وبقيت حامية مقدونية ، ثار عليها الأمير الشاب جندرا كوفنا (٣٢٢ / ٢٩٨ ق . م) ، وانتصر عليها ، ومد فتوحه ، وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وأفغانستان زهاء ١٣٧ عامًا (٣٢٢ - ١٨٥ ق . م) .

واشتهر من هذه السلالة الملك أشوكا Ashoka (٢٧٣ - ٢٣٢ ق . م) ، الذى اعتنق المذهب البوذى ، وجعله المذهب الرسمى فى الدولة ، وكان لها بمثابة الإمبراطور قسطنطين فى مساندة المسيحية . . واستطاع أشوكا أن يمد فتوحه لتشمل معظم أجزاء الهند .

ويعد حكمه الذى دام ٢٨ عامًا من العهود المجيدة فى التاريخ البشرى ، لما قام به من أعمال ومشروعات عمرانية ، وأسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة ، وخصص مزارع لإنماء الحشائش والعقاقير الطبية ، وأوجد وزارة تعنى بشئون الطوائف المنبوذة فى الهند ، وشرع فى تعليم النساء ، وعنى بالبحوث والتأليف ، ووجه الكتبة البوذيين إلى نقد الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والأساطير ، وبعث البعوث التبشيرية إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية . . وبسبب اهتمامه بالأخلاقيات حفر مبادئها على الصخور واللوحات الحجرية ، ونشرها فى جميع أنحاء إمبراطوريته الواسعة ، وتبشر هذه التسجيلات بالتسامح الدينى ، وبعمل الخير لكل ما هو حى ، وبالتحلى بالصبر والأناة ، وبالحث على الامتناع عن الحسد .

وقد جاء فى أحد مراسيم أشوكا :

(إن قانون التقوى شئ جميل ، لكن ، م يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) .

لكن ما حدود (التقوى ، والخير ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) ؟ ألا تحتاج إلى معايير تنسل خيوطها من خيوط أضدادها ، أو تلون كل قيمة بلون خاص بها ؟

ومع هذا كانت الظروف (العالمية) مهيأة لنشر التعاليم البوذية : بالرغم من عدم نضجها ، وساعد على هذا الانتشار ما تتمتع به من شاعرية ودغدغة للمشاعر البائسة .

ولم تعش إمبراطورية الموريا (الأشوكية) طويلاً من بعده ، فقد اكتسحتها

جَحَافل متعاقبة من المهاجرين ، مخترقة ممرات الجبال فى الشمال الغربى للهند ، حاملة معها أجناسا ونفوذًا أجنبيًا جديداً .

وكان من بين هؤلاء المهاجرين الإغريق الذين تخلفوا فى شمال الهند عند غزو الإسكندر ، ثم تلاهم الإسكيذيون ، وهم من الشعوب الرحل ، أتوا من شمال آسيا ، ثم الكوشان من وسط آسيا .

وقد أسس الكوشان مملكة شمالى الهند ، بلغت أوجها فى القرن الثانى للميلاد ، وامتدت حدودها من الشمال الغربى حتى حوض نهر (بنارس) جنوبًا ، ونحو الشمال والشرق حتى وسط آسيا ، وبذلك صارت ملتقى الحضارات الهندية والصينية والفارسية والإغريقية الرومانية .

وقد ساهم اعتناق الكوشان للبوذية فى تغلغل تعاليمها إلى الصين وكوريا واليابان ، وفى عهدهم تطور الفكر عن بوذا ، من بوذا النبى إلى بوذا الإله ، ولم يعثر على تمثال واحد لبوذا من العصر الكوشانى .

* كان كل مقصد البوذية تطهير النفس من شهواتها ، وتحليتها بمكارم الأخلاق فى معاملة الناس .

لهذا لم تكن البوذية تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية ، من الغسل فى الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام ، والاشتغل بالعبادات المجهدة ، والجولان عراة حفاة ، والتزين بزى الرهبان ، من حلق الرءوس أو تلبيد الشعر وتتريب الجسد ، وعرض النذور والقرابين . . فكل ذلك لم يكن له حظ فى النجاة عند البوذية .

يقول بوذا : (التعرى وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وتتريب الجسد . . الخ ، كل ذلك لايطهر فانيًا لم يقهر شهواته) ، ثم يقول : (لايطهر نهر رجلا متعهداً للسيئات ، مضمَراً للمقت ، مرتكبًا للجناية) ، ويقول : (النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد ، لا أكل اللحم) - الهندوسية تحرم أكل اللحم - والعمل الصالح فى البوذية هو تطهير الباطن ، من حُبِّ النفس ، والشح ، والحقد ، والغلظة ، والشهوة ، والغضب . . كما أنه غضُّ البصر عن عيوب الناس ، والتأسّى بهم فى أحزانهم وأوجاعهم ،

والأخذ بالتقوى فى شعابها المتعددة ، من الامتناع (عن قتل كل ذى روح ، وعن سلب أموال الناس . وعن النظر إلى نسائهم ، وعن قول الزور ، وعن شرب المسكرات ، وعن التعدى بالجوارح) - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٥٤ / ٥٥ .

ومن هنا لم يقطع البوذى صلته بالمجتمع ، فهناك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامة الناس ، والناس يزودون الرهبان بالطعام والثياب ، ويعينون الدير بطرق شتى ، بينما يقدم الرهبان خدمات مختلفة لمن حولهم .

والراهب المتجول ، لايملك شيئًا ، ولا عمل له ، يتعفف عن اللذات الدنيوية ، الجنس والغناء والخمر والرقص ، ويمتنع عن التوابل والملح والعسل ، ويتسول فى صمت ، ويقضى أكثر وقته فى التأمل والتفكير .

وهو ليس - كالراهب البرهمى - صانع معجزات ، أو وسيطًا بين اللّه والإنسان ، إنما هو تائب نادم فى المقام الأول ، ثم هو واعظ ، موجه للضمائر ، معلم للدين ، أو هو مبشر ، متواضع ، لايملك شيئًا ، ولا عائلة له .

ومع هذا فالأديرة البوذية غنية بما يقدم إليها من تبرعات ، منذ أن كان بوذا حيًا .

وللبوذية أديرة كثيرة واسعة تأوى فيالق من الرهبان ، وتهتم بالنصب التذكارية ، لتخليد البقع المقدسة التى مر بها بوذا والقديسون الأوائل ، وتهتم البوذية بالمعابد والصروح الضخمة الغنية بالزخارف والصور والتماثيل . . ومع هذا ظلت العبادة بسيطة ، تتمثل فى شعائر الإيمان ، والولاء ، وتقديم الأزهار ، والاحتفاظ بمصابيح مشتعلة أمام صورة بوذا أو هيكله . . ولهم معابد مشيدة تحت الأرض تصل إلى ألف معبد .

ويعدّ التعليم أبرز الخدمات المعتادة ، فالدير مدرسة يذهب إليها البنون والبنات من أبناء القرية لتعلم القراءة والكتابة . . والدير يقدم إرشادات منتظمة للجمهور أخلاقية واجتماعية ، ويقوم بتنظيم الاحتفالات الاجتماعية ، والدينية ، ويؤدى رهبانه أدوارًا قيادية لإقامة مشروعات محلية .

* وقد يسرت البرهمية سبيل العودة للبوذيين الخارجين عليها بأن اعترفت

ببوذا إلهًا (اعتبرته مجسدًا للإله فشنو) - وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت في صميم طقوسها مذهب البوذيين في تقديس حياة الحيوان بأسره . . وهكذا أخذت البوذية تختفي في هدوء وسلام من الهند ، إبان خمسة قرون ، كانت خلالها نهبًا لعوامل التدهور البطيء .

وكان للغزو الإسلامي أثر كبير في تضييق نشاطها ، وتهجير دعاتها .

لكنها انتعشت أخيراً إثر اعتناق أفواج من المنبوذين الهندوس لها ، وعلى رأسهم الدكتور أمبدكار الذي اعتنق البوذية مع مائتي ألف من المنبوذين في حفل جماعي .

وبعد أن حصل البوذيون على امتيازات خاصة انحسرت موجة الإقبال على البوذية .

والطائفة البوذية في الهند لاتتعدى الآن خمسة ملايين .

وفي سيلان (سريلانكا) - منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية في القرن التاسع الميلادي - ظل الناس ألفي عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند البوذيين ، وكان المعبد المقام على قمة جبال كاندي كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليونًا من البوذيين في آسيا .

وحدث في القرن السابع الميلادي أن دعا حاكم (التبت) طائفة من الرهبان البوذيين في الهند لينشروا البوذية والتعليم بين شعبه ، فأقيمت آلاف الأديرة في الجبال ، وعلى النجد الفسيح ، ونشر كتاب تشريعي عظيم يضم الكتب البوذية ، ويقع في ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من نصوص هذه الكتب التي كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل ، وها هنا في (صومعة) التبت التي أغلقت أبوابها دون العالم بأسره - راحت البوذية تتطور في شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج٢ ص ٥٠٠) : لو أن (جوتاما) بعث من قبره حيًا لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثًا عن تعاليمه بلا جدوى ، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر . . سيجد ملكًا

متوجًا فى شخص (الدالاى لاما - المعلم الروحانى ، أو بوذا الحى) ، وسيجد فى (لهاسا) معبداً فخماً غاصًا بالكهنة ، والرهبان ، واللامات (المعلمين الروحيين) ، وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنمًا ذهبيًا ضخمًا يسمى (جوتاما بوذا) ، ويسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس وسننًا فيها آثار مبهجة لأشياء مألوفة لديه ، وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسم المدهشة ، ويدور جرس فى لحظة من لحظات الصلاة ، وترفع مرآة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها فى انحنائها إمعانًا فى المهابة والتوقير .

واللاما (المعلم الروحانى) هو الشخصية الكبرى فى العقيدة ، فيه تتقمص روح البوذا ، فإن مات انتقلت الروح إلى طفل ولد فى نفس يوم وفاته ، ويغدو هو اللاما الجديد .

جاء فى رحلات (هك Huc) كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية ، لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، حيث يقول : (إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيل التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم ، أو عندما يقومون بطقوس خارج

المعبد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين ، وترنيم المزامير ، والتعويذات ، والرقى ، والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل ، والتى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد أيديهم اليمنى على رأس المؤمنين ، والسبحة ، والعزوبة الاكليروسية ، والانزواء الروحى ، وعبادة القديسين ، والصيام ، والمواكب ، والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ، كل هذه متماثلات يشترك معنا فيها البوذيون) - المصدر السابق ص ٤٩٠ .

* والبوذية فى (بورما) أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة ، وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا . . واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليونًا (؟!) أن يبلغوا - بفضل تعاليم أولئك الرهبان - مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة - قصة الحضارة

وفى الضاحية الشمالية من (رانجون) أقيم مركز عظيم للعبادة البوذية (الباغودا الذهبية) من كتلة من الحجارة الدائرية المركزية ، تُغَطِّيها تمامًا صفائح رقيقة من الذهب الخالص ، ويبلغ ارتفاعه قدر ارتفاع قبة كاتدرائية القديس بولس فى لندن ، ويحيط بالمبنى رصيف دائرى مكشوف من المرمر ، أقيمت على أطرافه الخارجية مجموعة متنوعة من الهياكل والأديرة ، وهو مكان يؤمه الحجاج البوذيون من كل أنحاء جنوب شرقى آسيا ، ولاسيما مدن وقرى بورما .

وقد زارت بعثة مجلة العربى (يوليه ١٩٩٦) المعبد الفضى (وات بنوم) فى العاصمة (بنوم بنه) من (كمبوديا) ، فوجدت (مدينة دينية كاملة ، تتناثر فى رحابها صروح وأبراج ، تغطيها نقوش زخرفية بديعة من الحجر الرملى الرمادى ، توحى لمن لايدقق أو يقترب منها ، بأنها زخارف محفورة فى الرخام ، وفى المبنى الرئيسى الذى لايسمح لأحد بصعوده إلا حافيًا ، تغطى أرضه خمسة آلاف « بلاطة » من الفضة الخالصة ، وفى الصدر ينهض تمثال لبوذا من الذهب الخالص ، وزنه ٩٠ كيلو جرامًا ، ترصعه تسعة آلاف وخمسمائة ماسة) .

وفى عام ١٩٨٢ كان فى تايلاند ٢٤ ألف دير ، و ١٧٥ ألف راهب وراهبة ، وحوالى ١٠٠ ألف راهب تحت الإعداد ، والسبب فى تأرجح أعداد الرهبان أن كثيرًا من الناس لايلجئون إلى حياة الأديرة إلا فى مواسم المطر فقط . . وقد زرتُ معبدًا فى بانجكوك مذهب القباب ، كتبت وصورت على جدرانه إحدى الملاحم الهندية الدينية .

ومنذ عام ١٩٠٢ وجماعة (السنغا Sangha) ، المشرفة على نظام الجماعة ، تدبر أعمالاً مستقلة عن الحكومة ، من خلال (مجلس السنغا الأعلى) ، رغم أن الملك التايلاندى بوذى ، حام للنظام .

وقد تم إرسال بعثات تبشيرية بوذية إلى ماليزيا ، والهند ، ولاوس ، وانجلترا ، وأدت الأديرة واجباتها الاجتماعية والتعليمية والصحية على خير وجه .

تعاليم بوذا الأصلية

كانت التعاليم التي خلفها بوذا لأتباعه شفوية. لم يترك وراءه أي مصنف أو كتاب يعبر فيه عن معتقداته وآرائه. بعد وفاته قام أتباعه بتجميع هذه التعاليم ثم كتابها، وشرحها.

من بين آلاف المواعظ الواردة في كتابات السوترا والتي تنسبها الآثار الهندية إلى بوذا، يصعب التفريق بين المواعظ التي ترجع إليه وتلك التي وضعها أتباعه ومُرِيديه بعد وفاته، على أنها تسمح لنا باستخلاص الخطوط العريضة التي قامت عليها العقيدة البوذية .

تقوم العقيدة الأصلية على مبدأين: يتنقل الأحياء أثناء دورة كينونتهم من حياة إلى أخرى، ومن هيئة إلى أخرى: إنسان، إله، حيوان، شخص منبوذ وغير ذلك. تتحدد طبيعة الحياة المقبلة تبعا للأعمال التي أنجزها الكائن الحي في حياته السابقة، ينبعث

الذين أدوا أعمال جليلة إلى حياة أفضل، فيما يعيش الذين أدوا أعمال خبيثة حياة بائسة وشاقة.

عُرف المبدأ الأول بين الهنود حتى قبل مقدم بوذا، فيما يُرجح أن يكون هو من قام بوضع المبدأ الثاني.

ويمكن تلخيص تعاليم بوذا بالحقائق النبيلة الاربع التالية: 1-أن الحياة معاناة:وهي لا تخلو من المعاناة التي يسببها الشقاء ومصادر الشقاء في العالم سبعة:الولادة-الشيخوخة-المرض-الموت-مصاحبة العدو-مفارقة الصديق-الاخفاق في التماس ما تطلبه النفس وفي هذا المجال يقول بوذا: ان سر هذه المتاعب هو رغبتنا في الحياة وسر الراحة هو قتل تلك الرغبه 2-والحقيقة الثانية :هي الاصل في منشأ المعاناة وعدم وجود السعادة وهي ناجمة عن التمسك بالحياة ويقول بوذا: ان منشأ هذه المعاناة الحتمية يرجع إلى الرغبات التي تمتلئ بها نفوسنا للحصول على أشياء خاصة لنا اننا نرغب دائما في شئ مامثل: السعادة أو الأمان أو القوة أوالجمال أو الثراء .... أي أن سبب الشقاء و عدم السعادة هو الأنانية الأنسانية وحب الشهوات والرغبات 3-والحقيقة الثالثة :هي حقيقة التخلص من المعاناة ولا يتم الا بالكف عن التعلق بالحياة والتخلص من الانانية وحب الشهوات في نفوسنا وتسمى هذه الحالة

النيرفانا أو الصفاء الروحي 4- والحقيقة الرابعة: هي أن طريق التخلص من الأنانية والشهوات و متاع الدنيا يوجب على الإنسان اتباع الطريق النبيل ذي الفروع الثمانية وهي: -الادراك السليم للحقائق الأربع النبيلة -التفكير السليم الخالي من كل نزعة هوى أو جموح شهوة أو اضطراب في الأماني والأحلام -الفعل السليم الذي يسلكه الإنسان في سبيل حياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك والعلم والحق - الكلام السليم أي قول الصدق بدون زور أو بهتان -المعيشة السليمة القائمة على هجر اللذات تماما والمتطابقة مع السلوك القويم والعلم السليم -السلوك السليم -الملاحظة السليمة -التركيز السليم .

القراءة زاد المعرفة ، والتفكير .. لتسخير المعرفة

علي مولا

بوذا

بوذا الذي كان اسمه الشخصي هو سيدهاتّا (سدهارتا في السنسكريتية) واسم عائلته غوتاما عاش في شمالي الهند في القرن السادس ق.م. أبوه سودهودانا كان يحكم مملكة ساكيا في نيبال الحالية. وأمه هي الملكة مايا. وبحسب العادة في عصره تزوج صغير السن جداً في السادسة عشرة من عمره من أميرة صغيرة السن جميلة وموهوبة اسمها ياسودهارا. الأمير الفتيُّ عاش في قصره محروماً من كل ترف وضع تحت تصرفه. ولكنه عزم فجأة بعد أن واجهته حقيقة الحياة وآلام البشرية أن يجد الحل للخروج من هذا الألم العالمي. وفي سن التاسعة والعشرين، بعد قليل من ولادة ابنه الوحيد راهولا، هجر مملكته وأصبح ناسكاً يبحث عن هذا الحل.

خلال ستة أعوام هام الناسك غوتاما في وادي الغانج يلتقي بالمعلمين الدينيين المشهورين، يدرس مناهجهم وطرائقهم ويُخضع نفسه لممارسات زهد عنيفة قاسية. لم تشبع حاجته هذه المناهج والطرائق، فتخلى إذن عن كل هذه الأديان التقليدية وطرائقها وتابع مسيرته إلى الأمام. وهكذا في إحدى الأمسيات، وهو يجلس تحت شجرة (عرفت منذ ذلك الوقت بشجرة الحكمة)، على شاطئ نهر نيراتجارا (قرب غايا في بيهار الحالية)، وكان له من العمر خمسة

وثلاثون عاماً، أدركت غوتاما اليقظة، ومنذئذ عُرف باسم بوذا «اليقظ».

بعد يقظته ألقى غوتاما بوذا أولى مواعظه على فريق من خمسة نساك هم رفاقه الأوائل في حديقة الغزلان في إيزيباتانا قرب بيناريس، ومنذ ذلك الوقت، وخلال خمسة وأربعين عاماً قام بتعليم كل الطبقات من رجال ونساء ـ ملوكاً وفلاحين وبراهمانيين ومن خارج الطبقات، أصحاب الأموال وشحاذين، متدينين ورجال عصابات دون أن يقوم بأصغر تمييز بينهم. لم يكن يعترف بالفروق الطبقية أو الزمر الاجتماعية، والطريق الذي بشر به كان مفتوحاً أمام كل الرجال والنساء المستعدين لفهمه واتباعه.

في سن الثمانين توفي بوذا في كوسينارا (في أوتار براديش الحالية).

وتنتشر البوذية اليوم في سيريلانكا وبرمانيا وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام والتيبت والصين واليابان ومنغوليا وكوريا وتايوان، وبعض مناطق من الهند وباكستان وفي نيبال وكذلك في الاتحاد السوفياتي. وعدد البوذيين في العالم يتجاوز الخمسمئة مليون.

كان بوذا بين مؤسسي الديانات (إذا جاز لنا أن نسميه مؤسس ديانة بالمعنى الشعبي للمصطلح) المعلم الوحيد الذي لم يدَّعِ أنه شيء آخر غير كائن إنساني خالص وبسيط. المعلمون الآخَرون كانوا تجسيدات إلهية أو قالوا عن أنفسهم إنهم ملهمونٍ من الله. أما بوذا فلم يكن كائناً بشرياً وحسب، بل إنه لم يدَّعِ بأنه أُلهم من إله أو من قدرة خارجية. فقد عزا إنجازه وما اكتسبه وأتمه إلى المجهود الإنساني وحده وإلى الذكاء الإنساني وحده. إن رجلاً، رجلاً وحسب، يمكنه أن يصبح بوذا. كل واحد يملك في ذاته إمكانية أن يصبح ذلك إذا أراد وإذا بذل في سبيله الجهد. ونحن نستطيع أن نسمي بوذا إنساناً مميزاً. فهو من الكمال في «إنسانيته» بحيث يُنظر إليه في الديانة الشعبية على أنه يكاد يكون «فوق البشر».

إن الحالة الإنسانية سامية بحسب البوذية. فالإنسان سيد نفسه وليس من كائن أعلى منه، ولا من قوة تقيم فوقه وتتحكم بمصيره.

«المرء ملجأ نفسه، فمن غيره يستطيع أن يكون ملجأ له؟» قال بوذا. حض تلاميذه على أن «يكونوا ملجأ أنفسهم» وألا يبحثوا أبداً عن ملجأ أو مساعدة من آخر. كان يعلِّم ويشجع ويحث كل واحد على أن يطور نفسه وأن يعمل بحسب رأيه الحر، لأن الإنسان يملك القدرة بجهده الشخصي وذكائه على أن يتحرر من كل عبودية. لقد قال

بوذا: «عليكم أن تقوموا بعملكم بأنفسكم، فالتاثاغاتا (أي الذين اكتشفوا الحقيقة) يدلونكم على الطريق». وإذا وجب علينا أن نطلق على بوذا اسم «المنقذ» فذلك لأنه بهذا المعنى اكتشف ودلَّ على «الدرب» الذي يقود إلى التحرر، إلى «النيرڤانا»؛ وعلينا نحن أن نسلك هذا الدرب.

بحسب هذا المبدأ من المسؤولية الشخصية منح بوذا كل الحرية لتلاميذه. في (المهابارينيبّانا ـ سوتّا) قال بوذا إنه لم يفكر قط أن يقود «السانغا» (نظاماً رهبانياً) ولا أراد أن تكون السانغا مرتبطة به. وقال إنه ليس من مذهب باطني في تعليمه، وإنه ما من شيء مخبأ «في قبضة المعلم المغلقة»، وبعبارة أخرى «ما من شيء احتياطي».

القراءة زاد المعرفة ، والتفكير . . لتسخير المعرفة

علي مولا

إن حرية الفكر التي أجازها بوذا لانجدها في أي مكان آخر من تاريخ الديانات. هذه الحرية ضرورية في نظره، لأن حرية الرأي في الإنسان ترتبط بفهمه الخاص للحقيقة لا بنعمة منحت له تكرماً من إله أو من أية قدرة خارجية كمكافأة على سلوك فاضل أو مطيع.

مر بوذا مرةً على مدينة صغيرة اسمها كيزابوتا في مملكة كوسالا، وكان سكانها يعرفون باسم كالاما. وعندما علموا بأن بوذا موجود عندهم قاموا بزيارته وقالوا له:

«أيها السيد. إن نساكاً وبراهمانا مروا على كيزابوتا، وعرضوا مذاهبهم وعظموا من أمرها، وأدانوا مذاهب الآخرين وحقّروها، ثم أتى نساك آخرون وبراهمانا عرضوا هم أيضاً بدورهم مذاهبهم الخاصة وعظموها وأدانوا مذاهب الآخرين وحقّروها. أما نحن، أيها السيد، فبقينا دائماً في الشك والحيرة بين من قال الحقيقة من هؤلاء النساك والبراهمانا المحترمين وبين من كَذب».

عندئذ أعطاهم بوذا هذا الرأي الوحيد في تاريخ الأديان:

«أجل أيها الكالاما. من الحق أن تكونوا في الشك والحيرة لأن

الشك قائم في موضوع هو أهل للشك. والآن أصغوا إليّ أيها الكالاما، لاتدعوا أنفسكم مساقين بروابط وعلاقات أو بتقليد أو بما سمعتموه يقال. لاتدعوا أنفسكم مساقين بسلطة النصوص الدينية ولا بالمنطق البسيط أو الاستدلال ولا بالمظاهر، ولا برغبة الاعتماد على آراء، ولا بمشابهات ممكنة، ولا بفكرة «إنه معلمنا»، ولكن أيها الكالاما عندما تعرفون بأنفسكم أن بعض الأمور ليست مناسبة (أكوسالا)، مخطئة وسيئة، عندئذ تخلوا عنها... وعندما تعرفون بأنفسكم أن بعض الأمور مناسبة (كوسالا) وصالحة، عندئذ اقبلوها واتبعوها».

كما قال بوذا للبهيكهو(*) إن على التلميذ أن يمتحن حتى بوذا نفسه بالطريقة التي تجعله على تمام الاقتناع بالقيمة الحقيقية للمعلم الذي يتبعه.

بحسب تعاليم بوذا إن الشك هو أحد الموانع الخمسة لفهم الحقيقة الواضح وللتقدم العقلي (وفي الواقع لأي نوع من أنواع التقدم). فالشك ليس «خطيئة» لأنه ليس في البوذية أية عقيدة ثابتة ينبغي الإيمان بها، والواقع أنه ليس من «خطيئة» بحسب البوذية على الطريقة التي نسمعها في بعض الأديان، فجذور كل شر هي الجهل (أڤيجًا) والنظر المخطئ.

ذهن التسامح والتفهم هذا كان منذ البداية أحد المثل السامية الأعلى في ثقافة البوذيين وحضارتهم. لذلك لانجد ولا مثالاً واحداً على الاضطهاد، ولا نقطة دم واحدة أريقت في هداية الناس إلى البوذية ولا في انتشارها خلال تاريخها الطويل الذي امتد ألفين وخمسمئة عام. لقد انتشرت في جميع القارة الآسيوية وهي تعد الآن خمسمئة مليون من المريدين.

يتساءل الناس غالباً ما إذا كانت البوذية ديناً أم فلسفة. لايهم

(*) البهيكهو: هم الرهبان تلاميذ بوذا.

ماذا تسمى. فالبوذية تبقى ما هي عليه مهما كانت البطاقة التي نلصقها عليها، إذ أن البطاقة لا أهمية لها. وبطاقة «البوذية» نفسها التي نلصقها على تعاليم بوذا ليس لها أهمية كبيرة فالاسم الذي يطلق عليها ليس هو الجوهري.

«ما الذي يوجد في الاسم؟ فالزهرة التي نسميها وردة تطلق الرائحة الزكية نفسها مهما كان اسمها».

ليس للحقيقة بطاقة. إنها ليست بوذية ولامسيحية ولا هندوسية ولا مسلمة، الحقيقة ليست احتكاراً لأحد. والبطاقات التي تلصق على الشيع والأديان ليست إلا عائقاً أمام التفهم الحر للحقيقة، وهي تُدخل في عقل الناس أحكاماً مسبقة مسيئة.

إن هذا حقيقي ليس في الميدان الفكري والروحي وحسب، بل كذلك في ميدان العلاقات الإنسانية. فعندما نصادف، على سبيل المثال، رجلاً لا ننظر إليه كفرد من بني الإنسان، بل نضع عليه بطاقة تدل عليه كإنكليزي أو فرنسي أو ألماني أو أمريكي ونضفي عليه كل الأحكام المسبقة التي اجتمعت في ذهننا عن هذه البطاقة، وقد يكون هذا الرجل المسكين منزهاً تماماً عن كل ما نسبنا إليه وحملناه من أحكام.

الناس يحبون كثيراً التسميات التمييزية لدرجة أنهم يذهبون حتى إلى إلصاقها بصفات ومشاعر إنسانية مشتركة بين جميع الناس. وهكذا يتحدثون على سبيل المثال عن أنواع (ماركات) من الإحسان، كالإحسان البوذي والإحسان المسيحي، ويحتقرون الأنواع الأخرى من الإحسان. ولكن الإحسان لايمكن ربطه بشيعة أو مذهب لأن الإحسان هو الإحسان إذا كان إحساناً. فهو ليس مسيحياً ولا بوذياً ولاهندوسياً ولا مسلماً. فمحبة الأم لابنها ليست بوذية ولامسيحية ولا أي نوع من أنواع الصفات الأخرى. إنها المحبة الأمومية. إن الصفات الحسنة أو النقائص، أو المشاعر البشرية من محبة وإحسان وشفقة وتسامح وصبر وصداقة ورغبة

وكراهية وإيذاء وجهل وغرور... ليس لها بطاقة مذهب أو شيعة ولاتنتسب إلى ديانة معينة. إن أهلية المرء أو عدم أهليته لصفة حسنة أو لنقيصة لاتزيد ولاتنقص بسبب انتمائه إلى ديانة خاصة أو عدم انتمائه إلى أي دين.

لايهم الباحثَ عن الحقيقة أن يعرف من أين تأتي إحدى الأفكار، فأصل الفكرة وتطورها وانتشارها كل ذلك من عمل المؤرخ. والواقع أننا من أجل فهم الحقيقة ليس من الضرورة أن نعرف ما إذا كان التعليم يأتي من بوذا أو من شخص آخر، فالجوهري هو أن نرى الشيء وأن نفهمه، وهناك قصة مهمة توضح هذه الفكرة:

مرّ بوذا في إحدى المرات ليلاً على صانع فخار فوجد عنده ناسكاً شاباً وصل قبله. لم يكن أحدهما يعرف الآخر. وقد لاحظ بوذا تصرف هذا الناسك وفكّر في نفسه: «حسنة هي تصرفات هذا الشاب، وقد يكون حسناً أن أسأله». عندئذ سأله بوذا: «أيها الناسك، باسم من تركتَ منزلك؟ من هو معلمك؟ على يد من أحببت عقيدتك؟».

- أيها الصديق، أجاب الشاب، هناك الناسك غوتاما من أبناء الساكيا ترك عائلة الساكيا ليصبح ناسكاً. عنه انتشرت سمعة عالية وبحسبها هو «مستنير» (أرامانت)، مستنير استنارة كاملة. باسم «صاحب الغبطة BIENHEUREUX» هذا أصبحت ناسكاً. هو معلمي وأحب عقيدته.

- أين يعيش في هذه اللحظة صاحب الغبطة هذا، المستنير تمام الاستنارة؟

- يوجد في البلاد الشمالية، أيها الصديق، مدينة اسمها ساڤاتي، هناك يعيش صاحب الغبطة المستنير تمام الاستنارة في هذه اللحظة.

- أسبق لك أن رأيت صاحب الغبطة هذا، وهل تتعرف عليه إذا رأيته؟

- لم أر قط صاحب الغبطة هذا ولا أتعرف عليه إذا رأيته.

وفهم بوذا أن هذا الفتى المجهول ترك باسمه منزله وأصبح ناسكاً. ولكنه قال دون أن يكشف عن هويته: أيها الناسك، سأعلمك العقيدة. استمع إليّ بإصغاء، وأنا سأتكلم.

- حسن جداً يا صديقي، قال الفتى موافقاً.

عندئذ ألقى بوذا من أجل الفتى خطاباً مرموقاً شارحاً له الحقيقة، وسنقدم فحوى هذا الخطاب فيما بعد(*).

بعد هذا الخطاب فقط فهم الفتى الناسك، واسمه بوكوساتي، أن من يكلمه هو بوذا بذاته. عندئذ نهض ووقف أمام بوذا وسجد أمام المعلم واعتذر من أنه، لجهله، دعاه بالصديق. وأخيراً رجا بوذا أن يعطيه السِيامة وأن يقبله في نظام السانغا الرهباني.

فسأله بوذا إذا كان لديه قصعة للصدقات وثياب الرهبانية (ذلك لأن الناسك يجب أن يملك ثلاثة أثواب وقصعة للصدقات). ولما أجاب الناسك بالنفي قال بوذا إن التاثاغاتا لايعطون السيامة إلى أحد ما لم يملك قصعة صدقات وثلاثة أثواب، ولكنه لسوء الحظ تعرض لهجوم من بقرة ومات.

عندما وصل هذا النبأ لبوذا فيما بعد، أعلن أن بوكوساتي كان حكيماً رأى الحقيقة، ووصل إلى الحالة ما قبل الأخيرة من إدراك النيرڤانا، وأنه وُلد في مجال سيصبح فيه أراهانت(**) لكي يموت في النهاية ولايعود أبداً إلى هذا العالم.

وفي هذه القصة يبدو واضحاً أن بوكوساتي عندما أصغى إلى بوذا وفهم تعاليمه لم يعرف من هو الذي يتكلم ولا ممن أتت هذه التعاليم، ولكنه رأى الحقيقة بدون بطاقة تعريف. إذا كان الدواء

(*) سيرد نص الخطاب في الفصل الذي يتحدث عن الحقيقة النبيلة الثالثة.

(**) الأراهانت شخص حرر نفسه من كل رجس وقذارة كالرغبة والبغضاء والجهل والعجرفة... وأنه بلغ المرحلة الرابعة وهي أعلى المراحل في فهم النيرڤانا، وأنه ممتلئ بالحكمة والصفات النبيلة.

تكاد كل الأديان تقوم على الإيمان ـ إيمان أعمى على ما يبدو ـ أما في البوذية فالتشديد يقع على «رأى، عرف، فهم» لا على معتقد أو إيمان. في النصوص البوذية نجد كلمة «سادها» التي تترجم بوجه عام بعقيدة أو إيمان. ولكن سادها في الواقع ليست العقيدة كما هي في مفهوم الأديان، بل هي بالأحرى نوع من «الثقة» المتولدة عن الاقتناع. في البوذية الشعبية وكذلك في الاستعمال العادي الوارد في النصوص تحمل كلمة «سادها» ـ ويجب أن نعترف بذلك ـ عنصراً من الإيمان بالمعنى الذي يعني الإخلاص لبوذا والتعاليم والنظام.

بحسب أسانغا، وهو فيلسوف بوذي عاش في القرن الرابع للميلاد، كلمة «سادها» (أو سرادها كما تلفظ في السنسكريتية) تتضمن ثلاثة مظاهر: 1 ـ الاقتناع الثابت الكامل بأن أمراً ما موجود. 2 ـ الفرح الصافي من الخصال الحسنة. 3 ـ الأمل أو التمني في امتلاك القدرة على إنجاز أمر مراد.

ومهما كان أمر المعتقد أو الإيمان، كما هو مفهوم في الديانات عموماً، فليس له في البوذية إلا مكان ضئيل.

مسألة الإيمان تُطرح عند فقدان الرؤية ـ الرؤية بكل معاني الكلمة ـ ففي اللحظة التي ترى فيها فإن الإيمان يضمحل. إذا قلت لك إنني أملك جوهرة مخبأة في يدي المغلقة فإن مسألة الإيمان تُطرح لأنك لاترى الجوهرة بنفسك، ولكن إذا فتحت يدي وأريتك الجوهرة فأنت تراها عندئذ بنفسك ولايعود ثمة مجال للإيمان. وهذا هو ماقيل في النصوص القديمة: «أن تفهم هو كما لو أنك ترى جوهرة (أو ثمرة إهليلج) في راحة اليد».

تلميذ لبوذا اسمه موزيلا قال لراهب آخر: «أيها الصديق ساڤيتا، بدون إخلاص أو عقيدة أو إيمان، بدون نزوع أو ميل،

بدون رواية أو تقليد، بدون تقدير للأسباب الظاهرية، بدون أن أكتفي بتضارب الآراء، أعرف وأرى أن الكف عن الصيرورة هو النيرڤانا».

فقال بوذا: «أيها البهيكهو. قلت إن تدمير الرجس والأقذار هو مهمة شخص يعرف ويرى لامهمة شخص لايعرف ولايرى».

المسألة دائماً مسألة معرفة ورؤية لا مسألة اعتقاد. تعاليم بوذا تدعوك لأن «تأتي وترى» لا لأن تأتي وتؤمن.

إن التعابير المستعملة في النصوص البوذية التي تدل على أن شخصاً فهم الحقيقة هي التالية: «عين الحقيقة بدون غبار ولا لوث. إنها مفتوحة». «رأى الحقيقة يعني أنه تجاوز الشك، أصبح بلا تردد». «هكذا بحكمة حقة يرى الأمر كما هو موجود». وإشارة منه إلى يقظته الخاصة عبّر بوذا كما يلي: «العين وُلدت، المعرفة وُلدت، الحكمة وُلدت، العلم وُلد». الأمر دائماً أن ترى عن معرفة أو حكمة لا أن تعتقد عن إيمان.

عندما يكتفي امرؤ بتعاليم بوذا يمدح السيد بقوله إن هذه التعاليم هي «كما لو أن المرء قوَّم ما هو مقلوب أو كشف ماهو مستور، أو أظهر الدرب لرجل تائه، أو أتى بمصباح في الظلام من أجل أن يرى من لهم عيون قادرةً الأشياء التي تحيط بهم».

هذه التعابير تدل بوضوح على أن بوذا فتح أعين الناس ودعاهم لأن يروا بحرية، ولم يعصب أعينهم وهو يقودهم إلى الإيمان.

وقد تم تقدير ذلك أكثر فأكثر في زمن كانت فيه الأرثوذكسية البراهمانية تلح بطريقة غير متسامحة على الإيمان وعلى قبول سنَّتها وسلطتها، وكأنها تكشف عن الحقيقة الوحيدة وبدون نقاش، تلك الحقيقة التي لايسمح لأحد أن يضعها موضع تساؤل.

مجموعة من البراهمان العلماء المشهورين قدموا مرة للقاء

بوذا وأقاموا نقاشاً طويلاً معه. أحدهم، وهو براهمان فتي في السادسة عشرة من العمر اسمه كاباثيكا ويعتبره الجميع ذا عقل استثنائي لماح طرح على بوذا هذا السؤال: «أيها المبجّل غوتاما. هنالك نصوص مقدسة قديمة عن البراهمان تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق رواية شفهية غير منقطعة. فيما يختص بهذه النصوص توصل البراهمانيون إلى نتيجة مطلقة هي: (أن هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل). والآن ماذا يقول في ذلك المبجّل غوتاما؟».

بوذا سأل: «بين البراهمان، هل يوجد براهمان واحد يدّعي أنه ـ شخصياً ـ عرف ورأى أن «هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل»؟

الشاب كان صريحاً وقال «كلا».

ـ إذن هل يوجد معلم واحد، أو معلم واحد من معلمي البراهمان، بالعودة إلى الجيل السابع، أو حتى واحد من هؤلاء المؤلفين الأصليين لهذه النصوص يدعي أنه عرف ورأى أن «هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل؟».

ـ كلا.

ـ إذن فالأمر مثل خيط من الرجال العميان كل واحد منهم يتشبث بمن قبله، فالأول لم ير، والأوسط لم ير، والأخير لم ير هو أيضاً، وهكذا يبدو أن حالة البراهمان هي مثل حالة هذا الخيط من الرجال العميان.

وعندئذ أعطى بوذا لهذه الجماعة من البراهمان رأياً في غاية الأهمية: «ليس من المناسب لرجل يساند الحقيقة ويحميها أن يصل إلى نتيجة مفادها أن هذا وحده هو الحقيقة وكل ما عداه باطل».

وعندما سأله البراهمان الشاب أن يفسر هذه الفكرة عن مساندة الحقيقة وحمايتها قال بوذا: «الرجل له معتقده. فإذا قال:

هذا هو اعتقادي، حتى هنا هو يساند الحقيقة، ولكنه لايستطيع أن يتقدم عن ذلك للوصول إلى النتيجة المطلقة وهي «تلك وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل». وبعبارة أخرى: إن الرجل يستطيع أن يؤمن بما يشاء، ويستطيع أن يقول: إنني مؤمن بذلك. حتى هنا هو يساند الحقيقة، ولكن بما أن ذلك هو إيمانه ومعتقده فيجب عليه ألا يقول بأن ما يؤمن به هو وحده الحقيقة وكل ما عداه باطل».

وقال بوذا: «بأن يكون المرء مرتبطاً بشيء (بوجهة نظر) ويحتقر الأشياء الأخرى (وجهات نظر أخرى) على أنها أدنى، فذلك ما يسميه الحكماء رباطاً(*)».

شرح بوذا مرة لتلامذته مبدأ العلة الفاعلة، فقالوا إنهم رأوه وفهموه. عندئذ قال: «أيها البهيكهو. حتى هذه الرؤية النقية جداً والواضحة جداً، إذا ارتبطتم بها وأحببتموها واحتفظتم بها كأنها كنز، والتصقتم بها، عندئذ لاتكونون قد فهمتم أن التعاليم إنما هي أشبه بزورق صنع لتجتازوا عليه لا لكي تلتصقوا به».

وفي مكان آخر شرح بوذا هذه الحكمة الشهيرة التي شبّه فيها تعاليمه بزورق صنع للاجتياز لا للاحتفاظ به وحمله على الظهر:

«أيها البهيكهو، أحد الرجال مسافر. وصل إلى مساحة كبيرة من الماء شاطئها المحاذي له خطر ومخيف بينما شاطئها الآخر أمين لاخطر فيه. وليس من معدّية للوصول إلى الشاطئ الآخر ولا جسر للمرور من هذا الشاطئ إلى الشاطئ الآخر. ففكر الرجل: «هذه المساحة المائية واسعة والشاطئ من هذه الجهة خطر ومخيف، بينما الشاطئ الآخر أمين ولاخطر فيه، وليس ثمة من معدّية للوصول إلى الشاطئ الآخر ولا جسر للمرور عليه. إذن ربما كان حسناً أن أجمع عشباً وخشباً وأغصاناً وأوراقاً وأصنع طوفاً، أجتاز بمساعدة هذا الطوف بأمان إلى الشاطئ الآخر، مستخدماً

(*) سيأتي ذكر الارتباط واللاإرتباط كثيراً فيما يأتي من الكلام. فدع معناه هذا في ذهنك أيها القارئ. المترجم.

يديّ ورجليّ». وعندئذ أيها البهيكهو جمع الرجل عشباً وخشباً وأغصاناً وأوراقاً وصنع طوفاً، وبمساعدة هذا الطوف اجتاز بأمان إلى الشاطئ الآخر مستخدماً يديه ورجليه. وبعد أن اجتاز وبلغ الشاطئ الآخر فكّر في نفسه: «هذا الطوف كان لي نجدة كبيرة. بمساعدة هذا الطوف مررت بأمان إلى الشاطئ الآخر مستخدماً يديّ ورجليّ، فربما كان حسناً أن أحمل هذا الطوف على رأسي أو على ظهري إلى أي مكان أحببت أن أذهب إليه». ما رأيكم أيها البهيكهو؟ إذا تصرف على هذه الصورة هل يكون هذا الرجل قد تصرف تصرفاً مناسباً فيما يتعلق بهذا الطوف؟».

- كلا أيها السيد.

- إذن بأية طريقة يتصرف تصرفاً مناسباً فيما يتعلق بهذا الطوف؟ الآن، وبعد أن اجتاز إلى الضفة الأخرى فكر هذا الرجل: «هذا الطوف كان لي نجدة كبيرة. بمساعدة هذا الطوف مررتُ بأمان إلى الضفة الأخرى مستعملاً يديّ ورجليّ. فربما كان حسناً أن أضع هذا الطوف على الأرض (على الضفة)، أو أن أتركه للموج وأذهب إلى حيث يحلو لي». بتصرفه بهذه الطريقة يكون الرجل قد أحسن فيما يتعلق بالطوف.

وعلى غرار ذلك، أيها البهيكهو، علّمتُ مبدأً شبيهاً بالطوف الذي صنع للاجتياز لا لحمله ولا للتمسك به. أنتم أيها البهيكهو، يامن فهمتم أن التعليم شبيه بالطوف، ربما كان عليكم أن تهجروا حتى الأشياء الحسنة، فما بالكم بالأشياء القبيحة أيضاً.

يتضح من هذه الحكمة أن تعاليم بوذا تهدف إلى قيادة الإنسان نحو الأمان، نحو السلام، نحو السعادة، نحو إدراك النيرڤانا. كل المبدأ الذي علّمه يتجه إلى هذه الغاية. لم يقل أشياء تهدف فقط إلى إرضاء الفضول العقلي، كان معلماً عملياً ولم يعلّم إلا ما يَجلب للإنسان السلام والسعادة.

كان بوذا يقيم مرة في غابة سيمسابا في كوسامبي قرب (الله آباد). أخذ بضع أوراق في يده وسأل تلاميذه: «ماذا تظنون أيها

البهيكهو؟ أيها أكثر عدداً، أهي هذه الأوراق التي في يدي أم هي الأوراق الموجودة في الغابة؟

ـ أيها السيد. الأقل عدداً هي الموجودة في يد صاحب الغبطة. ولكن من المؤكد أن الأوراق الموجودة في غابة سيمسابا هي الأكثر وفرة.

ـ ومثل ذلك أيها البهيكهو، تبعاً لما أعرفه لم أقل لكم إلا القليل جداً، وما لم أقله لكم هو الأكثر. ولماذا لم أقل لكم (هذه الأشياء)؟ لأنها ليست مفيدة ولاتقود إلى النيرڤانا، لذلك لم أقل لكم (هذه الأشياء».

بالنسبة لنا تافه أن نسعى ـ كما يحاول عبثاً بعض المتبحرين أن يفعلوا ـ وراء الاعتماد على ما يعرفه بوذا ولم يقله لنا.

بوذا لم يكن يهتم بمناقشة مسائل ميتافيزيكية لا فائدة منها، لأنها نظرية تأملية بحتة وتخلق مشاكل وهمية. كان يعتبرها «صحراء من الآراء». ويبدو أنه بين تلاميذه من لم يكن يقدّر هذا الموقف. ولدينا مثال عن واحد من هؤلاء التلاميذ هو مالونكيابوتا الذي طرح على بوذا أسئلة كلاسيكية في مشاكل ميتافيزيكية وطلب منه الأجوبة.

ففي أحد الأيام نهض مالونكيابوتا بعد تأمل ما بعد الظهيرة، وذهب للقاء بوذا فحياه وجلس إلى جانبه، وقال:

«أيها السيد. عندما كنت وحيداً في تأملي واتتني هذه الفكرة: ثمة مشاكل من غير حل متروكة على جنب ومنبوذة من صاحب الغبطة. هذه المشاكل هي 1 ـ هل العالم خالد أو 2 ـ هل هو غير خالد؟ 3 ـ هل للعالم نهاية أو؟ 4 ـ أنه لانهاية له؟ 5 ـ والنفس هل هي الجسد نفسه أو؟ 6 ـ أن النفس شيء والجسد شيء آخر. 7 ـ التاثاغاتا هل هي موجودة بعد الموت أو؟ 8 ـ أنها غير موجودة بعد الموت أو. 9 ـ هل هي في الوقت نفسه موجودة وغير موجودة بعد الموت، أو 10 ـ هل هي غير موجودة وفي الوقت نفسه ليست غير

موجودة بعد الموت؟ هذه المشاكل لم يشرحها لي صاحب الغبطة وهذا الوضع لايروق لي ولا أقدّره. سأذهب إلى صاحب الغبطة وسأسأله بهذه المناسبة. فإذا لم يشرح لي سأترك النظام عندئذ وسأمضي. فإذا كان صاحب الغبطة يعرف أن العالم خالد فليشرح لي إذن. وإذا كان صاحب الغبطة يعرف أن العالم ليس خالداً فليقل ذلك. وإذا كان صاحب الغبطة لايعرف ما إذا كان العالم خالداً أم لا... الخ، عندئذ من المشروع بالنسبة لشخص لايعرف أن يقول: أنا لا أعرف ولا أرى».

جواب بوذا على مالونكيابوتا لابد أن يكون نافعاً للملايين من الناس الذين يضيّعون في عالم اليوم وقتاً ثميناً في مسائل ميتافيزيكية من هذا النوع، ويثيرون الإزعاج والاضطراب بلا فائدة في هدوء عقلهم وراحته:

«هل قلت لك يا مالونكيابوتا قط: (تعال يا مالونكيابوتا وعش حياة تقية تحت إشرافي وسأشرح لك هذه الأسئلة)؟

- كلا أيها السيد.

- إذن يا مالونكيابوتا هل قلتَ لي أنت: (أيها السيد، سأعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة وسيشرح لي صاحب الغبطة هذه الأسئلة؟).

- كلا أيها السيد.

- وحتى الآن يا مالونكيابوتا لا أقول لك: (تعال وعش حياة تقية تحت إشرافي وسأشرح لك هذه الأسئلة). وأنت لاتقول لي كذلك (أيها السيد، سأعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة وسيشرح لي هذه الأسئلة). وفي هذه الشروط، أيها الأحمق، ليس من شخص يرفض شخصاً آخر.

«يا مالونكيابوتا. إذا قال أحد الناس: (لن أعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة طالما أنه لن يشرح هذه الأسئلة) فإنه يمكن أن يموت دون أن تلقى هذه الأسئلة جواباً من التاثاغاتا. إن

الأمر تماماً يا مالونكيابوتا مثل رجل جُرح بسهم مسموم جرحاً قوياً فأتى أهله وأصدقاؤه بجرّاح، فقال الرجل: (لن أدع أحداً ينزع هذا السهم قبل أن أعرف من الذي جرحني، ما إذا كان من الكشاتريّا ـ وهي طبقة المحاربين ـ أم من البراهمانا ـ طبقة الكهنة ـ أم من الڤايسّيا (طبقة التجار والمزارعين) ـ أم من الشودرا (الطبقة الدنيا)، ما اسمه، ما عائلته، أهو طويل أم قصير أم ذو قامة متوسطة، من أية قرية أو مدينة أو بلدة أتى. لا أسمح بسحب هذا السهم قبل أن أعرف بأي نوع من الأقواس تم قذفي، قبل أن أعرف أي وتر تم استعماله في القوس، قبل أن أعرف أية ريشة استخدمت على السهم، قبل أن أعرف بأية طريقة رأس السهم. ومات هذا الرجل يامالونكيابوتا دون أن يعرف هذه الأمور. وكما كان الحال مع مالونكيابوتا فإن أي امرئ يقول: «لن أعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة قبل أن يعطيني جواباً على هذه الأسئلة من أمثال أن العالم خالد أو غير خالد... الخ» فقد يموت مع هذه الأسئلة المتروكة بلا جواب من التاثاغاتا».

وعندئذ شرح بوذا لمالونكيابوتا أن الحياة التقية لاترتبط بهذه الآراء. ومهما كان الرأي الذي يمكن الحصول عليه عن هذه المشاكل، فهنالك الولادة والشيخوخة والعجز والموت والتعاسة والنحيب والألم والتعب والعوز، «تلك الأمور التي أُعلنُ توقفها (أي النيرڤانا) في هذه الحياة نفسها».

«إذن يا مالونكيابوتا، ما الذي شرحته؟ لقد شرحت دوكها، ولادة دوكها، توقف دوكها، والطريق الذي يقود إلى توقف دوكها. لماذا يا مالونكيابوتا شرحت هذه الأمور؟ لأن ذلك مفيد، لأن ذلك مرتبط ارتباطاً أساسياً بالحياة التقية والروحية، لأن ذلك يقود إلى النفور، إلى الانفصال، إلى التوقف، إلى الهدوء، إلى الاختراق العميق، إلى التحقق الكامل، إلى النيرڤانا، من أجل هذا شرحتها».

والآن سنمضي للحديث عن الحقائق الأربع النبيلة التي قال بوذا إنه شرحها لمالونكيابوتا.

بوذا ومذاهبه

كان سيدّ هارتا Siddhârta الذي سمي فيما بعد بوذا Bouddha أي الملهم ينتمي إلى عائلة نبيلة من الشاكيا الذين يقع موطنهم في الشمال الشرقي من الهند . وكان أبوه ملكاً على مدينة كابيلافاستو . وفي التاسعة والعشرين من عمره هجر زوجته وأولاده وغدا ناسكاً واتخذ لنفسه منذ ذلك الوقت اسم غوتاما الذي كان اسم عائلته . وكانت فكرة أن كل ولادة لا تؤدي إلا إلى الألم والموت وأن سلسلة التناسخات ليس لها نهاية قد انتزعت منه فرحة الحياة وأصبح همه الوحيد أن يجد السلام والخلاص .

وقد قضى سبعة أعوام في الصوم وإماتة الجسد وممارسة التركيز الروحاني ، ولكنه هجر في النهاية الصوم وأنواع التقشف ، وتحت تينةِ معبدٍ بالقرب من قرية أوروفيلا اسمه الآن بوذ ـــ غايا إلى الجنوب من باتنا أضاء بصيرته إلهامٌ كشفَ له المعرفةَ المحرِّرة (بوذي Bodhi) وكان ذلك في نحو من عام ٥٢٥ قبل الميلاد .

وبقي بعد ذلك في ذلك المكان بضعة أيام أخرى «يمتع نفسه بسعادة الخلاص» . وقد قامت في نفسه معركة وأخذ يتساءل ما إذا كان عليه أن يحتفظ بكشفه لنفسه أو أن يذيعه بين الناس الذين قد لا يفهمونه . وبعد أن قرر تعليمه

ذهب إلى بناريس حيث ألقى أولى مواعظه في حديقة مجاورة للمدينة وربح إلى قضيته خمسة من الزهاد الذين كان يعرفهم من قبل والذين أصبحوا مريديه الخمسة الأوائل . وأنشأ نظاماً ديرياً واستمال إلى مذهبه العديد من الأنصار من بين

العلمانيين .

ثم أخذ يطوف في البلاد خلال سنين طويلة كزاهد متجول داعياً إلى مذهبه ومات في سن الثمانين في كوسينارا التي تسمى اليوم كاسيا في مقاطعة غوراخبور .

إن أقدم الروايات عن حياة بوذا وتعاليمه موجودة في التريبيتاكا Tripitaka ـــ وهي كلمة تعني (السِلال الثلاث) ـــ وتتألف من ثلاثة مصنفات . تضم نصوص السلة الأولى منها المسماة Vinaya-Pitaka قواعد النظام ، بينما تضم نصوص السلة الثانية المسماة Sutta-Pitaka مواعظَ بوذا ، ونصوص السلة الثالثة Abhidamma-Pitaka تضم عرضاً لمذهبه . ولا شك أن قسماً من مواعظ بوذا قد سُجِّل كتابةً منذ القرن الثالث قبل الميلاد أو حتى أبكر من ذلك .

أما اللغة التي سجلت بها هذه المواعظ فلم تكن السنسكريتية وإنما البالي Pali التي هي لهجة الشمال الشرقي في الهند أصبحت اللغة المقدسة للبوذية ، وهي تكاد أن تكون من السنسكريتية كالإيطالية من اللغة اللاتينية .

وكان بوذا يتكلم المغاذيي Magadhī التي هي لهجة بلاد مَغاذا وترتبط بلهجة البالي . وقد طلب من مريديه أن يستعمل كل منهم لغته الخاصة به من أجل نشر المذهب .

ونحن نجد في الميليندابانييها Milindapañha (مسائل ميليندا) عرضاً قيماً لمذهب بوذا . وميليندا هو الأمير الإغريقي ميناندر الذي حكم ما بين عامي ١٢٥ ـــ ٩٥ ق . م في باكتريان ومد سلطته على عدد من مقاطعات الهند ، وبعد موته انفصلت الأمارات الهندية من جديد عن مملكته .

في الميليندابانييها يطرح الأمير الذي بدا مهتماً بالبوذية أسئلة على الناسك Nâgasena الذي كان يرد عليه بحصافة وعمق . وهذا الكتاب في شكله البدائي لابد أنه أُلّف في بداية القرن المسيحي الأول ثم أضيفت عليه بعد ذلك مجموعة من الإضافات .

كان بوذا مجدداً قديراً يذكرنا في كثير من ملامحه بلوثر . فمن الناحية الدينية كان بينهما قرابة مدهشة إذ كان كلاهما في البداية مشغولاً بمشكلة السلام ، فكان لوثر يتساءل بقلق كيف يمكن له أن يحصل على الغفران عن خطاياه ، ويتساءل بوذا كيف يمكن التخلص من الألم الذي تسببه ضرورة العودة إلى الحياة بدون انقطاع . وفي نضالهما من أجل الوصول إلى الخلاص كانا يتصرفان بذهن حر . وقد تجرأا على أن يقطعا ما بينهما وبين المفاهيم المنتشرة في عصرهما والتي بموجبها ينبغي أن يحصل المرء على الخلاص عن طريق الأعمال . وقد أعلن لوثر أنه لا الحياة التنسكية ولا مزايا الأعمال كما تبشر بها مسيحية القرون الوسطى يمكن أن تقود إلى الخلاص . أما بوذا فقد رفض التنسك وأنواع التقشف التي يمارسها نساك الهند في زمنه . وقد حاول كلاهما في بادىء الأمر أن يحصلا على الخلاص عن طريق الأعمال ولكنهما ما لبثا أن أجبرتهما التجربة على الاعتراف بعبثية هذه المبادرة . وبعد أن تخليا عن بعض الممارسات العقيمة التفتا إلى ورع أسمى روحانية وأعلى .

إن الأصالة في مذهب بوذا تكمن أولاً في أنه يرفض التقشف وإماتة الجسد

اللذين يمارسهما البراهمانيون ومعتنقو مذهبي الساخيا والجاينية كما يرفض مجرد التمتع بالحياة . فالتخلي عن العالم — كما أعلن — إنما يرتكز على انفصال داخلي عنه لا على الأعمال . وذلك الذي يتمتع بذهن متحرر من العالم فعلاً يمكنه — دون أن يخون مثله الأعلى — أن يعترف بشرعية متطلبات الحياة . وقد توصل بوذا إلى هذه القناعة بتجربته الخاصة : فهو لم يتلق إلهامه في الوقت الذي كان فيه متمسكاً بإماتة جسده وإنما في اللحظة التي عاد فيها إلى تناول الطعام وكف عن أن يجعل من نفسه جلاد نفسه .

فعلى الرغم من موقفه السلبي من العالم والحياة انقاد بوذا في جزء منه لمشاعره الطبيعية وذلك هو ما كان عظيماً فيه . وبتلطيفه التقشف الذي يستلزمه التخلي عن العالم قدم تنازلاً جديداً وهاماً لتأكيد العالم .

بهذه الطريقة نفسها تحرر لوثر — وعلى سجيته الخاصة — من إنكار العالم

الذي كانت تمارسه مسيحية القرون الوسطى. وقد ذهب إلى أبعد من بوذا في تأكيد العالم وأعلن بكل جرأةٍ قداسةَ العمل وقداسة المجاهرة بالرأي.

وتظهر لنا بعض المقاطع من خطب بوذا أنه — على غرار المتقشفين الآخرين — ألزم نفسه بألا يجلس أبداً بل يكتفي بالقرفصاء على عقبيه. وعلى غرارهم لم يكن يتخذ فراشاً غير العواسج والأشواك. وقد أكل أيضاً روث البقر وشرب البول، وصام حتى غدا نحيلاً كهيكل عظمي.

كان بعض المتقشفين قد نذروا أنفسهم لأن يعيشوا عيشة الكلاب بالمعنى الحرفي لهذه العبارة. فكانوا يمشون على أربع ولا يأكلون إلا ما يُرمى لهم على الأرض. وكانوا يفكرون أنهم بهذا السلوك سيعودون إلى الحياة في أشكال مساوية للآلهة. وقد قال لهم بوذا بسخرية بعد أن هبط عليه الإلهام إنهم لن يحصلوا إلا على التناسخ في أجساد كلاب.

وعلى الرغم من أن بوذا كان يعيش كراهب شحاذ فإنه بعد إلهامه كان يقبل الدعوات إلى وجبات من الطعام ويسمح لمريديه بأن يفعلوا مثله، بينما كان

بقية الزهاد يكيلون له السخريات. ولمذهب بوذا هذه الخاصيةُ الأُخرى بأنه يرفض بعزم وتصميم مذهب البراهمانيين المتعلق بالنفس الكلية وتطابق النفس الفردية معها. فقد صرح — وليس ذلك بدون وجه حق — أن هذا المذهب لا يفسر تناسخ النفوس ولا خلاصها من دائرة الحيوات، فاعتبره إذن محض اختلاق وحاربه بكل شدة وعنف.

وقد أنكر بوذا وجود كائن أعلى فكان ملحداً في هذا المنحى. ومع ذلك قبل بوجود آلهة. وهم ليسوا في رأيه إلا كائنات زائلة كما هو حال الإنسان ولكنهم من نوع أرقى. وهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من أجل الإنسان وليس على هذا تجاههم أي التزام.

على أن بعض البراهمانيين لم يكن لديهم هم أيضاً فكرة سامية عن آلهتهم وعن العبادة التي يقدمونها لها، ولكن التمييز الذي أقاموه بين حقيقة النظام الأعلى

وحقيقة النظام الأدنى سمح لهم بأن يتركوا المعتقدات الشعبية بدون مساس ، بينما حرص بوذا على أن ينقذ الشعب مما هو عليه من خرافات .

وفي الوقت نفسه الذي انفصل فيه بوذا عن المذهب البراهماني انفصل أيضاً عن الكتب المقدسة للهند ، ولم يعد يعترف بأية قيمة لا للفيدات الأربع ولا للبراهمانات ولا للأوبانيشادات . كما أعلن استقلاله الفكري عندما فتح باب نظامه الديري أمام أعضاء طبقة الشودرا . وقد أعلن أنه مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها المرء فإنه يستطيع إذا عاش حياة ديرية حقيقية أن يبلغ الكمال . فالنار سواء حصل عليها المرء من الخشب الثمين أو من خشب بُرْكةٍ أو من مزود خنزير أو من خشب الخروع لها اللهيب نفسه والنور نفسه .

ومع ذلك لا ينبغي الظن بأن تحرر بوذا قد دفعه إلى إلغاء كل تمايز بين الطبقات . فرأيه أن الرهبان الخارجين على شروط الحياة الأرضية هم فوق القواعد الطبقية ، أما الأناس الذين يمكثون في قطار الحياة المعتاد فإن عليهم أن يراعوا هذه القواعد . وفكرة الإصلاح الاجتماعي غريبة عليه بمقدار ما هي غريبة على بولس

الرسول . فكلا الرجلين شعر بأنه مدعو فقط لدفع الناس إلى الخروج من شروط الحياة العادية وليقترح عليهم هدفاً هو الكمال . أما بذل الجهد في سبيل تحسين شروط الحياة الزمنية فكان يبدو لهما كمن يباشر إصلاحات في بناء آيل للسقوط . لذلك لم يثر بوذا على وجود الفوارق الطبقية في الحياة العادية ، ولذلك امتنع القديس بولس عن أن يعلن باسم المحبة المسيحية إلغاء الرقيق .

ولم يكن الخدم والعبيد يُقبلون في نظام الرهبان البوذيين إلا بإذن من أسيادهم . كذلك الأمر بالنسبة للمراهقين مهما كانت الطبقة التي ينتمون إليها فإن موافقة الآباء ضرورية في هذا المجال .

وقد اعترف بوذا للنساء بالحق في الحياة الديرية فأنشأ لهن نظاماً للراهبات . والحق أنه لم يصل إلى هذا القرار إلا بعد أن تردد طويلاً وبعد إلحاح من تلميذه المفضل أناندا . وقد تمسك تمسكاً صارماً من جهة أخرى بامتيازات الرهبان على

الراهبات . فبحسب قاعدة منسوبة لبوذا على الراهبة حتى ولو قضت في النظام مائة عام أن تحرص على تحية الراهب بكل احترام ولو كان مبتدئاً وأن تنهض أمامه وترفع يديها المضمومتين وتقدم له ما يستحق من تكريم وإجلال .

وعندما سأل أناندا لمَ لم يعترف للنساء بالمكانة نفسها التي للرجال وبالحقوق نفسها أجابه بوذا : « خبيثات يا أناندا هن النساء . غيورات يا أناندا هن النساء . حسودات يا أناندا هن النساء . غبيات يا أناندا هن النساء » . ولبوذا أيضاً هذه الكلمة التالية : « إن دموع الأطفال هي البكاء ، بينما دموع النساء هي الغضب » .

ولكي يجعل مذهبه في الخلاص مستقلاً تماماً عن المذهب البراهماني ذهب بوذا إلى حد الاعتراض على فكرة أن وجود عالم مادي يفترض وجود عالم روحاني . ولم ينكر وجود النفس الكلية فقط وإنما أنكر وجود النفس الفردية أيضاً .

والبحث عن الحقيقة عنده يجب أن يتم تبعاً لمبدأين : بموجب الأول منهما لا ينبغي للعقل أن يهتم إلا بما له منفعة عملية مباشرة من أجل الخلاص . وبموجب الثاني وحدَها البيناتُ التي نصل إليها عن طريق حواسنا هي التي يمكن اعتبارها وقائع حقيقية .

فبفضل المبدأ الأول منع بوذا مريديه من أن يريدوا الوصول إلى معرفة كاملة عن العالم . فالبحث في طبيعة الحياة ذاتها وفي تجلياتها والمناقشات التي تدور حول آراء المعلمين وتُعقد عليها أهمية كبيرة في ذلك الزمان كل ذلك بدا لبوذا مضيعة للوقت .

وعلى أحد تلاميذه الذي أبدى دهشته من أن معلمه طوى بالصمت كثيراً من الأسئلة أجاب بوذا بهذه الحكمة : عندما يصاب الإنسان بسهم مسموم لا ينتظر لكي يعالج جرحه أن يعرف ما إذا كان من رماه نبيلاً أو براهمانياً ، فايشيا أو شودرا ، ولا يسعى لأن يعرف اسم هذا الرامي وما هي عائلته وما إذا كان طويلاً أو قصيراً أو ذا قامة متوسطة ، وما هو شكل السلاح الذي استعمله . فإذا تصرف

على هذه الصورة لن يتأخر عليه الموت بسبب جرحه . ولا يمكنه أن ينقذ نفسه إلا إذا أسلم نفسه فوراً للطبيب الذي أحضره أقرباؤه وأصدقاؤه .

بصورة خاصة يجب على المرء أن يتجنب التساؤل عما إذا كان العالم سرمدياً أو زائلاً ، منتهياً أو لا نهاية له ، هل الحياة والجسد شيء واحد ، هل الإنسان الذي وصل إلى الخلاص مازال موجوداً بعد الموت . في هذا الموضوع لم يشأ بوذا أن يُعِدَّ أي مذهب لأنه ليس له أية فائدة للإنسان من أجل الحصول على خلاصه من دائرة التناسخات .

ما الذي ينبغي على المرء أن يعرفه في رأي بوذا ؟.

المهم أولاً أن يعترف بأن العالم الأرضي لا يقدِّم أي فرح حقيقي وأن كل حياةٍ ألم . وقد أعلن بوذا في موعظته الأولى في بنارس عن « حقيقة الألم النبيلة » بهذه العبارات : « إن الولادة ألم ، والشيخوخة ألم ، والمرض ألم ، والموت ألم ، والعيش مع من لا نحبه ألم ، والفراق عمن نحبه ألم ، وألا يحصل المرء على ما يرغب به ألم » .

أعمق وأصح من هذا المفهوم التشاؤمي المحض عن الحياة هو مفهوم البراهمانيين . فمن وجهة نظرهم أن الحياة الإنسانية تحتوي على الأفراح والأتراح ، ولكنهم يعتبرونها كلها عبثاً وقبض الريح . على أن فكرة وحدة الهوية بين الحياة الفردية والنفس الكلية هي أعلى من كلا المفهومين . ومع ذلك فقد وردت في اروبانيشادات تصريحات مشابهة لتلك التي صدرت فيما بعد عن بوذا ، فثمة بيان مفصل عن مذهب البراهمان في أحد الأوبانيشادات ينتهي بهذه الكلمات : « ما هو مختلف عن البراهمان هو الألم » .

على أن المهم في نظر بوذا ليس الاعتراف فقط بأن الحياة الأرضية مؤلمة وإنما أيضاً أن نعترف بأن هذه الحياة لم تؤل إلينا إلا لأننا ـــ في جنوننا ـــ اعتقدنا بأنها تقدم لنا السعادة وأننا اشتهيناها . فإرادة الحياة البلهاء ـــ التي يسميها بوذا الرغبة في الصيرورة والتمتع ـــ هي التي تقود الناس من تناسخ إلى تناسخ . فلا يمكن إذن أن يوضع حد للألم إلا بعظة الناس بأن يلغوا فيهم إرادة الحياة . وعندما يصلون إلى

ذلك لا يولدون من جديد بل يدخلون في النيرفانا Nirvâna أو الفناء المطلق .

فبوذا إذن يقدم لنا الخلاص من التناسخات بطريقة أخرى غير الطرائق التي يقدمها البراهمانيون والسامخيا والجاينية . فالخلاص في نظره ليس تحرر النفس من عالم محسوس وإنما هو أمر أبسط من ذلك في الظاهر : إنه الكف عن الحياة الذي يصل المرء إليه بالتخلي عن إرادة الحياة .

وحجته هي التالية : إذا تمسكنا بمبدأ أن نتيجة تجربة حواسنا وحدها هي التي يمكن أن تُعتبر واقعاً حقيقياً فإن معرفتنا للعالم تتضاءل بحيث لا تشمل إلا القليل جداً من الأشياء ، فلا نعرف إلا الظاهرات Phémkâra (السامخارا في الهندية) ، أي أحداثاً تجري تحت مظاهر مادية ، كما أننا نستطيع أن نشاهد أن هذه الظاهرات (Samkhâra) تتسلسل فيما بينها وفقاً لقوانين . وكان بوذا يطلق على حادث يحدث بعد آخر وينجم عنه اسم « سلسلة الأسباب » . وأخيراً يمكن الادعاء بكل ثقة بأن كل ما يجري له أصلُه في أرادة الحياة وأنه لولا هذه الإرادة لما وُجد شيء .

بينما كان البراهمانيون يعتبرون توالي الأحداث لعبة ليس لها نظام فإن بوذا أكد أن كل شيء خاضع لتسلسل صارم . ولكن مبدأ السببية هذا لم يتوصل بوذا إليه نتيجة لأية ملاحظة علمية وإنما استنبطه من مفهوم العمل (Karman) ، لأن أعمال الإنسان خلال آلاف الحيوات التي يحياها هي التي تقوده تبعاً لصلاحها أو فسادها إلى تناسخات صالحة أو طالحة ، فلابد أن يستنتج بالمنطق إذن وجود رابط بين السبب والنتيجة في الكون كله .

والأنا النفسية هي الأخرى ليس لها في رأي بوذا هوية دائمة . والأحداث والأعمال التي تشكل حياة الإنسان ليست في نظره إلا توالي واقعات ناجمة عن إرادة الحياة التي تتجدد على الدوام .

عندما سأل الملك ميليندا راهباً بوذياً تقدم لمناقشته عن اسمه أجاب هذا بحسب ماورد في الميليندابانياها : « يسمونني ناغاسينا ، ولكن هذا مجرد اسم . ففي

الأنا الحقيقية التي أنتمي إليها لست أكثر من مظهر » . وقد فسَّر للملك المشدوه من هذا الجواب ، فسَّر له النظرية البوذية عن عدم جوهرية الأنا* بالصورة التالية : كما أن لهب القنديل ليس في الواقع إلا تتابعاً غير منقطع يتجدد دائماً عن اللهب الواحد المتولد دائماً عن الزيت نفسه ، كذلك ما نعتبره « أنانا Notre Moi » ، فهو شيء يتشكل باستمرار في سلسلة الأحداث التي تشكل حياتنا .

على أن بوذا برغم ما أبداه من حماسة لم يستطع أن يدعم نظرية لا جوهرية الأنا في كل نتائجها . فهذه النظرية لا يمكن التوفيق بينها وبين الأخلاق أو بينها وبين مذهب العمل Karman . فالأنا ينبغي أن تكون ـــ بطريقة أو بأخرى ـــ شيئاً دائماً متطابقاً مع ذاته ويملك شيئاً من الحقيقة لتتمكن من التفكير والعمل وفقاً للأخلاق ولكي يحدد العمل حيواتها اللاحقة . وهكذا فإن بوذا لم يستطع ـــ في تطبيقه العملي لمذهبه ـــ أن يفيد من نظريته عن طبيعة الشخصية الذاتية .

كما أن بوذا لم ينجح رغم محاولاته في أن يفصل مذهب دائرة التناسخات عن مفهوم الحياة الروحانية الذي يعتمد عليه هذا المذهب ، وأن يربطه بطريقته التجريبية في إدراك الحقيقة . وكان دائماً ينحرف عن نظريته التي تمثّل الخلاص على أنه كفٌّ عن الحياة ثم يوضح فكرته بأن هذا الخلاص ينبغي أن يُفهم على أنه راحة وسعادة أبديتان كما هو الحال في السامخيا والجاينية .

ما الذي يجب أن نفهمه من النيرفانا ؟.

هذه الكلمة تعني الانقضاء أو الفناء Extinction . وكانت قد استعملت قبل بوذا وبخاصة في الجاينية . فالمذهب الجايني ـــ كما هو شأن السامخيا ـــ لم يفهم السعادة على أنها استغراق النفس الفردية في النفس الكلية وإنما وجب عليه أن يمثلها على أنها دخول للنفس الفردية في الراحة الأبدية وهي محتفظة بفرديتها . وقد دخلت كلمة النيرفانا في الاستعمال لتدل على هذه الحالة من السعادة التي تفقد

★ أي أن الأنا ليست جوهراً مستقلاً قائماً بذاته ـــ المترجم ـــ

فيها النفس الفردية وعيها لذاتها . ثم تبناها البراهمانيون واستعملوها للدلالة على استغراق النفس الفردية في النفس الكلية .

وعندما سئل ساريبوتا ــ وهو أحد تلاميذ بوذا المفضلين ــ بأي حس من الحواس يمكن التحدث عن سعادة النيرفانا طالما أنه لا يوجد في هذه الحالة أي إحساس، أجاب : «إنما تكمن السعادة على وجه الدقة في غياب كل إحساس» . ومن جهة أخرى فإن بوذا يقول إن أية معلومات دقيقة عن النيرفانا ليست ضرورية ولا ممكنة .

ولكي يفنّد بوذا مذهب البراهمانيين تفنيداً كاملاً أنكر أن الحياة المادية مبنية على شيء من حياة روحانية . ولكن كان ذلك طرحاً لم يتمكن من الدفاع عنه حتى النهاية . فقد كان أسهل عليه أن يتخلى عن كل معرفة بطبيعة الحياة من أن يكتفي بتأكيد أن كل حياة في العالم المحسوس هي ألم، وأن يدع جانباً معرفة ما إذا كان العالم المادي مرتبطاً بحقيقة روحانية .

على أن جهات عديدة عبرت في الفترة الأخيرة عن افتراضها بأن إنكار الحقيقة الروحانية والأنا الروحانية يمكن ألا يكون في مذهب بوذا الأصلي وإنما أُدخل عليه في وقت لاحق .

وتكمن أهمية بوذا ليس في الفكر النظري وإنما في جعله إنكار العالم أمراً روحانياً بأن أضفى عليه معنىً أخلاقياً . وهو لم يكتف بأن تبنى انتصارات الجاينية الأخلاقية وإنما عمقها ووسعها .

وبما أن بوذا أعلن أن كل حياة هي ألم فقد اعتُبر ــ في عصر لم يكن الناس بعد قد اطلعوا كل الاطلاع على تعاليم الجاينية ــ اعتُبر مبدع أخلاق الشفقة وظنوا أن وصية اللاعنف إنما صدرت عنه . وليس هذا صحيحاً، ففي الجاينية إنما وجد وصية الأهيمسا Ahimsa ومنها استعارها لحسابه الشخصي .

ويبدو من جهة أخرى أن هذه الوصية لم تكن مرعية في البوذية في الأصل كما كانت مرعية في الجاينية كامل الرعاية . فإن لم يكن الأمر كذلك لكان من

المستحيل على كتابات البوذية المقدسة أن تروي لنا أن موت بوذا نجم عن طعام مؤلف من لحم خنزير بري أعده له الحداد كوندا. وكان أول من شك في هذه الرواية وشرع في إعطائها معنى آخر هم جماعة من الأوربيين المهتمين بالدراسات الهندية. فقد زعموا أن الكلمة المستعملة للدلالة على الطعام المشار إليه وهي (Sûkaramaddavam) لا تعني بالضرورة «خنزيراً بالتوابل» وإنما يمكن أن تنطبق أيضاً على طعام من الأعشاب والجذور والفطور، وقد استعملت استعمالاً مجازياً بمصطلح خنزير بري.

والواقع أننا نعرف من حديث منسوب إلى بوذا بأنه كان يعتبر أكل اللحم مباحاً في بعض الحالات. فقد رُوِيَ أنهم سمعوا على لسان طبيب لأحد الأمراء اسمه جيفاكا ــ حدثتنا عنه خطابات بوذا ــ بأن المعلم لم يكن يرفض في بعض المناسبات أن يأكل اللحم، فسألوه عن السبب فأجاب بوذا بأنه يرفض اللحم الذي يعرف أنه آت من حيوان ذُبح من أجله، ولكنه يسمح لنفسه بأن يأكل لحماً يقدم له في وليمة حدثت ارتجالاً بدون تحضير أو لحماً وُضع له في قصعته

كشحاذ، في هذه الحالة لا يكون الحيوان قد قُتل بسببه فيمكنه أن يعتبر اللحم «غذاء لا ملامة فيه».

وعلى هذه الطريقة نفسها حل القديس بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيين مسألة معرفة هل يجوز للمسيحيين أن يأكلوا لحم الضحايا الوثنية. «عندما يقال لكم بصراحة إن هذا اللحم هو من مثل هذا المصدر يجب أن تمتنعوا عنه لأن أكله سيكون خطيئة. أما إذا قُدم لكم لحم على مائدة وثني أو اشتريتم لحماً من السوق فليس عليكم أن تسألوا عن مصدره بل يمكنكم أن تأكلوه بكل اطمئنان»، هكذا تكلم بولس الرسول.

هذه التمييزات المتعلقة بالذمة ــ سواء كان مصدرها بوذا أو نسبت إليه ــ تظهر جيداً أن البوذية الأولى لم تكن متشددة جداً في موضوع استعمال اللحم. وبما أن رهبان سيلان لا يزالون مخلصين للتقليد القديم فإنهم لا يزالون يقبلون حتى

اليوم ما يوضع لهم في قصاع شحاذتهم من لحم .

كذلك لم يأمر بوذا تلاميذه بأن يربطوا أمام أفوههم شريطاً ليمنعوا الكائنات الحية من الدخول فيها ، ولم يعترض على زراعة الحقول ، فلم يدفع بموقفه هذا تطبيق وصية الأهيمسا (اللاعنف) بعيداً جداً في التفاصيل كما فعلت الجاينية ولم يكن واضحاً لديه أن الأخلاق ليس لها حدود .

ومع أن وصية عدم إزهاق الكائنات الحية أو إيذائها كانت سابقة لعهد بوذا فإنه هو مع ذلك مؤسس أخلاق الرحمة وهو في الواقع من باشر في بناء مبدأ الأهيمسا على أساس من الرحمة بينما كان فيما سلف يُبنى على فكرة اللاانشاط نقية من رجس العالم .

وصف في واحدة من عظاته وبعبارات مؤثرة مشاعر خدم أحد الملوك وجنوده المرتزقة عندما قرر أن يقدم تضحية سامية بأنهم « تلقوا أمره بأن يقود الضحايا ولكنهم لم ينفذوه إلا لخوفهم من أن يعاقَبوا وكانت أعينهم مخضلة بالدموع » .

وعندما أظهر له النساجون أنهم لا يحصلون على الحرير إلا بقتل عدد كبير من الكائنات الصغيرة منع بوذا رهبانه — كما يقال — من استعمال أغطية الحرير .

على أن أخلاق الشفقة هذه أخلاق ناقصة لأنها محددة بمبدأ اللاانشاط . فبوذا لم يطلب في أي مكان أن يُكرِهَ الإنسان نفسه بكل قوته ليقدم مساعدة ونجدة إلى مثيله الإنسان أو بصورة أعم لكل كائن حي . كل ما أوحى به ألا يتصرف الإنسان بغير رحمة . والعمل الذي يمليه الجزاء لا يدخل عنده في الحسبان لأن إنكار العالم يتضمن اللاانشاط .

ومفهوم الألم نفسه ومفهوم التخلص من الألم يستبعدان عند بوذا « العملَ » الرحيم . فإذا كان لكل ألم أصلُه في إرادة الحياة لما أمكن إزالته حقاً إلا إذا تخلى الكائن الذي هو موضوع الحديث عن حياته بعمل واع وشخصي . أما إرادة التخلص من الألم جزئياً وبمساعدة من الآخرين فهي مشروع عبثي مستحيل لأن

سبب الألم يبقى موجوداً ويظهر فوراً في أشكال أخرى .

فالرحمة إذن تفقد معناها بسبب مبدأ إنكار العالم . وإذا أراد المرء أن يكون منطقياً وأراد أن يعترف بعواقب موقفه السلبي فإنه سيعترف بأن تقديم المساعدة لمخلوق في ضيقٍ أمرٌ لا فائدة منه . وهكذا فإن شفقة بوذا ترتكز بخاصة على إظهار أن الكائنات كلها معرضة للألم بدون انقطاع ، فهي شفقة قائمة على المحاكمة والعقل وليست شفقة قائمة على الشعور .

إن أقدم أحاديث بوذا لا تعلمنا أنه أبدى أي اهتمام بالحيوانات كما فعل فرانسوا داسّيز Frasçois Dássise ، ولكننا نجد في الجاتاكا Jatakas ـــ وهي قصص أسطورية عن حياة بوذا القديمة ـــ وصفاً يقدمه لنا صديقاً كبيراً للحيوانات . وتروي لنا واحدة من هذه الأقاصيص أنه جعل نَمِرةً جائعة تفترسه لكي يجنبها جريمة أن تأكل أبناءها الصغار .

فأخلاق بوذا إذن لا يمكنها أن تنتشر إلا في مجال الفكر طالما أن العمل لا يدخل فيها في دائرة الحسبان . وبينما كانت الجاينية تتطلب من الراهب أن يلغي

كل شعور بالغِلِّ والانتقام ذهب بوذا إلى أبعد من ذلك عندما طلب منه أن يتخذ من كل الخلائق بل ومن الكون كله موقفاً حليماً صافياً .

« انظروا أيها الرهبان ماذا عليكم منذ اليوم أن تفعلوه : إن قلبنا لا ينبغي له أن يضطرب بدون داعٍ . ولا ينبغي لأي كلام خبيث أن يخرج من شفاهنا . نريد أن نبقى عطوفين رحماء ، قلبنا الذي يملؤه الحب معصوم من كل خداع . نريد أن ننشر نور عطفنا على كل شخص ، ومن هناك ننشر في كل الكون عطفاً واسعاً عميقاً ليس له حدود ، نقياً من كل ضغينة ومن كل غل . ذاك ما ينبغي عليكم أن تفعلوه أيها الأصدقاء » .

« إن الراهب يوجه قوة العطف التي تملأ تفكيره إلى أول ركن من العالم ثم إلى الثاني والثالث والرابع وإلى الأعلى وإلى الأسفل وإلى ما خلال ذلك . وهو يترك قوة العطف التي تملأ تفكيره بتمام كمالها تنتشر حوله في كل الاتجاهات وفي الكون

كله واسعةً عظيمةً لا ينضب لها معين » .

في المذهب البراهماني وفي الساخيا ليس للأخلاق أهمية إلا في أنها تؤمّن للمرء تناسخاً أفضل . وفي الجاينية تساهم الأخلاق في أن ترد للنفس نقاءها الأولي . أما لدى بوذا — وإليك ما هو جديد — فإن حالة الذهن الأخلاقية ضرورية للحصول على التركيز الروحاني الصحيح . ومن أجل قياس الطريق الذي تم اجتيازه يحسن أن يقرأ المرء واحدة من خطب بوذا الجميلة وأن يقارنها بهذا أو ذاك من مقاطع الأوبانيشادات .

فالتأمل يتضمن إذن عند بوذا تمرينات روحانية ذات طبيعة أخلاقية ، فمن يمتلك قلباً نقياً مليئاً بالطيبة تجاه الكون كله هو وحده القادر على التجرد من العالم وعلى أن يستغرق في نفسه . والوجد Extase وتمرينات التركيز لا تلعب في البوذية الأولى أقل دور مما تلعبه لدى البراهمانيين ومعتنقي مذهبي الساخيا والجاينية . ويميز بوذا بين « أربع درجات في التأمل » ، وفي الرابعة يكتسب الإنسان اليقين من أنه لن يمضي أبعد من ذلك في عملية التناسخ ويدخل من جراء ذلك في النيرفانا حتى ولو لم يُنهِ فوراً حياته الأرضية .

في هذا التأمل السامي يصل إلى معرفة كل أشكال حيواته السابقة حتى تلك التي حدثت منها في أحقاب سحيقة القدم . ويدعي بوذا أنه هو نفسه نال امتياز معرفة كامل ماضيه .

بحسب ما يقوله بوذا إن الروحانية الأخلاقية ليست مهمة للإنسان الذي توصل إلى امتلاكها فحسب وإنما هي أيضاً نوع من قوة منبثقة عنه . وكان بوذا يمتلك هذه القوة بشكل غير عادي . وذلك هو سر شخصيته البسيطة جداً والعظيمة جداً في الوقت نفسه .

إن إشعاع الطيبة الذي كان يصدر عنه كان يؤثر — كما يقال — ليس في بني الإنسان وحدهم وإنما في الحيوانات أيضاً . فابن عمه ديفاداتّا الذي كان يبغضه سلّط عليه في ممر ضيق فيلاً مشهوراً بمدى توحشه . ولكن الحيوان — كما

يروون ـــ تأثر بقوة طيبته فتوقف وهو في عزّ قفزته وأخفض خرطومه الذي كان قد رفعه ليضربه به .

كان بوذا أول من عبّر عن هذا القانون الأخلاقي الذي يذهب إلى أن الروح الأخلاقية تشكل في ذاتها فقط طاقة تفعل في العالم لكي ينتصر الخير . وبقوة الروح التي يتحد معها إنما يكتسب الكلام قوة فاعلة منفذة . ويقول بوذا إن فعل الخير بالقول أو الصمت المناسب الذي تمليه الحسنى الخالصة هو واحدة من المهام الملقاة على عاتق الراهب .

« إن الراهب يقول الحقيقة . إنه منذور للحقيقة . مثابر ، مخلص ، لا متكتم ولا متملق . يستهجن كل نميمة . ما يسمعه هنا لا يكرره هناك ليوقع بين هذا وذاك . وما يسمعه هناك لا يكرره هنا ليوقع بين ذاك وهذا . إنه يصلح بين المتخاصمين يقوي الروابط بين المتصالحين . الوفاق يسبب له الفرح . الوفاق مهمته . الوفاق متعته . والكلمات التي تخلق الوفاق يقولها . وهو لا يتلفظ إلا بكلام معصوم من روح الشر ، كلام رقيق على الآذان محبوب مصلح مهذب يمتع ويقنع : ذلك هو الكلام الذي يقول » .

يجب تحملُ البغضاء والتسامح مع الأذى ليس من أجل الوصول إلى الكمال فحسب وإنما لأننا بهذه الطريقة نؤثر في العالم . « عن طريق الحلم والصبر ـــ يقول بوذا ـــ يمكن التغلب على الغضب . وبالخير ننتصر على الشر ، وبالكرم ننتصر على البخل ، وبالصدق على الكذب ، وبعدم الكراهية يصل أمر الكراهية إلى الهدوء » .

بذلك تكلم أيضاً بولس الرسول : « لا تدع الشر ينتصر عليك . انتصر عليه بالخير » .

ولقد تمثّل بوذا بقصة الأمير ديغافو التي رواها لتلاميذه الذين شق بينهم نزاع ليظهر لهم كيف أن اللابغضاء تنتصر على البغضاء . فقد استولى الملك براهماداتّا على مملكة جاره الملك ديغيتي (الألم الطويل) . فتنكر هذا في زي راهب شحاذ واختبأ مع زوجه في عاصمة عدوه نفسها حيثُ ولد له فيها غلام سماه ديغافو

(الحياة الطويلة) . وبعد بضع سنوات كشف أحد الخونة للملك عن شخصية الراهب الشحاذ الحقيقية فأمر باعتقاله ثم قتله هو زوجه . وعلى درب العذاب علّم ديغيتي ابنه ديغافو أن الكراهية يمكن ويجب أن تهدأ عن طريق اللاكراهية . وبدون أن يجعل نفسه معروفاً دخل ديغافو في خدمة الملك في الغابة . وقد أسند الملك التعِب رأسَه على صدر رفيقه ونام . عند ذلك ظن ديغافو أن ساعة الانتقام قد أزفت فرفع سيفه ثلاث مرات فوق رأس الملك النائم ، وفي المرات الثلاث أعاده لأن كلمات والده الأخيرة عادت إلى ذاكرته . وفي خلال ذلك حلم الملك بأن ديغافو أراد قتله فنهض مذعوراً فرآه أمامه والسيف في يده وعرف من فمه حقيقة شخصيته . عند ذلك وقع على قدميه يسأله الرحمة . فصرح له ديغافو عندئذ أنه يغفر له إطاعةً لكلمات أبيه الأخيرة وأنه هو الذي يلتمس عفوه لأنه همَّ بقتله . وانتهت بينهما البغضاء ، وعاد ديغافو ليستقر فوق عرش أبيه .

على أن بوذا باعترافه بأن الفكر الأخلاقي — سواء بوجوده نفسه في قلب الإنسان أو بتجليه في الكلام — هو قوة فاعلة في العالم إنما يخرج بذلك من إنكار العالم . ومع ذلك فإن أخلاق النشاط الخيِّر تبقى خارج أفقه ، فما يريد تغييره في العالم هو الروح لا شروط الحياة الأرضية ، ولم يخطر في باله أن يتخلى عن مبدأ اللانشاط رغم أن أخلاقه وصلت في الواقع إلى مبدأ النشاط . وهو لم يفكر في أن يسأل نفسه عما إذا كانت الأخلاق يمكن أن تقتصر حقاً على اللانشاط أو أن عليها — على العكس من ذلك — أن تتخلى عن هذا المبدأ ، ذلك لأن إنكار العالم بالنسبة له بديهية لا يرقى إليها الشك . وهو لم يأخذ بعين الاعتبار أن الرحمة هي بطبيعتها نفسها احتجاج صادر من أعماق القلب الإنساني على هذا الموقف .

وعندما يصف الكمال الذي ينبغي على الراهب أن يصبو إليه بهذه الجملة الرائعة : «إنه شفوق رؤوف ممتلىء طيبة من يسعى بالخير لكل كائن حي» فإنه بعيد جداً عن أن يصف الرأفة الفاعلة . إنه يكتفي بكل بساطة بأن يضع على عاتقه واجب السعي إلى حالة روحانية ضرورية لكماله وخلاصه الداخلي الحقيقي .

من أجل الوصول إلى الخلاص ــ هكذا قال بوذا ــ يجب المسير في « طريق الفضائل الثمان النبيلة » . وهذه الفضائل هي : إيمان نقي ، إرادة نقية ، لسان نقي ، عمل نقي ، سلوك نقي ، تطلع نقي ، تفهم نقي ، تأمل نقي . ولكن يجب ألا تخدعنا عبارة « عمل نقي » ، فهي لا تعني سوى الامتناع عن السيء من الأعمال .

« ما هو العمل النقي أيها الأخوة ؟ . إنه تجنب إهلاك كائن حي ، تجنب أن تأخذ ما لم يُعطَ لك ، تجنب أن تستسلم للموبقات . ذلكم ما نسميه العمل النقي » (نبذة من خطاب ألقاه ساريبوتا أحد تلاميذ بوذا المفضلين عن « الطريق المثمَّن) .

فالشفقة الفاعلة أو النشيطة بالنسبة لرهبان بوذا ليست في دائرة الحسبان لأنها تفترض وجود شيء يحبونه ويتعلقون به . ومعنى ذلك أنهم ليسوا متحررين مما في الأرض من أشياء . وكم هي مخيفة تلك الكلمة التي قالها بوذا : « أغنياء بالمباهج ومتحررون من الأحزان هم أولئك الذين ليس لهم في العالم عزيز » ، وقد وجه هذه الكلمة لأب ثكل ولده ، ولم يعرف إلا أن يقول : « ما تحبونه لا يجلب لكم إلا الألم والعذاب » .

وكم هي قاسية تلك اللوحة التي يرسمها هذا المثل الديري الأعلى : « من لا يهمه أمر الآخرين ، من ليس له قريب ، من يسيطر على نفسه ، من يتمسك بالحقيقة بثبات ، من انطفأ فيه الشر ، من تخلى عن كل حقد : ذلك هو من أدعوه براهمانياً حقيقياً » .

ومن الواضح أن بوذا بسبب تمسكه بمبدأ إنكار العالم الذي اعتبره المبدأ الأسمى قد امتنع عن أن يطلب من رهبانه أن ينجزوا أعمالاً تمليها الشفقة والإحسان . وفي أخلاقه العلمانية كان ينبغي عليه أن يقرر ما إذا كان ينبغي عليه أن يجعلها واجباً عليهم أم لا . وبما أنه سمح للناس أن يبقوا في الحياة النشيطة الفاعلة ــ وهو أمر لا يتفق في الحقيقة مع مذهب الألم والخلاص ــ فكان ينبغي

عليه أن يطالبهم بسلوك نشيط مبني على الشفقة والإحسان ، ولكن ذلك سيكون منه تنازلاً لا يستطيع تقديمه لمصلحة تأكيد العالم .

لقد بلغت الأخلاق عند بوذا من التطور أنها وجدت هدفها بنفسها . ولكن بوذا لم يعترف بذلك بل تركها في خدمة مفهوم عن الخلاص يسيطر عليه سيطرة تامة مبدأ إنكار العالم . وبديهي أن إرادة التوفيق بين الأخلاق وبين التخلي عن العالم أمر متناقض وغير قابل للتحقيق . فالأخلاق تنطوي على تأكيد للعالم ، فإذا ارتبطت بإنكاره كانت مضطرة لأن تبقى في حدود اللانشاط فتبقى بذلك ناقصة بالضرورة .

إذن فلا يمكن أن يكون الأمر غير هذا : أخلاق بوذا التي استعملها العلمانيون بقيت خاضعة هي أيضاً لمبدأ اللانشاط . بإمكانها أن تستجيب لهذا المطلب أو ذاك من أخلاق العمل ولكنها لا تستطيع أبداً أن تقيم من حيث المبدأ نشاطاً أخلاقياً وأن تجعل منه وصية عامة ملزمة مثلما تتطلب الشفقة والإحسان .

ولم يكن بوذا يتحدث إلا نادراً عن أخلاق العلمانيين وإنما كان يتوجه بخطبه في العادة إلى الرهبان .وإليكم نبذات من إحدى خطبه عن أخلاق العلمانيين :

« دعوني أعلمكم أيضاً ما ينبغي أن تكون عليه حياة رب أسرة ... عندما يكون لديه زوج وأولاد لا يكون ملزماً بأن يخضع لقاعدة حياة الرهبان ... فليتجنب قتل أي كائن حي ، وعليه ألا يأخذ ما لم يُعْطَ له ، وألا يكذب ، وألا يشرب أي شراب مسكر ، وأن يتجنب الفاحشة ... وبدافع من واجبه عليه أن يعنى بوالديه وأن يمارس مهنة شريفة مشروعة » .

كذلك حض بوذا العلمانيين على السخاء والتقى والسلوك الذي لا يعيب والاحترام والتواضع والصبر والرقة والقناعة والاعتراف بالجميل والمثابرة على سماع تعليمات مذهب الخلاص والطيبة تجاه النساك والمتقشفين .

وقد طالبت المراسيم التي نقشها الملك البوذي الكبير آشوكا (من القرن

الثالث قبل الميلاد) على صخور وأعمدة حجرية طالبت العلمانيين ــ إضافة إلى مراعاة وصية الأهيمسا (اللاعنف) ــ بأن يتمسكوا بسلوك عطوف تجاه الخدم والعبيد وأن يحترموا الأشخاص الوقورين ويكرموا الزهاد والبراهمانيين .

ويضم الداماباداً (ممر الحقيقة) ، وهو كتاب تقليدي يعرض الأخلاق البوذية وينتمي إلى « السَلّة » الثانية **Sutta Pitaka** من النصوص المقدسة للبوذية القديمة ، ويضم أقوالاً موثوقة لبوذا وأقوالاً أخرى منسوبة إليه لا نكاد نجد فيها أية وصية تتعلق بأخلاق العلمانيين .

ولنلاحظ أن بوذا لم يفرض على الإنسان مساعدة البائسين . وعندما يتحدث عن العطف والرفق فهو يعني إكرام الرهبان ، حتى أنه يصر بطريقة تصدمنا على المكافأة المرهونة بهذا العمل الذي يستأهل التقدير . ويعزو بوذا قيمة كبرى للعرفان بالجميل . ففي واحدة من أجمل خطبه يقول : « إن خلاصة ما يتكون منه الخبيث هو نكران الجميل . وخلاصة ما يتكون منه الإنسان الخيِّر هو عرفان بالجميل » .

في موضوع العرفان بالجميل تجاه الوالدين يقول : « إذا أخذ المرء أمه على أحد كتفيه وأباه على الكتف الآخر وحملهما مدة قرن لما أمكنه أن يظهر لوالديه من عرفان الجميل ما يستحقان ولا أمكنه أن يرد لهما حسن الصنيع ... أما إذا قاد والديه من الكفر إلى الإيمان الكامل ، ومن الخبث إلى الفضيلة الكاملة ، ومن البخل إلى الكرم الكامل ، ومن الجهل إلى المعرفة الكاملة ، عند ذلك يكون قد أظهر لوالديه عرفانه بالجميل بالطريقة السليمة الوحيدة ورد لهما كل أفضالهما وزاد » .

ولم يطالب بوذا بإحسان فعّال . وفي هذا تختلف أخلاقه عن أخلاق المسيح . ما هو مشترك بينهما هو أولاً أن أخلاقهما المتأثرة بإنكار العالم هي مبدئياً أخلاق كمال داخلي ، يضاف إلى ذلك أنها خاضعة لمبدأ الإحسان . فهي إذن تحمل في طيلتها ميلاً إلى التجلي عن طريق العمل فتمتلك بذلك شيئاً من الضلوع

إلى تأكيد العالم . في تعاليم المسيح تتطلب أخلاق الكمال الداخلي في الواقع إحساناً فعالاً بينما لم يذهب بوذا إلى هذا المدى .

ومن الملاحظ من جهة أخرى أن إنكار العالم عند المسيح يختلف اختلافاً كبيراً عما هو لدى بوذا . فهو في نظر يسوع لا يستند على التمييز بين العالم المادي والعالم الروحاني بل يرفض العالم الطبيعي لأنه خبيث ويعيش في انتظار تحوله إلى عالم فوق طبيعي كامل . فإنكار العالم يستند إذن على مثل أخلاقي أعلى .

من هذا الفارق الأساسي بين هذين الإنكارين للعالم ينجم أن علينا أن نعتبر كل محاولة لتفسير مذهب المسيح على أنه نشأ عن مؤثرات بوذية محاولةً فاشلة ، وحتى لو اعتبر ذلك مقبولاً فإن ما يجافي الحقيقة مجافاة قوية أن يكون يسوع قد تمكن من الاطلاع على الفكر الهندي .

بطبيعة الحال لم يقصِّر العلمانيون من البوذيين في أن يستعملوا حقهم في ممارسة الإحسان الفعال على أنه وصية أخلاقية وفق ما تنصحهم به مشاعرهم الطبيعية دون أن يقلقوا مما إذا كانت هذه الممارسة تنسجم مع مبدأ اللانشاط . فحفر الآبار وبناء الملاجيء للمسافرين كانا دائماً من الأعمال الحميدة الممجدة عندهم على وجه الخصوص . وفي تعاليم الملك أشوكا بدأت الشفقة الفاعلة تلعب بعضاً من دور .

وفي بعض المناسبات ترك بوذا نفسه ينجر إلى العمل بدافع من الإحسان . ففي إحدى الأمسيات عندما كان ماراً في المهاجع وجد راهباً يتألم من الزحار وقد أُنهك جسده ورقد في بُرازه ، فقام بمساعدة من أناندا الذي كان يرافقه بتغسيله وإصلاح مرقده . ثم دعا الرهبان وأخبرهم بما ينبغي عليهم أن يقدمه بعضهم لبعض من مساعدات متبادلة ، ولكنه لم يسوِّغ هذا الواجب من المساعدات المتبادلة بوصية عامة تتعلق بالإحسان الفعّال . وقد قدم سبباً لذلك أن الرهبان ليس لهم بقربهم لا أب ولا أم للعناية بهم فيجب عليهم أن يحلوا محل الأبوين .

في ظل شخصية بوذا الإنسانية الرفيعة كانت الأخلاق من القوة والحيوية

بحيث أنها لم تخضع حقاً لمبدأ اللانشاط . ومع ذلك فهي لم تتمرد عليه . ولكن كان يحدث لها أن تتجاوزه كمياه بركة تطفح من الحافة هنا وهناك ولا يمكن أن يكبح منها الجماح .

أما مسألة الخلاص النهائي للعالم فإن بوذا لم يوضح رأيه فيها . ولو أنه أراد أن يكون منطقياً مع نفسه لوجب عليه أن يعبّر عن الأمل في أن الكائنات كلها ستصل في نهاية العالم إلى النيرفانا وبذلك تنتهي الحياة المادية المؤلمة بالنسبة لكل الكائنات . ولكنه تأكد من استحالة أن يتصور كيف يمكن أن تتحقق هذه النيرفانا الكونية طالما أن كل مخلوق ــ وفقاً لمذهب التناسخ ــ لا يستطيع بلوغ الخلاص إلا أذا مر عبر حياة إنسانية يستطيع فيها اكتساب المعرفة العليا الضرورية للخلاص .

فبحسب قول بوذا يكاد يكون مستحيلاً على إنسان تناسخ بسبب أخطائه في شكل غير إنساني أن يولد مرة أخرى . والسبب في ذلك أنه في الأشكال الدنيا من الحياة لا تسود إلا الجريمة والخبث . ويضرب بوذا على ذلك مثلاً سلحفاةً عوراء

في البحر لا تصعد إلى سطحه إلا مرة كل مائة عام ، فرُمي لها بحبل ذي أنشوطة فلن يكون لها أي حظ في إدخال عنقها فيه ، كذلك شأن غير العاقل الذي سقط إلى شكل دنيء فهو لن يستطيع أبداً أن يعود إلى حياة إنسانية .

وبذلك يكون بوذا رسول الرحمة قد قبل بأن يهتم الإنسان بخلاصه وهو يائس من خلاص سائر الكائنات ، وفي هذه النقطة يكمن ضعف في مذهبه .

أما نحن الأوربيين ، ومثلنا بعض الهنود المعاصرين ، فإننا نعاني شيئاً من الصعوبة في قبول أن فكر أكبر داعية للرحمة كان خاضعاً خضوعاً كاملاً لمبدأ اللانشاط الناجم عن إنكار العالم . ولا ينطبق ذلك إلا قليلاً على الصورة المثالية التي صنعناها لأنفسنا عنه . إن صورته التاريخية الحقيقية تضللنا وأخلاقه تخيب آمالنا .

وفي حالة يسوع أيضاً يصعب علينا أن نستسلم للبديهية التاريخية وأن نقبل

بأن فكره وأخلاقه كانت متأثرة تأثراً عميقاً بفكرة انتظار نهاية العالم . فالشواهد في الحالتين مؤكدة جداً وواضحة بحيث تسمح لنا بألا نقيم وزناً للحقيقة التاريخية .

إن أهمية بوذا تكمن في الجهد الذي بذله من أجل أن يجعل من إنكار العالم روحانياً وأخلاقياً . جعله روحانياً بدعوته الناس لاعتبار الانفصال الداخلي أهم من الممارسة الخارجية للتخلي عن العالم . وفي الوقت نفسه قال بأن الانفصال عن العالم إنما يتجلى في حالة من الفكر أخلاقية لأبعد الحدود . ولكن بما أن فكره كان خاضعاً لإنكار العالم فإن أخلاق العمل الرحيم لا تدخل عنده في الحسبان فينبغي التخلي إذن عن الأخلاق الظاهرية والاقتصار على الأخلاق الباطنية مع الدعوة إلى التخلي عن كل بغضاء والأخذ بروح المسالمة وطيبة القلب . والخلاصة هي أنه مؤسس أخلاق الكمال الداخلي ، وفي هذا المجال ينادي بحقائق ذات قيمة خالدة . وهو واحد من أكبر العبقريات الأخلاقية التي عرفتها الإنسانية في جميع العصور .

ولكن بأية صورة نجح إنكار العالم في أن يصبح أخلاقاً عند بوذا ؟. وهل تفتح حقاً إنكار العالم لديه على شكل أخلاق ؟. إن ذلك ليس ممكناً .

إن إنكار العالم لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير نفسه ، حالةً من الانفصال عن العالم وعدم الاهتمام به ، ولا يمكن أن تتولد منه أية أخلاق . فالأخلاق تفترض وجود اهتمام بمصائر الآخرين من الكائنات ، وعن طريق هذا الاهتمام يتم الاعتراف مهما كان قليلاً بالقيمة المترتبة على تعديل شروط حياة الكائنات . والواقع أن الأخلاق بطبيعتها نفسها تتضمن تأكيد العالم .

وأي مذهب يستند على مبدأ إنكار العالم لا يمكنه أن يتخذ صفة أخلاقية إلا إذا تبنى أفكاراً خاصة بالأخلاق . بهذه الطريقة أدخل بوذا الأخلاق في المفهوم الهندي عن إنكار العالم كما فعل يسوع عندما خصص للأخلاق مكانها من المعتقدات اليهودية القائلة بمجيء نهاية العالم .

وقد ظن بوذا أن بإمكانه التوفيق بين الأخلاق والإنكار . والحقيقة أن

الأخلاق جرته لأن يكون بغير وعي منه غير مخلص لهذا الإنكار . وعلى الرغم من أن أخلاقه عن الكمال الداخلي تسعى لأن تتماسك تماماً ضمن حدود مذهب الإنكار فإنها تأثرت بفكر آخر يختلف عنها كل الاختلاف . فالانفصال الداخلي عن العالم الذي دعت إليه الأخلاق يختلف عنه كل الاختلاف . وقد سُوِّغ بالحاجة إلى الكمال الأخلاقي ، بينما الانفصال الذي يتطلبه إنكار العالم له سببه في ذاته ويكتفي بذاته . فكم كانت رؤية أولئك البراهمانيين الذين عاشوا في القرون الأولى واضحة في هذه المسألة عندما أكدوا أن إنكار العالم يقع في جهة وحده بينما الأخلاق تقع بالضرورة في مجال تأكيد العالم .

إن أخلاق الكمال الداخلي لا تشترط إنكار العالم وإنما تتفق مع تأكيده . والتجرد الأعمق عن العالم هو الذي يسعى إليه الإنسان لكي يصبح شخصية أخلاقية حقيقية وأن يضع نفسه في خدمة العالم .

والواقع أن بوذا لم يفعل إلا أن أحل محل حرية العالم الناجمة عن إنكار العالم حريةً أخرى ناجمة عن حالة فكرية أخلاقية . والشفقة التي دعا إليها تفترض اهتماماً كبيراً بشروط حياة الكائنات على هذه الأرض وتتضمن تحريضات قوية على العمل بحيث يبدو غيرَ مفهومٍ كيف اعتبرها بوذا متفقة مع مبدأ اللانشاط .

إن الأخلاق حليفة سرية لتأكيد العالم . وهي عدو خطر أدخله بوذا في نطاق إنكار العالم الحصين . وقد أكمل بوذا مشروع الجاينيين بإعطاء الهند شيئاً لم تكن تعرفه قط من قبل هو أخلاق مبنية على الفكر . فحتى ذلك الوقت لم تكن تملك إلا أخلاق الوصايا التقليدية . ومن أجل أن تتمكن الأخلاق من بلوغ كامل تطورها ينبغي أن يستولي الفكر عليها وأن يسعى إلى أن يحدد فيها المبدأ الأساسي الذي يتضمن في ذاته كل الواجبات وكل الفضائل . وعندما جعل بوذا من الإحسان الرحيم ذلك المبدأ نفخ في الأخلاق الهندية حياة جديدة . فقد بذر حبة أخلاقه في حقل إنكار العالم ، ولكن الريح حملتها إلى الحقل المجاور الذي هو حقل التأكيد . وفي الفكر الشعبي الذي بقي غريباً إلى حد كبير عن مذهب

الإنكار حققت أفكار بوذا الأخلاقية حصاداً وفيراً خلال العديد من القرون .

إن الأخلاق التي يدعو إليها بوذا ستعطي إذن تأكيد العالم كما هو قائم في فكر الهند أسلحة ستسمح له بإحراز النصر على الإنكار . وبدون تأثير بوذا لا يمكننا أن نفسر التطور الذي أنجزته الهندوسية خلال القرون التالية . فبإيحاء من الأخلاق البوذية إنما نالت الهندوسية زخمها الذي أوصلها في النهاية إلى الانتصار على البوذية في الهند .

بعد ترددات طويلة انتهت الهند إلى التخلي عن كل ما هو جوهري في إنكار العالم كما مارسه بوذا ولكنها حافظت على أخلاقه وطورتها .

بوذا

الزنادقة

المتشككون ـــ العدميون ـــ السوفسطائيون ـــ الملحدون ـــ
الماديون ـــ ديانات بغير إله

إن أسفار اليوپانشاد نفسها تدل على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى فى أيام اليوپانشاد ؛ فقد كان الحكماء أحياناً يسخرون من الكهنة ، مثال ذلك فى سفر « شاندوجيا » من أسفار اليوپانشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين فى تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها بذيل سابقه ، وهو يقول فى ورع : « أم ، دعونا نأكل ، أم ، دعونا نشرب[1] » ؛ وفى سفر « سواسانڤيد » من أسفار اليوپانشاد تصريح بأنه لا إله ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وأن أسفار الڤيدا واليوپانشاد ليست إلا تأليفاً من عند جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأفكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد ، و « بالقديسين » مع أنه لا فرق فى حقيقة الواقع بين « ڤشنو » (الإله) وبين كلب من الكلاب[2] ؛

وإن قصة لتُروى عن « ڤيروكانا » الذى عاش اثنين وثلاثين عاماً تلميذاً للإله العظيم « براجاپاتى » نفسه ، وأنه تعلم علماً كثيراً عن « النفس التى خلصت من الشرور ، والتى لا تشيخ ، ولا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تظمأ والتى لا ترغب إلا الحق » ، ثم عاد « ڤيروكانا » بغتة إلى الأرض وطفق يعلم

الناس هذا المذهب الآتى . الذى هو فضيحة الفضائح : « حياة الإنسان إنما تسعد هاهنا على الأرض . ونفس الإنسان لا بد من إشباع رغباتها ، فمن استطاع أن يُسعد نفسه على هذه الأرض ، وأن يشبع رغبات نفسه ، كسب الدارين معاً ، هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة[٣] » ، وإذن فقد يكون البراهميون الصالحون الذين صانوا تاريخ بلادهم ، قد خدعونا قليلا حين أفهمونا أن نزعة التصوف والتقوى بين الهندوس كانت عامة لم يشذ عنها أحد .

والحق أنه كلما كشف لنا البحث العلمي عن شخصيات لم تكن فى المنزلة العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين فى تأملاتهم عن إلههم « براهما » ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشكت فى الآلهة ، وسميت — دون أن ترتاح لهذا الاسم — سميت بطائفة « اللاأدريين » و « العدميين » ؛ فتلا رفض « سانجايا » اللاأدرى أن يثبت أو أن ينفى الحياة بعد الموت ، وتشكك فى إمكان حصول الإنسان على العلم اليقينى ، وحصر الفلسفة فى محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أبى « پوراناكاشيابا » أن يعترف بالفوارق الخلقية ،

وعلَّم الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دفعاً ؛ وذهب « ماسكارين جوسالا » إلى أن القدر قد خط فى لوحة كل شيء يصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد « أجيتا كاسا كامبالين » الإنسان إلى عناصر هى التراب والماء والنار والهواء ، وقال « إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد ، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت[٤] » ولقد صور لنا مؤلف « رامايانا » صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا « جابالى » الذى جعل يسخر من « راما » لأنه رفض مملكة ليفى بوعد تعهد بالوفاء به :

« جابالى وهو برهمى عالم وسوفسطائى مهر فى الكلام ، تشكك فى الإيمان وفى القانون والواجب ، وراح يحدث سيد أيوذيا الشاب قائلا :

أنى لك يا « راما » هذه الحكَم السخيفة التى ترين على قلبك وتكتنف عقلك .

هذه الحكم التى تضلل السذج ومن لا يتعمقون التفكير من بنى الإنسان ..؟

أواه ، إنى لأبكى من أجل هؤلاء الفاذين من الناس حين يخطئون فيكبّون على واجب باطل .

ويضحون بهذه المتعة الحبيبة إلى النفس حتى تنقضى حياتهم القاحلة .

وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف ؛ ياله من ضياع للطعام ؟

لأنه لا الإله ولا السلف يأخذ منا هذا الذى نقدمه إليه فى ولاء وتقوى !

وهل إذا أكل الطعام آكل ، تغذى به ناس آخرون ؟

فهذا الطعام تقدمونه لبرهمى ، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباء السالفين ؟

إن الكهنة بخبثهم قد صاغوا هذه الحكم ، وهم يقولون إذ هم ينظرون إلى أغراض أنانية :

« قدّم قربانك وتب إلى الله ؛ واترك مالك الدنيوى واخلص للصلاة ؟»

كلا ، يا « راما » ليس هناك حياة آخرة ، وكلها أباطيل

هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان .

فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة الواهية(٥) .

ولما شب بوذا رجلا ، وجد القيعان والشوارع بل وجد الغابات فى شمال الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفى ، كان فى جملته ينحو نحواً إلحادياً مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من « يوپانشاد » ، كما ترى أقدم الأسفار البوذية ملأى بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة(٦) ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين — ويسمونهم پاريباچاكا أو المتجوابن — تنفق أحسن أيام السنة فى الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين فى البحث الفلسفى ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذى تستطيع به أن

تبرهن على أى شيء ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم « من يشققون الشعرة » أو « من يتلوون تلوى ثعابين الماء » ؛ وآخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والمناقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحياناً يكافئون الظافرين فى أمثال هذه الحلبات الفكرية[7] ؛ حقا لقد كان عصراً يدهشك بحرية فكره ، وبألوان التجارب التى أجراها أهله فى عالم الفلسفة .

ولم يبق لنا كثير مما قاله هؤلاء المتشككة ، والفضل فى خلود ذكراهم يرجع كله تقريباً إلى ما هاجمهم به أعداؤهم[8] ، وأقدم اسم بين تلك الطائفة هو « بريهاسپاتى » لكن أقواله الهدامة قد فنيت كلها ، بحيث لم يبق لنا منها إلا قصيدة واحدة تحط من شأن الكهنة فى لغة لا يشوبها غموض الميتافيزيقا :

ليس للجنة وجود ، وليس هناك خلاص أخير ؛
فلا روح ، ولا آخرة ، ولا طقوس للطبقات ...

إن ڤيدا ذات الوجوه الثلاثة ، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث ،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد .
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلوا من الذكاء والرجولة ...
كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً ..
أن يعود إلى الظهور على الأرض ؟ وإذا كان فى وسع الشبح أن يمضى
إلى عوالم أخرى ، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراء ، فيرجعه إليهم ؟
إن هذه الطقوس الغالية التى تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبّرها

دهاء الكهنة – لا أكثر من ذلك ...

فما دمت حياً ، أنفق حياتك مطمئن البال

مرح النفس ؛ ليفترض الإنسان مالا

من أصدقائه جميعاً ، ويطعم نفسه بالزبد المذاب[٩] .

وعلى أساس القواعد التي أذاعها « بريهاسپاتي » هذا ، نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها ، وهو « شارفاكا » وكانت أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأى القائل : إن أسفار الڤيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ؛ وقالوا فى حجاجهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلى لا يعتمد فى صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيجىء على غرار الماضى ؛ واليقين فى مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان « هيوم »

ليقول فى الموضوع عندئذ[١٠] ؛ قال فريق « الشارفاكا » إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ؛ وإذن فالروح وهم من الأوهام ، والإله « آتمان » أبطولة من الأباطيل : إننا لا نصادف فى تجاربنا ولا فى تجارب السالفين ؛ إذ نستبطن أنفسنا ، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج[١١] ؛ والمادة هى وحدها الحقيقة التى لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض[١٢] وما العقل إلا مادة تفكر ؛ والجسم – لا الروح – هو الذى يشعر ويرى ويسمع ويفكر[١٣] « من ذا الذى رأى روحاً موجودة فى استقلال عن الجسم ؟ » فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ، وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً فى شرح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا أنهم تعودوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ، ويشعرون كأنهم فى خلاء لا تطمئن

له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية[١٤] ؛ وكذلك الأخلاق أمر طبيعى ؛ فهى عرف اجتماعى ووسيلة لراحة العيش فى المجتمع ، وليست بالأمر الصادر من الله ؛ والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر ، لفضيلة أو رذيلة ، وهى تشرق بشمسها فى غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين ؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً ، فهى منافاتها الأخلاق كما تعرفها حدود البشر ؛ ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته ، لأن هذه هى الإرشادات التى رسمتها الطبيعة للناس ، الفضيلة غلطة من الغلطات ، وغاية الحياة هى أن تعيش ، والحكمة الوحيدة هى أن تعيش سعيداً[١٥] .

كانت هذه الفلسفة الثائرة التى أخذ بها فريق « الشارفاكا » ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار اليوبانشاد ، وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندى ، وتركت فى المجتمع الهندوسى فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً ؛ لكن أنصار المذهب المادى هؤلاء كانوا قد أجادوا أداء مهمتهم إجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل العقيدة الفيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبدتين بغير إله — ولو أن هذا القول قد يبدو للقارىء تناقضا — فكلتا الديانتين الجديدتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاهما لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من « الكشاترية » أى طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس الكهنوتية ، وبظهور هاتين الديانتين ، وهما الجانتية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندى عصراً جديداً .

ماهافيرا والجانتيّون

البطل العظيم — العقدة الجانتية — تعدد الآلهة والشرك بالله — التقشف — الخلاص بالانتحار — تاريخ الجانتية فى مراحلها الأخيرة

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وُلد صبى لرجل ثرى من أشراف قبيلة « لِشَّاڤى » فى ضاحية من ضواحى مدينة « ڤايشالى » فى الإقليم الذى يسمى الآن بإقليم « بهار »(*) . وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادى والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فاطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، وخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب فى أرجاء الإقليم الغربى من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعلماً ، وبعد أن قضى فى إنكار ذاته

على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه «چِنَا» (أى قاهر) ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر — هكذا كانوا يعتقدون — أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل .

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسماً جديداً هو « ماهاڤيرا » أو « البطل العظيم » ، واتخــذوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم « الجانتيين » ونظم « ماهاڤيرا » طائفــة من رجاله يكونون

(*) يروى الرواة أن ماهاڤيرا عاش بين سنتى (٥٩٩ — ٥٢٧ ق . م .) . لكن جاكوبى يعتقد أن ٥٤٩ — ٤٧٧ ق . م . أقرب إلى الصواب(١٦) .

رهباناً عُزّاباً وطائفة من النساء يكنّ راهبات عانسات ؛ فلما أن جاءته منيته وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من أشياع مذهبه .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعى ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبي الذى يقع فى الزمان ، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلا ؛ وكان يلذ لهم دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة للذرّ الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير كبير[71] ، فالأحكام كلها — إذن — محدودة بحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذين يظهرون على فترات

منتظمة ، أو طائفة « الجنا » كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الفيدا لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال فى التدليل على ذلك أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون إنه ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض بقوله إن الخالق الذى لم يُخْلَق أو السبب الذى لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة عن الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لا نهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله[18] .

لكن مناخ الهند لا يساعد على عقيدة طبيعية تقوم بين الناس وتثبت ، فلما أفرغ الجانتيون السماء من إلهها ، لم يلبثوا أن عَمَرُوها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين ممن روى أخبارهم تاريخ الجانتيين وأساطيرهم ؛ وراحوا

يعدونهم مخلصين لهم العبادة مقيمين لهم الشعائر ؛ لكنهم اعتبروا هؤلاء المؤلهين أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل ، ولم يعدوهم خالقين للعالم أو سادة عليه يتحكمونه بأى معنى من المعانى[١٩] ، وليس معنى ذلك أن الجانتيين كانوا يعتنقون مذهباً مادياً خالصاً ، لأنهم فرقوا بين العقل والمادة فى كل الكائنات ، ففى كل شىء ، حتى الأحجار والمعادن ، أرواح كامنة ، وكل روح تحيا حياتها بغير شائبة تلام عليها ، تصبح « پاراماتمان » — أو روحاً سامية — وكانت تنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر ، مدى حين ، على أنها تتقمص جسدها الجديد إذ ما نالت من الجزاء حقها الموفور ، ولا ينعم « بالخلاص » الكامل إلا أعلى الأرواح وأكملها ؛ ومن هؤلاء تتكون طائفة « الأرهات » — أى السادة المعظمين — الذين كانوا يعيشون ، مثل آلهة أبيقور ، فى مملكة بعيدة ظليلة ، وهم عاجزون عن التأثير فى شئون الناس ، لكنهم ينعمون بارتفاعهم عن كل احتمال يؤدى إلى عودتهم إلى الحياة[٢٠] .

والطريق المؤدية إلى الخــــلاص فى رأى الجانتيين ، هى توبة تقشفية ، واصطناع « أهمسا » موفورة كاملة ، « وأهمسا » معناها الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ؛ ولزام على كل متقشف جانتى أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة ، ألا يقتل كائناً حياً ، وألا يكذب ، وألا يأخذ ما لم يُعطَه ، وأن يصون عفته وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها ؛ وفى رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً ؛ والمثل الأعلى هو أن تأبه للذة أو ألم وأن تستغنى استغناء تاماً عن الأشياء الخارجية كلها ؛ فالزراعة حرام على الجانتى لأنها تمزق التربة وتسحق الحشرات والديدان ؛ والجانتى الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات ؛ ويغطى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستار حتى يقى الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشى خوفاً من أن

تدوس قدمه الحافية على كائن حى فتُرْديه ؛ ولا يجوز للجانتى أبداً أن يذبح حيواناً أو يضحى به ، ولو كان « چانتيا » صميا أقام المستشفيات والمصحات — كما ترى فى أحد أباد — للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ؛ والحياة التى يجوز له أن يزهقها هى حياته دون غيرها ؛ فالعقيدة الجانتية تجيز الانتحار ولا تنم فى سبيله العقبات ، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع ، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء ؛ ولقد مات چانتيون كثيرون على هذا النحو ، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا — حتى فى عصرنا هذا — بتجويع أنفسهم حتى الموت[٢١] .

إن عقيدة دينية كهذه ، قائمة على أساس من الشك العميق فى قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد فى الناس شيوعاً فى بلد ما فتئت الحياة فيه عسيرة شاقة ؛ لكن هذا التطرف فى الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى فى الهند ؛ فمنذ ظهور المذهب الجانتى ، والجانتيون صفوة مختارة ؛ وعلى

الرغم من أن « يوان شوانج » وجدهم عديدى النفر أقوياء الأثر فى القرن السابع [٢٢]. فإنهم كانوا عنـــدئذ فى أوج حياتهم التى سلخت سيرتها فى هدوء ؛ وحدث سنة ٧٩ ميلادية أن انشقوا فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأى على موضوع العرى ؛ ومنذ ذلك الحين ، كان الجانتى إما أن يكون منتسباً إلى طائفة « شويتامبَارا » — أى طائفة ذوى الأردية البيض — وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة « ديجامبارا » — أى المتزملين بالسماء ، أو ذوى الأجساد العارية ؛ وكلتا الطائفتين تلبس الثياب العادية كما يقضى المكان والزمان ، وقديسوهم وحـــدهم هم الذين يجوبون الطرقات عراة الأجسام ؛ وهذان المذهبان الفرعيان لها فروع ، فطائفة « ديجامبارا » لها أربعة فروع ، وطائفة « شويتامبارا » لها أربعة وثمانون فرعاً [٢٣] ، ويبلغ عدد أتباع الطائفتين معاً مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من عدد السكان الذين يبلغون ثلاثمائة وعشرين

مليوناً (٢٤) ، ولقد كان غاندى شديد التأثر بالمذهب الجانتى ، واصطنع « أهمسا » — ومعناها الامتناع عن إيذاء الكائنات الحية على اختلافها — أساساً لسياسته وحياته ، ورضى من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفيه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يزهق نفسه جوعاً ؛ ومن يدرى ؟ فلعل الجانتيين يسلكونه فى طائفة « الجنا » فيعدونه تجسداً جديداً للروح العظمى التى تتقمص جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلص العالم .

أسطورة بوذا

بطاقة البوذية – الولادة المعجزة – النشأة – أحزان
الحياة – الهرب – أعوام التقشف – الهداية –
رؤية النرفانا

إنه لمن العسير على أبصارنا أن ترى عبر ألفين وخمسمائة عام ماذا كانت الظ.ف الاقتصادية والسياسية والخلقية التى استدعت ظهور ديانتين تدعوان مثل ما تدعو إليه الجانتية والبوذية من تقشف وتشاؤم ؛ فمما لا شك فيه أن الهند كانت قد خطت خطوات فسيحة فى سبيلها إلى الرقى المادى منذ استقر بها الحكم الآرى : فبنيت مدائن عظيمة مثل « باتاليپُترا » و « ڤايشالى » ؛ وزادت الصناعة والتجارة من ثروة البلاد ؛ والثروة بدورها خلقت لطائفة من الناس فراغاً ، ثم طَوَّر الفراغ العلم والثقافة ؛ ومن الجائز أن تكون الثروة فى الهند هى التى أشاعت فيها النزعة الأبيقورية المادية خلال القرنين السابع والسادس

قبل الميلاد ؛ ذلك لأن الدين لا يزدهر فى حياة تزدهر بالثراء ، إذ الحواس فى ظل الثراء تحرر نفسها من قيود الورع وتخلق من الفلسفات ما يبرر هذا التحرر ؛ وكما حدث فى الصـــين أيام كونفوشيوس ، وفى اليونان أيام بروتاجوراس — ولن نذكر فى الهند أيام بوذا — أن أدى الانحلال العقلى للديانة القديمة إلى شك وفوضى فى الأخلاق ، فالجانتية والبوذية ، لو أنهما مترعتان فى ثناياهما بلون من الإلحاد الكئيب ، الذى ساد ذلك العصر بعد أن زالت عن عينيه غشاوة الأحلام وأوهامها ؛ إلا أنهما فى الوقت نفسه كانتا بمثابة رد فعل من جانب الدين فى مقاومته لمذاهب اللذة التى أخذت بها طبقة من الناس

حررت نفسها ونعمت في حياتها بالفراغ (*) .

وتصف الرواية الهندوسية والد بوذا — شُدْ ذُوذانا — بأنه رجل غمس نفسه في الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التي تنتسب إلى قبيلة «شاكيا» المُدِلَّة بنفسها : كان أميراً أو ملكاً على «كاپيلا ڤاستو» عند سفح الهملايا[٢٥] ؛ ولكننا في حقيقة الأمر لا نعرف شيئاً عن بوذا معرفة اليقين ؛ فلو رأيتنا قد قصصنا عليك هاهنا القصص التي تجمعت حول اسمه ، فليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكننا نرويها لأنها جزء ضروري من الأدب الهندي والديانة الأسيوية ، ويحدد العلماء مولد بوذا بعام يقرب من سنة ٥٦٣ ق . م ثم لا يستطيعون أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً ، فتتناول الأساطير بقية قصته ، وتكشف لنا عن الغرائب التي قد تحدث حين تحمل الأمهات بأعلام الرجال ، فيذكر لنا سفر من أسفار «چاتاكا» (**) أنه في ذلك الوقت :

«في مدينة كاپيلاڤاستو» أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة «مايا» قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكتفية بما أغرقت به ولائمها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفي اليوم السابع — يوم اكتمال البدر — استيقظت مبكرة واستحمت في ماء

(*) لاحظ كثيرون أن هذه الفترة تميزت بكثرة الأنجم اللوامع في تاريخ العبقرية ؛ فـ «ماهاڤيرا» و «بوذا» في الهند ؛ و «لاوتسي» و «كونفوشيوس» في الصين ؛ و «إرميا» و «أشعيا الثاني» في الأمة اليهودية ؛ وفلاسفة ما قبل سقراط في اليونان ؛ وربما كان ذلك أيضاً عهد «زرادشت» في فارس ؛ ومثل هذا التعاصر في النبوغ يدل على تبادل المؤثرات بين هذه الثقافات القديمة بدرجة أكبر مما يمكننا أن نتعقبه اليوم على سبيل التحديد .

(**) وهي «قصص عن ولادة» بوذا كتبت حول القرن الخامس الميلادي وهنالك كذلك أسطورة أخرى عنوانها «لا ليتا فستارا» التي ترجمها إلى الإنجليزية سير إدون آرنلد بعنوان «ضوء آسيا» .

وأحسنت للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد : ولما أخذت زخرفها وازّينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ، وقطعت على نفسها عهود « أبوساذا »(*) ، ثم دخلت مخدعها الرسمي المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها في سريرها ويأخذونها إلى جبال الهملايا ويضعونها على هضبات مانوسيلا . . . ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتاتا ، ويغمسنها في الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزيّنّها بالزهور القدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلاً من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ؛ وهاهنا انقلب « بوذيساتوا »(**) فيلاً أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفي جعبته التي أشبهت حبلاً من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعدئذ

نفخ في الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر لها كأنه يدخل في رحمها ؛ وبهذا تلقى . . . حياة جديدة .

واستيقظت الملكة في اليوم التالي وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، وخلع عليهم خلع التكريم وأشبعهم طعاماً فاخراً وقدم إليهم الهدايا ، فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذائذ كلها ،

(*) هي عهود تقال في أربعة أيام مقدسة من كل شهر ، وهي أيام البدر والهلال واليوم الثامن بعد كل منهما .

(**) شخص أراد له القدر أن يكون بوذا ، ومعناها هنا « بوذا » نفسه ، ومعنى كلمة بوذا « المستنير » وهي بين كثير من الألقاب التي تخلع على « السيد » الذي كان اسمه الشخصي « سدذارتا » واسم عشيرته « جواتاما » ؛ وكذلك كان يسمى « شاكيا – موني » ومعناها « حكيم جماعة شاكيا » كما كان يسمى أيضاً « تاذاجاتا » ومعناها « الرجل الذي ظفر بالحق » ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب فيما نعلم(٢٧) .

أمر بالحلم أن تُقصَّ عليهم قصته ، واستفسرهم مايكنه الغيب ، فقال البراهمة : لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ، وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح بوذا ، وسيكون في هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) :

وحملت الملكة « مايا » « بوذيستاتاوا » عشرة أشهر كأنه الزيت في القدح ، ولما أن جاءها أوانها رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب إلى الملك « شدذوذانا » قائلة : « أريد أيها الملك أن أذهب إلى « ديفاداذا » مدينة أسرتي » فوافق الملك وأمر بالطريق من « كابيلافاستو » إلى « ديفاداذا » أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها في هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها في حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حَرَجٌ يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح فيـه الناس ، يتألف من أشجار « الملح » ويسمى « حرجُ لمُبينى » وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذى يغطى الأشجار من جذورها إلى رءوسها . . . فلما رأته الملكة رغبت في أن تمرح في الحرج . . . وذهبت إلى جذع شجرة كبيرة من أشجار « الملح » وأرادت أن تمسك بغصن من غصونها فانحنى الغصن حتى بات في متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ، ومدت يدها وتناولته ، وفي هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لها الحاشية ستاراً يسترها ، وأبعدت عنها ، فوضعت وليدها وهي لم تزل واقفة ممسكة بغصن الشجرة في يدها ؛ ولم ينزل « بوذيساتاوا » — كما ينزل سائر الأطفال من أجواف أمهاتهم — ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل « بوذيساتاوا » كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لا يلوثه القذر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسي ، هكذا هبط من جوف أمه[٢٨]»

وفوق ذلك ينبغي أن تعلم أنه عند مولد بوذا ظهر فى السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها لتمد له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من نائى البلاد يرحبون بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صوة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور « كأنه إله » ، وكان أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوى ، شر الاتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ، عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمى إلى طبقة « الكشاترية » — أى « المقاتلين » أُحسن تدريبه فى الفنون العسكرية ، ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية كلها التى كانت شائعة فى عصره [٢٩] ؛ وتزوج وأصبح والداً سعيداً بحياته ، وعاش فى ثراء ودعة وطيب أحدوثة .

ويروى الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس ، وهنالك رأى شيخاً كهلا ، وخرج يوماً ثانياً فرأى رجلا مريضاً ، وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروى القصة بنفسه — كما نقلها أتباعه فى الكتب المقدسة — يرويها فيحرك فى نفسك كامن الشعور .

« وبعدئذ أيها الرهبان جرت خواطرى على النحو الآتى — فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة — قلت لنفسى : « إن رجلا جاهلا من سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحى وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه فى مثل حالته ؛ إننى كذلك قابل للشيخوخة ، ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغى لى — وأنا القابل الشيخوخة — إذا ما رأيت شيخاً كهلا ، أن أضطرب وأستحى وأن تعاف نفسى ؟ » لم أر ذلك مما يليق ؛ ولما طاف برأسى هذا الخاطر ، ذهب عنى بغتة كل تيه بشبابى ...

وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدى سواء السبيل ، لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ،ولما وجدتنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسى : « ما دمت أنا نفسى ممن تجوز عليهم الولادة ، فماذا لو بحثت فى طبيعتها ... فلما رأيت ما فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا[٣٠] .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لو لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ، هذه النظرات كانت بداية « التنوير » عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه فى لحظة ، وكذلك حدثت لبوذا أن صمم فجأة أن يترك إباه(*) وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب فى الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه « راهولا » نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، فى فقرة يقدسها أتباع

« جوتاما » جميعاً ، إنه فى هذه اللحظة عينها :

« كان مصباح يضىء بزيت عبق ، وكانت أم « راهولا » نائمة على سرير ملىء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر « بوذيستاوا » — بوذا المنتصر — وقدماه عند الباب ، وقال لنفسه : « لو أزحت يد الملكة لآخذ ابنى ، فستستيقظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلا دون فرارى ؛ إننى إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » ونزل من القصر[٣١] :

وفى ظلمة الصباح الباكر خلّف المدينة على ظهر جواده « كانثاكا » يصحبه سائق عربته « شونا » وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له « مارا » أمير الشر ، وأغواه بمُلْك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض موثب من شاطئه إلى شاطئه بوثبة

(*) ماتت أمه فى ولادته .

واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه اللفتة ليرى ، ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى الوراء[٣٢] .

ووقف عند مكان اسمه « يوروفيلا » يقول : « قلت لنفسي إن هذا المكان رائع ، وإن هذه لغاية جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث في النفس السرور ، وكل ما حولي مروج وقرى » . وهاهنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا » — رياضة النفس — التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزاً ؛ وكثيراً ما كان يرتاد

مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش ؛ فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اسمع له مرة أخرى يروي لك قصته :

« قلت لنفسي : ماذا لو زممتُ الآن أسناني ، وضغطت لساني إلى لهاتي ؛ وألجمت عقلي وسحقته وأحرقته بعقلي (وهكذا فعلت) ونضح العرق من إبطي ... ثم قلت لنفسي : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفي وفمي ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذنيّ . . . وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجّت الرياح العنيفة رأسي .. ثم قلت لنفسي : ماذا لو قللت من طعامي ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتي من عصير الفول أو العدس أو البسلّي أو الحمص ؟... فضمر جسدي ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست ، في هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر

تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتى إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفاً من رءوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عينى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محجريهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيئاً فى بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسى كما تتشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهى فجة ، بفعل الشمس والمطر ، ولما كنت أمد يدى لألمس جلدة بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا إذا ما أردت برازاً وجدتنى أنبطح على الأرض سطيحاً ، وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا أردت راحة لجسمى وأخذت أدلكه بكفى ، كانت الشعرات الذاوية تساقط منه »(٣٣) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، وربما كان فى ذلك اليوم أشد جوعاً منه فى سائر الأيام ، أو ربما ثارت فى نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال ، ذلك أنه لم يلحظ تنويراً جديداً يأتيه من هـــذه الحياة القاسية بزهدها : « إننى بمثل هذه

القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية » ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إن تعـــذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور الزهو بنفسه مما يفسد أى نوع من أنواع التقديس التى كان من الجائز أن تفيض من نفسه ، فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل(*) وجلس هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها ، مصمماً ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير ، وسأل نفسه : مامصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان فى مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهى ؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ؛ وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد وخيبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد . « وهكذا

(*) هى « شجرة بوذ » التى ستصبح فيما بعد معبودة عند البوذيين ، ولا تزال هناك تعرض على السائحين عند مرورهم بـ « بوذجايا » .

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء :.. ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة ؛ وبنظرة قدسية مطهرة إلهية ، رأيت الكائنات الحية تمضى ثم تعود فتولد دنيئة أو سنيّة ، خيرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذى بمقتضاه سيتلقى كل فعل خيّر ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، في هذه الحياة ، أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر .

إن رؤيته لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفى على الرائى ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هى التى جعلته يزدرى الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها لا تقف فيه عند حد ، إنها ماضية إلى الأبد في طريقها تعيد إلى مجرى الأحزان البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة . . . لماذا لا نقفها ؟(*) لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح ، لكى يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور في حيـــواتها الماضيات ؛

وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدى خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهى — عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيض معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التى هى أولى أوهام الإنسانية وأسوؤها أثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيا لها من سكينة تحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ؟ — وهل ترى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكينة سبيلا ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة في هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم

(*) تتفرع فلسفة شوبنهور من هذه الأرومة عند هذه النقطة .

أنصار كثير من الديانات ؛ أما ما يمكن أن تظفر به فهو السكينة ، هو الخمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضاها متأملا ، أدرك « النبي المستنير » سبب ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو « المدينة المقدسة » مدينة بنارس ، وهناك فى روضة الغزلان عند « سارنات » طفق يبشر الناس بالنرفانا .

تعاليم بوذا (*)

صورة الزعيم – أساليبه – الحقائق السامية الأربع –
الطريق ذو الخمس شعب – قواعد الأخلاق الخمس –
بوذا والمسيح – لاأدرية بوذا ومناهضته لرجال الدين –
إلحاده – علم نفس بغير نفس – معنى النرفانا

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه – شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره – هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل. ولما لم يدر فى خلده قط – كما لم يدر فى خلد سقراط أو المسيح – أن يدون مذهبه، فقد لخصه فى «عبارات مركزة» أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة، وهذه المحادثات – على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه – تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى: رجل قوى الإرادة، صادق الرواية، مزهو بنفسه، وديع المعاملة، رقيق الكلام، محسن إحساناً

(*) أقدم ما لدينا من وثائق تحتوى على تعاليم بوذا هى الـ «پتاكات»، ومعناها «سلاسل القانون»، التى أعدت لتعرض على المجلس البوذى الذى انعقد سنة ٢٤١ قبل الميلاد، وقد وافق هذا المجلس على أن ما فى هذه الوثائق هو تعاليم بوذا بغير تحريف، تلك التعاليم التى لبثت أربعة قرون يتناقلها بالرواية الشفوية جيل عن جيل، أى أنها لبثت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التدوين باللغة «الپاليه» حول سنة ٨٠ قبل الميلاد؛ وهذه «الپتاكات» تقع فى ثلاث مجموعات: «السوتا» أى الحكايات، و «الفنايا» أى التشريع، و «الأبيدوما» أى المذهب؛ أما أولى هذه المجموعات – أعنى بتاكة الحكايات – فتحتوى على محاورات بوذا، التى يضعها «رايس داڤيدز» فى منزلة واحدة مع محاورات أفلاطون(٣٤) وإذا أردنا الدقة فى القول، وجب أن نقول إن هذه المدونات لا تحتوى بالضرورة على تعاليم بوذا نفسه، بل تحتوى على تعاليم المدارس البوذية، ويقول «سير تشارلز إليت»: على الرغم من أن هذه الحكايات أخذت تتزايد على مر القرون، فلست أرى ما يبرر الريبة بأن أقدم الطبقات فى هذا البناء المتراكم تحتوى على ما دونه صحابة الزعيم معتمدين على تذكرهم لما سمعوه منه.

لا ينتهى عند حد معلوم ؛ ولقد زعم لنفسه « الاستنارة » لكنه لم يدّع الوحى ، فما زعم قط للناس أن إلها كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه أكثر صبراً أو مجاملة من أى معلم آخر ممن شهدت الإنسانية من أعلام المعلمين ؛ ويصوره لنا أتباعه — وربما كانوا يضيفون إليه ما ليس فيه لتكمل صورته — يصورونه لنا مصطنعاً لـ « أهمسا » على أتم درجاتها (والأهمسا هى الامتناع عن قتل الكائنات الحية على اختلافها) ؛ فيقولون عنه : « إن جوتاما الذى اعتزل الناس قد رفع نفسه عن الفتك بالحياة ، بأن كف عن قتل الأحياء ؛ لقد خلع عن نفسه الهراوة والسيف (مع أنه كان يوماً من طبقة الكشاترية — أى طبقة المقاتلين) وهو يزورُّ عن غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة . . وترفع عن النميمة ، أو رفع نفسه عن دناءة الغيبة ... هكذا كان يعيش رابطاً لما انحلت عراه ، مشجعاً لدوام الصداقة بين الأصدقاء ، مصلحاً ذات البين عند الخصوم ، محباً للسلام ، متحمساً للسلام ، متحدثاً بكلمات تجىء للسلام(٣٦) » ؛ لقد كان مثل « لاوتسى » ومثل « المسيح »

يود أن يرد السيئة بالحسنة ، والكراهية بالحب ؛ وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت « إذا أساء إلىّ إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدته خيراً » ؛ فإذا جاء غر وأهانه ، استمع إليه بوذا وهو صامت ؛ حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : « إذا رفض إنسان يا بنى أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » ، فيقول له بوذا : « إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك(٣٧) » إن بوذا — على خلاف الكثرة الغالبة من القديسين — كانت له روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث الميتافيزيقى بغير ضحك يصاحبه ، هو من ضروب الكبرياء .

كانت طريقته فى التعليم فريدة لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشيء « للجوالين » أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ؛ فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى إثره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ، ولم يكن أبدا يهتم لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ؛ ولقد وصم ذات يوم أتباعه بالعار ، لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة(٣٨) ؛ كانت طريقته دائماً أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، أو كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها فى صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقر فى الأذهان وأحب « عباراته التعليمية المقتضبة » إلى نفسه هى « الحقائق السامية الأربع »

التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً :

١ — تلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم . . .

٢ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم .

٣ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن وقف الألم :

أن نجتث هذه الشهوة من أصولها فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ ــ وتلك ــ أيها الرهبان ــ هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة ما نعنى به ، وسلامة التركيز[٣٩] .

كانت عقيدة بوذا التى يؤمن بصدقها ، هى أن الألم أرجح كفة من اللذة الحياة الإنسانية ، وإذن فخير للإنسان ألا يولد ، وهو فى ذلك يقول إن ما سفح الناس من دموع لأغزر من كل ما تحتوى المحيطات العظيمة الأربعة من مياه[٤٠] ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها فى طيها ، لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة : « أذلك الذى يزول ولا يقيم هو الحزن أم السرور ؟ » ألقى هذا السؤال على أحد تلاميذه ، فأجابه هذا بقوله : « إنه الحزن يا مولاى »[٤١]

إذن فأس الشرور هو « ظامِئًا » ــ وليس معناها الشهوة كائنة ما كانت ، بل الشهوة الأنانية ، الشهوة التى يوجهها صاحبها إلى صالح الجزء أكثر مما يريد بها صالح الكل ؛ وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدى إلى التناسل الذى يطيل من سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة ؛ وقد استنتج أحد تلاميذه من ذلك أنه ــ أى بوذا ــ بهذا الرأى يجيز الانتحار لكن بوذا عنفه على استنتاجه ذاك ، قائلا : إن الانتحار لا خير فيه ، لأن روح المنتحر ــ بسبب ما يشوبها من أدران ــ ستعود فتولد من جديد فى أدوار أخرى من التقمص ؛ حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً .

ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة فى رأيه لكى يزيد الرأى وضوحاً ، صاغ لهم ، « قواعد خلقية خمسة » يهتدون بها ــ وهى بمثابة

الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة ، غير أنها قد تكون «أشمل نطاقاً وأعسر التزاماً ، مما تقتضيه الوصايا العشر[٤٢](*) » .

وأما وصاياه الخمس فهى :

١ ــ لا يقتلن أحد كائناً حياً .

٢ ــ لا يأخذن أحد ما لم يُعْطَه .

٣ ــ لا يقولن أحد كذباً .

٤ ــ لا يشربن أحد مسكراً .

٥ ــ لا يقيمن أحد على دنس[٤٣] .

وترى بوذا فى مواضع أخرى يضيف إلى تعاليمه عناصر يتسلف بها تعاليم المسيح على نحو يدعو إلى العجب : « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير . . . إن النصر يولد المقت لأن المهزوم فى شقاء . . . إن الكراهية يستحيل عليها فى هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، إنما تزول الكراهية بالحب[٤٤] » . وهو كالمسيح لم يكن يطمئن نفساً فى حضرة النساء ، وتردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ؛ ولقد سأله تلميذه المقرب « أناندا » ذات يوم :

ــ « كيف ينبغى لنا يامولاى أن نسلك إزاء النساء ؟ » .

ــ « كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا »

ــ « لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟ »

ــ « لا تتحدث إليهن يا أناندا »

ــ « لكن إذا ما تحدثن إلينا يامولاى فماذا نصنع ؟ »

ــ « كن منهن على حذر تام يا أناندا » ؛

(*) يشير إلى الوصايا العشر التى جاءت بها الديانة اليهودية : لا تسرق ، لا تقتل الخ . (المعرب)

كانت فكرته عن الدين خلقية خالصة ؛ فكان كل ما يعنيه سلوك الناس وأما الطقوس وأما شعائر العبادة ، وما وراء الطبيعة واللاهوت ، فكلها عنده لا تستحق النظر ؛ وحدث ذات يوم أن هم برهمي بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه فى « جايا » ، فقال له بوذا : « استحم هنا ، نعم هاهنا ولا حاجة بك إلى السفر إلى جايا أيها البرهمي ؛ كن رحيما بالكائنات جميعاً ؛ فإذا أنت لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقتل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمناً فى حدود إنكارك لذاتك — فماذا تجنى من الذهاب إلى « جايا » ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه جايا »[٤٦] ؛ إنك لن تجد فى تاريخ الديانات من هو أغرب من بوذا يؤسس ديانة عالمية ، ومع ذلك يأبى أن يدخل فى نقاش عن الأبدية والخلود والله ؛ فاللانهائى أسطورة — كما يقول — وخرافة من خرافات الفلاسفة ، الذين ليس لديهم من التواضع ما يعترفون به بأن الذرة يستحيل عليها أن تفهم الكون ؛ وإنه ليبتسم[٤٧] ساخراً من المحاورة فى موضوع نهائية الكون أو لا نهائيته ؛ كأنما هو قد تسلف بنظره

إذ ذاك ما يدور بين علماء الطبيعة والرياضيين اليوم من مناقشة حول الموضوع مناقشة ما أقربها من حديث الأساطير ؛ لقد رفض أن يبدى رأيا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هي هي البدن أو شيئاً متميزاً منه أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم ؛ وهو يسمى هذه المشكلات « غاية التأمل النظرى وصحراءه وبهلوانه والتواءه وتعقيده »[٤٨] ويعتزم ألا يكون له شأن بأمثال هذه المسائل ، فهى لا تؤدى بالباحثين فيها إلا إلى الخصومة الحادة ، والكراهية الشخصية والحزن ، ويستحيل أن تؤدى بهم إلى حكمة أو سلام ، إن القدسية والرضى لايكونان فى معرفة الكون والله ، وإنما يكونان فى العيش الذى ينكر فيه الإنسان ذاته ، ويبسط كفه للناس إحساناً[٤٩] ؛ ثم يضيف إلى ذلك تهكماً بشعاً فيقول إن الآلهة أنفسهم ، لو كان

لهم وجود ، لما كان فى وسعهم أن يجيبوا عن أمثال هذه المسائل .

« حدث ذات مرة يا «كفاذا» أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء هذه ، حول النقطة الآتية : «أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى : التراب والماء والنار والهواء ، بحيث لاتترك وراءها أثراً ؟ »وجعل ذلك الزميل يقدح زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد اتضحت له معها السبيل المؤدية إلى الله .

عندئذ يا «كفاذا» صعد هذا الزميل إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ، وخاطب آلهتهم قائلا : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فلما أن فرغ من سؤاله هذا ، أجابه الآلهة فى سماء الملوك الأربعة الكبار : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار ، هم أقوى منا وأعظم ، سَلْهُمْ يجيبوك » .

[وعندئذ يا «كفاذا» ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة وسأل نفس السؤال فأحيل بمثل ذلك الجواب إلى «الثلاثة والثلاثين» الذين أحالوه بدورهم إلى ملكهم «ساكا» الذى أحاله إلى آلهة «ياما» ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم «سوياما» الذى أحاله إلى آلهة «توسيتا» ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم «سانتوسيتا» ، الذى أحاله إلى آلهة «نمانا — رتى» ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم «سونى ميتا» الذى أحاله إلى آلهة «پارانيميتا ڤاساڤاتى» ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم «ڤاساڤاتى» الذى أحاله إلى آلهة العالم البرهمى » .

وبعدئذ «يا كفاذا» جعل ذلك الزميل يركِّز تفكيره فى نفسه تركيزاً استنفد كل ذرة من انتباهه ، وانتهى به ذلك التفكير المركَّز إلى شهوده بعقله الذى أمسك هكذا بزمامه ، طريقَ العالم البرهمى واضحاً ؛ فدنا من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما ، وقال : «أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة

الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

« فلما فرغ من سؤاله أجابته الآلهة التي تؤلف حاشية براهما قائلة : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، ولكن هنالك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مَن بيده الأمر والتدبير في جميع الشئون ، فهو ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ... هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! إنه أقوى منا وأعظم ، سَلْهُ يجبك » .

« أين إذن هذا البراهما العظيم ؟ » .

« إننا يا أخانا لا ندرى أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ولا من أين جاء ؛ ولكن يا أخانا إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء وسطع المجد ، عندئذ سيتبدّى للناظرين ، لأن بادرة ظهور براهما هي إشراق الضوء وسطوع المجد » .

ولم يمض طويل وقت بعد ذلك يا « كفاذا » حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك وسأله : « أين يا صديقى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » ؟

فلما فرغ من سؤاله أجابه براهما العظيم : « أنا يا أخى براهما العظيم العلى القوى البصير ، بيدى الأمر والتدبير في كل شيء ، وأنا ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ، أعين لكل شيء مكانه ، أنا السابق للزمان والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! »

عندئذ أجاب الأخ براهما قائلا : « أنا لم أسألك يا صديقى هل أنت حقاً كل هذا الذى ذكرت من صفات ، لكنى سألتك أين تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فأجابه براهما نفس الجواب مرة أخرى يا «كشاذا» .

وأعاد أخونا سؤاله للمرة الثالثة إلى براهما .

فأخذ براهما العظيم — يا «كشاذا» — أخانا ذاك ونحّاه جانباً وقال : «إن هذه الآلهة التي منها تتألف حاشية براهما ، تعتقد أني — يا أخي — أرى كل شيء وأعلم كل شيء وأتبين كل شيء ؛ ولهذا لم أجبك في حضرتهم ؛ لكنني ، أيها الأخ ، لست أدري أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً »(٥٠) .

فإذا ما قال لبوذا بعض تلاميذه ، أن البراهمة يزعمون الإلمام بحلول هذه المسائل ، أجابهم ساخراً : « هنالك يا إخواني بعض الرهبان وبعض البراهمة يتلوون مثل ثعابين الماء ، فإذا ما ألقيت عليهم سؤالا في هذا الموضوع أو ذاك ، عمدوا إلى غموض القول ، وإلى تلوى الثعابين(٥١) ؛ ولو بدتْ من بوذا حدّة إزاء أحد إطلاقاً ، فإنما كان حاداً تجاه كهنة عصره ، فهو يهزأ بدعواهم أن أسفار الڤيدا من وحي الآلهة(٥٢) ، ويفضح البراهمة المعتزين بطبقتهم بقبوله

في طائفته أعضاء الطوائف جميعاً بغير تفريق ؛ إنه لا يهاجم نظام الطبقات مهاجمة صريحة ، لكنه يقول لتلاميذه في وضوح وجلاء : « انتشروا في الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة ؛ قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ، والأغنياء والأعين ، كلهم سواء ، وكل الطبقات في رأى هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار تصب كلها في البحر »(٥٣) ، وهو يرفض الأخذ بفكرة التضحية في سبيل الآلهة ، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا أمثال هذه الطقوس(٥٤) ؛ ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، ويربأ بنفسه عن التعزيم والرُّقى والتقشف والدعاء(٥٥) ، ويقدّم للناس في هدوء وبغير محاجة وبلجاج ديناً حرّاً أكمل الحرية من جمود الفكر ومن صناعة الكهنوت ، ويفتتح طريقاً للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء .

وقد يتحول هذا القديس أحياناً ، الذى هو أشهر من عرف الدهر من قديسى الهندوس ، قد يتحول من اللاأدرية إلى إلحاد صريح(٥٦)(*) ، إنه لا ينحرف عن جادّته لينكر وجود الله ، بل إنه حيناً بعد حين يذكر براهما كأنه حقيقة واقعة أكثر منه مثلا أعلى(٥٨) ثم هو لا يحرّم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس(٥٩) لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى « المجهول » ، وفى ذلك يقول : « إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقائك(٦٠) لأن السعادة والشقاء دائما نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن ؛ وهو يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها « قوة وراء الطبيعة » ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيما(٦١) ؛ وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذى ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية فى الحياة ، من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادة عن عمد وتدبير ؛ وهو يرى أن هذه الأغلاط فى نظام الكون ترجح ما فيه من آيات تدل على تدبير وتنسيق(٦٢) ؛

انه لا يرى على هذا المسرح الذى تمتزج فيه الفوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأً ينم عن الدوام ، ولا مركزاً لحقيقة أبدية خالدة(٦٣) ، وكل ما يراه فى الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك فى تغير ؛ إن الحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة هى التغير .

وكما أنه يقترح لاهوتاً بغير إله ، فكذلك يقدم لنا علم نفس بغير نفس ؛ فهو يرفض الروحانية فى شتى صورها حتى فى حالة الإنسان ؛ وهو يوافق هرقليطس وبرجسُن فى رأيهما عن العالم ، كما يوافق هيوم فى رأيه عن العقل ، فكل ما نعرفه هو إحساساتنا ، وإذن ، فإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا ، لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها نوع من الحركة ،

(*) يقول سير تشارلز إليت إن البوذية « لا ترى العالم على أنه من خلق شخصية إلهية ، كلا ولا ترى القانون الأخلاق على أنه من أمرها ؛ فكون الديانة تستطيع أن تقوم بغير هذه الأفكار أمر عظيم الخطر »(٥٧) .

الحياة تغيُّر ، هي مجرى دافق محايد من صيرورة وفناء ؛ إن « الروح » أسطورة من الأساطير ، فرضناها بغير مبرر يؤيدها ، لنريح بهذا الفرض أذهاننا الضعيفة ، فرضناها قائمة وراء سلسلة الحالات الشعورية المتعاقبة[٦٤] إن هذا « الرابط الذي يربط المدركات دون أن يكون واحداً منها » ، هذا « العقل » الذي ينسج خيوط إحساساتنا وإدراكاتنا في نسيج من الفكر ، إنْ هو إلا شبح توهمناه ؛ وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية في هيئة تذكرات وأفكار[٦٥] ؛ حتى هذه «الذات» النفسية ليست كائناً قائماً بذاته متميزاً من سلسلة الحالات العقلية ؛ ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات[٦٦] ؛ إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والعادة والبيئة والظروف[٦٧] فهذا العقل السائل الذي لا يعدو أن يكون

مجموعة من حالات عقلية ، هذه النفس أو هذه الذات التي ليست إلا ميلا نحو سلوك معين أو هوى إلى اتجاه بذاته ، كونته الوراثة التي لا حول لها ولا قوة ، كما كونته كذلك الخبرة العابرة خلال تجارب الحياة ، أقول إن هذه النفس أو هذه الذات أو هذا العقل يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد في وجوده[٦٨] فليس القديس ، بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه[٦٩] .

ولكن إن كان ذلك كذلك ، فيكف يمكن أن يعود الحي إلى الحياة من جديد في ولادة ثانية ؟ إذا لم يكن هناك روح ، فما الذي يتقمص أجساداً أخرى في ولادات تالية ، ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو حال في صورة الجسد ؟ تلك هي أضعف الجوانب في فلسفة بوذا ، فهو لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض الكائن بين علم نفسه العقلي وبين قبوله لمذهب التقمص قبولا

أعمى ؛ إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ أو تقمص الروح فى أجساد متتالية له فى الهند قوة وشمول بحيث يعتنقه كل هندوسى على أنه بديهية أو فرض لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه ؛ فتعاقب الأجيال هنالك تعاقباً سريعاً متلاحقاً بسبب قصر الأعمار وكثرة النسل ، يوحى إلى الإنسان إيحاء لا يستطيع أن يفرّ منه ، بأن القوة الحيوية تنتقل من جسد إلى جسد — أو بأن الروح تحل بدناً بعد بدن ، إذا عبرنا عن الأمر بعبارة لاهوتية — ؛ ولقد طافت الفكرة برأس بوذا مع مَرّ الهواء فى أنفاسه ؛ فهذا الهواء يدخل شهيقاً ويخرج زفيراً هو الحقيقة الواحدة التى لم يشك فيها قط على ما يبدو[٧٠] ؛ إنه سلم تسليما بعجلة التناسخ فى دورانها وبقانون « كارما » وتفكيره كله إنما يدور حول سبيل الفرار من هذه العجلة الدوارة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه النرڤانا فى هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام فى الحياة الآخرة .

ولكن ما « النرڤانا » ؟ إنه من العسير أن تجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضاً ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ؛ فالكلمة فى السنسكريتية بصفة إجمالية معناها « منطفئ » كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار ؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (١) حالة من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً ؛ (٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (٣) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (٤) اتحاد الفرد بالله ؛ (٥) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة فى تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعنى به الفرار من العودة إلى الحياة[٧١] ؛ وأما فى الأدب البوذى ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس فى هذا الأدب مزاراً بأنه اصطنع النرڤانا فى حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهى : السيطرة على

النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس[٧٣] ؛ تلك هي مكنونات الـ ڤانا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التي تسبب وجودها ، أما العامل المتسبب لوجودها ، والمصدر الذي تنبثق عنه النرڤانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ، وعلى ذلك تتخذ كلمة « نرڤانا » في معظم النصوص معنى السكينة التي لا يشوبها ألم ، والتي يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خلقياً[٧٤] ؛ يقول بوذا : « والآن فهذه هي الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه في الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتهي ، إنه اطراح هذا الظمأ اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من ربقته ، ونبذه من نفوسنا نبذاً لا عودة له »[٧٥] وأعني به هذه الحمى التي تنتابنا من شهوتنا في البحث عن أنفسنا ؛ إن كلمة « نرڤانا » في تعاليم الأستاذ الزعيم تكاد دائماً ترادف في معناها كلمة نعم[٧٦] وهو رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعنيها بعدئذ أمر نفسها ؛ لكن النرڤانا الكاملة تقتضي العدم : وإذن فثواب التقوى في أعلى منازلها هو ألا يعود التقي إلى الحياة[٧٧] .

ويقول بوذا إننا في نهاية الأمر ندرك ما في الفردية النفسية والخلقية من سخف ؛ إن نفوسنا المضطرمة ليست في حقيقة الأمر كائنات وقوى مستقلا بعضها عن بعض ، لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق ؛ إنها عُقَد صغيرة تتكون وتتكشف في شبكة القدر حين تنشرها الريح ؛ فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة ، وما يعتورها من مختلف الآلام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر ، لا تعود هذه الأشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل ؛ عندئذ تفنى هذه الأشخاص في خضم اللانهاية ؛ إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً ، عندئذ ننعم آخر الأمر بما ننشد من هدوء .

بوذا فى أيامه الأخيرة

معجزاته – زيارته لبيت أبيه – الرهبان البوذيون – موته

ننتقل من هذه الفلسفة العالية إلى الأساطير الساذجة التى هى كل ما لدينا عن بوذا فى حياته الأخيرة وفى موته ؛ فعلى الرغم من ازدرائه للمعجزات ، إنتحل تلاميذه ألف حكاية عن الأعاجيب التى تمت على يديه ؛ فقد سار عبر نهر الكنج فى لمحة بفعل السحر ؛ وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، فنبتت الشظية شجرة ؛ وعندما اختتم وعظه ذات يوم « اهتز العالم كله من أقصاه إلى أقصاه »[80] ؛ ولما أطلق عليه عدوه « ديفاندانا » فيلاً مفترساً ، « غلبه بوذا بالحب » حتى خضع الفيل له خضوعاً كاملا[81] ؛ وقد انتهى « سينارْت » وآخرون إلى نتيجة من أمثال هذه الملَح ، وهى أن أسطورة بوذا قد تكونت على أساس من أساطير الشمس القديمة[82] ومهما يكن من أمر ، فبوذا معناه عندنا الأفكار التى تنسب إليه فى الأدب البوذى ، ولا شك فى أن بوذا صاحب هذه الأفكار التى كان حقيقة تاريخية .

إن الكتب البوذية المقدسة تصور لنا بوذا فى صورة تشرح الصدور ؛ فقد التف حوله أتباع كثيرون ، وذاعت شهرته فى مدائن الجزء الشمالى من الهند ؛ ولما سمع أبوه أنه على مقربة من « كابيلا ڤاستو » أرسل إليه رسولا يدعوه لقضاء يوم فى مدرج طفولته ؛ وذهب بوذا إلى أبيه الذى كان قد حزن على أميره المفقود ، فسُرَّ أبوه لعودة القديس ساعة من الزمن ؛ وجاءته زوجته التى أخلصت له طوال غيابه عنها ، فجثت أمامه وأمسكت بعقبيه ، ووضعت قدميه حول رأسها ، وقدسته كما تقدس الله ؛ وقص عليه الملك « شُدْذوذانا » قصة حبها له حباً شديداً : « مولاى إن زوجتك حين علمت أنك تلبس رداء

أصفر (وهو ثوب الزاهدين) لبست هي الأخرى رداء أصفر ؛ ولما علمت أنك تأكل وجبة واحدة كل يوم ، أكلت هي الأخرى وجبة واحدة ؛ ولما علمت أنك أبيت النوم على سرير كبير ، نامت هي الأخرى على كنبة ضيقة ، ولما علمت أنك رفضت أكاليل الزهور ورفضت العطور ، رفضتها هي الأخرى » فباركها بوذا ومضى إلى سبيله(٨٣) .

ثم جاءه ابنه « راهولا » وعبر له عن حبه قائلا : « إن ظلك أيها الزاهد ليَسُرُّ النفس » ؛ وضمه بوذا إلى طائفته الدينية ، ولو أن أم « راهولا » كانت تأمل أن ترى ابنها ملكاً ؛ لهذا نصبوا أميراً آخر ، وهو « ناندا » ولياً للعهد يتولى العرش حين يحين الحين : لكن « ناندا » ترك حفلة التنصيب — كأنه في غيبوبة — ، تركها قبل ختامها وغادر المملكة وقصد إلى بوذا ، طالباً إليه أن يضمه هو أيضاً إلى طائفته الدينية ، فلما سمع بذلك الملك « شدذوذانا » حزن والتمس عند بوذا مكرمة ، قائلا له : « لما طلق مولانا هذه الدنيا ، لم يكن ذلك

هين الوقع على نفسي ، وكذلك حين غادرنا « ناندا » وقل ما هو أكثر من هذا عن فراق « راهولا » إن حب الوالد لولده يحز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ؛ فرجائي إليك يا مولاي ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم ابناً بغير استئذان أبيه وأمه » فوافق بوذا ، وجعل استئذان الوالدين شرطاً لازماً لانضمام العضو الجديد إلى طائفته(٨٤) .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التي أرادت أن تستغني عن الكهنوت ، كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة البراهمة ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التي كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ، ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغنى الشباب في بنارس والمدن المجاورة لها ، واصطنع

هؤلاء الرهبان فى حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يحيون بعضهم بعضاً ، كما يحيون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هى : « السلام على الكائنات جميعاً »(*) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وكان حتما عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات « تاوتش » والملاهى والألعاب وأسباب الترف واللغو فى الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، ولم يكن يجوز لهم أن يؤدوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، وكان لابد لهم أن يصونوا عفتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا فى طهر كامل[٨٥] ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ، وفى ذلك قال : « إذا لم تأذن يا أناندا للنساء بالدخول فى طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء — بغير دخول النساء — ألف عام ؛ أما وقد أذن لهن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم تشريعنا أكثر من خمسمائة عام »[٨٦] ، وكان فى ذلك على صواب ، فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة وخرافات لا تقع تحت الحصر .

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك فى صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه ؛ وورد فى محاورة من أواخر محاوراته :

(*) انظر أيضاً صيغة السلام الجميلة التى يستعملها اليهود والمسلمون] « السلام عليكم ؛ فالناس نهاية الأمر لا ينشدون السعادة ، ولكن ينشدون السلام .

وجاء « ساريپوتا » الوقور إلى حيث كان النبي المعظم ، وحياه وجلس إلى جانبه فى احترام وقال :

« مولاى ، إن إيمانى بالنبي العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا ، سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبي العظيم . . . فيما يخص الحكمة العليا » .

فأجابه الأستاذ : « كلماتك عظيمة جريئة يا « ساريپوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رُحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه ! وكأنى بك — إذن — قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى . . . وفهمت آراءهم بعقلك . فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون . . . وأى ضروب التحرر قد بلغوا ؟ » .

« لا ياسيدى ، لم أبلغ من الأمر كل هذا » .

« وكأنى بك قد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتى بهم الزمان .. وفهمت كل آرائهم بعقلك ؟ » .

« لا يا مولاى ، لم أبلغ من الأمر هذا » .

« إذن فلا أقل يا « ساريپوتا » من أن تكون قد عرفتنى . . . وأن تكون قد تغلغلت فى ضمير عقلى ؟ » . . .

« حتى ولا هذا يا مولاى » .

« إذن فهأنت ذا ترى يا « ساريپوتا » أنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهروا فيما مضى ، والذين سيظهرون فى المستقبل ؛ فلماذا إذن تقول مثل هذه الكلمات العظيمة الجريئة ، لماذا تنطاق منشداً لأغنية النشوان ؟ »(٨٧)

وكذلك لقن « أناندا » أعظم دروسه وأشرفها :

« وإن كل من صار لنفسه — يا أناندا — مصباحاً يهدى ، وكل من صار لنفسه ملاذاً يؤوى ، سواء فى حياتى أو بعد موتى ، فلن يلتمس لنفسه من غير

نفسه مأوى ، وسيستمسك بالحق مصباحاً ... فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً — أمثال هؤلاء ... هم الذين سيبلغون أعلى الذ ّرى ! لكن ينبغي أن يكون بهم شغف بالمعرفة »[٨٨] .

ومات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وهو فى عامه الثمانين ، وكانت آخر كلماته لرهبانه : « والآن أيها الرهبان ، ها أنذا أوجه إليكم الخطاب ؛ إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد ّ »[٨٩] .

السيرة الملحميّة

التجسّد

عاش البوذا حيواتٍ كثيرة. وفي آخر تجسّداته، بلغ المعرفة الّتي حرّرته من الولادة المتكرّرة (سمسرة).

ونزل من السماء في صورة فيل أبيض له ستّة أنياب.

ودخل في أحشاء أمّه من خاصرتها.

الولادة

وبعد عشرة أشهر، خرج من خاصرتها من دون دنس، فأمطرت السماء ورداً وانتشرت في الجوّ موسيقى حالمة. ووضعت الأمّ مولودها على زهرة لوتس فنهض ونظر نظرة الأسد، وسار سبع خطواتٍ في كلّ اتّجاهٍ من الاتّجاهات الأربعة وقال: - أمشي في الصفّ الأوّل لموكب البشر. سأنهي الولادة والشيخوخة والمرض والموت.

لن يكون لي سيّد من بين الكائنات. أنا أسمى ما في العالم، أنا أفضل ما في العالم، أنا بكر ما في العالم.

هذه هي ولادتي الأخيرة. ولن يكون لي وجود آخر. وجاء ناسك من الهيمالايا وفحص المولود، فرأى في جسده الاثنتين وثلاثين علامة المميّزة للرجل العظيم .

حزن الأب للخبر وتمنّى أن يعيش ابنه بحسب نظام (دهارما) طبقته الاجتماعيّة، فجنّبه التكوين الدينيّ، وجعله يعيش حياة لهو.

فشبّ سيذهارتا على اللامبالاة والفروسيّة، وظهر ذكاؤه في كلّ شيءٍ يفعله. وتزوّج الأميرة ياصوذارا وعاش معها حياةً سعيدة.

اللقاءات الأربعة

دبّ السأم في نفس سيذهارتا من حياته الرتيبة، فجعل يخالط الناس في الشوارع على الرغم من أنّ قانون الدهارما يمنع ذلك.

وذات يوم، صادف عجوزاً أنهكته الشيخوخة، ومنظره يبعث على الاشمئزاز. فسأل الحوذيّ:

- أيّ نوعٍ من الناس هذا؟

- إنّه يا سيّدي إنسان حنت السنون ظهره.

- وما الّذي فعله حتّى أصبح هكذا؟

- إنّه مصير كلّ إنسانٍ يا سيّدي. لابدّ للشباب أن يذوي وللشيخوخة أن تأتي

فصاح سيذهارتا مضطرباً:

- يا لتعاسة الخليقة الجاهلة الضعيفة. يسكر ذكاؤها من كبرياء الشباب فلا يرى الشيخوخة. عُد بنا أيّها الحوذيّ، ما نفع اللهو والملذّات إذا كان المصير هو أن نشيخ!

وفي المرّة الثانية، صادف رجلاً مصاباً بالطاعون، وقد ملأت القروح جسده واسودّت بشرته. كان يجلس على قارعة الطريق يتنفّس بصعوبة. وسأل الحوذيّ عنه فأخبره ما هو المرض. فقال:

- الصحّة إذاً حلمٌ جميل. ولبشاعة المرض شكل رهيب. أيّ حكيمٍ يسعى إلى الملذّات بعد أن يرى حقيقة الوجود هذه؟

في المرّة الثالثة، رأى جنازة تتّجه نحو المحرقة. وسأل الحوذيّ فأخبره ما هو الموت. فقال :

- الويل للشباب المفخّخ بالشيخوخة. الويل للصحّة الّتي تدمّرها جميع الأمراض. الويل لحياة الإنسان الّتي لا تدوم دهراً. الويل لسحر الملذّات الّذي يستولي على قلب الحكيم .

وفي المرّة الرابعة التقى زاهداً (بهيكشو) بيده قصعة، والناس يلقون إليه بالصدقات : فسأل الحوذيّ .

- مَن هذا الرجل صاحب التنفّس الهادئ، الّذي يسير مطأطئ الرأس، ولا ينظر إلاّ إلى الأرض القريبة من قدميه؟ يبدو عليه الهدوء والسكينة .

- إنّه راهب زاهد يا سيّدي. هجر مُتَعَ الشهوات ليعيش حياة منتظمة، باحثاً عن سكينة ذاته. إنّه يتنقّل سائحاً، ويقبل الصدقات ولا يشعر بأيّ عاطفة .

- حسناً أجبتَ أيّها الحوذيّ. كم أتشوّق إلى حياةٍ كهذه. فالحكماء يمدحون الدخول في الدين لأنّه يفيد الذات والكائنات. إنّها حياة يسودهاالهدوء ويملؤها اللطف وتكثر فيها ثمار الأعمال الصالحة .

الرحيل

لاحظ الأب تغيّر مزاج ابنه، وعلم أنّه ينوي ترك المجد للبحث عن الحقيقة الّتي تحرّر الإنسان من الشيخوخة والمرض والألم والموت. فحاول ثنيه عن عزمه عبثاً : وفي آخر الأمر قال له .

- ابقَ في القصر واطلب ما تشاء .

- أريدك يا أبتِ أن تمنحني أربعة أشياء: أن أحافظ على نضارة شبابي، وألاّ أصاب بمرض، وألاّ يكون لحياتي نهاية، وألاّ يفنى جسدي .

صمت الأب حزيناً فتابع سيذهارتا كلامه.

إذا كنتَ عاجزاً عن أن تجنّبني الشيخوخة والمرض والموت والفناء، ساعدني إذاً - على ألاّ أعود إلى الحياة ثانيةً.

وأنجبت زوجة سيذهارتا طفلاً سمّته رؤولا. فشعر بأنّه وفى دينه لأجداده. فتسلّل ليلاً من البيت وهرب إلى الغابة.

وخلع ثيابه الفاخرة، ولفّ جسده بلحاء الشجر، وقصّ شعره وساح يبحث عن الحقيقة زاهداً. في بداية الأمر، عاش سيذهارتا مع الكهنة البراهمانيّين، وتعلّم منهم طرائق البحث عن الأنا (أتمان) وإيصاله إلى الطاقة الكونيّة (براهمان). لكنّه وجد أنّ هذه الطرائق معقّدة وقاسية لا رأفة فيها.

ولا تؤدّي في آخر الأمر إلاّ إلى هروبٍ مؤقّتٍ من الولادة المتكرّرة (السمسرة). فهجرهم وانضمّ إلى جماعة راما بوترا النسكيّة الّتي تعيش في قمّة النسور بالهيمالايا. وتتلمذ على يد اليوغيّ ألارا كلايا.

فتعلّم الجلوس متربّعاً والثبات في هذه الوضعيّة مدّةً طويلة بدون حركة، والسيطرة على إيقاع التنفّس، والصوم أيّاماً على مثال الحشرات في سباتها الشتويّ.

فلا يأكل إلاّ أرزّةً واحدة يوميّاً، وينام على سرير من الأشواك البرّيّة. لكنّه شعر أيضاً بعد عدّة سنوات، بأنّه لن يبلغ الخلاص بتعذيب جسده أو السيطرة على حواسّه. فترك معلّمه وسار يبحث عن الحقيقة بنفسه.

التقى سيذهارتا في طريقه بخمسة زهّادٍ فجعلهم رفاقه، وأقام معهم بالقرب من جدولٍ صغيرٍ مدّة سبع سنوات.

وكان يحاول في تأمّلاته ألاّ يعير جسده انتباهاً كي يزيد من سموّ فكره.

ولم يكترث للسيطرة على حواسّه كما يفعل اليوغيّون،لأنّ غايته هي بلوغ المعرفة وإذ أخفقت جميع محاولاته، قرّر أن يعيش حياة الزاهدين (بهيكشو). فسخِرَ رفاقُه منه ونعتوه بالجبن لأنّه سيهجر التقشّف القاسي لينعم بعطايا المحسنين.

فلم يكترث لسخريتهم، وأخذ كفناً صنع لنفسه منه ثوباً، وصار يتسوّل، فشعر بأنّه يقترب من المعرفة.

الجهاد الأخير

ذات مساء، جلس سيذهارتا تحت شجرة تين، بالقرب من قرية أورفِلا. فقدّمت له بنت البستانيّ طبق أرزّ بالحليب أعدّتها تقدمةً لروح الشجرة. فأكل الآرزّ ثمّ قال في نفسه:

- لو كنتُ سأتمكّن اليوم من أن أصير بوذا، فليذهب الطبق بعكس التيّار، وإلاّ فلينجرف معه.

ورمى الطبق في الماء فانزلق على سطحه حتّى منتصف النهر، ثمّ شقّ المياه متقدّماً بعكس النيّار كسفينةٍ تدفعها رياح شديدة. ثمّ غاص في دوّامة ماء وسقط على قصر الأفاعي، فارتطم بأطباق بوذا سبقوه، واصطفّ بجانبهم. وسمع مارا ملك الأفاعي صوت الارتطام فصاح:

- ماذا؟ بالأمس عاش بوذا وها إنّ آخر قد ولِدّ ؟!

وتربّع سيذهارتا على مقعدٍ من القش ووجهه نحو الشرق، واتّخذ وضعيّة اللوتس وقال:

- حتّى وإن جفّ جلدي، حتّى وإن شُلّت يداي، حتّى وإن تفتّتت عظامي، لن أتحرّك عن هذا المقعد طالما لم أبلغ المعرفة. ودلّى ذراعه اليمنى فلمست راحته الأرض لتكون له شاهداً.

وعلم مارا، إله الملذّات وزعيم عالم السمسرة، بما فعله سيذهارتا، فخاف واضطرب اضطراباً شديداً لأنّه لا يريد أن يفلت أيّ حيّ من شريعة الموت والولادة. فجعل يجرّب الرجل الجالس على التبن تحت الشجرة ليمنعه من اكتشاف طريق الخلاص.

فأحاط المتأمّل بظلامٍ دامسٍ، ثمّ أمطر عليه حجارة وجمر ورمادٍ وطين، حتّى إنّ الآلهة هربت هلعاً. لكنّ سيذهارتا ظلّ ثابتاً والأرض تشهد له. وعندما انهزم مارا، تهلّلت الآلهة وصاحت: "لقد انهزم مارا، وانتصر الأمير سيذهارتا، فلنحتفل

بالنصر". وعانقت الأفاعي الأفاعي، والعصافير العصافير، والآلهة الآلهة، وفاح عبير الورود حول العظيم الجالس على عرش الحكمة.

البوذا

وأدرك الساهر المتأمّل في ليلته الأولى جميع حيواته السابقة، وفهم سرّ السمسرة (الولادة المتكرّرة)، فتحرّر منها وأصبح بوذا.

وفي الليلة التالية، فهم حالة العالم الحاضرة. وقبل أن ينهي الفجر ليلته الثالثة، عرف تسلسل الأسباب والنتائج فقال:

- ما أتعس هذا العالم! إنّه يشيخ ويموت ثمّ يولد ثانيةً ليشيخ ويموت أيضاً إلى ما لا نهاية ... أليس سبب الشيخوخة والموت هو الولادة والرغبة في الولادة؟ إذا قتلنا الرغبة الّتي تقود الكائن من ولادةٍ إلى ولادة، نعيق الولادات الأخرى والآلام الأخرى. وما من وسيلة تقتل هذه الرغبة غير الحياة النقيّة.

تحريك عجلة القانون

بعد أن أصبح سيذهارتا بوذا، تساءل هل يعلن ما اكتشفه للناس؟ ألن يسيئون فهمه؟ لو ظلّ صامتاً، لأصبح براتييكا بوذا (اليقظ من أجل نفسه) مثل كثيرين سبقوه. لكنّ الإله براهما تدخّل ورجاه أن ينشر تعاليمه.

ففكّر البوذا بالقريبين من الحقيقة ولا يحتاجون إلاّ إلى عونٍ يسير لبلوغها، وشعر بالأرض الّتي يمسّها، وتذكّر صعوبات حيواته الماضية، وقارن بين السلام الأبديّ في الخلاص (نيرفانا) وحبّه للبشر، وقرّر أن يكون بوذا خلاص الناس.

فصرخ

- ليُفتح باب الأبديّة، ومَن له أذنان للسماع فليسمع الكلمة ويؤمن. لقد انشغلتُ بآلامي أيّها البراهما فلم أكشف حتّى الآن الحقيقة للناس.

موعظة بنارِس

انطلق بوذا يبحث عن رفاقه الخمسة، فهم أقرب الناس إلى الحقيقة. ووصل إلى بنارِس، فوجدهم مجتمعين في حديقة الغزلان. فسخروا منه حين رأوه، لكنّهم سرعان ما لاحظوا نوراً يشعّ منه فسجدوا له قبل أن يخبرهم أنّه أصبح بوذا. فألقى "عليهم خطبته الشهيرة الّتي سُمّيت "عظة بنارِس

أنا القدّيس الكامل، البوذا الأعظم. افتحوا آذانكم أيّها الرهبان واسمعوا لي فقد وجِدَ الطريق. أيّها الرهبان. على مَن يعيش حياة روحيّة أن يتجنّب تطرّفين.

فما هما؟ الأوّل هو التعلّق بملذّات الحواس وبكلّ ما هو دنيء سافل أرضيّ رديء. فلهذا التعلّق عواقب وخيمة. والثاني هو التعلّق بكلّ ما هو إماتات وإرهاق. فلهذا التعلّق نتائج وخيمة.

أيّها الرهبان. لقد تجنّب البوذا هذين التطرّفين واكتشف الطريق الوسط الّذي يمكّن من الرؤية والمعرفة، ويقود إلى السلام والحكمة واليقظة والنيرفانا.

فما هو الطريق الوسط الّذي اكتشفه البوذا، والّذي يقود إلى السلام والحكمة واليقظة والنيرفانا؟ إنّه الطريق الضيّق النبيل. أي الفهم الصائب والفكر الصائب والكلام الصائب والعمل الصائب والسلوك الصائب والجهد الصائب والانتباه الصائب والتركيز الصائب. هذا هو، أيّها الرهبان، الطريق الوسط الّذي اكتشفه البوذا، والّذي يسمح بالرؤية والمعرفة، ويقود إلى السلام والحكمة واليقظة والنيرفانا. هذه هي أيّها الرهبان الحقيقة النبيلة عن الألم (دوهخا) .

الولادة ألم، والشيخوخة ألم، والمرض ألم، والموت ألم. الاتّصال بما لا نحب ألم، والانفصال عمّا نحب ألم، وعدم الحصول على ما نرغب به ألم. باختصار، العناصر الخمسة (سكانذا) كلّها ألم . هذه هي، أيّها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن سبب الألم. فالرغبة تسبّب الوجود المتتالي والصيرورة المتتالسة.

وللرغبة شراهةٌ عنيفة. فهي تجد ملذّاتها تارةً هنا وتارةً هناك، كالتعطّش لملذّات الحواس، والتعطّش إلى الوجود والصيرورة، والتعطّش إلى عدم الوجود. هذه هي،

أيّها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن زوال الألم. إنّه الزوال الكامل للتعطّش، إهماله، التخلّي عنه، التحرّر منه، التجرّد أمامه. هذه هي، أيّها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن الطريق الّذي يقود إلى إيقاف الألم.

إنّه الدرب الثماني النبيل، أي الفهم الصالح والفكر الصالح والكلام الصالح والعمل الصالح ووسيلة الحياة الصالحة والجهد الصالح والانتباه الصالح والتركيز الصالح.
وبعد أن أنهى بوذا كلامه، رسم بعصاه عجلة الحياة (دهارما فاستانا) حيث المراحل الاثنتيّ عشرة لعدم الخلود.

وقال: في هذه العجلة سماء الآلهة والبشر والحيوانات وأحياء الدرك الأسفل، والشرارات الّتي تحيي كلّ جسد حيّ قبل أن تثبت في المركز إلى الأبد. وهي تنتقل من حلقة إلى أخرى بحسب الأعمال (كارما). تذكّروا هذا جيّداً.

لا تغضبوا من ظروف حياتكم الحاضرة لأنّها عقاب عن الماضي. واعلموا أيضاً أنّ قدركم في المستقبل يتعلّق بنقاوة قلوبكم. إنّها شريعة الكارما (الأعمال) الّتي أعلّمها .

حياة التبشير

أمضى البوذا خمسين سنة من حياته يعلّم عقيدته، وأسّس جماعةً من الرهبان الرجال أوّلاً ثمّ من النساء.

واهتمّ بتعليم أبناء النبلاء (بارهمانا) والمحاربين (كشاتريّا) لأنّهم متّقّفون، وإيمانهم بالسحر والخرافات أقلّ من الطبقات الأخرى.

فعاداه الكهنة البراهمانيّون لأنّ عقيدته تنفي دورهم في التوسّط لإيصال الأتمان (الأنا) إلى البراهمان (الطاقة الكونيّة).

وهذا من شأنه أن يحرمهم مال التقادم والذبائح. كان البوذا وديعاً يرأف بالمتألّمين. ولم يغضب في حياته إلاّ مرّةً واحدة، حين ادّعى واحد من الرهبان أنّه يفوق البوذا معرفة. فألقى عظةً سمّيت "العظة الناريّة":

يجب إطفاء نار الحياة الدنيا لأنّ كلّ ما في العالم يلتهب بنار الرغبة ونار الحقد ونار الجهل. الولادة والشيخوخة والموت والهموم والتذمّرات والألم والحزن والحبّ الجسديّ ليست إلاّ ألسنة لهب ... الأشياء الّتي تراها عيناك أيّها البراهمان تلتهب. الأشياء الّتي تسمعها أذناك تلتهب.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى حواسّك الخمس وحاسّتك الداخليّة. ألا تقرف من حواسّك وما تثيره فيك من أشياء وانطباعات ومشاعر؟ إذا شعرتَ بالقرف، فاعلم أنّك نجوتَ من الشهوات وتحرّرتَ.

وافهم حينذاك أنّ الحياة انتهت عندك، وأنّ القداسة الّتي تتحدّث عنها ستكتمل. وما خلا ذلك فهو وهم يلتهمك. وعاد بوذا، ذات يوم، إلى مسقط رأسه نزولاً عند رغبة أبيه العجوز، ورأى خالته الّتي ربّته وزوجته وابنه رؤولا من دون أن يتأثّر.

ثمّ قاد السكّان إلى خرائب قصرٍ ملكيّ وشرح لهم عجلة الحياة، ثمّ نظر إلى الجموع وقال: - ها هي القواعد الخمس لحياتكم اليوميّة. كونوا رؤفاء واحترموا الحياة حتّى في أبسط أشكالها.

أعطوا وخذوا بحرّيّة، ولا تأخذوا شيئاً بدون استحقاق. لا تكذبوا البتّة، حتّى في المواقف الّتي يبدو الكذب فيها مسموحاً. تجنّبوا المخدّرات والكحول. احترموا المرأة ولا تقترفوا عملاً جسديّاً غير شرعيّ أو يخالف الطبيعة.

خطاب الوداع

وبلغ بوذا الثمانين من عمره من دون أن تبدو الشيخوخة عليه. وفي أحد الأيّام، شعر بالحمّى تسري في جسده، وعجزت ساقاه عن حمله، فأدرك أنّ أجَله قد حان.
فجلس في وضعيّة اللوتس وقال للتلاميذ حوله: - ليس في العوالم المرئيّة وغير المرئيّة إلاّ قدرة واحدة لا بداية لها ولا نهاية. لا شريعة لها إلاّ شريعتها.

لا تميّز ولا تحقد. تقتل وتخلّص ولا هدف لها إلاّ تحقيق القدَر. الألم والموت مكّوك مهنتها، والحبّ والحياة ولداها. لا تسعوا إلى قياس ما لا يُقاس بالكلمات، ولا إلى التعمّق في التفكير بما لا يُدرَك. السائل يخطئ والمجيب يخطئ.

لا تنتظروا شيئاً من آلهةٍ عديمة الرحمة، تخضع هي أيضاً لشريعة الكارما. تولد وتشيخ وتموت لتولد ثانية، ولا تستطيع أن تتفادى آلامها.

اعتمدوا على ذواتكم، ولا تنسَوا أنّ الإنسان يصنع سجنه بنفسه، وأنّ كلّ واحد يستطيع أن ينال تفوق قوّة الأندرا. وسالت الدموع في عينيّ عناندا، ابن عمّه وتلميذه الّذي رافقه طوال أيّام حياته التبشيريّة. فصوّب المعلّم سبّابته نحوه وقال: - ويحك. أتشعر بالألم على الرغم من كلّ ما علّمتُك إيّاه؟ أيصعب كثيراً على الإنسان أن يتخلّى عن جميع آلامه؟ لا تبالغ يا عناندا.

فالحياة نزاع طويل، وما هي إلاّ ألم. حين يبكي المولود عند ولادته فهو محق. إنّها الحقيقة الأولى. أمّا الثانية فهي أنّ الرغبة تسبّب الألم.

يعشق الإنسان ظلالاً ويتيه بالأحلام. ويغرس في مركز كيانه "أنا" زائفة. ويشيد عالماً خياليّاً حولها. لكنّه يهلك عندما يفارق الحياة، لأنّه ارتوى من شرابٍ سامّ، فيولد ثانية مع رغبةٍ شديدة للشرب مرّة أخرى.

أمّا ثالث حقيقة فهي إمكانيّة زوال الألم. لا تستطيع أن تبلغها يا عناندا إلاّ إذا تغلّبت على جميع أنواع الحبّ فيك، ونزعت الشهوات نهائيّاً من قلبك. عندئذٍ تعيش أسمى من الآلهة. اسمع الحقيقة الرابعة جيّداً، فهي طريق خلاص له ثمانية دروب. إحرص أوّلاً على الكارما الّتي تصنع مصيرك في المستقبل.

لا يكن لديك إلاّ مشاعر خالية من الإهمال والنهم والغضب. احرُس شفتيك وكأنّهما باب قصر يسكنه ملك، واحرص على ألاّ يخرج منهما أيّ دنس. وفي آخر الأمر، ليكن كلّ عملٍ من أعمالك هجوماً على الخطأ أو مساعدة لمن يستحقّ النمو. هذه هي الدروب الأربعة الأولى.

ألا تظنّ أنّه بوسع كلّ إنسانٍ أن يسلكها؟ وحين تتغلّب الكبرياء والإيمان الكاذب والشكّ والحقد والشراهة، وتولد مرّةً أخرى، تستطيع في حياتك التالية أن تسلك في

الدروب الأربعة الباقية وهي: النقاوة المستقيمة والفكر المستقيم والخلوة المستقيمة والانخطاف المستقيم. فتصبح أهلاً لقهر رغبتك في الحياة على الأرض، ورغبتك في كسب السماء، وأخطاءك خصوصاً الكبرياء، لأنّك تقدّمت في طريق القداسة. حينئذٍ تكون قريباً جداً من النيرفانا. وشعر البوذا بألمٍ في بطنه، فاستلقى وأشار بيده ليصرف الجمع وقال: -انظروا إلى جسد بوذا.

كلّ ما هو مركّب مصيره الخراب ... تابعوا مسيرتكم باعتدال. وانطفأ البوذا .

الحقائق الأربع النبيلة

الحقيقة النبيلة الأولى: دوكها

الأساسي من تعاليم بوذا متضمَّن في «الحقائق الأربع النبيلة» التي عرضها في أول موعظة له أمام رفاقه القدماء النساك الخمسة، في إيزيباتانا (سارناث الحديثة) قرب بيناريس. في هذه الموعظة ـ كما قُدمت لنا في النصوص الأصلية ـ عُرضت هذه الحقائق الأربع باختصار. ولكن هذه الحقائق الأربع وُجدت مشروحة بتفاصيل أكثر، وبأشكال مختلفة في أماكن أخرى عديدة من الكتابات. فإذا درسنا الحقائق الأربع النبيلة بمساعدة هذه المراجع وهذه الشروح، حصلنا على عرض حسن ودقيق بما فيه الكفاية لتعاليم بوذا الجوهرية كما استخلصت من النصوص الأصلية.

الحقائق الأربع النبيلة هي:

1 ـ دوكها(*).

2 ـ سامودايا (ظهور دوكها أو أصلها).

3 ـ نيروذا (توقف أو انقطاع دوكها).

4 ـ ماجّا MAGGA (الدرب أو الصراط الذي يقود إلى توقف دوكها).

(*) لم يشأ المؤلف أن يعطي لهذا المصطلح اسماً موازياً من اللغة الفرنسية لأسباب ذُكرت فيما بعد.

الحقيقة النبيلة الأولى دوكها

الحقيقة النبيلة الأولى (دوكها ـ آريّا ساكّا) ترجمت بشكل عام على يد الباحثين «حقيقة الألم النبيلة»، وفُسرت على أنها تعني أن الحياة قد لاتكون، بحسب مايراه بوذا، إلا ألماً وعذاباً. هذه الترجمة وهذا التفسير هما غير كافيين أبداً وهما خادعان. فبموجب هذه الترجمة الضيقة والحرة والسهلة والتفسير السطحي الذي تُوصل إليه اعتبر الكثير من الأشخاص خطأً أن البوذية مبدأ متشائم.

لنقل قبل كل شيء إن البوذية ليست متشائمة ولا متفائلة. وإذا كان لابد من أن نعطيها صفة فإن صفة الواقعية هي التي تناسبها. فرؤيتها للعالم والحياة هي رؤية واقعية قطعاً. إنها تنظر إلى الأمور بشكل موضوعي (ياثابهوتام) ولاتسعى لأن تهدهدنا بوهم أننا نعيش في جنة خادعة. كما أنها لاتسعى أيضاً أن تخيفنا بأنواع الخطايا والمخاوف الوهمية. هي تقول لنا بطريقة موضوعية ما نحن وما العالم الذي يحيط بنا. تظهر لنا درب الحرية الكاملة، درب السلام والهدوء والسعادة.

يمكن لطبيب أن يبالغ في مرض ويتخلى عن الأمل في معالجته. وطبيب آخر يمكنه على العكس من ذلك أن يؤكد لجهله أنه ما من

مرض ولا ضرورة لأي علاج، خادعاً بذلك مريضه بتطمينات خاطئة. يمكن أن نسمي أولهما بأنه متشائم والآخر متفائل. وكلا الاثنين خطران على قدم المساواة. ولكن طبيباً ثالثاً يمكنه أن يقوم بتشخيص صحيح فيفهم سبب المرض وطبيعته، ويرى بوضوح إمكانية معالجته، ويصف بشجاعة الدواء المناسب وينقذ مريضه. بوذا شبيه بهذا الطبيب، فهو الطبيب الحكيم العالم العارف لأمراض العالم.

حقاً إن الاستعمال الدارج القديم لكلمة دوكها (في السنسكريتية) يحمل معنى الألم والعذاب والوجع والشقاء، معارضةً لكلمة سوكها التي تعني السعادة والراحة والهناء، ولكن مصطلح دوكها على أنها تدل على «الحقيقة النبيلة الأولى» والتي تقدم لنا وجهة نظر بوذا، إنما يرتدي معنى أكثر عمقاً فلسفياً ويتضمن معاني أكثر اتساعاً. نقبل أن كلمة دوكها في دلالة «الحقيقة النبيلة الأولى» تتضمن بداهةً المعنى الدارج للألم، ولكنها تتضمن زيادة على ذلك المفاهيم الأعمق «لعدم الكمال» و«عدم الديمومة» و«النزاع» و«الفراغ» و«عدم الجوهرية»[*]. إذن من الصعب جداً أن نجد كلمة تشمل كل ما يتضمنه مصطلح دوكها في مدلول «الحقيقة النبيلة الأولى». وهكذا قد يكون من الأفضل أن نمتنع عن ترجمتها لكي لانتعرض لإعطائها مفهوماً خاطئاً، أو غير واف بالغرض بترجمتها بكل بساطة بكلمة «ألم» أو «معاناة».

إن السعادة والألم نسبيان. فالحياة لايمكن أن تكون سعادة وألماً وحسب. وبوذا لاينكر السعادة التي نقابلها في الحياة عندما نتحقق من وجود الألم. فهو، على العكس من ذلك، يقبل وجود أشكال متعددة من السعادة المادية والروحية عند العلمانيين والرهبان على السواء. وفي «الأنغوتّارا - نيكايا» - وهي من المصنفات الأصلية القديمة التي تتضمن أقوال بوذا - نجد تعديداً لأشكال متنوعة من

(*) أي انعدام أن يكون أمر ما جوهرياً أو أساسياً.

السعادة كسعادة الحياة العائلية، وسعادة حياة الناسك، واللذائذ الحسية، وسعادة التخلي، والارتباط، والانفصال، السعادة الجسدية والسعادة العقلية... الخ. ولكن كل ذلك مدرج في الدوكها، حتى الحالات الروحية الأكثر نقاءً التي يحصل عليها المرء من ممارسة أعلى درجات التأمل والمجردة من أي ظل من الألم بالمعنى العادي للكلمة، والموصوفة بأنها سعادة لايخالطها شيء. وحتى حالة «الدهيانا» المتحررة من كل إحساس ممتع أو غير ممتع والتي هي ليست غير صفاء وانتباه خالص ـ حتى كل هذه الحالات الروحانية العالية جداً متضمّنة في الدوكها. في واحد من (سوتّا الماجّهيما ـ نيكايا) ـ وهو واحد من خمسة مصنفات أصلية ـ قال بوذا، بعد أن امتدح السعادة الروحانية لهذه (الدهيانا)، إنها كلها «زائلة IMPERMANANTS، أي الدوكها وتوابعها. ومن المناسب أن نشير هنا بصراحة ووضوح. فهذه الحالات هي دوكها لا لأنها تحمل معنى الألم بمعناه العادي، بل لأن «كل ما هو زائل هو دوكها».

كان بوذا واقعياً وموضوعياً. فقد قال فيما يتعلق بالحياة والملذات الحسية إن ثلاثة أمور يجب أن تكون مفهومة بوضوح: 1 ـ الافتتان أو التمتع. 2 ـ النتائج السيئة، الخطر، عدم الاكتفاء. 3 ـ التحرر.

بحسب ذلك، نرى بداهة أن المسألة ليست مسألة تشاؤم أو تفاؤل، بل هي أن علينا أن نحسب حساباً لملذات الحياة تماماً مثلما نحسب حساباً لآلامها وأوجاعها، وكذلك لاحتمال أن نتحرر منها لكي نفهم الحياة فهماً موضوعياً. بذلك فقط سيصبح التحرر الحقيقي ممكناً. وقد قال بوذا في هذا الموضوع:

«أيها البهيكهو. إذا لم يفهم النساك أو البراهمانا على هذه الصورة، فهماً موضوعياً، أن متعة لذائذ الحواس على أنها متعة، وأن عدم اكتفائهم على أنه عدم اكتفاء، وأن التحرر من ناحيتهم

على أنه تحرر، فإنه لايمكن عندئذ أن يفهموا من تلقاء أنفسهم وبشكل مؤكد وكامل أن اللذة هي لذة الحواس، ولايمكن أيضاً أن يكونوا قادرين على أن يعلّموا في هذه الحالة شخصاً آخر، ولا أن يفهم هذا الشخص باتباعه تعليمهم فهماً كاملاً أن اللذة هي لذائذ الحواس. ولكن، أيها البهيكهو، إذا فهم النساك أو البراهمانا فهماً موضوعياً، وعلى هذه الطريقة، أن متعة لذائذ الحواس، هي متعة، وأن عدم اكتفائهم هو عدم اكتفاء، وأن تحررهم هو تحرر، عندئذ سيكون في إمكانهم أن يفهموا من تلقاء أنفسهم وبطريقة مؤكدة وكاملة أن اللذة هي لذائذ الحواس وأن يتمكنوا في هذه الحالة من تعليم شخص آخر، وأن يفهم هذا الشخص، باتباعه تعليمهم، فهماً كاملاً، لذة الحواس».

إن مفهوم دوكها يمكن أن يُنظر إليه من ثلاث وجهات نظر مختلفة:

1 - إن دوكها هي الألم العادي.
2 - إن دوكها هي الألم الناجم عن التغير (أو التبدل أو التحول).
3 - إن دوكها هي حالة مشروطة (أو ظرفية).

كل أنواع الآلام من ولادة وشيخوخة ومرض وموت واجتماع مع أشخاص منفرين، أو ارتباط بظروف غير مُرضية، أو انفصال عن كائنات محبوبة، أو فقدان ظروف سارّة، أو عدم الحصول على ما يبتغي، أو الألم والنواح والعوز، وكل الأشكال المشابهة من الألم الجسدي والعقلي مما هو مقبول على أنه ألم، كل ذلك تتضمنه دوكها باعتبارها ألماً عادياً.

أما الشعور بالسعادة أو ظرف من حياة سعيدة ليس دائماً وليس خالداً. تَبدل يتدخل عاجلاً أم آجلاً، وعندما يأتي يحدث ألم، ومعاناة وتعب. هذا التعاقب هو متضمن في دوكها باعتباره ألماً ناجماً عن التغيير.

من السهل أن نفهم وجهي دوكها اللذين أتينا على ذكرهما ولن

ينكرهما أحد. فهذان الوجهان من الحقيقة النبيلة الأولى هما معروفان جداً، لأن من السهل فهمهما، وهما يشكلان جزءاً من التجربة الدارجة في حياتنا اليومية.

ولكن الوجه الثالث لدوكها باعتبارها حالة مشروطة (ظرفية) فهو الوجه الفلسفي الأهم للحقيقة النبيلة الأولى، وهذا الوجه يتطلب بعض التفسيرات، ويلزمنا أن نحلل ما نسمعه من «كائن ETRE» أو «شخص (عاقل) INDIVIDU» أو «أنا».

فما نطلق عليه اسم «كائن»، «شخص»، «أنا» هو فقط ـ بالنسبة للفلسفة البوذية ـ تركيبة قوى أو نشاطات جسمانية وعقلية في تبدل دائم. ويمكن قسمتها إلى خمس زمر أو مجاميع AGREGATS. فالبوذية تقول: «باختصار، هذه المجموعات الخمس للترابط هي دوكها». المهم هنا أن نفهم جيداً أن دوكها والمجاميع الخمسة ليست أشياء مختلفة. فالمجاميع الخمسة هي نفسها دوكها. وسنفهم ذلك بشكل أفضل عندما ستكون عندنا فكرة أوضح عن هذه المجاميع الخمسة التي نسمي مجموعها «كائناً». فما هي إذن؟

المجاميع الخمسة: الأول منها هو مجموعة المادة. ونعني بهذا المصطلح العناصر الأربعة الكبيرة التي نرمز إليها تقليدياً (بالتراب والماء والنار والهواء)، أي الصلابة والميوعة والحرارة والحركة، وكذلك مشتقات هذه العناصر. وتحت هذا المصطلح ـ أي مشتقات هذه العناصر الكبيرة ـ نفهم أنها الأعضاء الخمسة المادية للأحاسيس، مع معرفة خصائص العين والأنف واللسان والجسد، والأشياء التي تتعلق بها في العالم الخارجي، أي الأشكال المرئية والأصوات والروائح والطعوم والأشياء الملموسة، وكذلك النوايا والأفكار والمفاهيم التي ترتبط بمجال الأمور العقلية. فميدان المادة كله، الداخلي منه والخارجي، هو بذلك مشتمل بما نسميه المجموعة أو الزمرة المادية.

الثاني هو مجموعة الأحاسيس. فكل الأحاسيس مشمولة في

هذه المجموعة السارة وغير السارة والحيادية التي نشعر بها في احتكاكات أعضائنا الجسدية وعضونا العقلي مع العالم الخارجي. وهذه على ستة أنواع: أحاسيس متولدة من اتصال العين مع الأشكال المرئية والأذن مع الأصوات والأنف مع الروائح واللسان مع الطعوم والجسد مع الأشياء الملموسة. ثم هنالك اتصال العضو العقلي (الذي يشكل القدرة السادسة في الفلسفة البوذية) مع الأمور العقلية من نوايا وأفكار. فكل الأحاسيس سواء هي من نوع جسدي أو عقلي إنما مشتملة في هذه الزمرة.

ويحسن هنا أن نقول كلمة عما تعنيه الفلسفة البوذية بالعضو العقلي. يجب أن نفهم جيداً أن العضو العقلي ليس «الفكر» في مقابل «المادة»، كما سيجب علينا أن نتذكر بأن البوذية لاتفهم الفكر على أنه مناقض للمادة كما هو متفق عليه في الأنماط الفلسفية الأخرى. ففي منظور البوذية إن العضو العقلي هو ملكة (استعداد كفاءة FACULTE) أو عضو على مستوى العين أو الأذن. ويمكن أن يراقَب ويطوَر كبقية الملكات (الاستعدادات). وقد تحدث بوذا كثيراً عن فائدة مراقبة الملكات الست وتدريبها. والفارق بين العين والعضو العقلي باعتباره مَلكة تكمن فقط في أن الأولى تدرك عالم الألوان والأشكال المرئية بينما الثانية تدرك عالم الأفكار والنوايا التي هي أشياء عقلية. نحن نختبر مجالات مختلفة بواسطة حواس مختلفة. فنحن لانستطيع أن نفهم الألوان، ولكننا نراها. ولانستطيع أن نرى الأصوات، بل نسمعها. وهكذا بالنسبة لأعضاء حواسنا الخمس الجسدية العين والأذن والأنف واللسان والجسد التي نختبر بها عالم الأشكال المرئية والأصوات والروائح والطعوم والأشياء الملموسة. ولكن هذه لاتشكل إلا جزءاً من العالم وليس العالم كله. والأفكار والنوايا؟ إنها تشكل مع ذلك هي أيضاً جزءاً من العالم. ولكنها لايمكن أن تدرك عن طريق العين والأذن... الخ. إنها تدرك عن طريق مَلكة أخرى هي العضو العقلي. فالأفكار والنوايا ليست مستقلة عن العالم الخارجي الذي تختبره الملكات الجسدية الأخرى،

بل هي ترتبط في الواقع بهذه الاختبارات الجسدية وتتكيف بها. وهكذا نجد أن الشخص الذي يولد أعمى لايستطيع أن يكوّن فكرة عن الألوان إلا عن طريق تشبيهات صوتية، أو تشبيهات أخرى أحس بها عن طريق الملكات الأخرى. فالأفكار والنوايا التي هي جزء من العالم الذي نعيش فيه هي إذن ناجمة عن الأحاسيس ذات الطبيعة الجسدية ومتكيفة بها، وهي تُدرك عن طريق العضو العقلي الذي يُفهم على أنه ملكة حسية أو عضو على غرار العين والأذن وبقية الحواس.

المجموعة الثالثة هي مجموعة (زمرة) التمييز أو الإدراكات الحسية PERCEPTIONS. وكما هي حال الأحاسيس فإن الإدراكات الحسية هي أيضاً على ستة أنواع مرتبطة بالملكات الداخلية الست والأشياء الخارجية الستة. وكما هو حال الأحاسيس فهي ناجمة عن علاقة ملكاتنا الست مع العالم الخارجي. تلك هي الإدراكات الحسية التي تتعرف على الأشياء الجسدية أو العقلية.

والمجموعة الرابعة هي زمرة التشكيلات العقلية. وهذه الزمرة تتضمن كل الأعمال الإرادية الصالحة أو الطالحة. وما هو معروف بصورة عامة تحت اسم «هارما». موجود في هذه المجموعة. إن تحديد الهارما في البوذية لابد أن يذكرنا هنا بقول بوذا: «أيها البهيكهو. ما أسميه هارما هو الفعل الإرادي باعتباره ناجماً عن الإرادة، وهو ينفذ بواسطة الجسد والكلام والعضو العقلي. مهمته أن يوجه الفكر في جو الأعمال الصالحة أو الطالحة أو الحيادية». وكما هو حال الأحاسيس والإدراكات الحسية فإن الفعل الإرادي على أشكال ستة. وهذه الأشكال على علاقة بالملكات الست الداخلية والأنواع الستة من الأشياء (الجسدية والعقلية) المناظرة لها في العالم الخارجي. فالأحاسيس والإدراكات ليست أعمالاً إرادية إذ ليس لها تأثيرات جبرية Karmiques، فالأعمال الإرادية وحدها كالانتباه والإرادة والتصميم والثقة والتركيز والحكمة والحيوية والرغبة والرفض والبغضاء والجهل والغرور وفكرة الأنا... هي

التي تستطيع أن يكون لها تأثيرات جبرية. ويمكننا أن نعدد اثنين وخمسين نشاطاً عقلياً هي التي تشكل مجموعة التشكيلات العقلية.

والمجموعة الخامسة هي مجموعة الوعي CONSCIENCE. الوعي هو رد فعل، جواب، يرتكز على الملكات الست (العين والأذن والأنف واللسان والجسد والعقل) وغرضه واحد من الظواهر الخارجية المناظرة لهذه الملكات (أشكال مرئية، أصوات، روائح، طعوم، أشياء ملموسة وأمور عقلية أي أفكار ونوايا). مثال ذلك أن الوعي بالرؤية يرتكز على العين، وغرضه شكل مرئي. والوعي العقلي يرتكز على العضو العقلي وغرضه الفكرة أو النية. وكذلك الأمر مع الوعي المرتبط بالملكات الأخرى. وهكذا إذن، وكما هو الحال مع الإحساس والتمييز والعمل الإرادي فإن الوعي له ستة أشكال على علاقة بالملكات الست الداخلية والأنواع الستة من الأشياء الخارجية.

ويجب أن نفهم جيداً أن الوعي CONSCIENCE لايتذكر الشيء، بل هو فقط فعل انتباه، انتباه لوجود شيء. فعندما العين تصبح على صلة بأحد الألوان، الأزرق مثلاً، فإن الوعي عن طريق الرؤية يبدو بكل بساطة أنه ليس إلا تنبهاً لأحد الألوان (أي فعلٌ أنه تنبه لوجود لون). فليس إذن من تذكر في هذه الحالة، بل إن «التمييز، أو الإدراك الحسي PERCEPTION» (وهو المجموعة الثالثة التي تكلمنا عنها سابقاً)، هو الذي يتذكر أن اللون هو الأزرق. إن مصطلح «الوعي عن طريق الرؤية، أو الوعي بالنظر» هو مصطلح فلسفي يجيب على الفكرة نفسها المعَبر عنها في المصطلح العادي «الرؤية». فرأى، في الواقع، لاتعني «تذكر»، ويمكننا أن نبدي الملاحظة نفسها بالنسبة لكل واحد من أشكال الوعي.

يجب أن نكرر أنه، في الفسفة البوذية، ليس من فكر دائم، غير متحرك، يستطيع أن يسمى «هو» أو «نفس» أو «أنا»، على عكس المادة، وأنه يجب ألا يُعتبر الوعي على أنه عقل في مقابل المادة.

ويجب الإلحاح بوجه خاص على هذه النقطة لأن المفهوم الخاطئ بأن الوعي هو نوع من «هو» أو «النفس» التي تبقى على حالها مشكلةً جوهراً دائماً طول الحياة، قد ثابر على البقاء منذ أقدم العصور حتى اليوم.

أحد تلاميذ بوذا، واسمه ساتي، أكد أن المعلم علَّمهم: «إن الوعي نفسه هو الذي يرتحل وإنه هو الذي يضل». فسأله بوذا: «أن يشرح له ما سمعه عن الوعي». وكان جواب ساتي كلاسيكياً: «هو الذي يشرح ويحس ويختبر نتائج الأعمال الصالحة والطالحة هنا وهناك».

«لمن سمعتني أعلِّم المبدأ بهذه الطريقة أيها الغبي؟ ألم أفسر الوعي بطرق كثيرة بأنه وليد الظروف؟ فلا ولادة للوعي بدون ظروف». ثم أخذ بوذا عندئذ يشرح الوعي بتفصيل: «إن الوعي يأخذ اسمه بحسب الظرف الذي وُلد فيه: فبسبب العين والأشكال يولد وعي يسمى وعي الرؤية. وبسبب الأذن والأصوات يولد وعي يسمى وعي السمع. وبسبب الأنف والروائح يولد وعي يسمى وعي الشم. وبسبب اللسان والطعوم يولد وعي يسمى وعي التذوق. وبسبب الجسد والأشياء الملموسة يولد وعي يسمى وعي اللمس. وبسبب العضو العقلي والأشياء العقلية يولد وعي يسمى الوعي العقلي».

ثم شرح له بوذا أيضاً بالأمثلة التوضيحية التالية: إن النار تأخذ اسمها تبعاً للشعلة التي تشعلها، فإذا كانت من الخشب فهي نار خشب. وإذا كانت من القش فهي نار قش، والحال هي كذلك مع الوعي، فهو يسمى تبعاً للظرف الذي يولد منه.

وقد ألح المعلِّم الكبير على هذه المسألة فقال: «إن النار التي تشتعل بسبب الخشب تشتعل فقط إذا كان ثمة مؤونة مما أشعلها، ولكنها تموت في المكان نفسه إذا لم تعد توجد مؤونة لأن الظروف عندئذ يكون قد تغيرت ولكن النار لاتمتد إلى النشارة لتصبح نار نشارة، وهكذا. وبالطريقة نفسها فإن الوعي الذي يولد بسبب العين

والأشياء المرئية يظهر عن طريق هذا الباب من عضو الحس الذي هو العين، وظهوره لايكون إلا إذا وجدت الظروف التي توجده من عين وشكل مرئي ونور وانتباه. ويكف (الوعي) عن الوجود إذا لم يعد الظرف موجوداً لأن الظرف يكون عند ذلك قد تغير. ولكن الوعي لاينتقل إلى الأذن... الخ ولايغدو وعياً سمعياً، وهكذا دواليك...».

لقد صرح بوذا بعبارات لاغموض فيها أن الوعي يرتبط بالمادة وبالإحساس وبالتمييز (الإدراك الحسي) وبالتشكيلات العقلية ولايمكن أن يوجد مستقلاً عن هذه الشروط. لقد قال:

«الوعي يمكن أن يوجد عندما يملك المادة وسيلة وهدفاً وسنداً ويكون هو باحثاً عن متعته، عند ذلك يستطيع أن ينمو ويكبر وينتشر. أو إن الوعي يمكن أن يوجد إذا كان الحس وسيلته، أو التمييز وسيلته، أو التشكيلات العقلية وسيلته والتشكيلات العقلية غرضه والتشكيلات العقلية سنده ويكون هو باحثاً عن متعته، فيستطيع أن ينمو ويكبر وينتشر.

إذا وُجد رجل يقول: سأريكم ظهور الوعي ورحيله واختفاءه وولادته واتساعه وانتشاره مستقلاً عن المادة وعن الإحساس وعن التمييز وعن التشكيلات العقلية، فإنه ربما يتحدث عن شيء ليس له وجود».

والخلاصة، تلك هي المجموعات الخمس. وما نسميه «كائناً» أو «شخصاً» أو «أنا» إنما هو تسمية مريحة، لصاقة نلصقها على تركيبة هذه المكونات الخمس. هي كلها ليست دائمة، بل في تغير دائم. «كل ما هو غير دائم هو دوكها». ذلك هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمات الصادرة عن بوذا: «الخلاصة: مجموعات الارتباط الخمس هذه هي دوكها»، وهي لاتبقى ذاتها لثانيتين متعاقبتين، فهنا آ لاتساوي آ إنها تدفق من الظهور والاختفاء الفوريين.

«أيها البراهمانا. الأمر تماماً مثل نهر جبلي يذهب بعيداً ويجري بسرعة جارفاً معه كل شيء. فليس من لحظة ولا برهة

ولاثانية يتوقف فيها عن الجريان، بل يمضي جارياً ومستمراً بدون انقطاع. وهكذا الحياة البشرية، أيها البراهمانا، شبيهة بهذا النهر الجبلي». كما قال بوذا لراتباهالا: «العالم مثل فيضان مستمر وهو دائم الجريان».

شيء يختفي مسبباً ظهور شيء آخر بسبب سلسلة من الأسباب والمؤثرات، وليس من وجود لاينـاله التغيير، وليس من شيء وراء هذا التيار الذي يمكن اعتباره «ذاتاً» دائمة، «فردية مميزة»، ولاشيء مما يمكن أن نطلق عليه اسم «الأنا» حقاً. ولكن عندما تعمل هذه المجموعات الخمس الجسدية والعقلية المترابطة مجتمعةً مشتركةً مثل آلة «نفسية جسدية» تتشكل عندنا فكرة «الأنا»، وهذا فهم خاطئ، «تشكيل عقلي» ليس إلا واحداً من التشكيلات العقلية الاثنين وخمسين من المجموعة الخامسة التي تحدثنا عنها سابقاً: فكرة الذات.

إن المجموعات الخمس المجتمعة التي نسميها «كائناً» هي دوكها، بل «سامكهارا دوكها»، وليس من «كائن» آخر أو «أنا» يقف وراء هذه المجموعات الخمس التي تحقق دوكها كما، قال بوذاغوثا»:

«الألم وحده موجود، ولكن لاوجود لأي متألم، الأفعال موجودة، ولكن لا وجود لأي فاعل».

ليس من محرك ثابت وراء الحركة، بل توجد حركة فحسب. وليس صحيحاً أن نقول إنها الحياة هي التي تتحرك، والصحيح أن الحياة والحركة هما الشيء ذاته. الحياة والحركة ليسا شيئين مختلفين. ليس من مفكر وراء الفكر. الفكر هو المفكر نفسه. ولايمكننا ألا نلاحظ هنا كم تتعارض هذه الفكرة البوذية عن عبارة «أنا أفكر إذن أنا موجود» الديكارتية.

يمكننا الآن أن نتساءل ما إذا كان للحياة بداية. بحسب بوذا إن بداية للتيار الحيوي للكائنات الحية أمر غير معقول. فذلك الذي

يعتقد أن الحياة خلقها الله سيكون مندهشاً من هذه الإجابة. ولكن إذا سألناه «وما هي بداية الله؟» فإنه سيجيب بدون تردد «الله ليس له بداية» دون أن يسبب له جوابه أي دهشة. قال بوذا «أيها البهيكهو. بدون بداية يمكن إدراكها هو هذه الدائرة من الدوام، ولايمكننا أن ندرك أول بداية للكائنات التائهة التي تدور في دائرة وقد غلفها الغباء ورُبطت بموانع العطش والرغبات». ولنذكر كذلك أن الغباء هو السبب الرئيسي لاستمرار الحياة. وقد أعلن بوذا: «إن البداية الأولى للغباء ليست ملموسة بحيث نسلّم (بدون برهان) أنه لاوجود للغباء فيما وراء نقطة محددة. «فليس ممكناً إذن أن نقول إن الحياة لم توجد فيما وراء نقطة محددة».

ذلك هو بالاختصار معنى الحقيقة النبيلة عن دوكها. ومن المهم أن نفهم هذه الحقيقة النبيلة الأولى لأن بوذا قال: «إن من يرى الدوكها يرى أيضاً ولادة دوكها، ويرى كذلك الدربَ الذي يؤدي إلى التخلي عن دوكها».

على أن هذه البينة لاتجعل حياة البوذي قلقة موحشة كما قد يحاول البعض خطأ أن يتصوروا. الأمر على العكس، فبوذي حقيقي هو أسعد الكائنات. فهو لايشعر بخوف ولا قلق لأنه دائماً هادئ وصافي الذهن فلا إزعاجات ولا مصائب يمكن أن تسبب له الاضطراب. فالبوذي لم يكن قط قلقاً ولامكتئباً. وقد وصفه معاصروه بأنه «مبتسم دائماً». وقد بدا دائماً في الرسوم والنقوش البوذية بوجه سعيد رائق مسرور ورحيم، ولم يجدوا عنده أي أثر لألم أو قلق أو انشغال بال. إن الفن والنحت في المعابد البوذية لاتعطي أبداً انطباعاً لقلق أو حزن، بل هي تفوح بجو من الهدوء والفرح.

ورغم أن الحياة تحوي الألم فإن البوذي لايجب أن يكون نكد المزاج بسببها. ولا ينبغي له لا أن يغضب منها ولا أن يفقد الصبر. إن أحد أوجاع الحياة بحسب البوذية هو الرفض والكراهية. وقد

فُسِّر الرفض على أنه يعني «سوء النية تجاه الآخرين من الأحياء، وأمام الألم وما يجلب الألم، ووظيفته تكمن في إنتاج قاعدة لحالة من الشقاء والسلوك الشرير». فمن الخطأ إذن أن يكون المرء قليل الصبر عند الألم لأن قلة الصبر والغضب لاتجعل الألم يزول، بل على العكس من ذلك إن قلة الصبر تؤدي إلى زيادة الأسى وتضخيم حالة هي في الأساس مرّة ومؤلمة. ما يجب هو أن يتجنب المرء اللجوء إلى قلة الصبر والغضب، بل أن يفهم الألم ويفهم كيف يأتي وكيف يمكن التخلص منه، وأن يفعل ذلك بصبر وذكاء وتصميم ونشاط.

هناك نصّان بوذيان في غاية الجمال الشعري، وهما مليئان بالتعبيرات المفرحة عن أن تلاميذ بوذا رجالاً ونساء وجدوا السلام والسعادة في إتباعهم تعليمه. ملك كوسالا أبدى مرة ملاحظة متحدثاً إلى بوذا بأنه، على العكس من مريدي أنظمة دينية أخرى، فإن تلاميذ بوذا «كانوا سعداء فرحين مبتهجين وجذلين. سعداء في الحياة الروحية، إمكاناتهم مُرضية خالية من القلق، رائقين هادئين يعيشون بروح الغزلان أي بقلب خفيف». ثم أضاف الملك أنه يعتقد أن هذه الأحوال السعيدة مدينة لواقع أن «هؤلاء الكرام قد حققوا بلا شك أعلى وأكمل ما تعنيه تعاليم بوذا».

فالبوذية معارضة تماماً لحالة فكرية قلقة، حزينة، كئيبة، نكدة، حريصة على الابتعاد عن فهم الحقيقة. وهنا يجب أن نتذكر أن الفرح واحد من سبع صفات يجب التمسك بها والحرص عليها لتحقيق «النيرڤانا».

الحقيقة النبيلة الثانية:
سامودايا ظهور دوكها

الحقيقة النبيلة الثانية هي ظهور دوكها أو أصلها. التحديد الأكثر شيوعاً والأوضح معرفة لهذه الحقيقة الثانية الذي نلقاه في العديد من أماكن النصوص الأصلية هو مايلي:

«إنها ذلك العطش (أو الرغبة الحارة) الذي ينجم عنه الوجود من جديد والصيرورة من جديد المرتبطة بالنهم المشبوب الذي يجد بدون انقطاع متعة جديدة تارة هنا وتارة هناك، وهذا يعني: 1 ـ العطش إلى لذائذ الحواس. 2 ـ العطش إلى الوجود والصيرورة. 3 ـ العطش إلى اللاوجود (الانعدام الذاتي)».

إنها هذا العطش، تلك الرغبة، ذلك النهم، ذلك الطمع الذي يظهر في أشكال متنوعة والذي يؤدي إلى ولادة كل أشكال الألم، وإلى استمرار الكائنات. على أنه يجب ألا يؤخذ على أنه السبب الأول لأنه ليس من الممكن وجود سبب أول نظراً لأنه في البوذية كل شيء نسبي ومترابط بعضه ببعض. وحتى هذا العطش الذي يُعتبر السبب والأصل للدوكها يتعلق في ظهوره بشيء آخر هو الإحساس، ويتعلق ظهور الإحساس بالاحتكاك، وهكذا تدور الحلقة التي نشير إليها تحت اسم التولد المشروط والتي سنتحدث عنها فيما بعد.

وهكذا فإن العطش ليس السبب الأول ولا السبب الوحيد لظهور دوكها، ولكنه السبب الأكثر وضوحاً والأكثر التصاقاً، «الشيء الرئيسي» و«الشيء المنتشر في كل مكان». ومن هنا يحدث أن تحديد السامودايا أو أصل دوكها - في بعض مقاطع النصوص الأصلية البالية نفسها - يغشاه بعض العيوب الأخرى، وعدم النقاء، والوضوح غير العطش الذي أعطي له مع ذلك المكان الأول على الدوام. وفي حدود التوسع في نقاشنا، تلك الحدود التي نريد أن نتمسك بها، سيكفينا التذكر بأن هذا العطش يتمركز حول الفكرة الخاطئة عن وجود «ذات»، وهذه الفكرة إنما هي ناجمة عن الغباء.

فهنا لفظة «عطش» تتضمن ليس فقط الرغبة والارتباط بلذائذ الحواس، وبالثروة والقوة، بل كذلك الأفكار والمُثل والآراء والنظريات والمفاهيم والمعتقدات. وبحسب التحليل الذي قام به بوذا في ذلك فإن كل التعاسات والنزاعات في العالم بدءاً من الخصومات الصغيرة العائلية حتى الحروب الكبيرة بين الأمم لها جذورها في هذا «العطش». فرجال الدولة الذين يحملون أنفسهم على إيجاد حل للمنازعات الدولية، والذين يتحدثون في الحرب والسلم وحسب في عبارات سياسية واقتصادية لايلمسون إلا ما هو سطحي، ولايصلون ابداً إلى الجذر الحقيقي للمشكلة. وكما قال بوذا لراتهابالا: «إن العالم يعاني من الكبت والحرمان وتنتابه رغبة شرهة لأنه عبد «للعطش».

إن العالم سيتقبل كله وعن طيب خاطر أن كل التعاسات ولدت عن الرغبة الأنانية، وليس ذلك عصياً على الفهم، ولكن كيف هي هذه الرغبة وكيف هو هذا «العطش» اللذان في استطاعتهما إنتاج «الوجود من جديد» و«الصيرورة من جديد»، فهذا ليس سهلاً فهمه والإحاطة به. وهنا ينبغي علينا مناقشة الجانب الفلسفي الأكثر عمقاً للحقيقة النبيلة الثانية في علاقتها مع الجانب الفلسفي للحقيقة النبيلة الأولى، كما يجب علينا أن نكوّن فكرة عن نظرية الكارما (أي القدر والجبرية في الديانات الهندية) وعن نظرية «البعث».

نتبين أربعة أغذية ـ «كسبب أو شرط» ـ ضرورية للوجود ولاستمرار الكائنات: 1 ـ الغذاء المادي العادي. 2 ـ احتكاك أعضاء الحواس (بما في ذلك العضو العقلي) مع العالم الخارجي. 3 ـ الوعي. 4 ـ الفعل الإرادي العقلي أو الإرادة.

من بين هذه الأغذية الأربعة يشمل الأخير منها، وهو «الفعل الإرادي العقلي»، يشمل إرادة الحياة والوجود، والوجود من جديد والاستمرار والصيرورة أكثر فأكثر. إنه جذر الوجود والاستمرار والنضال الذي يتّبع عن طريق أعمال حسنة أو سيئة. و«الفعل الإرادي العقلي» هو «الفعل الإرادي» نفسه. وقد رأينا سابقاً أن الفعل الإرادي هو الكارما (أي القدر والجبرية) كما حدده بوذا بنفسه. ففي إشارته إلى «الفعل الإرادي العقلي» قال بوذا: «عندما نفهم أغذية الفعل الإفرادي العقلي فإننا نفهم أشكال «العطش» الثلاثة. وهكذا فإن عبارات «العطش» و«الفعل الإرادي العقلي» و«الفعل الإرادي» و«الكارما» لها المعنى نفسه. وهي تعني الرغبة وإرادة الوجود والوجود والوجود ثانية والصيرورة، والنمو أكثر فأكثر والتكديس باستمرار. وهذا هو السبب في ظهور الدوكها. وهذه الرغبة توجد في تراكم التشكيلات العقلية. وهذا التراكم هو واحد من التراكمات الخمسة التي تكوّن كائناً.

سنجد هنا واحدة من النقاط الأكثر أهمية، النقطة الجوهرية حقاً من تعاليم بوذا. ويجب علينا أن نسجل بوضوح وعناية، وأن نتذكر جيداً أن السبب، أن البذرة في ظهور دوكها توجد في دوكها نفسها، أو أن هذا السبب ليس خارجياً. وهذا ما تعنيه الصيغة المعروفة جيداً التي نصادفها في أغلب الأحيان في النصوص الأصلية اليالية: «كل ما يملك طبيعة أن يظهر وأن يتجلى يملك كذلك طبيعة الكف والانقطاع CESSATION». فكل كائن أو شيء أو نظام، إذا كان يملك في نفسه طبيعة الظهور والتجلي فإنه يملك أيضاً في ذاته طبيعة وبذرة كفه وانقطاعه ودماره. وهكذا فإن دوكها (الركامات الخمسة) تملك في ذاتها طبيعة ظهورها الذاتي كما تملك

في ذاتها طبيعة كفها وانقطاعها. وسنعود إلى هذه النقطة عندما نصل إلى الحقيقة النبيلة الثالثة (NIRODHA).

إن الكلمة القديمة كامّا (وهي في السنسكرتية كارما من جذر فَعَل) تعني حرفياً (عَمَل) أو (فِعل). ولكن هذه الكلمة في نظرية الكارما البوذية ترتدي معنى خاصاً هو «الفعل الإرادي» لا أي فعل. وهي لاتعني كذلك «نتيجة الكارما» وهو المنتحى الذي يستعملها فيه الكثير من الأشخاص بهذا اللفظ وهو خطأ ومجانب للدقة. وفي علم الألفاظ TERMINOLOGIE البوذي لاتعني كارما أبداً تأثيراتها، إذ أن تأثيرات الكارما تسمي «الثمار» أو النتائج.

والإرادة، إلى حد ما، يمكنها أن تكون صالحة أو طالحة. وكذلك الرغبة فإنها يمكن أن تكون صالحة أو طالحة. إن كارما صالحة تنتج نتائج صالحة، بينما الكارما الطالحة تنتج نتائج طالحة. فالعطش أو الفعل الإرادي أو الكارما (الصالحة والطالحة) تملك تأثيراً هو القوة: قوة الاستمرار - الاستمرار في اتجاه صالح أو طالح، خيّر أو شرير، فالأمر نسبي ويقع في الاستمرار. فواحد من الأراهانت، مهما فعل، لايكثر من الكارما لأنه متحرر من المفهوم الخاطئ عن الذات، متحرر من «العطش»، من الاستمرارية والصيرورة ومن كل الأوساخ والنجاسات. فبالنسبة له لم يعد ثمة ميلاد جديد.

إن نظرية الكارما يجب ألا تختلط أبداً بما يمكن تسميته «بالعدالة الأخلاقية» أو مع مفهوم «الجزاء أو المكافأة» أو مفهوم «العقاب». ففكرة العدالة الأخلاقية، فكرة المكافأة والعقاب تأتي من مفهوم كائن أعلى، إله يحاكم، مشرع يقرر ما هو خير وما هو شر. فكلمة «عدالة» غامضة وخطرة، وباسمها يرتكب من الشر أكثر مما يصنع من الخير للإنسانية. أما نظرية الكارما فهي نظرية الأسباب والمؤثرات، نظرية الفعل ورد الفعل، وهي تعبّر عن قانون طبيعي لايرى فيه شيء من عدالة المكافأة والعقاب. فكل عمل يستند على

فعل إرادي ينتج تأثيراته ونتائجه. فإذا كان عملاً صالحاً أنتج تأثيرات صالحة، وإذا كان عملاً طالحاً أنتج تأثيرات طالحة. والأمر ليس مسألة عدالة أو مكافأة أو عقاب تحكمه قوة تحاكم طبيعة العمل، بل هو بكل بساطة ناجم عن طبيعة هذا العمل الخاصة، عن قانونه الخاص، وليس من الصعب فهم ذلك. ولكن ماهو متعذر على الفهم هو أنه ـ بحسب النظرية الكارمية ـ تستطيع تأثيرات عمل مرتكز على فعل إرادي أن تستمر في الظهور حتى في حياة ما بعد الموت. والآن ينبغي علينا إذن أن نفسر ما هو الموت في البوذية.

لقد رأينا أن كائناً ما ليس إلا مركّباً من قوى أو طاقات جسدية وعقلية. وما نسميه الموت هو التوقف الكامل لعمل العضوية الجسدية. فهل هذه القوى والطاقات تصل إلى الانتهاء إطلاقاً مع انقطاع عمل العضوية؟ البوذية تقول: كلا. فالإرادة والرغبة وعطش الوجود والاستمرار والصيرورة هي قوة هائلة تحرك مجموع الحيوات والموجودات والعالم كله. إنها القوة الأكبر والطاقة الأقوى الموجودة في العالم. وبحسب البوذية إنها لاتكف عن العمل بتوقف عمل جسدنا الذي هو في نظرنا الموت، بل هي تستمر بالظهور في شكل آخر منتجة حياة جديدة نسميها البعث.

ويرد على الذهن سؤال آخر: إذا لم يعد يوجد كيان دائم لايتغير، إذا لم يعد ثمة جوهر كالذات أو النفس، فما الذي يستطيع إذن أن يحيا من جديد، أن يولد من جديد بعد الموت؟ قبل أن نصل في هذه المسألة إلى الحياة بعد الموت لننظر ملياً فيما هي الحياة الحالية، كيف تستمر الآن. ما نسميه حياة ـ وقد كررنا ذلك ـ هو تجمع خمسة تراكمات، تجمع طاقات جسدية وعقلية. وهذه تتغير دائماً ولاتبقى نفسها خلال برهتين متعاقبتين. إنها تحيا وتموت في كل لحظة، «فما يكاد التجمع يظهر حتى ينحط ويموت، أيها البهيكهو في كل لحظة أنتم تولدون وتنحطون وتموتون».

والخلاصة هي أننا، حتى في مدة حياتنا هذه، نولد ونموت في

كل لحظة، ومع ذلك نحن نستمر في الوجود. فإذا استطعنا أن نفهم أننا في هذه الحياة نستطيع أن نستمر في الوجود دون وجود جوهر دائم ثابت كالذات أو النفس، فلماذا إذن لانستطيع أن نفهم أن هذه القوى نفسها تستطيع أن تستمر في العمل دون أن يكون فيها ذات أو نفس لإنعاشها بعد أن تكون العضوية الجسدية قد كفت عن العمل؟

عندما لايعود هذا الجسم الجسدي قادراً على العمل فإن الطاقات لاتموت معه، بل تستمر في ممارسة ذاتية متخذة شكلاً آخر هو ما نسميه حياة أخرى. فعند الطفل تكون الكفاءات الجسدية والعقلية والفكرية كلها طرية وضعيفة، ولكنها تملك في ذاتها القدرة الكامنة على إنتاج رجل بالغ، لأن الطاقات الجسدية والعقلية التي تشكل ما نسميه إنساناً موهوبة في ذاتها لتتمكن من اتخاذ شكل جديد ولتنمو بالتدريج حتى تصل إلى كامل قدرتها.

وبما أنه لايوجد جوهر دائم وثابت فلا شيء ينتقل من لحظة إلى أخرى، وهكذا فإن من البديهي أنه ليس من دائم أو ثابت يستطيع المرور أو الهجرة من حياة إلى أخرى. إنها حقاً سلسلة تستمر بدون انقطاع ولكنها تتغير بين لحظة وأخرى. وهذه السلسلة ـ إذا توخينا الدقة في كلامنا ـ ليست إلا حركة. إنها مثل لهب يشتعل في الليل: إنه ليس نفسه كما أنه ليس غيره. رجل يكبر ويصبح رجلاً في الستين. من البديهي أن هذا الرجل ليس الطفل الذي ولد قبل ستين عاماً ـ وهو كذلك ليس غيره. وكذلك الأمر في رجل مات هنا وولد من جديد في مكان آخر، إنه ليست الشخص نفسه ولا شخصاً آخر. إنها استمرارية للسلسلة نفسها، والفرق بين الموت والولادة ليس إلا لحظة في تفكيرنا: آخر لحظة من الفكر في هذه الحياة ستهيء أول لحظة فيما سنسميه حياة لاحقة. وهذه الحياة اللاحقة ليست في الواقع إلا استمراراً للسلسلة نفسها. حتى لحظة في هذه الحياة نفسها من الفكر تهيء للحظة التالية، وهكذا فإن مسألة حياة بعد

الموت، من وجهة نظر البوذية، لاتشكل سراً كبيراً، والبوذي لايشغل باله أبداً بهذه «المشكلة».

طالما وُجد «العطش» للكينونة والصيرورة فإن دائرة الاستمرار ستتوالى ولن تستطيع الوصول إلى نهاية إلا عندما تُنتزع القوة التي تحركها، وهي هذا «العطش» نفسه، وأن تُقطع بواسطة «الحكمة» التي ستمتلك رؤية واقع «النيرڤانا» وحقيقتها.

القراءة زاد المعرفة ، والتفكير . . لتسخير المعرفة

علي مولا

الحقيقة النبيلة الثالثة:
نيروذا توقف دوكها

الحقيقة النبيلة الثالثة هي أن يوجد اختفاء أو تحرر من الألم، من استمرار دوكها. وهي تسمى الحقيقة النبيلة عن توقف دوكها الذي هو النيبّانا الذي يشتهر أكثر تحت اسمه السنسكريتي النيرڤانا.

ومن أجل حذف دوكها حذفاً كاملاً يجب أن يحذف منها جذرها الأساسي الذي هو «العطش» كما رأينا سابقاً. ولذلك عُرفت النيرڤانا باسمها السنسكريتي «تانهاكهايا» الذي يعني «استئصال العطش».

ستسألون الآن: ولكن ما هي النيرڤانا؟ لقد كُتبت مجلدات لإعطاء جواب لهذا السؤال الطبيعي جداً والبسيط جداً، ولكنها لم تفعل إلا تعتيم السؤال أكثر من توضيحه. والجواب الوحيد المعقول الذي يمكن أن يُعطى هو أن من المستحيل الإجابة بشكل كامل وبطريقة مرضية بالكلمات، ذلك لأن اللغة الإنسانية فقيرة جداً لشرح الطبيعة الحقيقية والواقع السامي الذي هو النيرڤانا. لقد خُلقت اللغة واستُعملت من جمهور الكائنات الإنسانية للتعبير عن أشياء وأفكار جربتها واختبرتها أحاسيسهم وعقلهم. أما تجربة فوق ـ إنسانية كالحقيقة المطلقة فهي لاتنتمي لهذا النمط. فلا توجد إذن كلمات تستطيع التعبير عن هذه التجربة. وكذلك هو الأمر مع لغة الأسماك

التي لاتستطيع أن تتضمن ألفاظاً تعبر عن طبيعة الأرض اليابسة. تقول السلحفاة لصديقتها السمكة إنها عادت إلى البحيرة بعد أن قامت بنزهة فوق الأرض اليابسة. «طبعاً، قالت السمكة، لقد أردتِ أن تقولي إنك سبحتِ على الأرض اليابسة». وحاولت السلحفاة أن تشرح أنه لايمكن السباحة على الأرض وأنها صلبة ويجب عليها المسير، ولكن السمكة كانت تصر مؤكدة أنه لايمكن أن يوجد ما يشبه ذلك، ولابد أن تكون الأرض مائعة وعليها أمواج ولابد فيها من السباحة والغطس.

إن الكلمات رموز تعيد تقديم الأشياء والأفكار المألوفة عندنا. وهذه الرموز لاتترجم وليس لديها القدرة على التعبير عن الطبيعة الحقيقية لأشياء حتى الكثيرة الشيوع. وينبغي أن تفهم أن اللغة خادعة ومضللة عندما يتعلق الأمر بإمساك الحقيقة. وكما قال لانكافاتارا ـ سوترا إن الجاهلين يتركون أنفسهم يتخبطون في الكلمات كما يتخبط الفيل في الوحل.

على أننا لانستطيع مع ذلك أن نتجاوز اللغة. ولكن إذا كان لابد للنيرفانا أن تُشرح وأن يعبر عنها بكلمات وتعابير إيجابية فإننا

سنتعرض لخطر الارتباط فوراً بفكرة ملتصقة بالتعابير التي سنستعملها والتي يمكن أن تكون مناقضة تماماً (لما أردنا التعبير عنه). لذلك نستعمل بصورة عامة تعابير سلبية، وهو ما يمكن أن يكون أقل خطراً. ولذلك سنقوم غالباً بتلميح للنيرفانا بمساعدة تعابير سلبية مثل كلمة «تانهاكهايا» أي «استئصال العطش»، وكلمة «أسامكهاتا» أي «غير المركَّب»، «غير المشروط»، وكلمة «فيراغا» أي «غياب الرغبة»، و«نيروذا» أي «توقف»، و«نيبّانا» أي «استئصال».

وإليكم بعض التعاريف والأوصاف للنيرفانا» كما وردت في النصوص الباليّة الأصلية.

«إنها التوقف الكامل لهذا العطش، التخلي عنه، هجرة، التحرر منه، الانفصال عنه».

«هي تهدئة كل ماهو مشروط، هجر كل القذارات، استئصال العطش، الانفصال، التوقف، النيبّانا».

«أيها البهيكهو، ما ھو المطلق، ما هو غير المشروط؟ إنه، أيها البهيكهو، استئصال الرغبة، استئصال البغضاء، استئصال الوهم. هذا، أيها البهيكهو، ما يسمى بالمطلق».

«أيها الراذا، إن استئصال «العطش» هو النيبّانا».

«أيها البهيكهو، مهما كانت الأشياء المشروطة أو غير المشروطة فإن «الانفصال» هو الأكثر رفعة. وهذا يعني التحرر من الغرور، تدمير «العطش»، اجتثاث الإرتباط، قطع الاستمرار، استئصال «العطش»، الانفصال، التوقف، النيبّانا».

إن جواب ساريبوتا، وهو ألمع تلاميذ بوذا، على السؤال المباشر: «ماهي النيبّانا؟» الذي طرحه واحد من الباريڤراجاكا، كان مطابقاً للتحديد الذي أعطاه بوذا نفسه والذي سجلناه سابقاً: «استئصال الرغبة، استئصال البغضاء، استئصال الوهم».

«إن هجر الرغبة وتدميرها وهجر الشراهية وتدميرها تجاه هذه المجموعات الخمسة من الارتباط هو توقف دوكها».

«توقف الاستمرار والصيرورة هو نيبّانا».

وكذلك تحدث بوذا عن النيرڤانا بقوله:

«أيها البهيكهو، هناك اللامولود، اللاصائر، اللامشروط، واللامركّب. فإذا لم يكن ثمة لا مولود واللاصائر واللامشروط واللامركّب فقد لايكون هناك خلاص من المولود والصائر والمشروط والمركّب. وبما أنه يوجد اللامولود واللاصائر واللامشروط واللامركّب فقد يكون ثمة انعتاق للمولود والصائر والمشروط والمركّب.

هنا لامكان للعناصر الأربعة: القاسي والمائع والحرارة والحركة. كما لايمكن أن يكون ثمة وجود لمفاهيم الطول والعرض، المرهف والغليظ، الخير والشر، للإسم والشكل، فهي كلها قطعاً مقوضة خربة. ولايمكن أن يكون ثمة وجود لهذا العالم ولا للعالم الآخر ولا لما يأتي ولا لما يذهب، ولا لما يبقى واقفاً ولا للموت ولا للولادة ولا الأشياء ولا المعاني.

وبما أننا عبرنا بهذا الشكل عن النيرڤانا بتعابير سلبية فإن الكثيرين من الأشخاص يمتلكون مفهوماً خاطئاً عما هو سلبي ويعبر عن إلغاء الذات. إن الأمر ليس قطعاً إلغاء للذات لأنه لا وجود في الواقع للذات لتُلغى. وإذا كان ثمة إلغاء فهو إلغاء للوهم الذي يعطي فكرة خاطئة عن الذات.

إن من الخطأ القول إن النيرڤانا سلبية أو إيجابية. فمفاهيم السلبي أو الإيجابي هي مفاهيم نسبية وتنتمي لمجال الثنائية، لذلك فإن هذه الألفاظ لاتنطبق على النيرڤانا، على الحقيقة المطلقة لأنها تجاوزت الثنائية والنسبية.

إن كلمة «سلبي» لاتدل بالضرورة عن حالة سلبية. فالكلمة التي تعني «الصحة» في السنسكريتية هي أروغيا، وهي كلمة سلبية تعني حرفياً «غياب» المرض. ومع ذلك فإن أروغيا (الصحة) لاتدل على حالة سلبية. وكلمة «خالد» التي هي في السنسكريتية آميتا وفي اللهجة اليالِيّة آماتا والتي هي مرادفة أيضاً للنيرڤانا هي سلبية، ومع ذلك هي لاتعني حالة سلبية. إن إنكار القيم السلبية ليس له معنى سلبي. فمن المترادفات الشائعة للنيرڤانا «الحرية» أيضاً (وهي في اليالية موتّي وفي السنسكريتية موكتي)، ولن يذهب أحد للقول إن لها معنى سلبياً، مع أن للحرية جانباً سلبياً لأنها تعني التحرر دائماً من عائق، من شيء سيء سلبي، بينما الحرية نفسها ليست سلبية. وكذلك هو الأمر مع النيرڤانا «موتّي» أو «ڤيموتّي» الحرية المطلقة ـ

الحرية من كل ما هو خبيث، من الرغبة، من الجهل، من البغضاء، حرية من كل ما يعني الثنائية والنسبية ومن الزمان والمكان.

نستطيع أن نكوّن فكرة عن النيرفانا باعتبارها حقيقة مطلقة (كما ورد في أحد المصادر العتيقة الموثوقة). هذا الخطاب وجهه المعلم «بوذا» لبوكوساتي (الذي مر ذكره)، والذي وجده المعلم ذكياً ومتزناً في الليلة التي أمضياها معاً في مشغل صانع الفخار، وإليكم منه الجوهري مما يهمنا:

إن الإنسان مؤلف من ستة عناصر: القساوة والميوعة والحرارة والحركة والمكان والشعور. وعندما يحلل هذه العناصر يكتشف أنه ليس فيها «أنا» أو «يخصني». ويفهم كيف أن الشعور يظهر ويختفي، وكيف أن الأحاسيس ماهو سار منها أو مزعج أو حيادي تظهر وتختفي. ونتيجة لهذه المعرفة يغدو عقله منطلقاً من كل قيد، وعند ذلك يكتشف في نفسه صفاء ذهن نقياً يستطيع توجيهه للوصول إلى أي حالة من السمو العقلي، ويعرف أن صفاء الذهن النقي هذا سيبقى ثابتاً خلال فترة طويلة من الزمان. ولكنه يفكر: «إذا وجهت هذا الذهن الصافي الواضح نحو جو الفضاء اللامتناهي وإذا طورت ذهناً مناظراً له فذلك هو خلق عقلي.

وإذا وجهت هذا الذهن الصافي الواضح نحو جو الشعور اللامتناهي، نحو جو العدم... أو نحو لا جو الإدراك الحسي ولا جو اللا إدراك الحسي، وإذا طورت ذهناً مناظراً لذلك، فذلك خلق عقلي»، بينما هو لايخلق عقلياً ولايتمنى لا الاستمرارية ولا الصيرورة ولا العدمية. وبما أنه لايبني عقلياً، وبما أنه لايريد الاستمرارية ولا الصيرورة ولا العدمية فإنه لايتشبث بشيء في هذا العالم. وبما أنه لايرتبط بشيء فهو خال من القلق. وبما أنه خال من القلق فإنه هادئ بشكل كامل وانطفأ اللهب تماماً في ذاته. وهو يعرف أن «الولادة انتهت، وعيشت الحياة النقية، وتم إنجاز ما كان من عمل، ولم يبق شيء يُعمَل في سبيل ذلك».

والآن، إذا ما شعر بإحساس سارٍّ أو غير سارٍّ أو حيادي، فإنه يعرف أن ذلك غير دائم، أن ذلك لايتعلق به، أن ذلك الإحساس لم ينتَبْهُ عن رغبة وهوى. ومهما كان الإحساس فهو يشعر به دون أن يكون له به ارتباط. وهو يعرف أن هذه الأحاسيس ستهدأ مع انحلال الجسد، كما تنطفئ شعلة قنديل عندما تفقد الفتيلة زيتها.

«والنتيجة، أيها البهيكهو، إن شخصاً مزوّداً على هذه الشاكلة يملك الحكمة المطلقة، ذلك لأن معرفة استئصال كل شيء هي الحكمة النبيلة المطلقة.

«وخلاصه المبني على الحقيقة لايهتز. أيها البهيكهو، إن ما هو غير واقعي هو خطأ. وما هو واقعية (نيبّانا) هو حقيقة (ساكّا). إذن، أيها البهيكهو، إن شخصاً مزوداً على هذ الشاكلة هو مزود بالحقيقة المطلقة، ذلك لأن الحقيقة النبيلة المطلقة هي (نيبّانا) التي هي الواقع».

في مكان آخر استعمل بوذا، وبدون التباس، كلمة حقيقة في مكان كلمة (نيبّانا): «سأعلّمكم الحقيقة والصراط الذي يقود إلى الحقيقة». فهنا الحقيقة تعني النيرڤانا بشكل مؤكد لالبس فيه.

والآن ما هي الحقيقة المطلقة؟ بحسب بوذا، الحقيقة المطلقة هي أنه لاوجود للمطلق في هذا العالم، وأن كل شيء نسبي، مشروط، وغير دائم. وأنه لاوجود لجوهر مطلق لايتغير، أبدي، كالذات والنفس (أو آتمان)، فينا أو خارجنا. هذا هو الحقيقة المطلقة. فالحقيقة ليست أبداً سلبية رغم وجود تعبير شعبي مثل تعبير «الحقيقة السلبية». وفهم هذه الحقيقة، أي رؤية الأشياء كما هي بدون وهم ولاجهل هو استئصال الرغبة و«العطش» وانقطاع الدوكها الذي هو «النيرڤانا». ومن النافع المفيد أن نتذكر هنا وجهة نظر الماهايانا عن النيرڤانا باعتبارها ليست شيئاً مختلفاً عن «السامسارا». وكذلك السامسارا فإنها النيرڤانا نفسها وفقاً لطريقة النظر إليها، أي وفقاً لما تكون طريقة النظر شخصية أو موضوعية.

ومفهوم الماهايانا هذا ربما تم إعداده انطلاقاً من الأفكار التي وُجدت في النصوص الأصلية في اللغة الپاليّة لثيراڤادا التي هي مرجعنا في هذا العرض المختصر.

وربما كان غير صحيح أن نفكر بأن النيرڤانا هي النتيجة الطبيعية لاستئصال الرغبة. فالنيرڤانا ليست نتيجة لأي شيء. فلو أنها نتيجة لكانت نتاجاً لأحد الأسباب، وعندئذ ستكون نتاجاً مشروطاً. إن النيرڤانا ليست سبباً ولانتيجة لأنها خارج الأسباب والنتائج. فالحقيقة ليست نتيجة ولامؤثراً، وليست ناتجاً كما لو أنها حالة عقلية مجازية فكرية. *فطالما الحقيقة موجودة فالنيرڤانا موجودة*. والشيء الوحيد الذي ربما تمكنتم من عمله هو أن تروها، أن تفهموها. وثمة صراط يقود إليها ولكنها ليست نتيجة لهذا الصراط. تستطيعون ارتقاء جبل باتباعكم صراطاً (أي ممراً أو درباً ضيقاً)، ولكن لايمكن القول إن الجبل هو نتيجة أو نتاج للصراط. تستطيعون رؤية نور، ولكن النور ليس نتيجة لنظرتكم.

يسأل الكثيرون: ما وراء النيرڤانا؟ إن هذا السؤال لايمكن أن يطرح لأن النيرڤانا هي الحقيقة الأسمى، وبما أنها الأسمى فلا يمكن أن يكون بعدها شيء. وإذا وجد شيء فيما وراء النيرڤانا فستكون إذن هي الحقيقة الأسمى وليس النيرڤانا. والواقع أن كاهناً اسمه راذا كان قد طرح هذا السؤال على بوذا بكلمات أخرى: «لأي هدف، لأية غاية هي النيرڤانا؟» وهذا السؤال يفترض إذن أن يكون بعد النيرڤانا شيء آخر، لأنه يسلِّم بوجود هدف وغاية.

عندئذ أجاب بوذا: «ياراذا، هذا السؤال لايستطيع أن يأخذ حده (أي أن هذا السؤال هو خارج الموضوع). إن المرء يعيش الحياة القدسية لأن النيرڤانا أشبه بالغطسة الأخيرة، ولأنها الهدف الأسمى والغاية الأسمى».

إن بعض التعابير الشعبية الخاطئة مثل التعبير التالي على سبيل المثال: «إن بوذا دخل في النيرڤانا أو في البارينيرڤانا». فمنذ أن

تسمع القول بأن «بوذا دخل في النيرڤانا أو الباريـنيرڤانا» فإنك تميل إلى اعتبار النيرڤانا حالةً أو منطقة أو ظرفاً حيث ثمة وجود من نوع ما وتحاول أن تتخيلها بمعنى يستطيع أن يدفع إلى ذهنك كلمة «وجود» كما تعرفه في حياتك العادية. ونحن لم نجد في النصوص الأصلية شيئاً يشبه هذا التعبير الشعبي: «دخل في النيرڤانا»، وليس فيها ما يعادل «دخل بعد موته في النيرڤانا». بل هنالك كلمة استعملت للدلالة على موت واحد من البوذا أو الأراهانت الذي بلغ النيرڤانا وهو بارينيبّوتو، ولكنها لاتعني عبارة «دخل في النيرڤانا»، فبارينيبّوتو أراد أن يقول ببساطة: «توفي كلياً، انطفأ كلياً» وهي صورة لشعلة تنطفئ. ذلك لأن بوذا أو واحد من الأراهانت ليس له وجود جديد بعد الموت.

والآن يأتي سؤال آخر: ما الذي يحصل لبوذا أو لواحد من الأراهانت بعد موته، بعد البارينيرڤانا؟ هذا السؤال جزء من الأسئلة التي تُركت بدون جواب. وحتى عندما تحدث بوذا عنها لاحظ أنه ما من كلمة في مفرداتنا اللغوية تستطيع أن تشرح ماذا يحدث لواحد من الأراهانت بعد موته. وعندما أجاب أحد السائلين قال بوذا إن

الكلمات من أمثلا «وُلد» أو «لم يولد» لاتنطبق على حالة واحد من الأراهانت، لأن أشياء من أمثال مادة وإحساس وإدراك ونشاطات عقلية وشعور التي ترتبط بها كلمات مثل «وُلد» أو «لم يولد» قد دُمرت تماماً واقتُلعت من جذورها لكي لاتظهر ثانية بعد موته.

إن واحداً من الأراهانت غالباً ما يشبَّه بعد موته بنار انطفأت بعد أن نفد وقودها، أو بشعلة قنديل خبت عندما نفد الزيت واستهلك الفتيل. فينبغي أن نفهم هنا بوضوح وتدقيق، وبدون ليس، أن ما يشبّه بنار أو بشعلة تنطفئ ليس هو النيرڤانا، بل هو «الكائن» المركب منّ خمسة تراكمات هي التي أنجزت النيرڤانا. ويجب الإلحاح على هذه النقطة، لأن بعض الأشخاص، أو حتى بعض كبار العلماء الباحثين، قد فهموا وفسروا هذا الرمز بطريقة خاطئة

معتقدين أنه يتعلق بالنيرڤانا، بينما لم تشبَّه النيرڤانا قط بنار أو شعلة منطفئة.

وثمة سؤال آخر يطرح كثيراً عما إذا لم يكن هنالك «ذات» أو «آتمان» تحقق النيرڤانا؟ وقبل أن نذهب إلى النيرڤانا نطرح السؤال التالي: من ذا الذي لايعتقد الآن بوجود «ذات»؟ لقد رأينا سابقاً إن الفكر هو الذي يفكر وليس من مفكر وراء الفكر. كذلك فإنها الحكمة (أو الإنجاز) هي التي تنجز، وليس من ذات أخرى وراء الإنجاز. وقد رأينا عند مناقشة أصل دوكها أنه مهما كان من أمر كائن أو شيء أو نظام، فإنه إذا كان يملك طبيعة أن ينتج نفسه فهو يتضمن في ذاته طبيعة أو بذرة توقفه وانقطاعه CESSATION ودماره. إن دوكها، أو السامسارا، أو دائرة الاستمرار، تملك طبيعة الظهور، وهذا يوجب أن يكون لها طبيعة الانقطاع أو التوقف أيضاً. وقد وُلدت دوكها بسبب «العطش» (TANHA) وتنتهي بسبب الحكمة (PANNA). والعطش والحكمة يوجدان معاً في دوكها، في التراكمات الخمسة، كما رأينا.

إن بذرة ظهورها، مثل بذرة توقفها، توجد إذن في داخل التراكمات الخمسة. وهذا هو المعنى الحقيقي لتصريح بوذا: «في هذا الجسد الحساس نفسه، وعلى طول باع، ألتمس العالم، ظهور العالم، انقطاع العالم، والصراط الذي يؤدي إلى انقطاع العالم». وهذا يعني أن الحقائق النبيلة الأربع توجد في التراكمات AGREGATS الخمسة، أي فينا نحن أنفسنا، فهنا كلمة «العالم» استعملت بدلاً من دوكها. وهذا يعني أيضاً أنه لاتوجد أية قوة أخرى خارجية ينجم عنها (أو تُنتج) ظهور وانقطاع دوكها. وعندما تنمو الحكمة وتقوى بحسب الحقيقة النبيلة الرابعة التي سنأتي على ذكرها، فإنها تكتشف سر الحياة وترى واقع الأشياء كما هي. وعندما ينكشف السر وتكتشف الحقيقة فإن كل القوى التي ينتج عنها بتهيج وعصبية وعن طريق الوهم استمرار السامسارا

تهدأ وتغدو عاجزة عن إنتاج تشكيلات جديدة، لأنه لم يعد يوجد وهم و«عطش» لحماية الاستمرار والدوام. وهذا يشبه مرضاً عقلياً يُشفى عندما يُكتشف سببه وسره ويراهما المريض بوضوح.

«إن الغاية السامية المرجوة SUMMUM BONUM لايمكن بلوغها، في جميع الأديان تقريباً، إلا بعد الموت. بينما يمكن أن تتحقق النيرڤانا في هذه الحياة نفسها، وليس من الضروري انتظار بلوغها».

إن من يحقق الحقيقة، أي النيرڤانا، هو أسعد كائن في العالم. فهو يتحرر من كل «العقد COMPLEXES» ومن كل الوساوس والمنغصات والصعوبات والمشاكل التي تعذب الآخرين. فصحته العقلية كاملة. لايأسف على الماضي ولايهتم بالمستقبل، يعيش في اللحظة الحاضرة، يتذوق الأمور ويتمتع بها في المنحى الأكثر نقاء وبدون «إسقاط» من ذاته. هو فرح، مبتهج، متمتع بالحياة النقية، ملكاته راضية، محرر من كل ضيق، رائق وهادئ. هو متحرر من الرغبات الأنانية، من البغضاء، ممتلئ بحب عالمي، وبالرأفة والطيبة والعطف والتفهم والتسامح. يخدم الآخرين بالطريقة الأنقى لأنه لايفكر بنفسه ولايسعى وراء ربح، لايجمع شيئاً حتى ولا المكاسب الفكرية لأنه متحرر من الوهم من «الذاتية» ومن «العطش» ومن

الصيرورة.

النيرڤانا بعيدة عن كلمات الثنائية والنسبية. فهي إذن بعيدة عن مفاهيمنا العامة عن الخير والشر، عن العادل والظالم، عن الوجود وعدم الوجود. حتى كلمة «السعادة» التي شاع استعمالها في وصف النيرڤانا لها معنى مختلف كل الاختلاف. قال ساريبوتّا مرة: «أيها الصديق. النيرڤانا هي السعادة، النيرڤانا هي السعادة. عند ذلك سأله أودايي: ولكن أيها الصديق ساريبوتّا، أية سعادة هي، لأنه لايوجد إحساس؟ وكان جواب ساريبوتا فلسفياً عالياً جداً، هو فوق مستوى الفهم العام: إذا لم يكن يوجد إحساس فهذا هو السعادة نفسها».

والنيرڤانا بعيدة عن المنطق والإستدلال. فرغم أننا تحت إغراء الانخراط غالباً في «تقطيع وقت» فكري، في مناقشات تأملية متعلقة بالنيرڤانا، فإن الحقيقة العليا أو الواقع لن نفهمها أبداً على هذه الطريقة. والطفل لايتخاصم في موضوع النسبية عندما يكون في مدرسة الحضانة. وإذا تمكن من متابعة دراساته بصبر واجتهاد فإنه ربما تمكن في أحد الأيام من فهمها. يجب أن تتحقق النيرڤانا على يد الحكماء في أنفسهم. فإذا تبعنا الصراط بصبر واجتهاد، وإذا تدربنا وتطهرنا بنزاهة ودقة، وإذا بلغنا بذلك التطور الروحاني الضروري، فسيكون من الممكن في أحد الأيام أن نحققها في أنفسنا وبدون استعمال كلمات سرية كبيرة.

فلنمض الآن إذن إلى الصراط الذي يقودنا إلى تحقيق النيرڤانا.

الحقيقة النبيلة الرابعة: ماجّا الصراط

الحقيقة النبيلة الرابعة هي الصراط الذي يقود إلى توقف دوكها. وهو يعرف باسم «صراط الوسط» لأنه يتجنب ضِدَّين: أولهما هو تتبع السعادة في خضوعها للملذات الحسية وهو أمر «دنيء، مبتذل، لا فائدة منه وطريقة الناس العاديين». والثاني هو البحث عن السعادة التي تعتمد، على العكس من ذلك، على الإماتة عن طريق أشكال مختلفة من التقشف. وهو أمر «مؤلم» لا قيمة له ولا فائدة منه. وقد حاول بوذا بنفسه هذين الضدين، وعرف عدم جدواهما واكتشف بالتجربة الشخصية صراط الوسط «الذي يعطي الرؤية والمعرفة ويقود إلى الهدوء والرؤية العميقة، إلى اليقظة، إلى النيرڤانا». ويشار إلى صراط الوسط هذا تحت اسم الصراط النبيل الثُمانيَ لأنه يحتوي على ثمانية أبواب أو أقسام:

1 - الرؤية الصحيحة.
2 - الفكر الصحيح.
3 - الكلام الصحيح.
4 - العمل الصحيح.
5 - وسائل الحياة الصحيحة.

6 - المجُهود الصحيح.
7 - الانتباه الصحيح.
8 - التركيز الصحيح.

من الناحية العملية كل تعليم بوذا الذي كرس له خمسة وأربعين عاماً من حياته وتحدث بطريقة أو أخرى عن هذا الصراط. وشرحه بطرائق متنوعة، مستعملاً كلمات مختلفة بحسب الأشخاص الذين يوجه إليهم الحديث، وتبعاً لحالة نضجهم وقابليتهم للفهم والمتابعة، ولكن جوهر هذه الآلاف من الأحاديث الموزعة على طول الكتابات البوذية يوجد في الصراط الثُماني النبيل.

ولايجب الظن بأن الأبواب أو التقسيمات للصراط ينبغي اتباعها واحداً بعد آخر في النظام الذي أشرنا إليه في القائمة الدارجة التي قدمناها منذ قليل، بل يحسن أن نتبعها معاً، بقدر المستطاع وبحسب مقدرة كل فرد، فكلها مترابطة فيما بينها وكل واحدة منها تساعد على مباشرة الأُخريات.

هذه العوامل الثمانية تهدف إلى تشجيع عناصر جوهرية ثلاثة للتمرين والترويض البوذي وتنميتها حتى الكمال: 1 ـ سلوك أخلاقي (سيلا)، 2 ـ ترويض عقلي (سامادي). 3 ـ حكمة (بانّا). والنتيجة أنه سيكون أكثر فائدة بكثير لفهم أفضلَ وأكثر تماسكاً لأقسام الصراط الثمانية وشرحها، هو أن نصنفها تحت هذه العناوين الثلاثة.

يقوم السلوك الأخلاقي (سيلا) على فهم واسع للحب العالمي وعلى التعاطف مع كل الكائنات الحية، وذلك موجود في أساس التعليم البوذي. وإنها لخطيئة مؤسفة ومؤذية تلك التي يرتكبها الكثيرون من الباحثين عندما ينسون هذه المثالية الكبيرة في تعاليم بوذا، وهم يسلمون أنفسهم فقط إلى هذيانات فلسفية وميتافيزيكية جافة عن البوذية. لقد علّم بوذا «من أجل خير أكبر عدد، من أجل سعادة أكبر عدد، من أجل الرأفة على الناس».

لكي يكون الإنسان كاملاً هناك، بحسب البوذية، صفتان يجب تنميتهما معاً وبالتساوي: الرأفة من جهة، والحكمة من جهة أخرى. هنا الرأفة تشمل المحبة والإحسان والطيبة والتسامح وكل مواصفات القلب النبيلة. وتلك هي جهة المحبة، بينما تعني

الحكمة الجهة العقلية، الصفات الفكرية. فإذا ما أُنميت جهة المحبة وحدها وبقيت الجهة العقلية مهملة فإن المرء يصبح أحمق ذا قلب طيب. وإذا أُنميت الجهة العقلية حصراً وأهملت جهة المحبة فإن المرء يصبح جافاً بدون أية مشاعر تجاه الآخرين. فالكمال يتطلب أن تُنمّى الجهتان بالتساوي، وتلك هي غاية طريق البوذية. ولهذا فإن بوذياً حقيقياً متفهماً الأمور كما هي بذكاء وحكمة يكون مليئاً بالحب والرأفة تجاه كل الكائنات الحية، ـ ليس فقط الناس بل كل الكائنات ـ فالحكمة والرأفة لاتفترقان في الطريق البوذي كما سنرى فيما يلي.

إن السلوك الأخلاقي القائم على المحبة والرأفة يتضمن ثلاثة عوامل من الصراط النبيل الثُماني: الكلام الصحيح، العمل الصحيح، ووسائل حياة صحيحة (وقد أعطينا فيما سبق الأرقام 3 و 4 و 5) والكلام الصحيح يعني الامتناع عن 1 ـ الكذب. 2 ـ الغيبة والنميمة وكل كلام يمكن أن يسبب البغضاء والكراهية والفرقة والنفور بين الأشخاص أو الجماعات. 3 ـ عن كل لهجة قاسية، فظة، غير مهذبة، عدوانية أو مهينة، وأخيراً 4 ـ عن الثرثرات التي لانفع فيها، التافهة، العبثية والحمقاء. وعندما يمتنع عن كل هذه الأشكال من الكلام الخاطئ والضار يجب عليه قول الحقيقة، يجب أن يستعمل كلمات ودية، عطوفة، متسامحة مستساغة وعذبة لها معنى وذات نفع، ولا ينبغي الحديث بإهمال وكيفما اتفق، بل في اللحظة المناسبة والمكان المناسب. وإذا لم يكن لديه شيء نافع يقوله فينبغي عليه أن يتمسك «بصمت نبيل».

ويهدف العمل الصحيح إلى القيام بسلوك أخلاقي مشرِّف وهادئ. مطلوب منا أن نمتنع عن تدمير الحياة، والسرقة، وعن ردود الفعل غير المشرِّفة، عن العلاقات الجنسية غير الشرعية، أن نساعد الآخرين على أن يسلكوا الطريق المستقيم، الطريق الهادئ المشرِّف.

أما وسائل الحياة الصحيحة فهي تعني أنه ينبغي على المرء أن يمتنع عن كسب عيشه في مهنة ضارة بالآخرين كتجارة الأسلحة وآلات القتل، وتجارة المشروبات المسكرة والسموم، وإماتة الحيوانات، والغش... الخ. وأن عليه أن يعيش من مهنة شريفة لا لوم عليها ولاتسبب الضرر للآخرين. وهكذا فإن من الواضح أن البوذية تعارض كل أشكال الحروب، لأنها تضع مبدأ لها أن تجارة الأسلحة ووسائل القتل هي وسيلة للحياة سيئة وليست صحيحة.

هذه العوامل الثلاثة للصراط الثماني (الكلام الصحيح، الفعل الصحيح، ووسائل الحياة الصحيحة) هي شأن السلوك الأخلاقي. ينبغي أن نفهم أن السلوك الأخلاقي الصالح الذي يعلِّمه بوذا يهدف إلى تأمين حياة سعيدة ومتجانسة سواء للأفراد أو للمجتمع. وهذا السلوك الأخلاقي اعتبر مثل الأساس الذي لابد منه لكل إنجاز أكثر سمواً ورفعة، فما من تنمية روحية ممكنة بدون هذه القاعدة الأخلاقية.

تأتي بعد ذلك التربية العقلية (أو الترويض العقلي) التي تتضمن أيضاً ثلاثة عوامل للصراط الثُّمانيّ: المجهود الصحيح، الانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح.

أما المجهود الصحيح فهو الإرادة النشيطة 1 ـ لإقامة عائق أمام ظهور حالات عقلية سيئة ومريضة. 2 ـ للتخلص من الحالات المشؤومة الموجودة أصلاً في الإنسان. 3 ـ لإظهار حالات عقلية جيدة وسليمة لم تبدأ بالظهور. 4 ـ لتنمية الحالات العقلية الجيدة والسليمة التي ظهرت وإيصالها إلى الكمال. وأما الانتباه الصحيح فهو موجود في انتباه يقظ. وينبغي الأخذ بعين الاعتبار. 1 ـ نشاطات الجسد. 2 ـ نشاطات الأحاسيس والانفعالات. 3 ـ نشاطات العقل. 4 ـ نشاطات الأفكار والنوايا والمدارك والأشياء.

إن ممارسة التركيز على عملية التنفس. تعتبر من التدريبات المعروفة فيما يتعلق بالجسد، وقد تمت ممارستها من أجل التنمية

العقلية. إلا أن ثمة طرقاً أخرى لتنمية الانتباه في علاقته مع الجسد كوسائل للتأمل.

أما ما يتعلق بالأحاسيس والانفعالات فيجب أن نفهم بوضوح أشكالها كلها، سارة أو مزعجة أو حيادية، كيف تظهر فينا وكيف تختفي.

وفيما يتعلق بالنشاطات العقلية ينبغي أن نفهم ما إذا كان العقل متيقظاً بدافع من الشهوة أم لا، ما إذا كان مأخوذاً بالبغضاء أم لا، ما إذا كان مخدوعاً بوهم أم لا، ما إذا كان شارداً أو مركّزاً... الخ. وهكذا يجب أن نكون متنبهين لكل حركات العقل، وأن نستهدف الطريقة التي تظهر بها وتختفي.

وأخيراً ماذا عن الأفكار والنوايا والمدارك والأشياء. إن علينا أن نستهدف طبيعتها ونعرف كيف تظهر وكيف تختفي، كيف تنمو وكيف تزول وتُدمَّر. وهكذا دواليك...

هذه الأشكال الأربعة للتدريب العقلي، للتأمل، عولجت بتفاصيلها في «أحاديث عن بناء الانتباه».

العامل الثالث الأخير عن التدريب العقلي هو التركيز الصحيح الذي يقود إلى مراحل «الذيانا» الأربع التي نشير إليها عموماً تحت اسمي الذعر والنكوص. في المرحلة الأولى من «الذيانا» تُطرد الرغبات الولهانة وبعض النوايا المريضة كالشبق والعدوانية وفتور الهمة والقلق والإثارة والشك. ويُحتفَظ بمشاعر الفرح والغبطة وبعض النشاطات العقلية. وفي المرحلة الثانية تختفي كل النشاطات العقلية بينما ينمو الهدوء و«التركيز الموحَّد» للعقل، ومع ذلك فإن مشاعر الفرح والغبطة (السعادة) يحتفظ بها أيضاً. وفي المرحلة الثالثة يختفي أيضاً شعور الفرح الذي هو شعور نشيط وفعّال، بينما تبقى حالة السعادة مع لا مبالاة واعية. وأخيراً في المرحلة الرابعة من «الذيانا» تختفي كل المشاعر حتى مشاعر السعادة أو التعاسة. ووحدهما اللامبالاة والانتباه المحض يبقيان.

وهكذا يكون العقل قد تربى وتدرب ونما عن طريق الجهد الصحيح والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح.

والآن نكون قد ألقينا نظرنا على العوامل الستة (3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7، 8) من الصراط الثُمانيّ والتي هي موضوع السلوك الأخلاقي والتربية العقلية، أما العاملان الباقيان للدراسة وهما النية الصحيحة والفهم الصحيح فهما اللذان يشكلان الحكمة. أما النية الصحيحة (السليمة) فهي تتعلق بنوايا التخلي والانفصال غير الأناني، ونوايا المحبة واللاعنف الممتدة على جميع الكائنات. ومن المهم جداً والمفيد جداً أن نلاحظ أن نوايا الانفصال غير الأناني، والمحبة واللاعنف هي مجتمعة في الحكمة. وهذا يرينا بوضوح أن حكمة حقيقية يجب أن تكون متضمنة هذه الصفات النبيلة، وأن كل نوايا الرغبة الأنانية والعدوانية والكراهية والقسوة هي نتيجة لفقدان الحكمة في كل مجالات الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية.

وأما الفهم الصحيح فيقوم على فهم الأشياء كما هي، وإنما هي الحقائق الأربع النبيلة التي تفسر هذه الأشياء كما هي. وهكذا فإن الفهم الصحيح يرجع في النهاية إلى فهم الحقائق الأربع النبيلة. وهذا الفهم هو الحكمة الأعلى التي ترى الواقع الأسمى. ويوجد بحسب البوذية نوعان من الفهم الصحيح: فما نسميه بوجه عام فهماً هو نوع من المعرفة، ذاكرة متراكمة، الإمساك العقلي بموضوع اعتماداً على بعض المعطيات، وهذا ما يعرف في البوذية تحت اسم «المعرفة بحسَب»، وهو غير عميق. أما الفهم الحقيقي العميق فهو يسمى «الاختراق»، وهو أن يُرى الشيء في طبيعته الحقيقية بدون اسم وبدون ملصقة عليه. وهذا الاختراق ليس ممكناً إلا عندما يتحرر العقل من كل رجس، ويكون قد تطور تماماً عن طريق ممارسة التأمل.

بعد هذا العرض الصغير للصراط نرى أنه طريقة للحياة يمكن اتباعها وممارستها وتنميتها على يد كل فرد. هو تربية للجسد

والحديث والفكر، تنمية وتطهير للذات بواسطة الذات نفسها. وهذا ليس فيه ما يُرى مع الإيمان والصلاة والعبادة أو الطقوس. وبهذا المعنى إذن هو لايحتوي على شيء يمكن أن يسمى «دينياً» في المصطلح الشعبي. إنه صراط يقود إلى فهم الواقع الأسمى، إلى إتمام الحرية والسعادة والسلام عن طريق الكمال الأخلاقي والروحي والعقلي.

في البلاد البوذية توجد عادات وطقوس جميلة وبسيطة في المناسبات الدينية. وعلاقتها ضئيلة مع الصراط الحقيقي، ولكنها مفيدة لإرضاء بعض الإنفعالات والاحتياجات الدينية بالنسبة لأولئك الذين هم أقل تقدماً وتساعدهم بالتدرج على طول الصراط.

لدينا أربع وظائف للقيام بها تجاه الحقائق النبيلة الأربع:

فالحقيقة النبيلة الأولى هي دوكها، طبيعة الحياة، ألمها، أتراحها وأفراحها، عدم كمالها وعدم إرضائها وعدم دوامها وعدم جوهريتها. من هذه الناحية تقوم وظيفتنا على فهم ذلك كواقع بشكل واضح وكامل.

والحقيقة النبيلة الثانية هي «أصل دوكها» الذي هو رغبة «عطش» يرافقه كل الأهواء الأخرى والقذارات والأرجاس. والفهم البسيط لهذا الواقع ليس كافياً. هنا وظيفتنا هي تجنب هذه الرغبة «العطش» وإلغاؤها وتدميرها واقتلاعها من جذورها.

والحقيقة النبيلة الثالثة هي «انقطاع دوكها» أو (الكف عن دوكها)، هي النيرڤانا، الحقيقة المطلقة، الواقع الأسمى. هنا وظيفتنا هي أن نبلغها ونفهمها.

والحقيقة النبيلة الرابعة هي الصراط المؤدي إلى فهم النيرڤانا. إن المعرفة البسيطة للصراط مهما كانت كاملة فهي لاتكفي. ووظيفتنا في هذه الحالة هي أن نتّبعه وأن نتمسك به.

مبدأ اللاذات: أناتّا

إن ما توحي به، بوجه عام، كلمات نفس وذات وأنا، أو كلمة آتمان ـ إذا أردنا استعمال الكلمة السنسكريتية، هو أنه يوجد في الإنسان جوهر دائم خالد ومطلق، جوهر لايتغير وراء العالم الظاهر المتغير. وبحسب بعض الديانات فإن كل شخص يملك مثل هذه النفس المنفصلة عن جسده التي خلقها الله والتي تحيا في النهاية بعد الموت حياة أبدية في جهنم أو النعيم، وإن مصيرها مرتبط بخالقها. وبحسب ديانات أخرى فإنها تجتاز حيوات كثيرة حتى تتطهر تماماً وينتهي بها المطاف أخيراً إلى الله أو البراهمان، النفس العالمية أو آتمان التي انبثقت منها في الأصل. وهذه النفس أو الذات في الإنسان هي التي تفكّر الأفكار، هي التي تحسّ الأحاسيس وهي التي تتلقى الثواب والعقاب على كل الأعمال الصالحة منها والطالحة. وهذا الفهم يسمى فكرة الذات.

والبوذية وحدها في تاريخ الفكر الإنساني هي التي تتجه إلى إنكار وجود مثل هذه النفس أو الذات أو الآتمان. فبحسب تعاليم بوذا إن فكرة الذات هي اعتقاد خاطئ ووهمي لاعلاقة له أبداً

بالواقع وإنها سبب الأفكار الخطرة عن «الأنا» أو «يخصني»، وعن الرغبات الأنانية النهمة التي لاترتوي، وعن الارتباط، والكراهية وسوء النية ومشاعر العجرفة والأنانية وغيرها من الأقذار والأرجاء

والمشاكل. وهي منبع كل اضطرابات العالم بدءاً من المنازعات الشخصية وانتهاء إلى الحروب بين الأمم. وبالاختصار أننا نستطيع أن نسند إلى هذه النظرة الخاطئة كل شرور العالم.

هنالك فكرتان متجذرتان نفسياً في المرء: حماية الذات والمحافظة على الذات. أما حماية الذات فقد خلق الإنسان إلهاً يرتبط به من أجل حماية نفسه وسلامته وأمنه مثلما يتعلق الطفل بأبويه. وأما المحافظة على الذات فقد تصور الإنسان فكرة عن نفس خالدة أو «آتمان» تعيش حياة أبدية. وفي جهله وضعفه وخوفه ورغبته شعر الإنسان بحاجته إلى هذين الأمرين ليطمئن ويتعزى. ومن أجل ذلك يتشبث بهما بكل تعصب وضراوة.

وتعاليم بوذا لاتعترف بهذا الجهل والضعف وهذا الخوف وتلك الرغبة، بل تسعى إلى تنوير الإنسان بأن يلغي ذلك ويدمره ويقتلعه من جذوره نفسها. فبحسب البوذية إن أفكار الإله والنفس هي أفكار خاطئة وفارغة. ومع أنها انتشرت انتشاراً واسعاً كنظريات إلا أنها ليست إلا إسقاطات عقلية حاذقة ومغلفة في عبارات فلسفية وميتافيزيكية معقدة. وهذه الأفكار مجذَّرة بعمق في الإنسان، وهي قريبة منه وعزيزة عليه جداً حتى أنه لايحب أن يسمع ولايريد أن يفهم أي تعاليم تخالفها مهما كان من شأنه.

كان بوذا يعرف ذلك، وقد قال ما نصه إن تعاليمه ستمضي «معاكسة للتيار» مخالفة الرغبات الأنانية للإنسان. بعد أربعة أسابيع فقط من «استنارته»، جلس تحت شجرة بانيان كبيرة، فكَّر بما يلي: «لقد أدركت هذه الحقيقة العميقة الصعبة على الرؤية والصعبة على الفهم... وهي مفهومة فقط من الحكماء... أما بنو الإنسان الذين استغرقتهم الأهواء وأسكرتهم كتلة من الظلماء فهم لايستطيعون أن يروا هذه الحقيقة التي تسير معاكسة للتيار، تلك الحقيقة السامية العميقة المرهفة العصية على الفهم».

وعندما أصبحت لديه هذه الأفكار تردد بوذا لحظة مسائلاً

نفسه ما إذا كان من العبث أن يجرب عرض هذه الحقيقة التي تحقق منها على الناس. عند ذلك شبَّه الناس بمستنقع لنبات اللوتوس فيه لوتوسات تحت الماء، وأخرى لم تلمس منه إلا السطح، وثالثة انتصبت فوق الماء ولم تعد ملامسة له. وعلى هذه الشاكلة نفسها يوجد في العالم أناس على مستويات مختلفة من التطور، ولابد أن بعضهم سيفهم الحقيقة. وعند ذلك قرر بوذا أن يعلِّم.

إن مبدأ «الأناتّا» أو اللاذات هو النتيجة الطبيعية اللازمة لتحليل المجموعات الخمس ولتعليم التوليد المشروط.

لقد رأينا سابقاً في مناقشة الحقيقة النبيلة الأولى أن ما أسميناه كائناً أو شخصاً يتألف من خمس مجموعات AGREGATS، وأننا عند تحليلها وعند فحصها لم نجد وراءها ما يمكن أن نعتبره «أنا» أو «آتمان» أو «ذات» أو شيئاً يبقى ثابتاً بدون تغيير. وتلك هي الطريقة التحليلية. والنتيجة نفسها وصلنا إليها على مبدأ التوليد المشروط الذي هو الطريقة التركيبية، التي بموجبها لايوجد في العالم شيء مطلق طالما أن كل شيء مشروط ونسبي ومترابط. وتلك هي النظرية البوذية عن النسبية.

وقبل أن نصل إلى مسألة «الأناتّا» في حد ذاتها يحسن أن نقدم فكرة مختصرة عن التوليد المشروط. إن أساس هذا المبدأ يمكن تقديمه في صيغة بسيطة من أربعة أسطر:

عندما يكون هذا موجوداً فهو موجود.

عندما يكون هذا ظاهراً فهو يظهر.

عندما يكون هذا غير موجود فهو غير موجود.

عندما يكون هذا منقطعاً فهو ينقطع.

على هذا الأساس من المشروطية والنسبية والترابط فإن الوجود كله، واستمرار الحياة وانقطاعها فسرت جميعها في صيغة مفصلة سميت «التوليد المشروط» وله اثنا عشر عاملاً:

1 ـ بالجهل تُشترطُ الأعمال الإرادية أو التشكيلات الجبرية (أو القدَرية).

2 ـ بالأعمال الإرادية يُشترط الوعي.

3 ـ بالوعي تُشترط الظواهر العقلية والجسدية.

4 ـ بالظواهر العقلية والجسدية تُشترط الملَكات الست (أي الحواس الخمس والعقل).

5 ـ بالملكات الست يُشترط الاحتكاك (الحسي والعقلي).

6 ـ بالاحتكاك يُشترط الإحساس

7 ـ بالإحساس تُشترط الرغبة «العطش»

8 ـ بالرغبة «العطش» يُشترط الحجز أو الأسر.

9 ـ بالحجز أو الأسر يُشترط تطور الصيرورة.

10 ـ بتطور الصيرورة تُشترط الولادة.

11 ـ بالولادة يشترط:

12 ـ الضعف والموت والنواح والآلام... الخ.

وهكذا تظهر الحياة وتوجد وتستمر. وإذا أخذنا هذه الصيغة في منحاها المعاكس نصل إلى انقطاع التطور، إلى الانقطاع الكامل للجهل. وتنقطع الأعمال الإرادية والتشكلات الجبرية (القدَرية).

وبانقطاع النشاطات الإرادية ينقطع الوعي... وبانقطاع الولادة ينقطع (يتوقف) الضعف والموت والنواح...

إلا أنه يجب أن نفهم بوضوح أن كل واحد من هذه العوامل مشروط أيضاً كما هو شارط. فهي كلها إذن نسبية ومترابطة ولا شيء مطلق ومستقل. ومن هنا نرى أن كل سبب أولي ليس مقبولاً من البوذية كما رأينا فيما سبق. والتوليد المشروط يجب أن يُنظر إليه كدائرة وليس كسلسلة.

إن مسألة حرية الاختيار (الإرادة الحرة) شغلت حيزاً هاماً في الفكر الغربي وفلسفته. ولكن هذه المسألة لاتُطرح بموجب التوليد المشروط، ولايمكن أن تطرح في الفلسفة البوذية. فبما أن مجموع

الوجود نسبي ومشروط ومترابط فكيف للإرادة وحدها أن تكون حرة؟ فالإرادة مثل كل فكر آخر هي مشروطة. و«الحرية» المدّعاة نفسها هي شيء مشروط ونسبي. فإذا كان ثمة اختيار حر فهو أيضاً مشروط ونسبي، فليس ثمة ماهو، مهما كان شأنه، حر مطلق جسدياً ولا عقلياً طالما أن كل شيء مترابط ونسبي. إن الاختيار الحر يعني إرادة مستقلة عن الشروط، مستقلة عن السبب والمؤثرات. فكيف لإرادة، أو أي شيء، يمكنها أن تظهر بدون شروط، خارج السبب والمؤثرات، بينما مجموع الوجود مشروط ونسبي وخاضع لقانون السبب والمؤثر؟ وهنا أيضاً يكون الاختيار الحر، في أساسه، على علاقة مع أفكار الإله والنفس والعدالة والثواب والعقاب. وليس ما يسمى بالاختيار الحر وحده غير حر، بل الفكرة نفسها عن الاختيار الحر ليست متحررة من الشروط.

بحسب مبدأ التولد المشروط، وكذلك بحسب تحليل الكائن إلى خمس مجموعات AGREGATS فإن فكرة جوهر يبقى خالداً في الإنسان، أو خارج الإنسان، ويسمى آتمان أو أنا أو نفس أو ذات تعتبر اعتقاداً خاطئاً وإسقاطاً عقلياً. وذلك هو المبدأ البوذي عن الأناتّا أو اللانفس أو اللاذات.

ولكي نتجنب الغموض يجب الإشارة هنا إلى أنه يوجد نوعان من الحقيقة: الحقيقة الاصطلاحية والحقيقة النهائية. فعندما نستعمل في الحياة الجارية تعابير من أمثال «أنا» و«أنت» و«كائن» و«شخص» فلسنا نقول كذباً مخالفاً لواقع أنه لاوجود لمثل هذه «الذات» أو «الكائن»، بل نقول حقيقة تنطبق على اصطلاح الناس. أما الحقيقة النهائية فهي أنه لاوجود في الواقع لأنا أو لكائن. وهذا يعني أنه يوجد اصطلاحياً كائن، ولكن لاوجود له في الواقع أو في الجوهر.

«إن إنكار آتمان لايفنى هو خاصة مميزة مشتركة لكل نظام دوغماتي عقائدي مهما كان واسعاً أو قليل الانتشار، وليس بعد ذلك

من سبب للادعاء بأن هذه السنَّة البوذية التي هي على اتفاق كامل في هذه النقطة، إنما هي منحرفة عن التعاليم الأصلية لبوذا».

فمن المثير للفضول إذن ظهور محاولة في المدة الأخيرة على يد بعض الباحثين لأن يدخلوا خفية في تعاليم بوذا فكرة عن «الذات» مناقضة تماماً لفكر البوذية نفسه. هؤلاء الباحثون يُعجبون ببوذا ويحترمونه ويجلونه هو وتعاليمه، ولكنهم لايستطيعون أن يتخيلوا أن بوذا الذي يعتبرونه المفكر الأكثر وضوحاً والأكثر عمقاً يمكنه أن ينكر وجود آتمان أو «ذات» هم بحاجة ماسة إليها. فهم يسعون بشكل لاشعوري إلى مساندة بوذا لهم في حاجتهم لهذا الوجود الأبدي. طبعاً ليس في «ذات» صغيرة مسكينة شخصية مع حرف صغير للذال في أولها، بل في «ذات» كبيرة لها في أولها ذال كبيرة.

ويحسن أن نقول بصراحة إن بإمكانهم الاعتقاد بوجود آتمان أو «ذات»، بل وحتى أن يذهبوا إلى القول بأن بوذا أخطأ تماماً بإنكاره وجود آتمان، ولكن من المؤكد أنه ليس حسناً لأي إنسان أن يحاول إدخال فكرة في البوذية لم تكن مقبولة قط من بوذا في النصوص الأصلية القديمة الموجودة لدينا.

إن الديانات التي تعتقد بإله وبنفس لم تخفِ أي سر عن هاتين الفكرتين، بل على العكس من ذلك أعلنتهما بشكل دائم ومتكرر وبالصيغ الأكثر فصاحة. فلو أن بوذا قَبِل هاتين الفكرتين الهامتين في كل الديانات الأخرى لأعلنهما قطعاً على الجماهير، كما تحدّث عن الأمور الأخرى، ولم يخبئهما لكي لاتُكتشفا إلا بعد موته بخمسة وعشرين قرناً.

لقد غضب الناس من فكرة أنه بموجب تعاليم بوذا عن الأناتّا أن الذات التي تخيلوا أنهم يملكونها ستدمَّر، ولم يكن بوذا يجهل ذلك.

ففي إحدى المرات سأله أحد الكهنة: «يا سيدي، هل توجد الحالة التي يتعذب فيها بعضهم من أنه لايجد شيئاً دائماً فيه؟». ـ «بلى، أيها البهيكهو (التلميذ)، هذه الحالة توجد. فالإنسان عنده

الفكرة التالية: «العالم هو هذه الآتمان «الذات». وبعد الموت سأكون ذلك الخالد الذي يبقي ويستمر، الذي لايتغير، وسأبقى كذلك إلى الأبد». ثم سمع واحداً من تلاميذه يبشر بمبدأ ينزع إلى التدمير الكامل لكل نظرة تأملية. ينزع إلى استئصال الرغبة «العطش»، ينزع إلى التخلي، إلى الانقطاع، إلى النيرڤانا. عند ذلك فكر هذا الرجل: «بذلك أكون قد انعدمت، قد دُمِّرت، لم أعد شيئاً»، وعندئذ أنَّ وتعذب وناح وبكى ضارباً صدره بيديه وغدا تائهاً ضائعاً. وهكذا إذن، أيها البهيكهو، توجد الحالة التي يتعذب فيها أحد الناس لأنه لايوجد شيء دائم فيه».

وفي مكان آخر قال بوذا: «أيها البهيكهو، هذه الفكرة: لن أكون، لن أملك شيئاً، هي فكرة مخيفة بالنسبة للرجل العادي الذي لم يتثقف».

أولئك الذين يريدون أن يجدوا «ذاتاً» في البوذية يفكرون على الشكل التالي: حقاً أن البوذية تحلل الكائن إلى مادة ومشاعر وإدراك وتشكيلات عقلية ووعي، وتعلن أن أياً من هذه الأشياء ليس «الذات»، ولكنها لم تقل إنه ليس «للذات» وجود البتة سواء في الإنسان أو في مكان آخر خارج مجموعاته AGREGATS ولاشيء غيرها. ولم يقل في أي مكان إنه يمكن أن يوجد في الكائن شيء آخر غير هذه المجموعات الخمس.

والثاني أن بوذا ينكر منهجياً في عبارات لا لبس فيها وفي أكثر من مكان وجود «آتمان» أي نفس، ذات، أنا في الإنسان أو في خارجه أو في أي مكان من العالم، وإليكم بعض الأمثلة:

في الذامّاپادا يوجد ثلاثة أبيات من الشعر في غاية الأهمية وهي جوهرية في تعاليم بوذا.

الإثنان الأولان منها يقولان:

«كل الأشياء المشروطة ليست دائمة»

«كل الأشياء المشروطة هي دوكها»

ويقول البيت الثالث:

«كل (الذامّا) بلا ذات».

هنا يجب أن نلاحظ بكل عناية أنه في البيتين الأولين استُعملت كلمة (أشياء مشروطة)، ولكن في المكان نفسه من البيت الثالث استُعملت كلمة (ذامّا). فلماذا لم تُستعمل في البيت الثالث كلمة (أشياء مشروطة) كما حدث في البيتين الأولين، ولماذا استعملت كلمة (ذامّا)؟ هنا النقطة الأساسية في كل المسألة.

إن لفظة SAMKHARA (أشياء مشروطة) إنما تمثل المجموعات الخمس، وكلها مشروطة ومترابطة، أي حالات وأشياء نسبية من الناحيتين الجسدية والعقلية. فلو أن البيت الثالث قال: «كل السامخارا (الأشياء المشروطة) هي بلا ذات» فربما فكر المرء أنه رغم أن الأشياء المشروطة هي بلا ذات فيمكن مع ذلك أن توجد ذات خارج الأشياء المشروطة، خارج المجموعات الخمس. فمن أجل تفادي هذا التفسير الخاطئ استُعملت كلمة (ذامّا) في البيت الثالث.

إن لكلمة (ذامّا) معنى أوسع بكثير من كلمة (سامخارا). فليس في كل الألفاظ البوذية لفظ أوسع من (ذامّا). فهو يتضمن ليس الأشياء والحالات المشروطة وحسب، بل كذلك غير المشروطة، المطلق، النيرڤانا. ولا يوجد شيء في العالم أو خارجه، صالحاً أو طالحاً، مشروطاً أو غير مشروط، نسبياً أو مطلقاً، لايتضمنه هذا اللفظ. لذلك كان من الواضح تماماً أنه بحسب هذا النص المذكور: «كل الذامّا هي بدون ذات» ليس من ذات أو آتمان، ليس في المجموعات الخمس فحسب، بل في أي مكان خارجها أو غيرها.

وهذا يعني بحسب تعاليم بوذية الثيراڤادا (وهي البوذية الأصيلة المنتشرة في سيلان وجنوبي شرقي آسيا) أنه ما من وجود

للذات لا في الأشخاص ولا في (الدامّا). إن فلسفة بوذية الماهايانا (وهي البوذية المتطورة المنتشرة في الصين واليابان) تساند تماماً في هذه النقطة بدون أقل فارق ما ذهبت إليه الثيراڤادا.

في أحد مصادر البوذية الأساسية قال بوذا موجهاً الكلام إلى تلاميذه:

«أيها البهيكهو، اقبلوا نظرية النفس التي لاتسبب آلاماً ولاعويلاً ولا أحزاناً ولامصائب لمن يقبلها. ولكن هل تعرفون، أيها البهيكهو، مثل هذه النظرية عن النفس التي لاتسبب آلاماً ولا عويلاً ولا أحزاناً ولامصائب لمن يقبلها؟

- قطعاً لا، أيها السيد.

- حسن، أيها البهيكهو، ولا أنا أيضاً، أيها البهيكهو، لا أعرف نظرية عن النفس لاتسبب آلاماً ولاعويلاً ولا أحزاناً ولا مصائب لمن يقبلها».

فلو أن ثمة أية نظرية عن النفس قبلها بوذا لكان من المؤكد أن يعرضها هنا طالما أنه سأل تلاميذه أن يقبلوا نظرية عن النفس التي لاتسبب آلاماً. ولكن حسبما قال بوذا ليس ثمة مثل هذه النظرية عن النفس، وإن أية نظرية عن النفس مهما كان من أمرها، ومهما كانت حاذقة وسامية، فهي خاطئة ووهمية وتخلق كل أنواع المشاكل وتجر معها الآلام والعويل والأحزان والمصائب.

وإذا تتبعنا حديثه فإنه قال في المصدر نفسه:

«أيها البهيكهو، إذن لا النفس ولا شيء يتعلق بالنفس يمكن أن يكون موجوداً حقاً وواقعاً. وهذه النظرة التأملية: «هذا العالم هو هذا الآتمان (النفس). وبعد الموت سأكون ذلك، أي دائماً وباقياً ومستمراً لا أتغير، وسأبقى كذلك إلى الأبد»، أليست غير معقولة كلياً؟».

هنا قال بوذا بطريقة واضحة كل الوضوح إنه لايمكن للآتمان

أو النفس أو الذات أن تكون موجودة في الواقع، وإن من غير المعقول الاعتقاد بشيء مثل ذلك.

أولئك الذين يبحثون عن ذات في تعاليم بوذا يعطون بعض الأمثلة التي ترجموها في البداية خطأ وفسروها تفسيراً خاطئاً. مثال ذلك أحد أبيات الشعر وردت فيه كلمة ATTA التي ترجموها بكلمة ذات، فأصبحت ترجمة بيت الشعر هي «الذات هي سيدة الذات»، وقد فهموا من ذلك أن هذا البيت معناه أن «الذات الكبيرة هي سيدة الذات الصغيرة».

أولاً هذه الترجمة غير صحيحة لأن ATTA هنا لاتعنى «ذاتاً» بمعنى نفس. ففي اللغة الپاليّة كلمة أتّا تستعمل غالباً بمعنى ضمير الفاعل أو ضمير غير محدود، عدا بعض الحالات الخاصة والفلسفية، أما في الاستعمال الدارج، كما ورد في بيت الشعر السابق، وفي كثير من الأماكن الأخرى فهي تستعمل كما ذكرنا بمعنى ضمير الفاعل أو ضمير غير محدود مثل «أنا نفسي» أو «أنت نفسك» أو «هو نفسه»... الخ.

ثم إن كلمة «ناثو NATHO» الواردة في بيت الشعر نفسه، لاتعني «سيد» بل «ملجأ» أو «سَنَد» أو «مساعدة» أو «حماية». وهكذا يصبح المعنى الصحيح لبيت الشعر المذكور هو: «كل امرئ هو ملجأ نفسه» أو «كل امرئ هو مساعد نفسه» أو «كل امرئ هو سند نفسه» وليس لذلك أية صلة بالنفس أو الذات بمعناها المتيافيزيقي، بل هو يعني بكل بساطة أنه يجب على المرء أن يعتمد على نفسه لا على الآخرين.

وثمة مثال آخر في محاولة إدخال فكرة «الذات» في تعاليم بوذا توجد في جملة معروفة لبوذا ترجمتها الحرفية مايلي: «أمكث صانعاً من نفسك جزيرتك» أو سندك أو ملجأك، ولا تجعل من شخص آخر ملجأ لك. وقد وردت في هذه الجملة أيضاً كلمة ATTA فترجموا الجملة كما يلي «أمكث جاعلاً «الذات» ملجأ لك».

ولايمكن فهم المعنى الكامل ولا المغزى لهذه النصيحة التي قالها بوذا إلى أناندا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار خلفية المناسبة وكامل الحدث الذي أُخذ منه هذا الكلام.

في ذلك الوقت كان بوذا يقطن في قرية اسمها بيلوقا وذلك قبل موته بثلاثة أشهر. في ذلك العصر كان له من العمر ثمانون عاماً ويشكو من مرض جديّ ويكاد يعتبر في عداد الأموات. ولكنه فكر أنه من غير المناسب أن يموت دون أن يخبر بذلك تلاميذه المقربين الأعزاء. وهكذا وبكل شجاعة وتصميم تغلب على آلامه وقهر مرضه وتعافى. ولكن صحته كانت عارضة. وبعد شفائه كان في أحد الأيام يجلس في الظل خارج مسكنه، فجاء إليه أناندا أخلص تلاميذه فجلس إلى جانبه وقال له: «يا سيدي، لقد سهرت على صحة السعيد، سهرت عليه في مرضه، ولكن عندما رأيت مرض السعيد أصبح الأفق مظلماً أمامي ولم تعد ملكاتي واضحة. ومع ذلك كان عندي بعض العزاء: فكرت أن السعيد لن يختفي قبل أن يعطي تعليماته المتعلقة بنظام السانغا.

عند ذلك تحدث بوذا، وقد امتلأ قلبه بالرحمة والمشاعر الإنسانية، تحدث بكل طيبة إلى تلميذه المخلص المحبوب: «أناندا، ماذا تنتظر مني عن نظام السانغا؟ لقد علّمت الحقيقة دون تفريق بين ماهو باطني وظاهري. ولايملك التاثاغاتا (أي بوذا)، فيما يتعلق بالحقائق، ما يشبه الباطن والظاهر في قبضة المعلم المغلقة. حقاً ياأناندا، إذا كان هنالك من يفكر بقدرته على إدارة السانغا وأن السانغا يمكن أن ترتبط به فليعط تعليماته. أما التاثاغاتا (بوذا) فليس لديه مثل هذه الفكرة، فلمَ إذن يترك تعليمات تتعلق بالسانغا؟ أناندا، أنا عجوز الآن، عندي ثمانون عاماً، وكعربة مستعملة تحتاج إلى إصلاحات لتستمر في الخدمة، كذلك يبدو لي أن جسد التاثاغاتا يحتاج إلى إصلاحات ليستمر في الخدمة. إذن، يا أناندا «امكث وأجعل من نفسك جزيرتك «سندك»»، اجعل من نفسك، وليس من أحد

غيرك، ملجأك. اجعل من الذامّا (أي الحقيقة) جزيرتك (سندك)، من الذامّا ملجأك، وليس من شيء آخر».

ما أراد بوذا شرحه لأناندا واضح كل الوضوح. أناندا كان حزيناً وخائر النفس. ظن بأنهم سيجدون أنفسهم وحيدين بدون سند ولاملجأ ولا رئيس بعد موت المعلم الكبير. وهكذا بعث بوذا فيه العزاء والشجاعة والثقة عندما قال له إن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى الذامّا (الحقيقة) التي علمهم إياها، وليس على شخص آخر ولاشيء آخر. فهناإذن تصبح مسألة آتمان أو ذات ميتافيزيقية هي قطعاً خارج المناسبة.

وإضافة إلى ذلك شرح بوذا لأناندا كيف يمكن للمرء أن يكون جزيرة نفسه أو ملجأ نفسه، وكيف يمكن أن يصنع من الذامّا جزيرته أو ملجأه: ذلك عن طريق الثقافة والانتباه إلى الجسد والمشاعر والعقل والأمور العقلية. وهنا أيضاً لاوجود لأية كلمة تتعلق بآتمان أو بذات.

وثمة أيضاً مثال آخر يستعمله أولئك الذين يحاولون أن يجدوا آتمان في تعاليم بوذا.

في إحدى المرات كان بوذا جالساً تحت شجرة في غابة على طريق بينارس، في أوروڤيلا. في ذلك اليوم قام بنزهة إلى تلك الغابة نفسها ثلاثون من الأصدقاء الأمراء الفتيان ومعهم زوجاتهم الشابات، ومن بينهم واحد ليس متزوجاً، ولكنه أتى معه بغانية. وبينما كانوا يسمرون ويتسلون سرقت هذه الغانية أشياء ثمينة واختفت. وبينما كانوا يبحثون عنها في الغابة رأوا بوذا جالساً تحت شجرة فسألوه عما إذا كان قد رأى هذه المرأة. فسألهم بوذا عن السبب فرووا له الحادثة. عند ذلك سألهم بوذا: «ماذا تظنون أيها الفتية، ما هو أفضل لكم، البحث عن امرأة أم البحث عن أنفسكم؟».

فالسؤال هنا بسيط وطبيعي أيضاً، وليس من سبب لإدخال فكرة الآتمان أو الذات الميتافيزيقية البعيدة في هذه القضية.

وقد أجابوه أن من الأفضل لهم البحث عن أنفسهم. عندئذ سألهم بوذا أن يجلسوا حوله وعرض عليهم «الذامّا» (أي الحقيقة). وبحسب هذه القصة وما بشرّهم به وما هو موجود في النص الأصلي، ليس من كلمة تشير إلى موضوع الآتمان.

ولقد كُتب الكثير، وقام الكثير من النقاش وبُذل الكثير من التأمل والتفكير حول موضوع صمت بوذا عندما سأله أحد الضالين، واسمه فاكشاغوتا، ما إذا كان يوجد آتمان أم لا، وإليكم القصة:

أتى فاكشاغوتا إلى بوذا وسأله:

«أيها المبجّل غوتاما، هل من وجود لآتمان؟». فبقي بوذا صامتاً.

«إذن، أيها المبجّل غوتاما، ألا يوجد آتمان؟» وبقي بوذا صامتاً أيضاً. عندئذ نهض فاكشاغوتا ومضى في سبيله.

بعد ذهاب هذا الضال، سأل أناندا بوذا لماذا لم يجب على سؤال فاكشاغوتا. وشرح بوذا موقفه: «أناندا، عندما طرح علي فاكشاغوتا الضال سؤاله: أيها المبجّل غوتاما هل توجد ذات؟ فلو أنني أجبته: نعم توجد ذات، فهذا معناه اعتناق لمذهب هؤلاء المعتزلة والبراهمانا الذين يدعمون النظرية الأبدية.

«وعندما طرح عليَّ فاكشاغوتا الضال، يا أناندا، سؤاله: أيها المبجّل غوتاما، ألا توجد ذات؟ فلو أنني أجبته ألا وجود للذات، عندئذ، يا أناندا، ألا يكون ذلك متفقاً مع معرفتي بأن كل الذامّا (الحقائق) هي بدون ذات.

ـ بالتأكيد يا سيدي.

ـ وإلى ذلك، يا أناندا، عندما طرح علي فاكشاغوتا الضال سؤاله: أيها المبجّل غوتاما، ألا توجد ذات؟ فلو أنني أجبته: كلا لاتوجد ذات، فيمكن أن يسبب جوابي هذا لفاكشاغوتا الضال

غموضاً أكبر أيضاً، هو المرتبك الضائع في الأصل. ذلك لأنه يمكن أن يفكّر: سابقاً كان لي فعلاً آتمان، والآن لم تعد عندي».

فالسبب الذي بقي من أجله بوذا صامتاً هو الآن في تمام الوضوح، ولكنه سيكون أكثر وضوحاً إذا أخذنا بعين الاعتبار خلفية المناسبة والطريقة التي كان بوذا يعالج فيها الأسئلة والسائلين، وهذان الأمران مجهولان من أولئك الذين ناقشوا هذه المشكلة.

فبوذا لم يكن آلة تعطي الأجوبة دون أن تأخذ بعين الاعتبار نوع الأسئلة وحالة الذين يطرحونها. إنه معلم عملي مليء بالعطف والحكمة. فلم يكن يردّ على الأسئلة من أجل أن يظهر ذكاءه ومعرفته، بل ليساعده ذلك الذي طرحها ويدله على طريق تحقيقها. فهو يتحدث إلى الناس وفي ذهنه مستوى تطورهم وميولهم وما يدور في أذهانهم وصفاتهم واستعداداتهم لفهم موضوع محدد.

وبحسب ما يرى بوذا ثمة أربع طرائق لمعالجة الأسئلة. 1 - ينبغي الرد على بعضهم بشكل مباشر. 2 - وعلى آخرين يرد بعد تحليلهم. 3 - وعلى آخرين أيضاً ينبغي الرد بطرح أسئلة مضادة. 4 - وأخيراً هنالك أسئلة ينبغي تركها بدون جواب.

ويمكن أن يكون ثمة عدة طرائق لترك الأسئلة بدون جواب. أولها القول إن سؤالاً خاصاً لايملك الإجابة عليه أو تفسيره، وذلك كما فعل بوذا مع هذا الفاكشاغوتا نفسه في أكثر من مناسبة عندما طرح عليه تلك الأسئلة الشهيرة عما إذا كان العالم خالداً أم لا، وغير ذلك. وبالطريقة نفسها رد على آخرين. إلا أنه لايستطيع أن يتصرف هكذا فيما يتعلق بسؤال ما إذا كان يوجد آتمان (ذات) أم لا، لأنه طالما عرضه وناقش به. فلا يمكنه القول «يوجد ذات» لأن ذلك مخالف لمعرفته بأن «كل الذامّا هي بلا ذات». ولم يكن يشاء القول «لايوجد ذات» لأن هذا الجواب يمكن ألا تكون له ضرورة ولامسوغ بحيث يجعل المسكين فاكشاغوتا أكثر حيرة واضطراباً في مثل هذا

الموضوع، كما اعترف بذلك فيما سبق، وهو ليس على مستوى أن يفهم فكرة «الأناتّا». وإذن من الأَولى ترك هذا السؤال بلا جواب والتزام الصمت، فذلك هو الطريقة الأكثر حكمة في هذه الحالة الخاصة.

ولا يجب أن ننسى كذلك أن بوذا كان يعرف فاكشاغوتا من قبل ومنذ مدة طويلة، فليست هذه المرة الأولى التي يأتي إليه فيها هذا السائل الضال. إن المعلم الحكيم المليء بالعطف طالما فكر بهذا الباحث المحتار وأظهر له التقدير. فثمة الكثير من الإشارات في النصوص «الپاليّة» (أي المكتوبة باللغة الپاليّة) إلى هذا الفاكشاغوتا نفسه وإلى أنه جاء إلى بوذا في كثير من الأحيان وإلى تلاميذه وطرح عليهم أيضاً وأيضاً النوع نفسه من الأسئلة التي تعذبه وتستولي على عقله. ويبدو أن صمت بوذا كان له تأثير أكبر من كل نقاش أو جواب فصيح.

بعض الناس يأخذون «الذات» على أنها مثل ما يسمى بوجه عام «عقل» أو «إدراك». ولكن بوذا قال إن من الأفضل للمرء أن يعتبر جسده على أنه «ذاته» وليس العقل أو الفكر أو الإدراك، لأن الأول يبدو أكثر متانة من الباقين، فالعقل والفكر والإدراك تتغير دائماً ليلاً ونهاراً بأسرع مما يفعل الجسد.

إنه لشعور غامض «بالأنا» هو الذي يخلق هذه الفكرة عن الذات التي ليس لها أثر من الواقع. ويوجد في (الساميوتّا ـ نيكايا) محادثة رائعة عن هذه النقطة بين واحد من البهيكهو (التلاميذ) اسمه خيماكا وجماعة من البهيكهو.

هؤلاء الكهنة سألوا (خيماكا) ما إذا كان رأى في المجموعات الخمس AGREGATS ذاتاً أو شيئاً يتعلق بالذات. فأجاب خيماكا بالنفي. عندئذ قال البهيكهو إنه إذا كان كذلك فيجب أن يكون واحداً من «الأراهانت» متحرراً من كل رجس. ولكن خيماكا اعترف بأنه رغم أنه لم يجد في المجموعات الخمس ذاتاً أو شيئاً يتعلق بالذات

«فإنني لست أراهانتاً متحرراً من كل رجس. أيها الأصدقاء. فيما يتعلق بالمجموعات الخمس من الارتباط فإن لدي الشعور «بالأنا»، ولكنني لا أرى بوضوح ما إذا كان ذلك هو «الأنا». ثم إن خيماكا فسّر أن ما سمّاه «الأنا» ليس مادة ولاشعوراً ولا إدراكاً ولاتشكيلات عقلية ولا وعياً ولاشيئاً خارج ذلك. ولكن لديه شعور «بالأنا» له علاقة مع مجموعات الارتباط الخمس رغم أنه لايستطيع أن يرى بوضوح ما إذا كان ذلك هو «الأنا».

وقال إن ذلك مثل رائحة زهرة، وهي ليست رائحة تويجات أو رائحة لون أو رائحة لقاح، بل رائحة الزهرة.

وقد شرح خيماكا، إضافة إلى ذلك، بأنه حتى الشخص الذي بلغ المراحل الأولى من التحقق، فإنه يحتفظ بهذا الشعور «بالأنا». ولكنه بعد ذلك عندما يتقدم فإن هذا الشعور «بالأنا» يختفي هو أيضاً مثلما تختفي رائحة كيماوية من نسيج حديث الغسل بعد بعض الوقت عندما يوضع في صندوق.

هذه المناقشة كانت بالنسبة لهم مفيدة جداً وبارعة جداً إذ بعدها، كما يقول النص، أصبحوا كلهم بما فيهم خيماكا نفسه، أراهانتاً محرَّرين من كل رجس لأنهم بذلك تخلصوا أخيراً من «الأنا».

بحسب تعاليم بوذا، سيء جداً كذلك مساندة الرأي الذي يقول «ليس لي ذات» (الذي هو نظرية العدميين) كما هو سيء مساندة الرأي الذي يقول «لي ذات» (الذي هو نظرية الأبديين) لأن كلا الرأيين هما ارتباطات، كلاهما آتيان من فكرة «الأنا» الخاطئة. الموقف الصحيح تجاه مسألة الأناتّا ليس في مساندة هذه أو تلك من وجهات النظر أو الرأي، بل في محاولة رؤية الأشياء بطريقة موضوعية كما هي دون إسقاطات عقلية، فرؤية ما يسمونه «أنا» أو «أكون» هي ربط وإدغام بين المجموعتين الجسدية والعقلية اللتين يعملان معاً، ولكن بشكل مستقل في تدفق من التغيرات الانية

الخاضعة لقانون الأسباب والمؤثرات والتي ليس فيها شيء دائم وأبدي وبدون تغيير في مجموع الوجود العالمي.

وهنا يوجد سؤال طبيعي يطرح نفسه: إذا لم يكن ثمة آتمان فمن الذي يتلقى نتيجة الكارما (الأعمال)؟ ما من أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال أفضل من بوذا نفسه. فعندما طرح عليه هذا السؤال أحد البهيكهو (التلاميذ) قال بوذا: «لقد علّمتكم، أيها البهيكهو، أن تروا الشرطية والظرفية في كل مكان وفي كل شيء».

إن تعاليم بوذا عن الأناتا، أي اللانفس أو اللاذات يجب ألا تعتبر سلبية أو عدمية. وكذلك أمر «النيرڤانا»، فهي حقيقة وواقع، والواقع لايمكن أن يكون سلبياً. إن ما هو سلبي هو الاعتقاد بذات وهمية ليس لها وجود. إن تعليم الأناتّا يبدد ظلمة المعتقدات الخاطئة وينجم عنه النور والحكمة. وهو ليس سلبياً. وكما قال أسانغا بحق: «هنالك واقع هو أنه لاوجود للذات».

«التأمل» أو الثقافة العقلية: بهافانا

قال بوذا: «أيها البهيكهو، ثمة نوعان من المرض، فما هما هذان النوعان من المرض؟ المرض الجسدي والمرض العقلي. ويبدو أن هنالك أناساً سعداء لأنهم خالون من المرض الجسدي خلال عام أو عامين، أو ربما خلال مئة عام أو أكثر. ولكن، أيها البهيكهو، نادرون في هذا العالم من هم معصومون ولو للحظة واحدة من المرض العقلي، عدا أولئك الذين هم معصومون من الأرجاس العقلية (وهو يعني الأراهانت)».

إن تعاليم بوذا، وبوجه خاص طريقةُ إلى «التأمل»، تهدف إلى إيجاد حالة من الصحة العقلية الكاملة، من التوازن والاطمئنان. ومن المؤسف جداً أنه ليس من قطاع من تعاليمه أسيء فهمه ووضع في التطبيق بشكل خاطئ مثل «التأمل»، سواء من قبل البوذيين أو

سواهم. فما أن تُذكر كلمة «التأمل» حتى تقفز إلى الذهن فكرة التخلي عن النشاطات اليومية الحياتية تجاه المجتمع. إن «التأمل» الحقيقي البوذي لايعني أبداً هذا النوع من التخلي والهروب. فتعاليم بوذا في هذا الموضوع فُهمت فهماً سيئاً أو فهماً قليلاً جداً حتى أن طريق «التأمل» أدى فيما بعد إلى نوع من «الطقس» أو «الشعائر» التي تمارس بشكل آلي وروتيني.

كثير من الناس يهتمون بالتأمل أو «اليوغا» رغبة منهم في

اكتساب قدرات عقلية أو روحية (صوفية)، أو لاكتساب «العين الثالثة» التي لايملكها الآخرون. منذ بعض الوقت وُجد في الهند راهبة بوذية إنكليزية أجهدت نفسها في أن تطور القدرة على الرؤية عن طريق الأذنين بينما كانت لاتزال تملك رؤية عينية كاملة. مثل هذه الأفكار ليست إلا «انحرافاً عقلياً». الأمر دائماً هو الرغبة أو «العطش» إلى المقدرة والسلطة سواء في الميدان السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو الروحاني.

إن كلمة «التأمل» عدّلت تعديلاً سيئاً المعنى الأصلي لكلمة «بهاڤانا» التي تعني «الثقافة» أو «التطوير»، أي الثقافة العقلية والتطوير العقلي. فالبهاڤانا البوذية في معناها الصحيح هي الثقافة العقلية بالمعنى الصحيح للكلمة. وهي تهدف إلى تخليص العقل من الرجاسات، مما يجعله مضطرباً كالرغبات الحسية والبغضاء والنية السيئة واللامبالاة والارتباك والاضطرابات والشكوك، وإلى تثقيف وتهذيب حالات التركيز والانتباه والذكاء والإرادة والنشاط وملكة

التحليل والثقة والفرح والهدوء، ومؤدية في النهاية إلى الحكمة العليا التي ترى الأشياء كما هي، والتي تبلغ الحقيقة السامية العليا «النيرڤانا».

هنالك نوعان من التأمل. الأول هو تطوير التركيز العقلي، والتركيز العقلي الأحادي الذي يؤدي، بطرق متنوعة موصوفة في النصوص البوذية، إلى أعلى حالات الصوفية مثل «جو العدم» أو «جو عدم الإدراك أو لا عدم الإدراك»، وكل هذه الحالات الصوفية هي، بحسب البوذية، خلائق أو نتاجات عقلية، ولا شيء منها يُرى في الواقع، في الحقيقة، في النيرڤانا. وهذا النوع من التأمل كان يوجد قبل النيرڤانا، وهو ليس بوذياً خالصاً ولكنه ليس مستبعداً عن مجال التأمل البوذي، وهو ليس مع ذلك جوهرياً لتحقيق النيرڤانا. وبوذا نفسه، قبل «استنارته» درس هذه التدريبات «اليوغية» تحت إدارة معلمين مختلفين وبلغ أعلى حالات الصوفية. إلا أن ذلك لم يكفه لأن تلك التدريبات لم تأتِ له بالتحرر الكامل، ولم تعطه رؤية

الواقع الأسمى، بل إنه اعتبر هذه الحالات الصوفية طريقة «لبقائه سعيداً في هذه الحياة وحسب» وليس أكثر من ذلك.

عندئذ اكتشف الشكل الآخر «للتأمل» المعروف باسم «الرؤية» في طبيعة الأشياء التي تقود إلى تحرير العقل الكامل وإلى الوصول إلى الحقيقة الأسمى، إلى النيرڤانا. وذلك هو جوهر التأمل، الثقافة العقلية البوذية، وهي طريقة تحليلية تعتمد على الانتباه والوعي والتيقظ والملاحظة.

وليس من الممكن أن نعالج معالجة مناسبة في بضع صفحات موضوعاً بهذه السعة وهذا العمق وهذه الأهمية. ومع ذلك فسنحاول أن نلخص باختصار ما هو «التأمل» البوذي الحقيقي باعتباره ثقافة عقلية بطريقة عملية يمكن أن يفيد منها القارئ.

إن الحديث الأكثر أهمية الذي أعطاه بوذا عن التنمية العقلية («التأمل») هو الذي كان عنوانه «بناء الانتباه». هذا الحديث عالي

المقام في السنة البوذية. حتى أنه لايروى بانتظام في الأديرة وحسب بل في المنازل البوذية أيضاً أمام العائلة المتحلقة التي تصغي إليه بإخلاص عميق. والبهيكهو يلقونه غالباً قرب سرير الميت لكي يطهر آخر آفكاره.

إن طرائق «التأمل» المذكورة في هذا الحديث ليست منقطعة عن الحياة، بل هي لاتتجنبها وكلها على علاقة بحياتنا ونشاطاتنا اليومية، مع أفراحنا وأحزاننا، مع أحاديثنا وأفكارنا، مع اهتماماتنا المعنوية والفكرية.

والحديث مقسم إلى أربعة أقسام رئيسية: يعالج الأول منها جسدنا، والثاني أحاسيسنا، والثالث عقلنا، والرابع يتضمن مواضيع أخلاقية وفكرية متنوعة.

ويجب أن نفهم بوضوح، أنه مهما كان شكل «التأمل» فإن الجوهري فيه هو الانتباه والوعي والملاحظة.

واحد من أمثلة «التأمل» الأكثر شهرة وشعبية وعملية والمتعلق بالجسد هو «الانتباه إلى التنفس». ومن أجل هذا التأمل وحده وُصفت في النص وضعية خاصة ومحددة للجسم. ومن أجل الأشكال الأخرى من «التأمل» المعروضة في «السوتا» (أي حديث بوذا المومأ إليه) تستطيع أن تجلس، أو تبقى واقفاً أو تمشي أو تبقى متمدداً حسبما يناسبك. ولكن من أجل أن تدرب نفسك على الانتباه للتنفس (الشهيق والزفير) يجب عليك، كما يقول النص، أن «تجلس وساقاك متصالبتان (متربعاً) وجسدك منتصب وانتباهك في حالة إنذار». ولكن الجلوس مع تصالب الساقين ليس عملياً ولاسهلاً بالنسبة للناس كلهم ومن كل البلاد وبخاصة أناس الغرب، والنتيجة أنه بالنسبة للأشخاص الذين يصعب عليهم أن يجلسوا هذه الجلسة الجسدية، فإن باستطاعتهم الجلوس على كرسي «محتفظين بجسدهم منتصباً وبانتباههم في حالة إنذار». ومن الضروري قطعاً من أجل ممارسة هذا التدريب أن يجلس المتأمل منتصب القامة

تماماً، ولكن بدون تصلّب، ويداه موضوعتان براحة على ركبتيه. وبعد أن تجلس على هذه الطريقة يمكنك إما أن تغمض عينيك، وإما أن توجه نظرتك إلى طرف أنفك بحسب ما يناسبك.

أنت تشهق وتزفر ليلاً نهاراً، ولكن دون أن تعي ذلك، ولا تركز عقلك ولو للحظة واحدة على هذه العملية. والآن ستعمل تماماً ما يلي: تتنفس كالمعتاد دون أي جهد أو إرغام. والآن تركز عقلك على الشهيق والزفير، تراقبهما، اجعل عقلك متيقظاً على شهيقك وزفيرك. يمكن أن يكون تنفسك طويلاً أحياناً وقصيراً أحياناً. هذا لايهم. تنفس بشكل عادي وطبيعي. الشيء الوحيد المهم هو أنك عندما تتنفس طويلاً يجب أن تعي بأنك تتنفس طويلاً، وعندما تتنفس تنفساً قصيراً يجب أن تكون واعياً لذلك. وبعبارة أخرى يجب أن يكون عقلك مركّزاً تماماً على تنفسك بحيث تعي تماماً حركاته وتغيرات إيقاعه. وانسى كل ما عدا ذلك، كل ما حولك، لاترفع عينيك، لاتنظر إلى شيء. حاول أن تفعل ذلك لخمس دقائق أو عشر.

في البداية ستجد صعوبة كبيرة في المحافظة على ذهنك متركزاً على تنفسك. ستفاجأ عندما ترى كيف يزوغ ولايبقى ثابتاً وستأخذ بالتفكير في أشياء متنوعة، ستسمع أصوات الخارج، سيصبح فكرك مشتتاً وغائباً، ستفقد حماستك ويخيب ظنك. لكنك إذا تابعت ومارست هذا التمرين مرتين في اليوم، في الصباح والمساء، وخلال خمس دقائق أو عشر في كل مرة، فإنك ستصل بالتدريج إلى تحقيق هذا التركيز. وبعد مدة من الوقت ستأتي لحظة قصيرة يتركز فيها ذهنك على تنفسك ولاتعود تسمع ضجيج الجيران ولايبقى العالم الخارجي موجوداً بالنسبة لك. هذه اللحظة القصيرة ستأتي لك بتجربة كبيرة جداً مشحونة بالفرح والسعادة والهدوء حتى لترغب في أن تطول. ولكنك لن تكون بعد قادراً علىإطالتها. وإذا تابعت مع ذلك ممارسة هذا التمرين بشكل منتظم فإن التجربة ستحصل لك أيضاً وأيضاً وستطول شيئاً فشيئاً، وتلك هي اللحظة التي ستضيع فيها نفسك تماماً في الانتباه إلى تنفسك. فطالما بقيت واعياً لنفسك فإنك

لن تستطيع أبداً التركيز على شيء.

هذه التجربة في الانتباه إلى التنفس، والتي هي الأسهل والأبسط للمارسة، هدفها أن تنمي القدرة على تركيز يقود إلى إنجازات صوفية عالية (ذيانا). والقدرة على التركيز هي جوهرية، من جهة أخرى، لبلوغ شكل ما من أشكال الفهم العميق، للاختراق، للنظر في طبيعة الأشياء بما فيها تحقيق «النيرڤانا».

وبعيداً عن كل ذلك فإن هذا التمرين على مراقبة التنفس يأتي لك بنتائج مباشرة: حالتك الصحية الجسدية تتحسن، تأتي لك بالاسترخاء، بنوم عميق، وتجعل عملك اليومي أكثر جدوى. وسيجعلك ذلك أكثر هدوءاً وراحة حتى في اللحظات التي تشعر فيها بأنك في حالة عصبية أو أنك قليل الاصطبار، على أن تمارس هذا التمرين دقيقتين فحسب، فتحس مباشرة بالهدوء وأنك في راحة حسنة.

شكل آخر من «التأمل» من «التنمية العقلية» يقوم على أن توجه انتباهك إلى كل ما تفعل، أعمالاً وكلاماً، في حياتك الروتينية اليومية وفي عملك وفي حياتك الخاصة والعامة والمهنية، عندما تمشي وتجلس وتتمدد وتفكر، أو ما تنظر إليه من حولك أو ترتدي ثيابك، أوما تتحدث به إلى شخص آخر أو عندما تبقى صامتاً، أو عندما تأكل أو تشرب، أو عندما تقضي حاجاتك الطبيعية ـ مهما فعلت يجب أن تكون على انتباه كامل وأن تكون واعياً لعملك في اللحظة نفسها التي قمت بها فيها. وهذا يعني أن عليك أن تعيش اللحظة الحالية، في العمل الحالي. وهذا لايعني أن تتخلى عن التفكير في الماضي والمستقبل، بل يجب، على العكس، أن تفكر بهما ولكن في علاقتهما مع الحاضر، مع الفعل الحاضر في اللحظة الحاضرة، أين ومتى حدث ذلك في مثل هذه المناسبة.

إن الناس بوجه عام لايعيشون في أفعالهم، في الحاضر، بل يعيشون في الماضي أو في المستقبل، ورغم ما يظهر من أن أنهم

يفعلون شيئاً ما هنا، في اللحظة نفسها، فإنهم يكونون في مكان آخر، في أفكارهم، في مشاكلهم وفي اهتماماتهم الخيالية، ضائعين غالباً في ذكريات الماضي أو منجرّين وراء رغبات وتأملات عن المستقبل. فهم لايعيشون إذن فيما يفعلون في اللحظة ذاتها لأنهم لايستمتعون بها، لأنهم تعساء مستاؤون من الحاضر، من عملهم، فهم طبعاً عاجزون عن أن يقدموا كل اهتمامهم لما يبدو أنهم مشغولون بعمله.

أنتم تلاحظون أحياناً في أحد المطاعم رجلاً يقرأ وهو يأكل ـ وهو مشهد عادي جداً وشائع جداً. وهو يبدو مهتماً جداً وليس عنده وقت للطعام. وقد يمكن الظن بأنه يفعل الأمرين في وقت واحد، ولكنه في الواقع لايفعل حقاً لا هذا ولا ذاك. فعقله متوتر مضطرب مشغول ولايستمتع أبداً بما يبدو أنه يفعله ولايعيش في اللحظة الحاضرة. بشكل غير واع وبجنون يحاول، على العكس من ذلك، أن

يتخلص من الحياة الواقعية (وهذا لايعني مع ذلك أن على المرء ألا يتحدث مع صديق أثناء الغداء أو العشاء).

طالما أنتم أحياء فلن تستطيعوا التخلص من الحياة. مهما فعلتم، سواء أقمتم في المدينة أو انسحبتم إلى مغارة فلا بد أن تنظروا مواجهةً إلى الحياة وأن تعيشوها. والحياة الحقيقية هي اللحظة الحاضرة ـ وليست ذكريات ماض مات وانقضى، ولا أحلام مستقبل لم يولد بعد. فمن يعيش في الحاضر هو في الحياة الواقعية وهو الأكثر سعادة.

عندما سئل لِمَ كان تلاميذه الذين يعيشون حياة بسيطة ويتناولون وقعة واحدة في اليوم بهذا البهاء والإشعاع أجاب بوذا: «إنهم لايأسفون على الماضي ولايهتمون بالمستقبل، بل هم يعيشون في الحاضر، ومن أجل ذلك هم متألقون. فالحمقى باهتمامهم بالمستقبل وأسفهم على الماضي يجفّون كما يجف تحت الشمس القصب المقطوع».

أن تنتبه أو تعي لايعني أن عليك أن تفكر أو تكون واعياً «بأنني أفعل هذا أو أفعل ذاك»، كلا، فالأمر على عكس ذلك تماماً، فما أن تفكر بأنني «أفعل هذا» تصبح واعياً لذاتك، وعندئذ أنت لاتعيش في عملك بل في فكرة «أنا موجود»، والنتيجة أن عملك يفسد. يجب عليك أن تنسى نفسك تماماً وأن تضيع فيما تفعل. فما أن يصبح أحد الخطباء واعياً لنفسه ويفكر «إنني أتوجه إلى مستمعين» يضطرب خطابه وينقطع حبل تفكيره، أما عندما يضيع في خطابه، في موضوعه، عند ذلك يكون في الحالة الأفضل، يتكلم جيداً ويعبر بوضوح. إن كل عمل كبير ـ فني، أو شعري أو فكري أو لطيف للتسلية الذكية ـ إنما يتم إنجازه عندما يكون مبدعه مستغرقاً كلياً في عمله، حيث ينسى نفسه تماماً أو حينما يتخلص تماماً من وعيه بذاته.

إن هذا الانتباه، هذا الوعي المتيقظ لنشاطاتنا الذي علّمه بوذا

يقوم على أن نحيا في الحاضر، في العمل نفسه (وهذا هو طريق «زن»(*) الذي يقوم أساساً على هذا التعليم). فهنا، في هذا الشكل من التأمل ليس لديك شيء خاص تفعله لتنمية انتباهك، وليس عليك إلا أن تكون منتبهاً متيقظاً مهما كان العمل الذي تباشره. ليس عليك أن تضيّع ثانية من وقتك الثمين لهذا «التأمل» الخاص، بل عليك تنمية انتباهك وأن تعي طول الوقت، في الليل والنهار، تجاه كل نشاطات حياتك اليومية.

إن الشكلين من «التأمل» اللذين تكلمنا عنهما يتعلقان بجسدنا.

والآن توجد طريقة لممارسة التنمية العقلية («التأمل») ترتبط بانفعالاتنا وأحاسيسنا سواء كانت سارة أو مزعجة أو حيادية. ولنأخذ مثالاً: أنتم تعانون من إحساس مؤلم. في هذه الحالة يُظلِم عقلكم ويغرق في المبهم، فهو غير رائق بل خائر مكتئب. وفي بعض الأحيان أنت لاترى بوضوح لِمَ أنت تعاني من هذا الشعور المؤلم. قبل كل شيء عليك أن تتعلم ألا تكون تعيساً في حالة أحاسيسك

المزعجة، ألا تقلق بخصوص أحزانك، بل حاول أن ترى بوضوح لِمَ يوجد هذا الشعور بالحزن والقلق والألم. حاول أن تفحص كيف ظهر، ما هو سببه، كيف يتبدد وينقطع. حاول أن تفحصه كما لو أنك تراقبه من الخارج، بدون ردة فعل شخصية، مثل عالِم يراقب شيئاً. وهنا أيضاً عليك ألا تنظر إليه نظرة شخصية باعتباره «إحساسي»، بل موضوعياً باعتباره «إحساساً». وينبغي عليك أيضاً أن تنسى تلك الفكرة الخاطئة عن «الأنا». وعندما تتبين طبيعته، كيف ظهر، كيف يختفي، عند ذلك يصبح فكرك غير متحيز تجاه هذا الشعور، يصبح منطلقاً وحراً. وسيكون كذلك تجاه كل الانفعالات وكل المشاعر.

لنأت الآن إلى شكل «التأمل» المتعلق بعقلك. ينبغي عليك أن تكون على كامل الوعي في كل مرة يكون فيها فكرك منفعلاً أو منطلقاً، كل مرة يكون تحت تأثير البغضاء أو سوء النية أو الحسد،

(*) «زن» هو أحد مذاهب البوذية اليابانية المندرجة تحت لواء الماهايانا. المترجم.

أو أنه على العكس من ذلك مليء بالحب والعطف، كل مرة يكون فيها تحت تأثير الوهم أم أنه يملك معرفة واضحة وصحيحة، وهكذا... يجب علينا أن نعترف بأننا غالباً ما نكون خائفين أو خجلين من مراقبة فكرنا الخاص، ونفضل أن نتجنب ذلك. ينبغي علينا أن نكون على جرأة كافية وصدق كاف للنظر إلى فكرنا كما ننظر إلى وجهنا في مرآة.

والأمر لايتعلق هنا بوضعية حرجة، أن نحاكم أو نتبين ما هو صحيح وما هو خطأ، أو ما هو خير وما هو شر، بل يتعلق ببساطة بأن نلاحظ ونفحص ونكون منتبهين. فهنا أنت لست قاضياً، بل عالماً يشاهد واقعاً. وعندما تلاحظ وتتبين بوضوح الطبيعة الحقيقية لفكرك، فإنك تصبح غير منحاز تجاه انفعالاته ومشاعره وأحواله. تصبح بذلك منطلقاً وحراً، وتستطيع عند ذلك أن ترى الأمور كما هي.

إليك مثالا: لنفرض أنك غاضب، يسيطر عليك الغضب والنية السيئة والبغضاء. ومن المثير للفضول واللامعقول ألا يكون رجل غاضب على هذا الشكل دون أن يكون واعياً حقاً لحالة عقله. ففي اللحظة التي يرى فيها غضبه فإن هذا الغضب يصبح فوراً فاتراً خجولاً ويبدأ بالهبوط. ينبغي عليك أن تفحص طبيعته، كيف ظهر وكيف يختفي. وهنا أيضاً يجب أن تتذكر أنه لاينبغي التفكير في «أنا غاضب» أو في «غضبي»، بل عليك فقط أن تكون متنبهاً وواعياً لحالة العقل المستسلم للغضب. ستلاحظ بشكل موضوعي، ستفحص عقلاً في حالة غضب. تلك هي الحالة التي ينبغي اتخاذها تجاه كل مشاعر وانفعالات وحالات عقلية.

هنالك أخيراً شكل من «التأمل» يقوم على المواضيع الأخلاقية والذهنية والفكرية. إن كل دراساتنا وقراءتنا ومناقشاتنا [illegible] محادثاتنا وتفكيرنا في هذه المسائل مدرجة في هذا التأمل. [illegible] هذا الكتاب والتفكير بعمق في الموضوعات المعروضة [illegible]

شكل من أشكال التأمل. ولقد رأينا أن الحديث بين خيماكا وزمرة الكهنة كان نوعاً من التأمل الذي قادهم إلى بلوغ «النيرڤانا».

بحسب هذا الشكل من التأمل تستطيع أن تدرس وتفكر في «الموانع الخمسة» (نيڤارانا) التي هي:

1 - الرغبات الحسية.

2 - النية السيئة، الكراهية والغضب.

3 - الخمود والفتور.

4 - الهيجان والندم.

5 - الشكوك الارتيابية.

هذه العناصر الخمسة تعتبر مقاومة لكل تفهّم واضح ولكل تقدم. وعندما يكون المرء خاضعاً لها دون أن يعرف كيف يتخلص منها فهو لايستطيع أن يميز ما هو صحيح أو خطأ، جيد أو سيء.

والآن نستطيع أن نتأمل أيضاً في العوامل السبعة لليقظة EVEIL:

1 - الانتباه (SATI)، بمعنى أن يكون المرء واعياً ومتنبهاً في كل الأعمال، في كل الحركات الجسدية والعقلية كما سنأتي على ذكره.

2 - التقصي والبحث المتعلق بمختلف المشاكل عن العقيدة. ويدخل في هذا الباب كل الدراسات الدينية والأخلاقية والفلسفية، وكل قراءاتنا وبحوثنا ومناقشاتنا وأحاديثنا، وحتى الحاضرون في مؤتمرات عقدت من أجل مثل هذه المسائل العقائدية.

3 - الهمة والنشاط في العمل بتصميم حتى بلوغ الغاية والهدف.

4 - الفرح: وهو الصفة التي تتناقض مع حالة ذهنية متشائمة مظلمة أو قلقة.

5 - راحة الجسم والذهن: فينبغي على المرء ألا يتوتر لا جسديا ولا عقلياً.

6 - التركيز، وقد ناقشناه فيما سبق.

7 ـ اعتدال المزاج (اللامبالاة)، وهذا يعني أن يكون المرء قادراً على أن يواجه، بهدوء وبدون اضطراب، كل صروف الحياة (أو مفاسدها).

وما هو جوهري من أجل تقوية هذه الصفات هو الإرادة والميل الصادق. وتصف النصوص إضافة إلى ذلك كثيراً من الشروط المادية والروحية التي تساهم في تنمية وتطوير كل من هذه الصفات.

ويمكن للمرء كذلك أن «يتأمل» في مواضيع مثل «المجموعات الخمس AGREGATS وهو يفكر في مسألة «ماهو الكائن؟» أو «ماذا تُسمى الأنا؟» أو في «الحقائق الأربع النبيلة» كما ناقشناها فيما سبق. ودراسة هذه المواضيع، والبحوث المتعلقة بها تشكل هذا الشكل الرابع من التأمل الذي يقود إلى بلوغ الحقيقة السامية.

إلى جانب تلك التي ذكرناها يوجد كذلك الكثير من المواضيع الأخرى للتأمل من بينها يجب أن نذكر «الحالات الأربع السامية»: 1 ـ

نشر ومد حب عام لاحدود لها بنية حسنة على كل الكائنات الحية دون تمييز «كما تحب الأم ولدها الوحيد». 2 ـ العطف على كل الكائنات التي تتألم، تعاني من المصاعب وتقع تحت وطأة الأسى والبلوى. 3 ـ الفرح المتعاطف مع نجاح الآخرين وسعادتهم وراحتهم. 4 ـ اللامبالاة تجاه كل صروف الحياة.

الأخلاق البوذية والمجتمع

بعض الناس يتخيلون أن البوذية نظام فيه من السمو والنبل والجلال بحيث أن العاديين من الرجال والنساء لايملكون إمكانية وضعه موضع التطبيق في هذا العالم من العمل والدأب اليومي الذي هو عالمنا. وهم يعتقدون أن من الضروري لمن يريد أن يكون بوذياً حقيقياً أن يتخلى عن العالم وينسحب إلى دير أو مكان منعزل هادئ.

وتلك في الحقيقة فكرة خاطئة تماماً نابعة من فهم ناقص لتعاليم بوذا. والناس متعجلون للوصول إلى نتائج سريعة وخاطئة، سواء بدافع مما سمعوه أو بعد قراءة غير مستوعبة لكتاب كُتب عن البوذية من قبل مؤلف لم يفهم هو نفسه الموضوع في جوانبه كلها، ولم يُقدم منه إلا وجهة نظر جزئية وسطحية. إن تعاليم بوذا لم

تخصص للرهبان وحدهم الذين يعيشون في الأديرة، بل هي تتوجه أيضاً للرجال والنساء العاديين الذين يعيشون في منازلهم ومع عائلاتهم. والصراط الثُماني النبيل الذي هو قاعدة الحياة البوذية إنما يتوجه للجميع بدون تمييز.

لايستطيع الناس كلهم أن يصبحوا رهباناً ولا أن ينسحبوا إلى مغارة أو غابة. ومهما كانت البوذية نقية ونبيلة وسامية فإنها ستكون بدون أهمية ولامغزى بالنسبة للجماهير البشرية إذا لم

تتمكن تلك الجماهير من أتباعها في حياتها اليومية في قلب العالم الحديث. ولو أنهم فهموا فهماً صحيحاً روح البوذية (لا حرفيتها) فسيكون بإمكانهم اتباعها قطعاً ووضعها موضع التطبيق وهم يمارسون حياتهم كأناس عاديين.

بعض الأشخاص يسهل عليهم اتباع طريق البوذية إذا عاشوا في مكان هادئ، وانسحبوا في معزل عن المجتمع. ولكن ثمة آخرون يستطيعون أن يجدوا أن هذا النوع من الانسحاب يثقل ويحبط جسدياً ومعنوياً وجودهم كله، وأن هذا النوع من الحياة لايلائم تطوير حياتهم الروحية والفكرية.

إن التخلي الحقيقي لايعني أن على المرء الابتعاد جسدياً عن العالم. وقد قال ساريبوتا تلميذ بوذا الرئيسي: إن المرء يستطيع العيش في الغابة مستسلماً لممارسات تقشفية ويبقى مع ذلك مليئاً بالأفكار الفاسدة والقذارات. وإن شخصاً آخر يستطيع أن يعيش في قرية أو مدينة ولايسلم نفسه لأية ممارسات تقشفية ويستطيع عقله مع ذلك أن يبقى نقياً متحرراً من كل ما هو فاسد وقذر. فمن يمارس من هذين الاثنين ـ كما قال ساريبوتا ـ حياة نقية في قرية أو مدينة هو أعلى وأسمى بكثير وأكبر من ذلك الذي يعيش في الغابة مع أفكاره الفاسدة.

الاعتقاد السائد الذي يجب بموجبه أن يهرب المرء من الحياة لكي يتبع تعاليم بوذا هو اعتقاد خاطئ. وهي طريقة غير واعية للاعتذار عن وضع تعاليم بوذا موضع التطبيق. ويجد المرء في الأدب البوذي إشارات عديدة عن رجال ونساء عاشوا حياة عادية طبيعية مع عائلتهم ونجحوا في ممارسة ما علّمه بوذا وبلغوا النيرڤانا. والواقع أن فاكشاغوتا الضال (الذي روينا قصته في فصل أناتّا) سأل بوذا مباشرة عما إذا كان يوجد رجال ونساء علمانيون(*) عاشوا حياتهم العائلية ونجحوا في اتباع تعليمه وبلغوا

(*) يقصد بالعلمانيين هنا العاديون من الناس أي الذين ليسوا رهباناً. المترجم.

حالات روحانية عالية. وقد أعلن بوذا بطريقة منهجية بأنه لايوجد واحد أو اثنان، وليس مئة وليس مئتان أو خمسمئة بل أكثر من ذلك بكثير كانوا علمانيين، رجالاً ونساء، ومارسوا حياة علمانية، واتبعوا تعاليمه بنجاح وبلغوا حالات روحانية عالية.

ربما كان مناسباً لبعض الناس أنهم يسعدون بممارسة حياة انسحاب إلى مكان هادئ بعيد عن الضجيج والإثارة، ولكن من المؤكد أن الأفضل، وهو يتطلب شجاعة أكثر، أن يمارس المرء البوذية وهو يعيش وسط أمثاله يساعدهم ويقدم خدماته لهم. وربما كان من المفيد في بعض الحالات أن ينسحب المرء فترة من الزمان إلى عزلة يستكمل خلالها تفكيره وسجاياه كتدريب أخلاقي وروحاني تمهيدي لكي يغدو أقوى، على أن يخرج منها بعد ذلك ويقدم خدماته للآخرين. ولكن إذا قضى امرؤ في عزلته حياته كلها مهتماً بسعادته الشخصية وحسب، و«بسلامته» دون أن يهتم بأمثاله، فإن ذلك لاينطبق قطعاً مع روح التعليم البوذي الذي يعتمد على أساس من المحبة والعطف وخدمة الآخرين.

يمكن الآن طرح هذا السؤال: هل يمكن ممارسة البوذية مع ممارسة حياة علماني عادي، ولماذا «السانغا»، أي نظام الرهبنة، وهل أنشأه بوذا؟ إن نظام الرهبنة يقدم الفرصة لأولئك الذين قرروا أن يهبوا حياتهم، ليس لتطورهم الذاتي الروحاني والفكري، بل كذلك ليقدموا الخدمة للآخرين. إننا لايمكن أن ننتظر من علماني عادي يعيش مع عائلته أن يكرس كل وقته لخدمة الآخرين، بينما يمكن لراهب ليس لديه مسؤوليات عائلية ولا ارتباطات دنيوية أن يكرس حياته كلها «لراحة الكثيرين وسعادة الكثيرين»، وذلك بحسب نصيحة بوذا. وهكذا خلال التاريخ أصبحت الأديرة البوذية لامراكز روحانية وحسب، بل كذلك مراكز للدراسة والثقافة.

إن الرهبان البوذيين يمارسون حياة مشتركة في المدن والقرى. وفي كل البلاد البوذية يحافظون على العزوبية، باستثناء

بعض الشيع في اليابان وفي التيبت التي تسمح لأعضائها بالزواج ـ وهي عادة دخلت طبعاً في وقت متأخر ـ والرهبان البوذيون ليسوا مخولين بحيازة ممتلكات شخصية عدا القليل الضروري، ولكن لهم الحق باستخدام الممتلكات العامة المقدمة من العلمانيين كهدايا لنظام الرهبنة (السانغا). وهكذا يوجد الكثير من الأديرة، وخاصة القديمة الشهيرة منها، مزدوجة بأراضي لإعالتهم. إن الرهبان البوذيين والأديرة مدعومون من الجمهور. فهو الذي يزودهم بما هو ضروري. في الماضي كان الرهبان يعيشون في العادة على الاستجداء من بيت إلى بيت للحصول على غذائهم. ومع التطورات الاقتصادية الحديثة اختفت هذه العادة بالتدريج، رغم أنه مايزال الألوف منهم يحافظون على هذه العادة القديمة وخاصة في بلاد «الثيراڤادا»(*) كسيلان (سيريلانكا) وبرمانيا وتايلاند وكمبوديا... الخ. وواجبات الرهبان الذين يعيشون في المدن والتأمل من أجل تطورهم الذاتي الروحاني والفكري. وثانياً، عليهم أن يعلموا

الأطفال الذين يأتون للدراسة في الدير، وأن يقدموا مواعظ منتظمة في الاجتماع الذي يعقد في بعض الأيام، ويهتمون بالاحتياجات الدينية للمدنيين، ويتعهدون الدير، ويقدمون النصائح والتعاليم الدينية للأشخاص والمجموعات، وينظمون الطقوس والاحتفالات الدينية كما ينظمون الاجتماعات التي تعقد من أجل المنفعة الاجتماعية...الخ. وثمة أيضاً رهبان يعيشون في الغابات منقطعين عن بقية المجتمع مكرسين حياتهم كلها للتأمل في عزلتهم. وتظهر «السيغالا ـ سوتّا» بأي احترام كان بوذا يعامل حياة المدنيين وعائلاتهم وارتباطاتهم الاجتماعية.

كان ثمة فتى اسمه «سيغالا» اعتاد أن يعبد الاتجاهات الستة. الشرق والجنوب والغرب والشمال والسمت وسمت القدم (وهو [illegible]

(*) الثيراڤادا: هي البوذية الأصلية المحافظة التي لم تتطور، وتسمى [illegible] الصغيرة، أما الماهايانا فهي البوذية المتطورة المنتشرة في [illegible] وتسمى كذلك بالعربة الكبيرة. المترجم.

السمت، أو الاتجاه المعاكس للسمت). مطيعاً بذلك آخر رغبة لأبيه المتوفى. فقال بوذا لهذا الشاب إن تعليمه يقول إن الاتجاهات الستة لها اعتبار مختلف: فالشرق هو الأبوان، والجنوب هم المعلمون، والغرب هو الزوجة والأولاد، والشمال هو الأصدقاء والأقارب والجيران، وسمت القدم هو الخدم والعمال والمستخدمون، والسمت هو رجال الدين.

«ينبغي على المرء أن يعبد هذه الاتجاهات الستة. وكلمة (يعبد) المستعملة هنا هي مليئة بالمعاني، لأن المرء يعبد شيئاً مقدساً يستحق التبجيل والاحترام. وهذه المجموعات العائلية والاجتماعية الست التي ذكرناها تعتبر في البوذية مقدسة وأهلاً للاحترام والعبادة. ولكن كيف تُعبد؟ لقد أعلن بوذا أن المرء لايستطيع «عبادتها» إلا بإتمام واجباته تجاهها. وهذه معدَّدة في خطابه مع سيغالا.

1 ـ الأبوان مقدسان عند أولادهم. وقد قال بوذا في مكان آخر إن الآباء يُسمّون براهما. وكلمة براهما تدل في الفكر الهندي على المفهوم الأعلى والأقدس، وقد أضفاه بوذا على الأبوين. وهكذا فإن الأولاد في العائلات البوذية المحترمة (يعبدون) حرفياً أبويهم صباحاً ومساء، ويثابرون على إتمام بعض الواجبات تجاههما: العناية بهما في شيخوختهما، تقديم ما هو ضروري لهما، المحافظة على شرف العائلة حسبما تقتضيه التقاليد، المحافظة على الإرث الذي تركه الوالدان، إتمام الطقوس الجنائزية بعد موتهما. وعلى الأبوين من جهتهما إنجاز بعض المسؤوليات تجاه أولادهما: ينبغي حمايتهم من السلوك في طرق الفساد، توجيههم إلى النشاطات الخيرة والمفيدة، تأمين تربية حسنة لهم، تزويجهم من عائلات محترمة، وأن ينقلا إليهم الإرث في الوقت الملائم.

2 ـ العلاقات بين المعلم والتلاميذ. فالتلميذ يجب أن يحترم معلمه ويطيعه، أن يتكفل بنفقات معاشه بحسب إمكاناته، أن يدرس بعناية. وعلى المعلم بدوره أن يدرب تلميذه وينشئه كما ينبغي، أن

يعلمه تعليماً جيداً، أن يقدمه لأصدقائه، وأخيراً أن يجتهد بأن يؤمن له بعد إتمام الدراسة عملاً يطمئن إليه.

3 ـ العلاقة بين الزوج والزوجة. إن المحبة التي يجب أن تجمعهما تعتبر شبه دينية أو مقدسة. وهي تسمى «الحياة العائلية المقدسة». ويجب أن نلاحظ هنا أيضاً أن كلمة مقدسة استُعمل لها في الهندية كلمة «براهما» التي تدل على أعلى درجات الاحترام، وهي ما تقوم عليه العلاقة التي تربط بين الزوجين. وعلى الزوج والزوجة أن يكونا مخلصين يحترم كل منهما الآخر، وثمة بعض الواجبات التي تربط بينهما: على المرء أن يبجل زوجته على الدوام، ولاينبغي أن يفقد احترامه لها. يجب أن يحبها ويخلص لها ويؤمن لها راحتها ومنزلها، وعليه أن يبهجها بتقديم الحلي والمجوهرات. (إن واقع أن بوذا لم يهمل حتى الإشارة إلى الهدايا التي ينبغي على الزوج أن يقدمها لزوجته تظهر كم كان بوذا متفهماً ومتعاطفاً مع المشاعر الإنسانية العادية). وعلى الزوجة من جانبها أن تعنى بالأعمال

المنزلية، وأن نستقبل الضيوف والزوار والأصدقاء والأقارب والمستخدمين. وعليها أن تحب زوجها وأن تخلص له وتحافظ على ممتلكاته، وأن تكون ماهرة وشجاعة في كل النشاطات.

4 ـ العلاقات بين الأصدقاء والأقارب والجيران. ينبغي عليهم أن يكونوا مضيافين ومحسنين بعضهم لبعض، وأن يعبروا عما يجول بخاطرهم بحب وعناية، وأن يعملوا دائماً لمصلحتهم وراحتهم، وأن يتعاملوا بطريقة التساوي ولايتخاصموا، وأن يتساعدوا عند الحاجة ولايترك بعضهم بعضاً عند المصاعب والضيق.

5 ـ العلاقة بين المعلم والخادم. إن على المعلم أو المستخدِم العديد من الواجبات تجاه خادمه أو مستخدَمه. فعليه أن يؤمن له عملاً يناسب مهارته وقدراته، وعليه أن يدفع له الأجر المناسب، وأن يؤمن له العناية الطبية، وأن يمنحه، في المناسبات، هدايا ومكافآت.

وفي المقابل، على الخادم أو المستخدَم أن يكون متيقظاً وشجاعاً وأميناً ومطيعاً، لايخدع ولايسرق معلمه، وأن يكون معتنياً بعمله.

6 ـ العلاقات بين رجال الدين (حرفياً هم المعتزلون المتفردون والبراهمانا) والمدنيين. على هؤلاء الأخيرين أن يسهروا بكل طيبة واحترام على الحاجات المادية لرجال الدين. وعلى رجل الدين أن يمنح، بكل عطف، المدنيين المعرفة والعلم وأن يقودهم في طريق الخير ويبعدهم عن طريق الشر.

وهكذا نرى أن حياة المدني في عائلته وفي علاقاته الاجتماعية متضمّنة في «التأديب النبيل» وتقع في إطار الحياة البوذية كما رسمها بوذا.

وهكذا نقرأ أيضاً في «الساميوتّا ـ نيكايا»، وهو واحد من أقدم النصوص الپاليّة، أن ساكّا ملك الآلهة أعلن أنه يحترم ليس الرهبان وحدهم الذين يمارسون حياة قدسية، بل وكذلك «التلاميذ المدنيين» الذين ينجزون أعمالاً تستأهل التقدير، الفاضلين، الذين يبذلون عنايتهم لعائلتهم بكل استقامة.

فإذا رغب امرؤ في أن يكون بوذياً فليس من طقس يجب إتمامه، ولاتعميد يتلقاه (ولكن إذا أراد أن يصبح بهيكهو، أي عضواً في نظام الرهبنة السانغا فعليه أن يخضع لتدريب تأديبي طويل ولتربية دينية). وإذا فهم المرء تعاليم بوذا، وإذا ملك الاقتناع بأن هذا التعاليم هي الطريق الصحيح، وإذا التزم باتباعها، فهو في هذه الحالة بوذي.

ولكن، بحسب تقليد قديم لم ينقطع في البلاد البوذية، فإن المرء يعتبر بوذياً عندما يتخذ البوذا، والذامّا (تعليمه) والسانغا (نظام الرهبنة) ـ وهم ما يطلق عليهم بصورة عامة اسم «الجوهرة الثلاثية» ـ ملاجئ له. وعندئذ يرتبط بمراعاة الحد الأدنى من الواجبات الأخلاقية لبوذي مدني، وهي القواعد الخمس، أي 1 ـ ألا يدمر الحياة. 2 ـ ألا يسرق. 3 ـ ألا يزني. 4 ـ ألا يكذب. 5 ـ أن يمتنع عن

المشروبات المسكرة. والبوذي يركع ويداه مضمومتان عابداً أمام تمثال بوذا، ويكرر هذه الصيغ (الخمس) ـ وباللغة اليالية عموماً ـ بعد راهب بوذي. وفي الاحتفالات الدينية يكرر الحاضرون عادة هذه الصيغ بعد أحد الرهبان.

وليس على البوذي أن يقوم بأي طقوس خارجية. فالبوذية هي طريقة للحياة، وما هو جوهري هو اتباع (الصراط الثُماني النبيل). ولكن يوجد طبعاً في كل البلاد البوذية احتفالات بسيطة وجميلة. وفي الدير يوجد عموماً نصب على شكل القبة يحتفظون في داخله بذخائر جسدية لبوذا، شجرة تذكّر بالشجرة التي بلغ تحتها بوذا «الاستنارة»، وبناء يحتوي تمثال بوذا. هذه الأشياء الثلاثة هي مبجلة في النظام الذي ذكرناه سابقاً. والبوذيون يأتون بوجه عام إلى المعبد في أيام القمر البدر، وعند الهلال الجديد، وفي الربع من الشهر القمري. وهناك يقرؤون (الملاجئ الثلاثة) أي (البوذا والذامّا والسانغا)، والقواعد الخمس وهم راكعون أمام واحد من أشياء

العبادة الثلاثة. ثم يشعلون القناديل ويقدمون الزهور ويحرقون البخور أمام هذه الأشياء وهم يقرؤون الصيغ والعبارات التي تمدح فضائل ومزايا البوذا والذامّا والسانغا. ولاينبغي تشبيه هذه الممارسات بصلوات الأديان الإلهية، إذ هي بكل بساطة توجيه الاحترام إلى ذكرى المعلم الذي دل على الطريق. وبعد ذلك يستمعون إلى الموعظة.

في أيام القمر البدر وهلال مطلع الشهر يراعي الآلاف من البوذيين القواعد الثمان: 1 ـ لاتدمر الحياة. 2 ـ لاتسرق. 3 ـ لاتزنِ. 4 ـ لاتكذب. 5 ـ لاتشرب المشروبات المسكرة. 6 ـ لاتتناول أطعمة قوية بعد الظهر. 7 ـ لاتستعمل كراسي وأسرة فاخرة ومريحة. 8 ـ لاتغنِ ولاترقص ولاتتسلَّ ولاتستعمل الزينة ولا العطور. ثم يقضون كل النهار والليل في المعبد متأملين ومستمعين إلى المواعظ، قارئين النصوص الدينية ومتحادثين فيما بينهم في المسائل الدينية.

أكبر كل الأعياد البوذية هو يوم البدر من شهر أيار المعروف باسم ڤيساك للاحتفال بميلاد بوذا واستنارته ووفاته. وفي هذا اليوم تزين البيوت والمعابد والشوارع بالأعلام البوذية السداسية الألوان، وبالزهور والقناديل. آلاف وآلاف من الرجال والنساء والأولاد يأتون إلى الأماكن الدينية. مئات من المطاعم المجانية تنظّم على يد الجمعيات والجماعات من أجل خدمة الحجاج. روحٌ من المحبة وحسن النية والانسجام والسلام والفرح تنتشر بين الشعب وفي كل مكان.

في البوذية لاوجود للتعميد. ولكن عندما يولد أحد الأطفال يقوده والداه إلى المعبد في خروجه الأول، ويضعانه تحت قدمي تمثال بوذا، فيباركه الرهبان وهم يقرؤون النصوص المقدسة. وحتى قبل ولادة الطفل يُدعى الرهبان لمباركة الأم المستقبلة.

والرهبان البوذيون لايخدمون في الزيجات، لأن الزواج عند البوذيين هو احتفال مدني، يرتبط بقضية اجتماعية. ولكنهم يعطون للاحتفال صفة دينية بإدخالهم فيه عناصر بوذية كقراءة آيات مقدسة للمباركة على يد زمرة من الفتيات أو الصبية. أما الرهبان أنفسهم فهم لايحضرون أبداً في حفلات الزواج وخاصة في بلاد الثيراڤادا، ولكنهم يدعونهم على الغذاء في المنزل بعد يوم أو يومين من الزواج. وفي هذه المناسبة يقدم أحد الرهبان موعظة داعياً الزوجين إلى ممارسة حياة زوجية سعيدة ومنسجمة حسب تعاليم بوذا. وعلى عكس ذلك يخدم الرهبان البوذيون في المآتم يقدمون فيها مواعظ للتعزية.

وعندما يمرض أحد البوذيين يدعون غالباً الرهبان لقراءة خطاب «الحماية». وهذا الاحتفال الذي يقرأ فيه واحد أو اثنان من الرهبان، بصوت منغم حزين، بعضاً من خطاب الحماية باللغة الپاليّة تقدم فيها البركة للحاضرين، هو احتفال شعبي جداً عند البوذيين.

وتكاد كل المعابد يقام فيها هذا الاحتفال في المناسبات كعيد عام

لمصلحة الجميع. ومثل هذا الاحتفال يمكن أن يدوم ليلاً نهاراً بدون انقطاع خلال يوم أو يومين، بل وخلال أسبوع أو أكثر.

وهنالك احتفالات أخرى أو مناسبات تقليدية، رغم أنها ليست جوهرية، فهي تظهر قيمتها بأنها ترضي بعض الانفعالات والحاجات الدينية لأولئك الذين هم أقل تقدماً من الناحيتين الفكرية والروحية فتساعدهم بالتدريج طوال الطريق (الصراط).

إن أولئك الذين يتخيلون أن البوذية لاتهتم إلا بالأفكار العالية جداً، إلا بالأفكار الأخلاقية والفلسفية، متجاهلة المصلحة الاجتماعية والاقتصادية للجماهير، هم في ضلال مبين. فبوذا كان يهتم بسعادة الإنسانية. وبحسب ما يراه ليس من سعادة ممكنة خارج حياة نقية قائمة على مبادئ أخلاقية وروحانية. ولكنه كان يعرف أيضاً أن من الصعب ممارسة مثل هذه الحياة إذا كانت الشروط المادية والاجتماعية غير مواتية.

والبوذية لاتعتبر الراحة المادية هدفاً في ذاتها. إنها فقط وسيلة في سبيل هدف ـ هدف أعلى وأنبل. ولكنها وسيلة لابد منها لبلوغ هدف أعلى من أجل سعادة الإنسان. فالبوذية تعترف إذن بأن حداً أدنى من الشروط المادية هو مناسب للنجاح الروحاني، حتى عندما يتعلق الأمر براهب منشغل في تأمله في مكان منعزل.

إن بوذا لايفصل الحياة عن مضمونها وخلفيتها الاجتماعية والاقتصادية، فهو يعتبرها كلاً واحداً في كل جوانبها الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتعاليم بوذا في المواضيع الأخلاقية والروحانية والفلسفية معروفة جداً. ولكنهم يعرفون القليل من الأمور، وخاصة في الغرب، عن تعاليمه التي تمس المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومع ذلك هنالك الكثير من الأحاديث التي تعالج هذه المواضيع نجدها على طول النصوص القديمة. وإليكم فقط بعض الأمثلة:

يؤكد أحد الأحاديث (وقد ذكر المؤلف اسمه الطويل جداً، [illegible]

الهندية) بوضوح أن الفقر هو سبب الفسق والجرائم مثل السرقة والغش والاغتصاب والبغضاء والقسوة... الخ والملوك في الأزمنة القديمة، كما هو الحال مع حكومات اليوم، كانوا يجتهدون لإلغاء الجريمة عن طريق العقاب. ويقول نص آخر كم كان هذا عبثاً لاطائل تحته وينكر جدوى هذه الطريقة. وقد حث بوذا، على عكس ذلك، على وضع حد للجريمة بتحسين الأحوال الاقتصادية للشعب. ويقول بأن البذار والعناصر الأخرى اللازمة للزراعة يجب أن تؤمن للمزارعين والمستثمرين. وأن رؤوس أموال يجب أن توضع تحت تصرف الباعة وأهل الحرف الأخرى. وأن الأجور يجب أن تدفع فوراً للمستخدمين. وعندما تؤمن للشعب وسائل كسب مردود كاف فإنه سيرضى ويكتفي ويصبح في معزل عن الخوف والقلق، وعندئذ تصبح البلاد هادئة وتتخلص من الجريمة.

من أجل هذا ذكّر بوذا المدنيين كم هو ضروري تحسين الشروط الاقتصادية. ولايعني هذا طبعاً أنه وافق على أن يكدسوا

الثروات بشراهة وتعلّق، فهذا الأمر يتعارض مع تعاليمه الأساسية. ولم يوافق كذلك على أن يستخدم المرء كل وسيلة لكسب عيشه. فثمة مهن أدانها كما رأينا سابقاً، مثل صناعة الأسلحة والمتاجرة بها كوسائل ضارة في الحياة.

رجل اسمه ديغاجانو زار بوذا يوماً وقال له: «يا سيدي، نحن مدنيون عاديون نمارس حياة عائلية مع زوجة وأولاد، فهل يمكن للكلي السعادة أن يقدم لنا تعليماً يقودنا إلى السعادة في هذا العالم وفي ماوراءه؟».

فأجابه بوذا بأنه يوجد أربعة أشياء تقود الإنسان إلى السعادة في هذا العالم: أولها أن يكون ماهراً وفعّالاً وصاحب ذمة ونشاط في مهنته مهما كان شأنها. وعليه أن يملك المعرفة الكاملة بها. وثانيها أن عليه صيانة كسبه الذي حصل عليه بعرق جبينه حصراً (وهذا يعني أن يصون كسبه من اللصوص وغيرهم. وهذه الأفكار

كلها يجب أن يُنظر إليها نظرة الاعتبار في أحوال العصر). وثالثها أن يصاحب الأخيار المخلصين المتعلمين الفاضلين الليبراليين والأذكياء الذين يساعدونه على التمسك بالطريق السوي وأن يحمي نفسه من الشر. ورابعها أن عليه الإنفاق بتعقل حسب دخله، لا أن يسرف ولا أن يبخل. وهذا يعني أن عليه ألا يجمع المال لبخله ولا أن يستسلم للتبذير – وبعبارة أخرى عليه أن يعيش حسب إمكاناته.

وبعد ذلك عرض بوذا الفضائل الأربع التي تقود مدنياً إلى السعادة في العالم الآخر: أولاً عليه أن يتحلى بالإيمان والثقة بالقيم الأخلاقية والروحية والفكرية. ثانياً أن يتمسك بألا يدمر الحياة أو يؤذيها بالسرقة والغش والزنا والكذب والمشروبات المسكرة. ثالثاً يجب أن يمارس الإحسان والكرم بدون مبالغة. رابعاً عليه أن ينمي الحكمة التي تؤدي إلى تدمير الألم التام وتوصل إلى النيرڤانا.

وكان بوذا أحياناً يدخل في تفاصيل تتعلق بالإمساك والتبذير في المال، مثل قوله إلى الفتى سيغالا إن عليه أن ينفق ربع دخله لنفقاته اليومية، وأن يستخدم نصفه في عمله ويضع الربع الأخير جانباً إلى وقت الحاجة.

وفي أحد الأيام قال بوذا لمصرفي كبير كان أحد تلاميذه المدنيين الأكثر إخلاصاً، والذي شاد له دير جيتاڤانا الشهير في ساڤاتي، إن على المدني أن يمارس الحياة العائلية العادية على أربعة أشكال من السعادة. الشكل الأول من السعادة هو التمتع بالأمان الاقتصادي أو بثروة كافية حصل عليها بوسائل سليمة وشريفة. والثاني أن ينفق ثروته بسخاء على نفسه وعائلته وأصدقائه وأقاربه وفي أعمال الإحسان. والثالث أن يكون خالياً من الديون. والرابع من أشكال السعادة هو أن يمارس حياة

مستقيمة طاهرة دون أن يفعل شراً في الفكر والقول والعمل. ويحسن أن نلاحظ الأنواع الثلاثة الأولى من السعادة ذات طبيعة اقتصادية، ولكن بوذا ذكّر أخيراً هذا المصرفي بأن السعادة المادية

والاقتصادية «لاتساوي السدس من أجزاء» السعادة الروحانية الناجمة عن حياة طاهرة صالحة.

نرى من هذه الأمثلة أن بوذا يعتبر الرفاهية الاقتصادية شرطاً للسعادة الإنسانية، ولكنه لايعترف بأن النجاح واقعي وحقيقي إذا اقتصر على أن يكون مادياً محروماً من أساس روحاني وأخلاقي. وفي الوقت الذي يشجع فيه النجاح المادي فإن بوذا يصرّ بقوة على تنمية الصفة الأخلاقية والروحانية من أجل قيام مجتمع سعيد هادئ وراض.

وبوذا لم ينصح بعدم اللجوء إلى العنف وإلى السلم وحسب، بل ذهب إلى ساحة القتال نفسها وتدخل شخصياً لمنع الحرب أثناء النزاع بين الساكيا والكوليا الذين كانوا يستعدون للقتال لتسوية مسألة مياه روهيني. وقد منعت أحاديثه ملك أجاتا ساتّو من مهاجمة مملكة الڤاجّي.

في الزمن الذي عاش فيه بوذا، كما هو حال اليوم، كان يوجد ملوك يحكمون دولهم حكماً ظالماً. فهم يزيدون الضرائب بشكل متمادٍ وينزلون أنواعاً قاسية من العقاب. وكان الشعب مضطهداً ومستغَلاً ومعذَباً ومظلوماً. وقد تأثر بوذا تأثراً عميقاً من هذه المعاملات غير الإنسانية. وروى أنه اهتم بمسألة حكومة صالحة، وأن على أفكاره أن تقدَّر في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لزمانه. وقد أبان كيف أن بلاداً يمكنها أن تصبح فاسدة منحلة وتعيسة عندما يصبح رؤساؤها من ملوك ووزراء وموظفين أنفسهم فاسدين وظالمين. ولكي يصبح البلد سعيداً يجب أن تكون له حكومة عادلة. ومبادئ هذه الحكومة العادلة معروضة من قبل بوذا في تعاليمه عن «واجبات الملك العشرة» كما هي مذكورة في الجاكاتا.

طبعاً إن كلمة ملك أو راجا في الزمن الماضي يجب أن يحل

محلها اليوم كلمة «حكومة». والنتيجة أن «واجبات الملك العشرة» تنطبق الآن على كل أولئك الذين يشاركون في الحكومة من رؤساء دول ووزراء وزعماء سياسيين وأعضاء الجهاز التشريعي وموظفي الإدارة.

أول هذه الواجبات العشرة هي السخاء والكرم والإحسان. فالملك لاينبغي أن يكون شرهاً في الحصول على الثروة والأملاك، بل يجب أن ينفقها لرفاهية الشعب.

وثانيها الصفة الأخلاقية العالية. فلا يجب عليه أبداً تدمير الحياة والغش والسرقة ولا استغلال الآخرين أو ارتكاب الزنا أو أن يقول أشياء خاطئة أو أن يتناول المسكرات، أي أن عليه على الأقل أن يراعي التعاليم الأخلاقية الخمسة لعامة الشعب.

ثالثها أن يضحي بكل شيء لمصلحة الشعب. فعليه أن يكون مستعداً للتضحية براحته واسمه وسمعته وحتى بحياته لمصلحة

الشعب.

رابعها الشرف والاستقامة. فعليه أن يكون متحرراً من الخوف والمحاباة في ممارسة واجباته، وأن يكون صادقاً في نواياه، وألا يخدع الناس.

خامسها اللطف والدماثة، فعليه أن يكون ذا مزاج لطيف.

سادسها التقشف في عاداته، فعليه أن يمارس حياة بسيطة ولايميل إلى الترف وأن يتمالك نفسه.

سابعها غياب الكراهية والنية السيئة والعداء، فلا ينبغي أن يضمر حقداً على أحد.

ثامنها اللاعنف. وهذا يعني أن عليه ليس فقط ألا يؤذي أحداً بل وأن يحمل نفسه على إشاعة السلام متجنباً ومانعاً ال[illegible] شيء يؤدي إلى العنف وتدمير الحياة.

تاسعها الصبر والتسامح والاحتمال والتفهم. فعليه أن يكون قادراً على تحمل التجارب والصعوبات والإهانات بدون غضب.

عاشرها عدم الاعتراض وعدم إقامة العراقيل. وهذا يعني أن عليه ألا يعارض إرادة الشعب وألا يقاوم أي تدبير يناسب رفاهية الشعب. وبعبارة أخرى أن يتمسك بالإنسجام مع الشعب.

ولا فائدة في القول كيف تكون سعيدة بلاد يحكمها رجال يتحلون بهذه الصفات. وليس يعني ذلك يوتوبيا لأنه حدث في الماضي أن ملوكاً من أمثال أسوكا في الهند أقاموا ممالكهم على أساس من هذه الأفكار.

قال بوذا: «أبداً بالبغضاء لاتهدأ البغضاء، بل هي تهدأ بالنية الحسنة، وتلك حقيقة أبدية». «ينبغي الانتصار على الغضب بالنية الحسنة، وعلى الخبث بطيبة القلب، وعلى الأنانية بالإحسان، وعلى الكذب بالصدق».

لن يكون ثمة سلام ولاسعادة لإنسان طالما هو يشتهي ويتعطش لغزو جاره وقمعه وإخضاعه. وكما قال بوذا أيضاً: «المنتصر يولد الكراهية، ويقع المغلوب في الشقاء، وذلك الذي يتخلى عن النصر وعن الهزيمة سعيد وآمن». إن النصر الذي يأتي بالسلام والسعادة هو الانتصار على النفس. «يمكن الانتصار على الملايين في ساحة القتال، ولكن ذلك الذي ينتصر على نفسه هو أكبر المنتصرين».

تلك نتيجة وأمل في أن نفكر اليوم بوجود حاكم كبير على غرار ملك شهير في التاريخ، ملك الشجاعة والثقة والخيال على أن يضع موضع التطبيق تعليم اللاعنف هذا، تعليم السلام والمحبة في إدارته لإمبراطورية واسعة سواء في الميدان الداخلي والخارجي، وهو أسوكا الإمبراطور البوذي الكبير للهند في القرن الثالث ق.م، «المحبوب من الآلهة» كما كان يُسمى.

في البداية اتبع مثال أبيه بيندوسارا وجده شاندراغوبتا، وأراد

أن يتابع فتح شبه الجزيرة الهندية، فغزا وفتح كالينغا وضمها إلى إمبراطوريته. وفي خلال هذه الحرب قُتل وجُرح وعُذب في الأسر مئات الآلاف من الناس. لكنه عندما غدا بعد ذلك بوذياً تغير تماماً وتبدل بتأثير تعاليم بوذا. وفي أحد البيانات الشهيرة المحفورة في الصخر والذي مازال أصله مقروءاً حتى اليوم أشار الإمبراطور إلى فتح كالينغا وعبّر علناً عن «ندمه»، حيث قال «إنه من المؤلم جداً» بالنسبة له أن يفكر بتلك المذبحة، وصرح بأنه لن يسحب أبداً سيفه للحيازة على فتح، ولكنه «يتمنى من كل الكائنات الحية ألا تلجأ إلى العنف وأن تسيطر على النفس وتسلك مسلك التعقل واللطف. ويعتبر أكبر فتح في نظر محبوب الآلهة (أسوكا) أن ينتصر المرء عن طريق الإشفاق». ولم يكتف بالتخلي عن الحرب هو بنفسه، بل عبّر أيضاً عن رغبته في «ألا يفكر أبنائي وأحفادي بأن القيام بفتح جديد يستأهل العناء... بل أن يفكروا فقط بهذا الفتح الذي هو الانتصار عن طريق الرحمة والإشفاق، وهذا حسن من أجل هذا العالم ومن أجل العالم الآخر».

إن هذا المثال هو المثال الوحيد في كل تاريخ الإنسانية، وهو أن يتخلى فاتح منتصر في أوج قوته، ويملك القدرة التي تسمح له بمتابعة فتوحاته للأراضي، أن يتخلى مع ذلك عن الحرب وعن العنف ويتوجه إلى اللاعنف وإلى السلام.

إن هذا الدرس لعالمنا الحالي. سلطان إمبراطورية واسعة يتخلى علناً عن الحرب وعن العنف ويرتبط برسالة السلام واللاعنف. والتاريخ لايذكر شيئاً عن وجود ملك مجاور أفاد من شفقة أسوكا وهاجمه بالسلاح، أو أن ثورة أو عصياناً حدث في إمبراطوريته أثناء حياته، بل على العكس من ذلك، فقد ران السلام على كل البلاد، ويبدو أن مقاطعات بعيدة خارج إمبراطوريته قبلت طواعية إدارته السليمة الطوية.

فالبوذية تهدف إلى خلق مجتمع يتخلى عن العراك المخرب في

سبيل السلطة، وحيث الهدوء والسلام يتغلب على النصر والهزيمة، وحيث يتم التخلي بحزم عن إعدام البريء، وحيث يتغلب احترام الإنسان الذي ينتصر على نفسه على احترام من يقهر الملايين من الناس عن طريق الحرب العسكرية والاقتصادية، وحيث يتم التغلب على البغضاء عن طريق المحبة وعلى الشر عن طريق الطيبة، وحيث لاتتسمم عقول الناس بالعداوة والحسد وسوء النية والشرَه، وحيث العطف يصبح محرك الأفعال، وحيث كل الكائنات بما فيها أحقر شيء حي، تعامَل بعدالة وتقدير ومحبة، وحيث تتجه الحياة في ظل السلام والصداقة والانسجام في عالم يسود فيه الاكتفاء المادي، تتجه الحياة نحو الغاية الأسمى والأنبل، وهي بلوغ الحقيقة العليا: النيرڤانا.

الجانب الأخلاقي في الديانة البوذية:

- في تعاليم بوذا(*) دعوة إلى المحبة والتسامح والتعامل بالحسنى والتصدق على الفقراء وترك الغنى والترف، وحمل النفس على التقشف والخشونة، وفيها تحذير من النساء والمال، وترغيب في البعد عن الزواج.

- يجب على البوذيِّ التقيد بثمانية أمور حتى يتمكن من الانتصار على نفسه وشهواته:

١ ـ الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوة واللذة وذلك عند الإقدام على أي عمل.

٢ ـ التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء.

٣ ـ الإشراق(*) الصحيح المستقيم.

٤ ـ الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به.

٥ ـ مطابقة اللسان لما في القلب.

٦ ـ مطابقة السلوك للقلب واللسان.

٧ ـ الحياة الصحيحة التي يكون قوامها هجر اللذات.

٨ ـ الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحق وترك الملاذ.

- في تعاليم بوذا أن الرذائل ترجع إلى أصول ثلاثة:

١ ـ الاستسلام للملاذ والشهوات.

٢ ـ سوء النية في طلب الأشياء.

٣ ـ الغباء وعدم إدراك الأمور على وجهها الصحيح.

- **من وصايا بوذا:** لا تقض على حياة حي، لا تسرق ولا تغتصب، لا تكذب، لا تتناول مسكراً، لا تزن، لا تأكل طعاماً نضج في غير أوانه، لا ترقص ولا تحضر مرقصاً ولا حفل غناء، لا تتخذ طيباً، لا تقتن فراشاً وثيراً، لا تأخذ ذهباً ولا فضة.

● **ينقسم البوذيون إلى قسمين:**

١ ـ **البوذيون المتدينون:** وهؤلاء يأخذون بكل تعاليم بوذا وتوصياته.

٢ ـ **البوذيون المدنيون:** هؤلاء يقتصرون على بعض التعاليم والوصايا فقط.

● الناس في نظر بوذا(*) سواسية لا فضل لأحد إلا بالمعرفة والسيطرة على الشهوات.

- وقد احتفظت البوذية ببعض صورها الأولى في منطقة جنوب آسيا وخاصة في

سيلان وبورما، أما في الشمال وعلى الأخص في الصين واليابان فقد ازدادت تعقيداً وانقسمت إلى مذهبين هما:

١ ـ مذهب ماهايانا (مذهب الشمال) ويدعو إلى تأليه بوذا وعبادته وترسُّم خطاه.

٢ ـ مذهب هنايانا (مذهب الجنوب) وقد حافظ على تعاليم بوذا، ويعتبر أتباع هذا المذهب أن بوذا هو المعلم الأخلاقي العظيم الذي بلغ أعلى درجة من الصفاء الروحي.

ـ وقد عبروا عن بلوغ النفس الكمال الأسمى والسعادة القصوى وانطلاقها من أسر المادة وانعتاقها من ضرورة التناسخ(*) بالنيرفانا(*)، وتعني الخلاص من أسر المعاناة والرغبة، واكتساب صفاء الدين(*) والروح، والتحرر من أسر العبودية واللذة، وانبثاق نور المعرفة عن طريق تعذيب النفس ومقاومة النزعات، مع بذل الجهد والتأمل والتركيز الفكري والروحي، وهو هدف البوذية الأسمى.

● علاقتهم بالمسلمين الآن لا تحمل طابع العداء العنيف، ويمكن أن يكونوا مجالاً خصباً للدّعوة الإسلامية.

● كتب البوذية: كتبهم ليست منزلة، ولا هم يدّعون ذلك، بل هي عباراتٌ منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله سجلها بعض أتباعه، ونصوص تلك الكتب تختلف بسبب انقسام البوذيين، فبوذيو الشمال اشتملت كتبهم على أوهام كثيرة تتعلق ببوذا أما كتب الجنوب فهي أبعد قليلاً عن الخرافات.

ـ تنقسم كتبهم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ مجموعة قوانين البوذية ومسالكها.

٢ ـ مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا(*).

٣ ـ الكتاب الذي يحوي أصل المذهب(*) والفكرة التي نبع منها.

ـ وتعتمد جميع كتبهم على الآراء الفلسفية ومخاطبة الخيال، وتختلف في الصين عنها في الهند؛ لأنها تخضع لتغيرات الفلاسفة.

● شعار البوذية عبارة عن قوس نصف دائري وفي وسطه قائم ثالث على رأسه ما يشبه الوردة، وأمام هذا التمثال صورة مجسمة لجرة الماء، وبجوارها فيل يتربع عليه بوذا في لباسه التقليدي.

الجذور الفكرية والعقائدية:

● ليس هناك ما يثبت أن للبوذية جذوراً فكرية أو عقائدية، إلا أن الناظر في

الديانات الوضعية التي سبقتها أو عاصرتها يجد بينها وبين البوذية شبهاً من بعض الجوانب مثل:

ـ **الهندوسية**: في القول بالتناسخ(*) والاتجاه نحو التصوف.

ـ **الكونفوشيوسية**: في الاتجاه إلى الاعتناء بالإنسان وتخليصه من آلامه.

ـ ينبغي أن يلاحظ التشابه الكبير بينها وبين النصرانية وبخاصة فيما يتعلق بظروف ولادة المسيح(*) وحياته والظروف التي مرّ بها بوذا(*) مما يؤكد تأثر النصرانية بها في كثير من معتقدات هذه الأخيرة.

الانتشار ومواقع النفوذ:

● الديانة(*) البوذية منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الآسيوية، إذ يدين بها أكثر من ستمائة مليون نسمة، ولهم معبد ضخم في كاتمندو بالنيبال، وهو عبارة عن مبنى دائري الشكل وتتوسطه قبة كبيرة وعالية وبها رسم لعينين مفتوحتين وجزء من الوجه، ويبلغ قطر المبنى ٤٠ متراً، أما الارتفاع فيزيد على خمسة أدوار مقارنة بالمباني ذات الأدوار، والبوذية مذهبان كما تقدم:

ـ **المذهب الشمالي**: وكتبه المقدسة مدونة باللغة السنسكريتية، وهو سائد في الصين واليابان والتبت ونيبال وسومطره.

ـ **المذهب الجنوبي**: وكتبه المقدسة مدونة باللغة البالية، وهو سائد في بورما وسيلان وسيام.

ـ ويمكن تقسيم انتشار البوذية إلى خمس مراحل:

١ ـ من مطلع البوذية حتى القرن الأول الميلادي، وقد دفع الملك آسوكا البوذية خارج حدود الهند وسيلان.

٢ ـ من القرن الأول وحتى القرن الخامس الميلادي، وفيها أخذت البوذية في الانتشار نحو الشرق إلى البنغال ونحو الجنوب الشرقي إلى كمبوديا وفيتنام ونحو الشمال الغربي إلى كشمير، وفي القرن الثالث اتخذت طريقها إلى الصين وأواسط آسيا ومن الصين إلى كوريا.

٣ ـ من القرن السادس حتى القرن العاشر الميلادي، وفيها انتشرت في اليابان ونيبال والتبت، وتعد من أزهى مراحل انتشار البوذية.

٤ ـ من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر، وفيها ضعفت البوذية واختفى كثير من آثارها، لعودة النشاط الهندوسي وظهور الإسلام في الهند، فاتجهت

البوذية إلى لاوس ومنغوليا وبورما وسيام.

٥ ـ من القرن السادس عشر وحتى الآن، وفيها تواجه البوذية الفكر الغربي بعد انتشار الاستعمار الأوروبي، وقد اصطدمت البوذية في هذه الفترة بالمسيحية(*)، ثم بالشيوعية بعد أن صار الحكم في أيدي الحكومات الشيوعية.

ويتضح مما سبق:

أن البوذية فلسفة(*) وضعية انتحلت الصبغة الدينية، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية، وقامت على أساس أن بوذا(*) هو ابن الله(*) ومخلص البشرية من مآسيها، وقد قال لأمه وهو طفل إنه أعظم الناس جميعاً، ولما مات بوذا قال أتباعه: إنه صعد إلى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمته على الأرض وإنه سيرجع ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها، ويقول البعض: إن بوذا أنكر الألوهية والنفس الإنسانية، وأنه كان يقول بالتناسخ(*)، وتعتمد جميع كتب البوذيين على الآراء الفلسفية ومخاطبة الخيال، وتختلف البوذية في الصين عنها في الهند بحسب نظرة الفلاسفة.

الألوهية في البوذية

كان بوذا في أول الأمر يتحاشى الدخول في مباحث الألوهية خوفاً من أن يقع في المتناقضات، ويترك الناس حيارى، ولا أدري كيف يدعي بوذا أنه حصل له «النرفانا» والعلم الإلهي، وهو لا يعرف ربه، وخالقه، وإلهه، ويضاف إلى ذلك أنه يدعو الناس إلى دينه ليخرجهم من المصائب والآلام، ومن هنا تشكك الناس كثيراً في البوذية وكونها ديناً. فإن معرفة الرب والخالق أساس الأديان والملل في العالم.

فقال جمع من المحققين: إن البوذية ليست بدين، بل هي حركة عكسية قامت تعاند الأفكار الهندوسية، بما طرأ عليها من الخرافات والبدع. وخاصة لمحاربة الطبقات المعروفة في الهندوسية، فأراد بوذا أن يجذب هؤلاء المنبوذين إلى جماعته.

وفعلاً لقد انتشرت البوذية في الطبقات المضطهدة في الهند أكثر من غيرها. ولكن السؤال هو: هل حصل لهؤلاء الضعفاء والمساكين ما أرادوا؟ ألا وهو معرفة الرب وذكره لاطمئنان القلوب. لا شك أن الجواب يكون بالنفي. فإن هؤلاء وإن ترفعوا قليلاً في المجتمع الهندي إلا أنهم لم ينور لهم طريق الحق والهدى.

وهنا يستطيع الإسلام أن يملأ هذا الفراغ الروحاني بتعاليمه السامية التي شملت الحياتين الدنيا والآخرة. فالإسلام لا يُقِرُّ بالطبقات (أقصد بها الطبقات الهندوسية الأربعة المعروفة) ولا ينظر إلى الأجناس، فكل

بني آدم من تراب وخير الناس أتقاهم لله عز وجل.

وأعود إلى موضوعي حول المباحث الألوهية في البوذية فأقول:

إن المسألة لا يزال فيها نزاع شديد بين المحققين. وهم تحزبوا إلى فرقتين؛ كل منهما بأدلة لا قيمة لها في ميزان النقد. ومع هذا فأثبت أدلة الفرقتين لتوضيح المسألة.

أدلة المنكرين:

قالوا: إن بوذا لا يؤمن بالإله الخالق. وكان يمنع أتباعه من الخوض في ذلك.

يُنقل عن بوذا: «إن راهبين من الهندوس جاءا إلى بوذا وهما يريدان الحلول «ببرهما» فوقع بينهما خصومة شديدة في تعيين الطريق فتحاكما إلى بوذا».

فقال بوذا: هل تعرفان مسكن برهما؟

قالا: لا.

قال بوذا: هل رأيتما برهما؟

قالا: لا.

قال بوذا: هل تعرفان طبيعة برهما؟

قالا: لا.

قال بوذا: هل ترضيان أن تتحدا بالشمس؟

قالا: لا. لأنها بعيدة عنا وهي محرقة.

قال بوذا: إذا لم يمكن لكما أن تتحدا بالشمس وهي مخلوقة فكيف بخالقها؟

ثم قال لهما: هل برهما حاسد ومتكبر؟

قالا: لا.

قال بوذا: وهل يوجد فيكم الحسد والكبر والبغض؟

قالا: نعم.

قال بوذا: إذاً كيف يمكن لكما أن تتحدا ببرهما وطبيعتكما تختلف عن طبيعته؟[1]

ومرة حصل الكلام بين بوذا وبين عالم هندوسي «واششتا» فقال بوذا: هل رأيت «برهما» بعينك؟ بل هل من أسلافك أحد رآه بعينه؟ فسكت العالم الهندوسي.

وقالوا أيضاً: لقد وقع الإجماع من العلماء المتقدمين على أن بوذا كان ينكر الألوهية وهؤلاء هم:

«تَانْ سِيْنَ» سنة ١٥٠ ق.م، و«نَاجَا أَرْجُن» سنة ١٧٥م، و«آسَنْكَ» سنة ٣٦٠ م، و«بَسُوبَنْدَ» سنة ٤٠٠م، و«دَجْنَاج» سنة ٤٢٠م، و«شَانْتَ» سنة ٧٥٠م، و«شاكيا شري بدر» سنة ١٢٠٠م وغيرهم.

وقالوا أيضا: إن بوذا لم يذكر وجود الإله في الحقائق المقدسة، كما لم يُوصِ تلميذه البار «آنندا» بالإيمان بالله وإنما أوصى له أن يتخذ من نفسه ملاذا.

هذه بعض أدلة المنكرين فمن يريد الإيضاح أكثر من هذا فليرجع إلى كتاب «راهول» المسمى «بوذا درشن»[2].

(١) بُوذَا دَرْشَنْ ص١١٤.

(٢) ص ١، ٤١، ٥٣، ١٧١.

أدلة المثبتين:

إن بوذا كان يؤمن بالإله الأكبر، إلا أنه لم يهتم بهذا، لأنه كان أمراً معلوماً لدى المجتمع الهندي وأدلتهم على ذلك ما يلي:

الدليل الأول:

قالوا: العقل والنقل.

أما العقل فلا يتصور الدين بدون الإقرار بالرب لأنه أساس مشترك بين جميع الأديان، ولهذا يتحاشى المنكرون أن يسموا البوذية ديناً.

وأما النقل: فقد جاء لفظ (إيشور) معناه (إله) في كتاب «انكرنكاي»[1] وفي كتاب «منجم نكاي»[2] ويجيب المنكرون على هذا بأن مفهوم الإله بدون صفات هو فكر مجرد لا يفي بالغرض المنشود فإن بوذا لا يصفه بوصف يجعله موجوداً.

الدليل الثاني:

بأن مفهوم الإله بدون صفات هو فكر مجرد لا يفي بالغرض المنشود فإن بوذا لا يصفه بوصف يجعله موجوداً.

الدليل الثاني:

إن البوذيين لا يعتقدون اعتقاد البراهمة في ألوهية برهما (الخالق) بل يفضلون بوذا عليه.

وهذا التفضيل هو سلاح قوي بأيدي المنكرين للرد على بوذا وأتباعه الذين يؤلهون بوذا ويعبدونه من دون الله وهو مخلوق مثلهم.

ثم يقول المثبتون إن الشبهة حصلت لأسباب منها:

١- كان «سدهارتا» سابع سبعة كلهم يدعون بـ«بوذا» وهم:

---

(١) الباب ٤١.

(٢) الباب ١٠١، وهما من الكتب الأساسية لتعليمات بوذا.

«سكها بوذا» ، و«بسا بوذا» ، و«بسهاد بوذا» ، و«كوسنكا بوذا» ، و«كرنا كُنا بُوذا» و«سبا بوذا» ، فاختلط الأمر فذكروا هذا بدلاً من ذاك، وذاك بدلاً من هذا.

٢- إن بوذا قد أغار على «برهما» و لم يحترم تعاليم «الفيدا» فاتهمه الهندوس بالإلحاد. وأشاعوا هذا القول في المجتمع الهندي فَفَسَّقُوه وكفروه حتى صارت البوذية غريبة في وطنها ومسقط رأسها.

٣- كيف يتصور أن تكون التعاليم البوذية خالية من مسائل ما بعد الطبيعة، مع أنها غرقت في بحر الشرك وظلمات البدعة، وجعلت «بوذا» مقام الإله الأكبر. فظل البوذيون يعبدونه من دون الله[١].

ومهما كان الأمر فإن هذا الخلاف الأساسي يهدم أصل هذه النحلة المنتشرة في آسيا وأفريقيا وبعض الدول الأوروبية. فإن الفكر المتدين لا يقبل أبداً أي دين من الأديان وفيه خلاف شديد في وجود الله وصفاته، وكيف يقبل الإنسان ذو عقيدة وإيمان آراء بوذا في تخليص الإنسان من المصائب والآلام، وهو لا يعترف في أي مرحلة من مراحل التخليص بوجود الله وقدرته، ثم يدعي لنفسه أنه حصل له «النِرْفانا».

فالرجل المفكر يرى بين الأمرين تناقضاً وتضارباً. وهذا التناقض من أحد الأسباب الأساسية لفشل هذه الحركة في مولدها ونشأتها. فإن سكان الهند لم يقتنعوا بأفكار بوذا كما اقتنعوا بتعاليم الإسلام السامية وهذا الذي حدث في الديار الأوروبية البعيدة عن التعاليم الإلهية عندما

(١) لقد ثبت لدى البوذيين أن بوذا لما دنت حياتُه الطويلة من ختامها راح أتباعه يؤلهونه، و لم ينتظروا موته.

وصل إليها دعاةُ النصرانية، فإن أوربا قبلتها مع تحريفها وتبديلها مع أن مجيئ عيسى عليه السلام تأخر خمسة قرون عن بوذا ولكن لم تنتشر دعوته في أوربا.

والآن بدأ الأوربيون مرة أخرى يبحثون عن دين يتمشى مع منطق العقل، ويفرق بين الخالق والمخلوق، وبين عيسى وربه، ولا شك أن هذا الفراغ لا يملؤه إلا الإسلام وتعاليمه الصافية النقية من التحريف والتبديل، ومن الغواية والزيغ، فكما أدَّى الإسلام دوراً مهماً في العصور القديمة فيما بين أفغانستان واندونيسيا -وهي الأرض الشاسعة المنتشرة فيها الأفكار البوذية- فدخل معظم هؤلاء في الإسلام، كذلك يستطيع أن يؤدي هذا الدور في أوربا الآن.

وأما البوذية فإن كانت تسحر الناس بتعاليمها التقشفية، فإنه إذا أفاق المرء من سُكرها وسِحرها عرف حقيقتها وغايتها.

المجالس البوذية الأربعة

المجلس الأول: انعقد المجلس الأول فور وفاة بوذا وأمِرَ تلميذه المشهور: «آنندا» أن يجمع معتقدات بوذا كما أمِرَ غيره بتدوين نظام الحياة للرهبان.

المجلس الثاني: انعقد المجلس الثاني بعد مائة سنة من وفاة بوذا وكان الغرض الأساسي لهذا المجلس تنقية تعليمات بوذا من الطقوس والرسومات الَّتي سيطرت على البوذيين.

المجلس الثالث: انعقد هذا المجلس في حدود سنة ٢٢٤ ق.م في عهد الملك «أشوكا» وكان الغرض منه إزالة الاختلافات الَّتي وقعت بين البوذيين في كثير من المسائل. وبعد انتهاء المجلس أرْسَل الدعاةَ والمبلغين في أرجاء الهند وخارجها.

أرجاء الهند وخارجها.

المجلس الرابع: انعقد المجلس الرابع في نهاية القرن الأول الميلادي في عهد الملك «كنشك» وكان الغرض لهذا المجلس تفسير تعليمات بوذا تفسيراً بعيداً عن التأويلات.

الفِرَق البوذية

لم يأت عهد الملك «أشوكا» حتى انقسم البوذيون إلى ثماني عشرة فرقة. وأشهرها فرقتان هما:

الفرقة الأولى: هنايان (يعني العربة الصغيرة).

تنكر هذه الفرقة وجود الله تعالى والروح والإلهام، كما تؤمن هذه الفرقة بناسوتية بوذا وأنه إنسان ولد من أب وأم وعاش كغيره من الناس ومات، إلا أنه حصل له صفات عالية. وهو وصل إلى مرتبة قديس واستحق أن يلقب بـ«آجاريا منش».

واتخذت هذه الفرقة قول بوذا:

«لا تطلب من غير نفسك ملاذاً» قاعدة أساسية لحصول «النرفانا».

هذه الفرقة تعتمد على قرارات المجلس الثالث.

وانتشرت هذه الفرقة في جنوب الهند وجزيرة سيلان. وكُتُبُ هذه الفرقة كُتِبَتْ باللغة البالية. وأشهرها «تري بتاكا» (TREPITAK) وهي مجموعة من ثلاثة كتب، وقد تأخر تدوين هذه الكتب أربعة قرون تقريباً بعد بوذا.

الفرقة الثانية: ماهايان (يعني العربة الكبيرة).

ويقصدون بها أن من انضم إلى عقيدة هذه الفرقة وركب على العربة الكبيرة مع جماعة «البهكشو» يحصل على «النرفانا»، وتؤمن هذه الفرقة بأن بوذا ليس له جسم، بل إنه نور مجسم، وظلّ ظهر في الدنيا وهو الإله

الأكبر، وهو الإله الأزلي، وهذه الفرقة غرقت في بحور الشرك. فاتخذت من كل راهب إلهاً من دون الله، واخترعت كثيراً من الرسوم والطقوس، وتفلسفت في العبادات وطريق النجاة.

الغالبُ أن هذه الفرقة أُسِّسَت في عهد الملك «كنشك» ووَضَعَت ضوابطها في المجلس الرابع.

انتشرت هذه الفرقة في الأرجاء الشمالية من الهند والتِّبِّت ومنغوليا والصين واليابان. وأخذت كثيراً من معتقدات هذه البلدان، وأكثر كتب هذه الفرقة كتبت باللغة السنسكرتية والصينية والتبتية واليابانية ومن أشهر هذه الكتب:

«ديموندا سوترا» (DIMOND SUTRA) و«لنكا وتار سوترا» (LANKA VATARA SUTRA).

العبادة عند البوذية

إن البوذية لا تعرف طريقة العبادات بالحركات فكل ما عندها هو:

١- الإكثار من الحمد والثناء على بوذا لحسنه وجماله وكماله على حد زعمهم.

٢- التلذذ بذكره وتصوره في الخلوة والمجتمع، والدعاء بصيرورة نفسه مثله في الحياة الثانية.

وتَذَكُّر اسم بوذا وتصوره من أعلى مراتب العبادة عند الرهبان البوذيين.

وقد أدت هذه العقيدة إلى تعظيم الرهبان وعبادتهم، وفي اعتقاد

البوذيين أن النجاة لا تحصل بمطالعة الكتب والتدبر فيها، بل لابد من الأخذ عن الراهب الكامل الذي يبلغ درجة بوذا في التخلي عن الشهوات والرغبات. وهو الوحيد الذي يتولى كشف الأسرار(١).

وفي المرحلة الثانية يقوم هذا العابد مقام المعبود، والمعتقِد مقام المعتقَد، والمخلوق مقام الخالق، فلم يبق بينه وبين خالقه أدنى فرق. ومن هنا يدعي الألوهية لنفسه.

قارن بين هذه العقيدة عند البوذيين وبين عقيدة تصور الشيخ عند الصوفية. فإن السالك في التصوف يتصور شيخه غائباً أو ميتاً، ويرسم صورته على قلبه فلا يعمل شيئاً إلا بإذنه فكأنه يعيش معه.

وفي المرحلة الثانية يتصور النبي صلى الله عليه وسلم، ويرسم صورته. وفي المرحلة النهائية يدعي وصوله إلى درجة إحسان.

ترانيم البوذيين عند العبادة:

ترانيم البوذيين عند العبادة:

أسجد للبوذا الإله الكامل، الذي انكشف له العالم.

أسجد للبوذا الإله الكامل، الذي انكشف له العالم.

أسجد للبوذا الإله الكامل، الذي انكشف له العالم.

أعوذ بالبوذا الإله.

أعوذ بالدين.

---

(١) يعبر بعض العلماء عن هذه الحالة بقولهم: WANTLESSNESS يعني: المرحلة التي يصل الإنسان إلى الاستغناء الكامل عن الموجودات.

أعوذ بجماعة البهكشو[1].

أعوذ بالبوذا الإله مرة أخرى.

أعوذ بالدين مرة أخرى.

أعوذ بجماعة البهكشو مرة أخرى.

أعوذ بالبوذا الإله مرة ثالثة.

أعوذ بالدين مرة ثالثة.

أعوذ بجماعة البهكشو مرة ثالثة.

أتقبل حكماً لا إيذاء فيه.

أتقبل حكماً لا سرقة فيه.

أتقبل حكماً لا شهوة فيه.

أتقبل حكماً لا كذب فيه.

أتقبل حكماً لا سكر فيه.

إشاعة البوذية

لم تكن الديانة البوذية قاصرة على أعلى طبقات المجتمع الهندي، بل فتحت أبوابها لكل من أراد الدخول فيها، خلافاً للديانة الهندوسية. فانتشرت البوذية انتشاراً هائلاً، ودخل فيها جمهرة من الهندوس من الطبقة الدنيا. واعتنق الملك «أشوكا» الديانة البوذية وجعلها ديناً رسمياً للبلاد، وأرسل الدعاة والمبلغين في داخل الهند وخارجها. وأرسل ابنه «ماهندرا» إلى جنوب الهند وسيلان، فبلغت البوذية إلى شرق آسيا ووسطها، فانتشرت في بورما، وتايلاند، وكمبوديا، ولاوس، وأجزاء من الصين،

(١) البهكشو: اصطلاح خاص لفقراء البوذيين ورهبانهم.

وكوريا، واليابان، كما انتشرت في بلاد منغوليا وتبّت وسيلان[1].

وكان السبب الأساسي في هذا شخصية بوذا التقشفية الجذابة، وعدم خوضه في الفلسفات السائدة في تلك المناطق، ووجود بعض التعاليم الأخلاقية، ولم يكن آنذاك بين البوذيين والبراهمة خلاف كبير كما يقول السائح الصيني «فاهيانا» الذي زار الهند في القرن الخامس الميلادي يقول: (إن الشعب يكرم الرهبان البوذيين والبراهمة سواء بسواء. والمعابد لكل الطائفتين تبنى جنباً إلى جنب).

فلما طلع القرن السابع بدأت بعض النزاعات والخلافات؛ فانعقد مجمع «قنوج» سنة ٦٣٤م بين أتباعهما. ففاز البراهمة في هذه المناظرات والمناقشات. وبدأوا يكسرون شوكة البوذية إلى أن جاء «شنكرا جاريا» سنة ٧٨٨-٨٣٠م، وهو من كبار شراح «الفيدانت» ومن كبار دعاة الهندوس، فأخرج البوذية من القارة الهندية. ويقال: إنه عمل بقوة عقله أكثر مما عمل «أشوكا» بقوة سلطته.

ثم جاء بعده نور الإسلام وتغلب على البقية الباقية فانهارت أمام هذا النور الإلهي الهندوسيةُ والبوذيةُ على حد سواء من السند إلى إندونيسيا، وتايلاند، فاعتنق كثير من البوذيين والهندوس دين الإسلام. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[2].

---

(١) انظر: البوذية تاريخها وعقائدها ص (٣٦١).

(٢) سورة الإسراء (٨١).

المصائر المتأخرة للبوذية في الهند

كان بوذا ينتظر ــ اعتماداً على كلام وجهه لأناندا ــ أن الحقيقة التي أذاعها لن تدوم أكثر من خمسة قرون ثم يحدث كشف جديد للخلاص بعد ذلك .

ولكن هذه النبوءة لم تتم . فبعد خمسمائة سنة من موت بوذا أي حوالي بدء العصور المسيحية بقي مذهبه في أوجه . ولكنه لم يبق في الحقيقة كما بشر به تماماً وإنما دخل عليه تطوير وتعديل .

ففي البوذية المتأخرة نرى ظهور فكرة تقول إن الحقيقة عن الخلاص يدعو إليها في العالم بين حين وحين « بوذاتٌ » ليس غوتامابوذا الذي ينتمي إلى جنس الشاكيا إلا واحداً منهم . ففي كل عصر عالمي (ذلك لأن البوذية المتأخرة استعارت من الساخيا مفهوم العصور العالمية) وفي كل منطقة من الكون كله لا من الأرض وحدها يظهر بوذات من حين إلى حين ، وليس غوتامابوذا هو الأخير

في عصرنا وإنما سيتلوه آخرون .

على أن هؤلاء البوذات ــ كما يقول المذهب البوذي المتأخر ــ ليسوا إلا تجليات لبوذا الأول الذي هو كائن سماوي موجود في ذاته (Adibouddha) ومنه ينبثق العالم .

من بين البوذات الخالدين الذين انبثقوا عن بوذا أميتابها (بوذا الضياء اللامتناهي) الذي هو السيد الحامي للعالم الحالي ويحتل مكاناً سامياً ويسكن في السماء في

الجنة التي تسمى سوكهافاتي . أما غوتامابوذا أيضاً فهو بموجب مذهب البوذية الحديثة كائن سماوي اتخذ مظهراً بشرياً ليحمل للعالم كشفه عن الخلاص . وقد ذهبت بعض النصوص لأن تضفي عليه صفات بوذا الكوني نفسها وأن تقدمه لنا على أنه «أبو العالم المولود في ذاته» . على أن المذهب المتأخر المتعلق بالبوذات لا يقدم لنا وحدة منهجية وينطوي على الكثير من الغموض والتناقضات .

منذ ذلك الوقت غدت البوذية ديناً . ولم تكتف بأن تطلب الاحترام للبوذات وإنما أعادت إلى عبادة الآلهة بصورة عامة مكانتها ، تلك العبادة التي كان غوتامابوذا قد أنكر عليها أية أهمية .

وعندما غدت البوذية ديانة شعبية انعزلت عن مذهب بوذا التاريخي الذي كان يعلّم أن الخلاص من دائرة التناسخات لا يمكن أن يتم الوصول إليه إلا في الحياة الديرية والتخلي عن العالم . أما الآن فهي تؤكد أن الإنسان يستطيع دون أن يخرج من الحياة العادية أن يصل إلى الخلاص بتكريم بوذا الإلهي وبأن يضع فيه إيمانه وأمله . هذا المذهب الجديد الذي جعل النفاذ إلى طريق الخلاص أكثر سهولة يسمى مذهب «المركبة الكبيرة» **Mahâyâna** بينما يطلق على المذهب الأول الذي

يعود إلى بوذا التاريخي اسم «المركبة الصغيرة» **Hînayâna**. ولابد لنا أن نفهم بأن المركبة إنما تعني القارب الذي يسمح بعبور نهر التناسخات والآلام للوصول إلى شاطىء النيرفانا .

كذلك تنفصل البوذية الماهايانية (أي بوذية المركبة الكبيرة) عن مذهب بوذا التاريخي بأنها لا تعتبر مثلاً أعلى لها الخلاصَ من دائرة التناسخات . وقد اتخذت فيها فكرة الشفقة مكانة بدا غيرَ مقبول فيها ما كان بوذا قد سمح به للإنسان من أن يقتصر على الاهتمام بخلاصه الشخصي دون الاهتمام بخلاص سائر الكائنات . كما أنها طرحت مثلاً أعلى جديداً للإنسان هو أنه ما إن يصل إلى خلاصه الشخصي حتى يتخلى عن الدخول في النيرفانا ويقبل بالعودة إلى التناسخات الأرضية كي يساهم في خلاص العالم . وللقديسين الذين يسعون إلى

استمرار التناسخ خصصت البوذية الماهايانية مكانة « البوذيساتفا -Boudhisattvas »
وشرف منصبهم، وهؤلاء هم المرشحون لاحتلال منصب بوذا.

وقد أدركت البوذية الماهايانية أن فكرة الشفقة ما إن يتم قبولها حتى ترفض الاقتصار على مكان محدود وتميل إلى غزو الفكر كله وتحتج بصفة خاصة على كل اهتمام أناني بالخلاص.

وبحرص رائع منها على الحقيقة قاومت البوذية الماهايانية إغراء تزوير الأعراف المأثورة بأن تدعي أن مذهبها يعود إلى بوذا نفسه. فهي لم تنكر أن بوذا دعا الناس إلى التفكير قبل كل شيء بخلاصهم وحدهم من دائرة التناسخات وأنه تكلم بنفسه عن دخوله في النيرفانا، ولكنه لم يفعل ذلك في نظر حكماء الماهايانا إلا بسبب ضعف عقل معاصريه الذين لم يكونوا قادرين على فهم الحقيقة الأسمى، حقيقة التخلي عن النيرفانا، ولذلك يجب — كما يدَّعون — أن يوضع المذهب المستخلص من روح تقواه فوق المذهب التاريخي الذي كان يدعو إليه.

فغوتامابوذا إذن — بحسب ما تذهب إليه الماهايانا — لم يدخل قط في النيرفانا وإنما هو يعيش في المناطق السماوية التي يعمل فيها بدون انقطاع من أجل أن يجعل معرفة خلاص العالم تتقدم وتتطور. « وهو الذي أسقط مطر الدين الكبير وهو الذي جعل طبل الدين الكبير يدوّي ويرن ».

بلغت البوذية الماهايانية أوسع انتشارها في الشمال الشرقي من الهند، ولا شك أن ذلك قد تم خلال القرون الأولى بعد ميلاد المسيح. ونصوصها المقدسة لم تكتب بلغة البالي **Pali** كنصوص البوذية الأولى وإنما كتبت بالسنسكريتية.

وبما أن البوذية الماهايانية ذاعت وانتشرت في التيبت والصين وبقيت هناك بينما زالت من الهند عبر العصور فإن عدداً من نصوصها الأكثر أهمية إنما وصلتنا ليس باللغة السنسكريتية الأصلية التي ضاعت وإنما في ترجمتها التيبيتة أو الصينية.

والكتاب الأكثر شهرة في الماهايانا هو السادهارما — بونداريكا (نيلوفر

الشريعة الصالحة) الذي يمجّد غوتامابوذا على أنه كائن إلهي يقوم عرشه على جبل فوق آلاف من الآلهة والبوذات والبوذيساتفات . ولابد أن هذا الكتاب قد كتب بعد قرنين على الأكثر من ميلاد المسيح ، ثم ترجم إلى الصينية منذ عام ٢٢٣م وأعيدت ترجمته من جديد في عام ٢٨٦م .

أما اللاليتا ـــ فيستارا (القصة المفصلة للعبة) ـــ والمقصود باللعبة بوذا ـــ فهي تصف بطريقة أسطورية تناسخ بوذا الإلهي في عائلة الشاكيا وتحكي عن نشاطه الأرضي . ولابد أن الأجزاء الأقدم منها قد كتبت في عصر سابق للمسيح .

وأما ال (Sukhâvatîvyûha) ومعناها « وصف مفصل للبلاد المباركة » فإنها تعالج موضوع بوذا أميتابها وجنة السوكهافاتي . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الصينية ما بين عامي ١٤٧ ـــ ١٨٦ بعد ميلاد المسيح .

ومن بين حكماء الماهايانا الكبار يجب أن نذكر ناغارجونا (القرن الثاني للميلاد ؟) الذي ولد من أسرة بهارمين ، والفقيه الشاعر شانتيديفا (القرن السابع للميلاد) .

في البوذية الماهايانية اختفى تماماً مفهوم الشفقة كما كان بوذا قد دعا إليه وأصبح المؤمن الماهاياني يسعى لبلوغ كمال « الشفقة الكبرى » . وكم هي عميقة هذه الكلمة : « طالما تألمت الكائنات لن يكون ثمة إمكانية لأن يفرح أولئك الذين يتمتعون بقلب رحيم » . وهكذا لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني تحتل الشفقة مكانة مهيمنة في إدراك العالم .

ولكن هذه الرأفة القوية لم تستطع أن تطور نفسها تطويراً كاملاً ولا أنتجت كل النتائج المتوقعة منها . وكما كان شأن البوذية الأولى فإن الماهايانا بقيت هي الأخرى أسيرة إنكار العالم ، كما أنها مثلَها وجدت نفسها مضطرة لأن تتمسك بمبدأ اللانشاط . ومثلَها لم تحض الإنسان على تقديم المساعدات الناجعة للكائنات التي تتألم . ومثلَها لم تستطع أن تواجه انتشار تلك الحقيقة العليا من أن الخلاص إنما يكمن في إلغاء أرادة الحياة .

لقد اهتمت الماهايانا بخلاص كل الكائنات ، ولكنها لم تكن على مستوى أن تشرح كيف سيتحقق هذا الخلاص بأكثر مما فعلته الساحخيا ومما فعله بوذا. والشفقة التي دعت إليها الماهايانا كانت موثقة الأيدي كما كان حال شفقة بودا. فهي ليست في الواقع إلا شفقة نظرية ــ كما كانت شفقة بوذا ــ ولكنها مدفوعة إلى أبعد الحدود . وهي لم تستطع الاكتفاء بأن تبقى تأملية كما فعلت شفقة بودا وإنما اندفعت في أمنيات رحيمة .

فالمؤمن الماهاياني يتشفع لكل الكائنات طالباً ألا ينقصهم شيء وأن يكونوا في منأى عن الألم والمرض وألا يكونوا منبوذين ولا مضطهدين وأن يتمتعوا بحياة سعيدة معصومة عن كل نية باقتراف الخطيئة وأن ينتقلوا من حياة أدنى إلى حياة أعلى حتى يصلوا بذلك إلى الخلاص. ونحن نجد في الكتابات الماهايانية صلوات طويلة تتضمن شفاعات من هذا النوع. وبما أن النساء معدودات في مرتبة الكائنات الدنيا فإن الصلوات تطلب لهن أن يتناسخن إلى جنس مذكر. وهم لا ينسون في هذه الصلوات الكائنات التي تتعرض لمضايقات وعذابات جهنم.

ذلك لأن «الشفقة الكبرى» لا تهتم فقط بكل الكائنات التي تعيش على الأرض وإنما بكل الكائنات التي توجد في كل أرجاء الكون أيضاً.

وإليكم نبذات من كتب ماهايانية : ــ «ليت آلام جميع الكائنات أن تتوقف في كل أجزاء البلاد». ــ «ليت كل الكائنات في مناطق العالم العشر، من هم ضعفاء أو مرضى أو خائرو القوى أو بدون حماية ، أن يتخلصوا مما أحاق بهم من شر». ــ «ليت أولئك المضروبين أن يتخلصوا من الضرب ، وأولئك المهددين بالموت أن يعودوا إلى الحياة ، وأولئك المكروبين أن يتخلصوا من كل خوف ...». ــ «ليت الجياع والعطاش أن يتلقوا الفيض من الطعام والشراب». ــ «ليت العميان أن يتمكنوا من استعادة النظر والطرشان من استعادة السمع والنساء الحبالى من الولادة دون آلام». ــ «ليت ألا ترتفع في العالم أية صرخة ألم وألا يعاني أي كائن من أي ضيق وغم». ــ «ليت الكائنات أن

تتجنب طريق التناسخ الأسفل ... » . ـــ « ليت النساء يولدن دائماً من جديد في حيوات مذكرة ويصبحن أبطالاً مشهورين وفقهاء وحكماء ... » . ـــ « ليتهن يجلسن براحة على عروش من زمرد بين أشجار جميلة من الحجارة الثمينة ينظرن إلى بوذات مناطق العالم العشر ويستمعن إلى ما يلقونه من خطب حكيمة » .

في الكتب الماهانية غالباً ما تكون المسألة مسألة جياع يحتاجون إلى الطعام وعطاش يحتاجون إلى الشراب ومرضى يحتاجون إلى الزيارة والعناية . ولكن من العبث أن نجد إلى جانب أمنيات الشفقة وصايا محددةً عن مساعدة تقدم للكائنات المتألمة . والخلاصة أن الماهايانا لا تهتم بأي عمل غير العمل الذي يساهم في الوصول إلى الخلاص الحقيقي التام من هذه الحياة الشقية . و « الشفقة الكبرى » لا تسمح للمؤمن الماهاياني بأن يكتفي ـــ كما يفعل بوذا ـــ بالتبشير بالحقيقة المنقذة وإنما تدفعه لأن يكون متأهباً بالفكر لأن يقدم من أجل خلاص الآخرين كنزَ الأعمال الصالحة الذي ادَّخره لنفسه ، وأن يتحمل على كتفيه آلام الآخرين ، وأن يدخل بدلاً عنهم في الأشكال الدنيا من الحياة ، وأن يتحمل بدلاً عنهم آلام الجحيم . وبدلاً من أن يمارس الشفقة الطبيعية ممارسة عملية فإن المؤمن الماهاياني يهتم بالتضحية بالنفس ، وهي عمل بطولي يريد إنجازه باعتباره بوذيساتفا .

وإليكم نبذات من كتب ماهايانية ـــ : « ليتني أستطيع أن أقود كل الكائنات إلى مدينة النيرفانا » ـــ « ليتني بما أنجزته من خير أن أساهم في تخفيف آلام كل الكائنات » ـــ « كل ما كسبته من جدارات أقدمه بدون أسف لخير كل الكائنات . » ـــ « إنني لا أهتم بخلاصي الشخصي فحسب . يجب أن أخرج كل الكائنات من نهر التناسخات (Samâra) وأن أحمل على ظهري عبء ألم كل الكائنات . وطالما أن الأمر يتعلق بي فإنني أريد ، في كل الحيوات السيئة التي يمكن أن تتحقق في كل مناطق الأرض ، أن أتذوق كل الآلام حتى الثمالة ... وأرضى أن أعيش في كل أشكال الحياة السيئة ملايين لا تعد من الأحقاب العالمية ... والحقيقة

أنه يحسن أن أتألم وحدي بدلاً من أن تمر كل الكائنات في حيوات سيئة ليس لها عدد » .

« إن البوذيساتفات » الذين يظهرون هذا التضامن بينهم وبين الكائنات الأخرى والذين لا يجدون السعادة إلا في تخفيف آلام الآخرين يهجمون على العذاب كما تهجم طيور النحام على أيكة من اللوتس » .

كذلك كان أمر القديس بولس . فقد دفعته الرحمة المسيحية لأن يكتب في رسالته إلى الرومان أنه يقبل عذاب النار إذا أمكنه بذلك أن يفعل شيئاً من أجل خلاص شعبه .

في البوذية الماهانية يبدو أن الشفقة أصبح لها من القوة بحيث كان لابد لها من أن تتمرد على إنكار العالم وأن تدعي لنفسها الحق في العمل على تقديم المساعدات للكائنات المتألمة . ولكن اللانشاط كان موقفاً غير قابل إطلاقاً للنقاش حتى بالنسبة لهذه البوذية المتطورة . فبقيت خاضعة له رغم أنها حُملت على العمل بدافع فطري أقوى من اندفاع بوذا نفسه .

وقد أوضح التطور الذي أحرزته الشفقة في الماهايانا كم كان تدخلها في مذهب ينكر العالم تدخلاً غير منطقي . عند بوذا كان لا يزال بإمكان الشفقة أن تتفق مع اللانشاط إلى بعض الحدود ، أما في الماهايانا فلم يعد ذلك ممكناً ، ولم يعد لها حيلة إلا في أن تتجاوز الموقف السلبي خادعة نفسها بنشاط وهمي .

ولكن كم هو مؤثر أن نشاهد أنه في إحدى المرات من تاريخ العالم عانى ملايين الناس من روح الإشفاق التي كانت تهز منهم الفؤاد .

ومن المفيد أن نلاحظ أن الماهايانا شرعت في تسويغ الشفقة منطلقة من نظرية المعرفة عند بوذا ومن إنكاره للذات . وحجتها في ذلك أنه إذا لم يكن هناك « أنا » أخرى . فالشفقة تقوم إذن على واقع أن الإنسان لا يقيم حداً دقيقاً بين « أناه » الشخصية و « أنا » الآخرين . وفي الشفقة يعرف المرء بالشعور استحالة التمييز بين « الأنا » و « الأنت » (**Parâtmasamatâ**) .

وإليكم نبذات من كتب ماهايانية : «إننا بحكم العادة نربط مفهوم الأنا بجسدنا الذي ليس له في الواقع «أنا» ، فلماذا لا نملك بحكم العادة أيضاً فكرة عن «الأنا» بالنسبة للآخرين؟» — «لا يوجد كائن يرتبط الألم بشخصه . فمن الذي يمكننا أن نقول إنه يتألم بذاته؟ . إن كل الآلام بدون تمييز ليس لها صاحب ، ولأنها آلام ينبغي علينا أن نقاومها . فما معنى إذن أن يكون ثمة حصر وتقييد؟ (أي ما معنى أن يقتصر المرء على صيانة نفسه من مرضه الشخصي) . » — «إذا كان قريبي يعاني مثلي من الألم والخوف ، فما الذي يميز «أنايَ» حتى أصونها أكثر مما أصون «أنا» الآخر؟» .

بفضل التطابق بين الأنا والأنت كما يطرحه مذهب البراهمان أعلنت الأوبانيشادات أن كل حب ليس حباً للذات . وقد قال ياجينا فالكيا لامرأته ميترايي : «في الحقيقة ليس حباً بزوجها تتعلق المرأة بزوجها . في الحقيقة ليس حباً بزوجها وإنما حباً بذاتها تتعلق بزوجها . في الحقيقة ليس حباً بالكائنات يتعلق المرء بالكائنات وإنما حباً بذاته يتعلق بالكائنات» . وهذا يعني بما أن البراهمان نفسه

يسكن في الآخرين كما يسكن فينا فإن ما نعتقده حباً للآخرين ليس إلا حباً للبراهمان ذاته .

من واقع استحالة التمييز بين «الأنت» و «الأنا» استنتجت الأوبانيشادات أن كل حب للقريب ليس في الأساس إلا حباً للذات . وعلى العكس من ذلك كانت البوذية الماهايانية عندما استنتجت أنه لا يمكن أن يوجد إلا حب للقريب لا حب للذات . على أن هذين التأكيدين المتناقضين يوصلان إلى النتيجة نفسها ، ففي كلتا الحالتين انهارت الأخلاق بما أعطي لها من تفسير . فالأخلاق الحقيقية تتقبل مسلَّمةً بوجود اختلاف طبيعي بين الأنا والأنت يزول بسر الحب .

ولم تكتف الماهايانا باستخدام نظرية المعرفة عند بوذا لتفسير الأخلاق وإنما طورتها . ولا شك أنهم مفكرون قدموا من أوساط براهمانية أولئك الذين نذروا أنفسهم لهذه التأملات ، وبغير ذلك لن نستطيع أن نفهم جيداً لمَ استعملت

الماهايانا نظرية المعرفة لتسويغ مفهوم يناظر تماما نظرية المايا Mâyâ البراهمانية .

يقدِّر حكماء الماهايانية أن بوذا لم يعترف ببعض الواقعية للعالم المحسوس إلا أن تلاميذه لم يستطيعوا أن يفهموا أن هذا العالم ليس حقيقياً بالفعل . ولابد أنه قبل بشكل أكيد أن العالم الخارجي لا يوجد إلا في شعورنا . وإذا كان الشخص الذي يدرك الشيء المحسوس يعتبره مختلفاً عنه وله وجود مستقل فإن ذلك لا يتم إلا بتأثير الخداع Mâyâ . فالعالم الخارجي ليس إلا مجموعة من التصورات التي نحملها في أنفسنا ، والقوانين التي ندركها فيها إنما تأتي من أن كل تصور هو نتيجة لتصور سابق . وفي الوجد والتركيز الروحاني يتحرر الإنسان من وهم الاعتقاد بأن العالم المحسوس هو عالم حقيقي .

وبما أن هذه النظرية تعتبر « الأنا » المدرَكة عن طريق الشعور حقيقةً روحانية فكريةً ـــ الأمر الذي يناقض بوذا ـــ فإن حكماء ماهانيين آخرين يذهبون إلى أبعد من ذلك ، وبخاصة الحكيم الشهير ناغارجونا (من القرن الثاني الميلادي) ، فيؤكدون أنه ينبغي القبول بأنه لا توجد لا حقيقة مادية ولا حقيقة روحانية . وهم يعبرون عن ذلك بالمسلَّمة التالية : « كل شيء عدم » . وبموجب رأيهم ليس ثمة ما هو

موجود ولا ما هو غير موجود . وليس العالم الخارجي الذي يدركه الإنسان وهماً وحده وإنما إيمان الإنسان بوجوده الشخصي وبإدراكه الشخصي هو وهم أيضاً . وذلك ما يسمى بمذهب « العدم المطلق » çûnyatâ الذي يتخذ في الماهايانا أهمية عقيدة .

ولكن ما العمل في الشفقة في عالم من عدم ؟. كيف يمكن للماهايانا أن توفق بين أخلاقها وبين مفهوم عدمية الوجود ؟.

إنها لم تنجح في هذا الميدان إلا بأن تقبل بأن الحقيقة ذات وجهين . فعلى الرغم من أن وجودنا ووجود الكون ليسا إلا وهماً فإنهما مع ذلك بالنسبة لنا حقيقة نسبية لأنهما وهمان لا يمكن تجنبهما ، وعلينا أن نتصرف بما يناسب هذا العالم المفترض وحياتنا المفترضة . وبما أن هذا العالم يبدو لنا مؤلماً فإن من واجبنا حمل

أنفسنا على أن ننهي هذا الألم فيه . وبسبب هذه الحقيقة النسبية «للأنا» وللعالم التي يُجبَر الإنسانُ على قبولها فإنه يستطيع أن يأخذ أيضاً بحقيقة نسبيه أخرى هي أن السعادة السماوية يمكن الحصول عليها بحياة رؤوفة وإيمانٍ برعاية الله بوذا . وليس مهماً أن ينخدع الإنسان كثيراً بعمل الواجبات ، على أن هذا الانخداع Kâryamoha ليس سليم العاقبة فحسب وإنما هو نافع أيضاً .

ومع ذلك فإن الإنسان بالتركيز الروحاني يدرك الحقيقة العليا عن «العدم المطلق» ويبلغ الخلاص الحقيقي الذي يرتكز على التحرر من ضلال الاعتقاد بحقيقة العالم .

على أن بوذا ــ وهنا تكمن عظمته ــ لم يخضع لإغراء إقامة مذهب فيه حقيقتان . ومع ذلك فإن هذا المذهب كان موجوداً عنده وإن كان مضمراً . ففي الأخلاق قَبِل «الأنا» بكل براءة بينما أنكر وجودها في نظريته عن المعرفة . وقد ظهر في الماهايانا واضحاً ما كان لدى بوذا مستتراً خلف حجاب .

أما سيلان وبرمانيا وسيام فقد بقيت مخلصة للبوذية الأولى .

تقول الرواية إن البوذية نفذت إلى سيلان بفضل ماهندرا بن أشوكا ملك

الهند الشمالية الشهير (٢٧٢ ــ ٢٣١ ق . م) أو أخيه . واسم أشوكا هو اختصار لآشوكا ــ واردهانا ومعناه «من يخفف الأحزان» . وقد بدا أشوكا في مطلع عهده أباً وحامياً للبراهمانيين ، ثم ما لبث أن اهتدى إلى البوذية على ما يبدو بسبب ما تم ارتكابه من قسوة أثناء فتوحاته . وقد امتدت إمبراطوريته ليس على كل حوض الهندوس (السند) والغانج فحسب وإنما أيضاً على الأراضي الواقعة أبعد من ذلك إلى الجنوب . وعندما غدا حامياً للبوذية أرسل مبشريه لينشروا هذا المذهب في كل المناطق .

وتلقت سيام البوذية على يد كامبودج الذي بدأ يصبح معروفاً في عام ٤٢٢ للميلاد . ثم نفذت إلى برمانيا قبل القرن السادس الميلادي .

والتعديل الوحيد الذي دخل على البوذية الأولى في سيلان وبرمانيا وسيام

هو أنها اعترفت ببعض القيمة للديانة الشعبية وعبادتها. وفي عام ١٨٩٣، بمناسبة الاحتفالات بذكرى جلوس الملك شولالونكورن على عرش سيام، أذاع الملك منشوراً كاملاً بكتابات البوذية القديمة المقدسة التي هي جزء من التريبيتاكا (السِّلال الثلاث). ولم نعد اليوم نصادف البوذية القديمة المقدسة إلا في سيلان والهند الصينية. أما في الهند الأصلية ـــ باستثناء نيبال الواقعة على السفح الجنوبي من الهيمالايا ـــ فإن البوذية اختفت تماماً من الوجود، وما يمارس منها في نيبال والصين والتيبت وكوريا واليابان إنما هو الماهايانية وتفرعاتها.

فكيف تأتّى أن البوذية اختفت من بلادها الأصلية؟. إنها لم تتعرض هنا لأي اضطهاد ولكنها خسرت مريديها شيئاً فشيئاً لأنها لم تتمكن من منافسة المذهب البراهماني الذي انتعش بالروح التي نفخها فيه كبار المعلمين في مطلع العصر الوسيط ولا منافسة القوى الدينية والأخلاقية التي أحيت المذهب الهندوسي. وقد بدأ الانحطاط في حوالي القرن التاسع الميلادي، وفي عام ١٦٠٠م كانت البوذية قد اختفت تماماً من الهند عدا نيبال.

لقد تفوقت عليها البراهمانية والهندوسية لأن مذهبهما يتضمن عنصراً صوفياً. وبما أنهما تستندان على فكرة أن النفس الفردية يجب أن تندمج بالنفس الكلية وأنها قادرة على ذلك فإنهما تمتلكان شيئاً بسيطاً حياً كانت البوذية في حاجة إليه. فالبوذية بإنكارها وجود النفس الكلية والنفس الفردية أصبحت معقدة وفقدت صلتها بالفكر الطبيعي وبروح الشفقة الهندية.

إن البوذية، كما هو شأن السامخيا والجاينية، لا تهتم إلا بالخلاص من التناسخات، أما من حيث إدراك العالم فإن مذهب التناسخ فقير جداً، بينما تستجيب الصوفية للبراهمانية استجابة أفضل لمواجهة العالم بالطريقة الطبيعية. حقاً إن الخلاص من دائرة التناسخات ـــ إذا كان أمره يشغل الفكر ـــ يمكن أن يجد مكانه في إدراك للعالم، ولكنه لا يستطيع وحده أن يشكّل مفهوماً عن العالم، وذلك هو السبب الحقيقي في نقصان مكانة البوذية تجاه الصوفية البراهمانية

والهندوسية .

وإذا كانت البوذية قد تمكنت أن تتماسك خلال العديد من القرون في وجه المذهب البراهماني والديانات الهندوسية فإن ذلك حدث لأنها من خلق شخصية كبرى ولأن أخلاقها أسمى من أخلاق منافسيها . وكلما كانت البراهمانية والهندوسية بتأثير من البوذية نفسها تطوران أخلاقهما ـــ وينطبق ذلك بصورة خاصة على الهندوسية ـــ فإن تفوقهما كان يظهر ويفرض نفسه . يضاف إلى ذلك أنهما كانتا تتفوقان على البوذية لاحتفاظهما بعلاقات مع الديانة الشعبية بينما هجرتها البوذية تمام الهجران . حقاً إنها حاولت بعد ذلك في الماهايانا أن تعيد معها الروابط ولكنها لم تنجح في أن تكون مقبولة منها كما فعلت البراهمانية والهندوسية .

وثمة سبب آخر لانحطاط البوذية في الهند أتى من واقع أنها رفضت نصوص الفيدات المقدسة بينما أكرمها البراهمانيون وأولتها الهندوسية توقيراً كان يتزايد على الدوام . وفي أثناء القرون الوسطى الهندية التي تنطبق تقريباً مع عصورنا الوسطى اتخذ احترام الماضي قيمة تزداد أهميتها يوماً بعد يوم . وكان موقف البوذية المعادي للنصوص المقدسة يسبب النفور منها ويزيد الابتعاد عنها . وشقاء البوذية هو في أن

بوذا بدلاً من أن يكون مصلحاً كان ثورياً .

ومع ذلك فإن السبب الرئيسي لتقهقر البوذية في الهند ينبغي أن يبحث عنه في العناد الذي أبدته في مشكلة خلاص من يبقى في الحياة العائلية . وقد قدم مذهبا البراهمانيين والهندوسيين لتأكيد العالم تنازلاً كبيراً ليس باحتمالهما الحياة الزوجية فحسب وإنما باعتبار الزواج مؤسسة ذات طابع إلهي . فالإنسان في رأي أصحاب هذين المذهبين يستطيع إذن بلوغ السعادة إذا قام بواجباته باعتباره رباً للأسرة ، حتى أن بعض حكماء البراهمانية أعلنوا أن من الضروري أن يمر الإنسان بطور أب للأسرة كي يبلغ الخلاص .

والأمر عكس ذلك في نظر بوذا ، فالمرء لا يبلغ الخلاص إلا بتخلٍ كلي عن العالم . وهكذا فإن مذهبه يتضمن نوعاً من الاحتقار للزواج ويصدم المشاعر

الشعبية التي تعتبر هذه المؤسسة ذات قداسة بحسب التقاليد. ومن أجل ذلك لم يتمكن إنكار البوذية الجذري للعالم أن يصمد أمام موقف البراهمانية والهندوسية الأكثر اعتدالاً.

ثم أتت ضربة الرحمة للبوذية في الهند على يد الإسلام. فقد قدم الفاتحون المسلمون ما بين عامي ١١٧٥ ــ ١٣٤٠ من بلاد الفرس وأسسوا مملكتهم فوق القسم الأكبر من أراضي الهند. وبما أن البوذية لم يكن لها صلات وثيقة مع الإيمان الديني الشعبي كما كان للبراهمانية والهندوسية فإنها لم تستطع أن تقاوم الدين الذي نشره الفاتحون بمثل نشاطهم وحماستهم. وفي جاوه وسومطره وغيرها من جزر الصوند حل الإسلام محل البوذية أيضاً. كما أن الإسلام خفف من نفوذ الجاينية إلى حد بعيد.

ومع ذلك فإننا لن نتمكن من أن نفسر تماماً كيف حدث أن البوذية اختفت من الهند موطنها الأصلي الذي مارست فيه سلطاناً على الضمائر استمر عدة قرون. وهكذا نجد كثيراً من الأحداث في تاريخ الفكر الإنساني استطاعت أن تحتفظ لنفسها بجانب من الغموض سري.

ولكن إذا كانت البوذية قد اختفت من الهند فإن ذلك لا يعني أن بوذا نفسه فقد كل أهمية هناك. ففي الوقت الذي أدارت فيه شعوب الهند ظهرها لإنكاره الجذري للعالم كانت أفكاره الأخلاقية قد غدت مألوفة لديهم، ولم ينقطع نفوذه الأخلاقي عن التأثير فيهم حتى اليوم. وحتى إنكاره الجذري للعالم استمر يمارس عمله في بعض الأوساط، فالتقدير العالي الذي كان غاندي يكنه للعزوبية إنما أتى من بوذا.

البوذية في الصين والتيبت ومنغوليا

يقال اعتماداً على رواية ظهرت في نهاية القرن الثاني الميلادي إن إمبراطور الصين مينغ ـــ تي من أسرة هان أرسل في عام ٦١ م سفارة إلى الهند على أثر حلم رآه في النوم كي تقود معها إلى الوطن معلمين للبوذية ونصوصاً مقدسة وأشياء أخرى تتعلق بهذا الدين . والحقيقة أن البوذية كانت قد نفذت إلى الصين منذ القرن الأول قبل الميلاد قادمة من الهند الشمالية عن طريق تركستان الشرقية ، وهذه البوذية التي انتشرت في الصين كانت بوذية متطورة هي التي نجم عنها مذهب الهامايانا فيما بعد .

وفي منتصف القرن الثالث الميلادي كان للبوذية معتنقوها في كل الصين وبدأت تلعب دورها هناك . ثم ما لبثت الماهايانا أن ابتلعت كل أشكال البوذية التي ظهرت سابقاً في الصين .

وفيما بين القرنين الرابع والحادي عشر الميلاديين قدمت أعداد كبيرة من معتنقي البوذية من الصين إلى الهند لزيارة الأماكن المقدسة حيث عاش المعلمون ولكي يحملوا معهم نصوصاً مقدسة . وكانوا يطرقون في العادة الطريق الذي يمر في صحراء غوبي وحوض تاريم (تركستان الشرقية) والهيمالايا ، وكانوا يأتون أيضاً ـــ ولكن بأعداد أقل ـــ عن طريق البحر مارين بالهند الصينية . ونحن نملك عن رحلات الحج هذه قصصاً مفيدة ندين بها إلى فا ـــ هيين وهسوَوان ـــ تشووانغ ما بين عامي ٦٢٩ ـــ ٦٤٥ م . وقد حمل هذا الأخير معه ستمائة وسبعة وخمسين من

النصوص البوذية .

أما الترجمات الصينية للنصوص البوذية فهي عديدة ، وقد تم تأليف معظمها قبل العام ألف للميلاد .

وهم يعزون إلى اثنين من المبشرين البوذيين الذين استُدعوا إلى الصين كما يقال في القرن الأول الميلادي من قبل مبعوثي الإمبراطور مينغ ـــ تي ، يعزون إليهما النص المسمى سوترا Sûtra المؤلف من اثنين وأربعين مادة ويعتبر من أقدم الكتب البوذية المكتوبة باللغة الصينية . وهو عرض مختصر للمذهب البوذي المتأخر ولكن على لسان بوذا . وتحتل الأفكار الأخلاقية المكان الأول فيه ، ولكنهم عرضوا أيضاً مذهب الماهايانية في « الفناء المطلق » .

فكيف نفسر أن تمارس البوذية ـــ مع إنكارها للعالم ـــ مثل هذه الجاذبية على الصينيين الذين هم بطبيعتهم وبتقاليدهم ميالون إلى تأكيد العالم ؟ .

يكاد يكون من المؤكد أن ما جذبهم هو العنصر الأخلاقي في الماهايانا بشكل خاص . فمنذ ما قبل كونفوشيوس (٥٥١ ـــ ٤٧٩ ق . م) وخلفائه كان من عاداتهم أن يهتموا بالمسائل الأخلاقية . ولكنهم وجدوا في الماهايانا أخلاقاً

لا تقتصر على الوصايا الكونفوشيوسية الجافة وإنما تدعو إلى التأمل في طبيعة العالم وطبيعة الحياة الإنسانية ، وقد اجتذبتهم أخلاق الرحمة والإشفاق . يضاف إلى ذلك أن البوذية تستجيب لحاجتهم الدينية التي كانت مهملة تماماً على يد الكونفوشيوسية وقليلة الاكتفاء بالتاويّة Taoïsme

كان حكيم التاوية الكبير هو لاو ـــ تسي الذي ولد في حوالي عام ٥٥٠ ق . م ،ربما قبل ذلك ، وهو مؤلف التاو ـــ تي كينغ . والمعنى الأصلي للكلمة « تاو » هو الطريق ، أما معناها المجازي فهو « المبدأ الأساسي الذي يحكم العالم » . ويعلّم التاو ـــ تي ـــ كينغ من خلال سلسلة من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة كيف يجب أن يعيش الإنسان في انسجام مع « مبدأ العالم » .

وممثلو التاوية الأكثر شهرة ـــ عدا لاو ـــ تسي ـــ هم لييه ـــ تسي (ما بين

حوالي ٤٤٠ — ٣٧٠ ق م)، وتشوروانـــغ— تسي (حوالي ٣٨٠ — ٣١٠ ق. م).

ويستخلص من أقدم الوثائق وبخاصة مؤلفات لييه — تسي أن التاويه مذهب صوفي له أصوله في أزمان ما قبل التاريخ، ويهدف إلى الاتحاد مع القوة فوق الطبيعية الغامضة التي تتجلى في الطبيعة. وتحتل فيه الممارسات السحرية والوجد Extase مكانة بارزة. فهو يملك إذن الأصول نفسها التي يملكها التصوف السحري البدائي كما أنه من طبيعته نفسها أيضاً، ذلك التصوف السحري البدائي الذي كان منبعاً للصوفية البراهمانية. وهكذا فإن لاو — تسي لم يكن كما يُظن عادةً مبدعَ التاوية وإنما طورها وجعلها روحانية وأدخل عليها الأفكار الأخلاقية. وأتم تشووانغ— تسي عمله. ونجد أقدم أشكال التاوية عند لييه — تسي رغم أنه متأخر على لاو — تسي.

إلى جانب هذه التاوية التي غدت فلسفية توجد التاوية البدائية في شكلها الديني الشعبي. وفيها نجد فكرة الاتحاد مع القوة فوق الطبيعية مرتبطة بمفاهيم دينية شديدة الغرابة تلعب فيها الممارسات السحرية دوراً كبيراً. ويأمل المؤمن من وراء

اتحاده مع القوة فوق الطبيعية أن يحصل على قوة خارقة. والسبب الذي من أجله احتفظت فلسفة لاو — تسي، ولييه — تسي، وتشووانغ— تسي الصوفية باسم الفلسفة التاوية هي أنها مشتقة من ديانة تاو الصوفية البدائية.

إن الصين لم تعرف ديانة شعبية أخرى إلا التاوية. لذلك لقيت البوذية الماهايانية التي تبشر بمحبة بوذا— أميتابها، وبالخلاص بفضل رعايته، وبالبعث السعيد في جنته السماوية، لقيت هذه البوذية الكثير من العطف والترحيب. ويبدو أن التاوية هي التي هيأت أرض الصين بشكل ما لتقبّل البوذية لأن الممارسات البوذية في التركيز الروحاني بغية الوصول إلى الوجد لم تكن غريبة على التاويين الذين يسلمون أنفسهم لممارسات من النوع ذاته.

وكان الفكر الصيني قد أُعِدَّ بفضل التاوية لتقبُّل إنكار العالم كما تعلّمه

البوذية. فالتاوية تدعوفي الواقع هي الأخرى لمبدأ اللانشاط. وإذا كانت تختلف بالمنطق الذي تستند إليه عن المبدأ البوذي فإن لها منه بعض الشبه. فالإنسان الذي يصل إلى فهم التاو وإلى الانسجام معه (كما يقول لاو ــ تسي وتشووانغ ــ تسي) لا يسلم نفسه للنشاط ولكن للانشاط. وهو يدرك أن كل نشاط يمارسه وفقاً للمفاهيم الإنسانية يعرقل مسيرة العالم المنظمة وفق قانون في الوقت نفسه غامضٍ وذكي، والسلوك السليم الذي ينبغي التمسك به هو أن يبقى المرء في لا نشاط عطوف.

إلا أن لاو ــ تسي وتشووانغ ــ تسي في دعوتهما لهذا الموقف يبقيان مع ذلك على ارتباط بتأكيد العالم. فهما يقدّران في الواقع أن العالم المادي له معنى وأنه من صنع إرادة إلهية خيِّرةٍ في الأساس تريد أن تحقق فيه مآربها. ولكنهما بمبدئهما عن اللانشاط الذي يشبه مبدأ البوذية يفتحان الطريق أمام هذا المبدأ الأخير.

بذلك يفسَّر كيف أن الفكر الصيني النزّاعَ إلى تأكيد العالم قد استقبل البوذية استقبالاً حسناً وجعل نفسه يهتدي إلى إنكار العالم. فكم كان ينبغي أن تكون قوة جاذبية هذا النظام الفلسفي الغريب حتى يتحمس الصينيون للمثالية الديرية التي كانت ترفضها تقاليدهم ومشاعرهم.

وفي الوقت نفسه الذي تخلى فيه الصينيون عن تأكيدهم للعالم ليقبلوا الإنكار البوذي كانت شعوب أوربا الفتية التي نشأت بعد هجراتها إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية المتداعية تدير ظهرها لتأكيد العالم من أجل أن تتبنى هي الأخرى هذا الموقف السلبي الذي صادفته في فلسفة الانحطاط الإغريقيــة ــ الرومانية وفي المسيحية.

فالصينيون إذن قد اعتبروا البوذية نوعاً من التاوية، ومن مفردات التاوية إنما استعاروا المفاهيم التي ترجموا بها البوذية إلى فكرهم.

واليوم لا تزال التاوية حتى وقتنا تتضمن عناصر بوذية. ونجد أفضل ما في البوذية وما في التاوية جنباً إلى جنب في قواعد النظام الديري التاوي في الصين.

وإليكم بعض الوصايا التي تتضمنها الرهبانية التاوية في الوقت الحاضر :

ــ « لن تقتل أي كائن حي ولن تفعل الشر بأحد » . ــ « لن تأكل اللحم ولا الدم من أي كائن حي » . ــ « لن تتعاطى أي مشروب مسكر » . ــ « لن تمالق أبداً ، لن تتكتم أبداً ، لن تكذب أبداً » . ــ « لن تنطوي على أية نية مؤذية أو مسيئة » . ــ « لن تأخذ أبداً كلاماً كاذباً على أنه كلام موثوق » . ــ « لن تلقي أبداً نظرات مختلسة على النساء والفتيات وستتجنب كل فكر فاحش » . ــ « لن تسرق ولن تسلب شيئاً من أحد » . ــ « لن ترتكب خطأ بحق أحد مهما كان ضئيلاً » . ــ « لن تسعى لامتلاك مال الآخرين » . ــ « لن ترتكب الظلم لتمتلك مال الآخرين » . ــ « لن تكافىء طيبة معلميك ومحبتهم بالجحود » . ــ « لن تكون حسوداً للنبلاد ولا غيوراً من القادرين » . ــ « لن تخدع شيخاً ولا طفلاً ولن تنصب لهما أية مكيدة » . ــ « لن ترد السائل ولن تعامله باحتقار » . ــ « لن تتباهى بمقدرتك على شفاء الآخرين » . ــ « ستفكر بخلاص الآخرين قبل أن تفكر بخلاص نفسك » .

كما أننا نجد في هذه القواعد الديرية وصايا مستلهمة من الشفقة بُشّر بها في الكان ــ يينغ ــ بيين . « لن تضرب ولن تجلد الحيوانات الأليفة » . ــ « لن تسحق عن عمد حشرة أو نملة » . ــ « لن تستخدم الصنارة ولا السهام لتسلية نفسك » . ــ « لن تتسلق الأشجار لاستخراج الطيور من أعشاشها وتدمير بيوضها » . ــ « لن تأخذ الطيور ولا ذوات الأربع بحبل أو طوق » . ــ « لن تخيف الطيور الحاضنة ولن تطردها » . ــ « لن تقطف ولن تقلع الأزهار أو العشب بدون سبب » . ــ « لن تقطع شجرة من أجل التسلية » . ــ « لن تسحب من جحورها الحيوانات النائمة في الشتاء » . ــ « لن تسكب ماءً غالياً على الأرض لتهلك الحشرات والنمل » .

هنالك رواية قديمة تقول إن لاو ــ تسي بعد أن كتب التاو ــ تي ــ كنغ ذهب نحو الغرب حيث قضى بقية حياته هناك . ويمكن أن يكون هذا المكان

بحسب اعتقاد انتشر في الصين في القرن الثاني للميلاد هو الهند وأنه هو الذي غُرف هناك باسم بوذا. والواقع أن تاو ــ تسي وبوذا وكونفوشيوس كانوا متعاصرين. وقد وجدت البوذية الصينية حماتها ــ على الأقل في بادىء أمرها ــ في أنصار الفلسفة التاوية وفي المؤمنين بالديانة التاوية الشعبية.

وكما حدث لبوذية الهند تشكل في الصين مدارس عديدة وطوائف Tsung تختلف فيما بينها خصوصاً بموقفها من موضوع حقيقة العالم أو عدم حقيقته. والاختلاف الأساسي هو في أن بعضها يعتبر البوذية قبل كل شيء إيماناً ببوذا أميتابها وبالسعادة المرتقبة في « بلد الطهارة » أي الجنة المسماة سوكهافاتي بينما يمارس بعضها الآخر التأمل البوذي الحقيقي على الأخص. ومؤسس المدرسة التأملية التي تسمى أيضاً بالمدرسة الروحانية Hin-Tsung هو الحبر الهندي الكبير بوذيذارما الذي قدم إلى الصين بحراً في نحو من عام ٥٢٥ م ومارس فيها خدمته الكهنوتية حتى وفاته في نحو من عام ٥٣٥ م. وقد علّم بوذيذارما تلاميذه أن يمارسوا التركيز الروحاني الذي به وحده لا بالمعرفة يصل الإنسان إلى التحرر من الاعتقاد المشؤوم بحقيقة العالم، وفي نهاية القرن الرابع غدت البوذية التأملية الصينية عبادة واتخذت

وقد تشكلت أيضاً ــ وخصوصاً منذ القرن الثامن الميلادي ــ بوذية شعبية أرضت إيمان الجماهير بالخرافات كما هو شأن التاوية وأطلق عليها اسم (مدرسة الأسرار) Mi-Tsung .

وفي عام ١٠٥٠ للميلاد نشر راهب بوذي مؤلفاً عنوانه « أساس الدين ». بسط فيه رأياً كان شائعاً في البوذية الصينية من أن بوذا ولاو ــ تسي وكونفوشيوس إنما بشروا كلهم بمذهب واحد. ونتيجة لذلك صارت توضع في الأديرة والمعابد البوذية تماثيل كونفوشيوس ولاو ــ تسي إلى جانب تمثال بوذا: لاو ــ تسي على يساره (وهذا المكان هو مكان الشرف في الصين) وكونفوشيوس على يمينه.

في عام ١٠٠٠ تعرض انتشار البوذية الصينية إلى التوقف. فهي لم تكن

تمتلك النسغ المبدع الخلاق ولم تكن تعيش إلا بالدفقات التي كانت تأتيها من الهند. يضاف إلى ذلك أنها كانت تنطوي في حناياها على أخلاق تاوية مستندة على تأكيد العالم لم تستطع أن تتفق اتفاقاً عميقاً مع الأخلاق البوذية المبنية على إنكار العالم.

لقد كانت البوذية الصينية أبعد من أن تتمتع بسلام ثابت. وقد تعرضت في بعض العصور لاضطهادات عنيفة. وكانت الكونفوشيوسية هي التي قادت المعركة في وجه الدين الجديد.

في ظل أسرة تانغ قام موظفون كونفوشيوسيون كبار من أمثال فو ــ يي (٦٢٤م) وياو ــ تشونغ (٧١٤م) وهان ــ يو (٨١٩م) وتقدموا بشكاوى على البوذية إلى الإمبراطور. وفي عام ٨٤٤م في عهد الإمبراطور وو ــ تسونغ انفجر أول اضطهاد عنيف تناول كل الديانات الغريبة فكانت فيها نهاية المانوية والزرداشتية في الصين. أما في البوذية فقد ألحق هذا الاضطهاد جروحاً لم تشف منها بعد شفاءً كاملاً. ولكن هسوان ــ تسونغ خليفة الإمبراطور السابق وضع لحسن الحظ حداً لهذه الاضطهادات.

على أن الأباطرة في العصور التالية وجهوا جهودهم لمقاومة الأديرة البوذية بوجه أخص. فأصبح إنشاء الأديرة والدخول في أنظمتها الرهبانية يخضعان لترخيص من السلطة المدنية. وغالباً ما كانت الأديرة تلغى وتصادر ممتلكاتها وتصهر تماثيلها البرونزية لصك النقود ويجبر رهبانها للعودة إلى الحياة الدنيوية. وفي عام ١٠١٩م رد الإمبراطور التقي تشين ــ تسونغ (٩٩٨ ــ ١٠٢٢م) من أسرة سونغ (٩٦٠ ــ ١١٢٧م) رد لبعض الوقت الحرية للبوذية والتاوية. وفي خلال هذه السنة ذاتها دخل إلى الأديرة البوذية حوالي مائتين وثلاثين ألفاً من الرجال وخمسة عشر ألفاً من النساء. ولكن خلفاء تشين ــ تسونغ وجدوا أنفسهم مضطرين للعودة إلى التضييقات القديمة ليمنعوا البوذية من أن تصبح خطراً على الأمة. فالإمبراطور هوي ــ تسونغ (١٠٠١ ــ ١١٢٥م) من أسرة سونغ

منغ ــ ولكن بدون نتيجة ملموسة ــ أن يوضع تمثال بوذا إلى جانب تمثالي لاو ــ تسي وكونفوشيوس .

هذه التدابير والقيود أوقفت انتشار الدعوة البوذية بين الطبقات العليا من الشعب ولكنها لم تستطع أن تمس المكانة التي كانت تتمتع بها البوذية في الجماهير الشعبية .

وقد أبدى بعض الأباطرة في عصور مختلفة تأييدهم للبوذية من أمثال جنكيز خان (١١٦٢ ــ ١٢٢٧ م) الفاتح الكبير الذي استولى على بكين ، وكذلك حفيده قوبلاي خان (مات عام ١٢٩٤) الذي كان أول إمبراطور مغولي على الصين . ولكن الكونفوشيوسية مالبثت أن استعادت تفوقها في ظل أسرة مينغ (١٣٦٨ ــ ١٦٤٤ م) وفي ظل أسرة تشينغ المنشورية (١٦٤٤ ــ ١٩١٢ م) وفقدت البوذية مواقعها وترافق انحطاطها الفكري مع انحطاطها المادي وبدأت تأخذ شيئاً فشيئاً مظهر دين عامي لا يوجه اهتمامه إلا للجهلة ولا ينطوي على أية فائدة للفكر ولا للأخلاق . وقد جرت منذ بضع عشرات السنين محاولات أتت المبادرة فيها من اليابان من أجل إصلاح البوذية الصينية ورفع مستواها عسى أن تقف على قدميها من جديد .

أما في التيبت فإن البوذية لم تنفذ إليها إلا في القرن السابع الميلادي في ظل حكم الملك سرونغ ــ بتسان ــ سغام ــ بو الذي كان له زوجتان إحداهما صينية والأخرى نيبالية وبتحريضهما أدخل هذا الملك البوذية إلى بلاده . وقد نجح كهنة الديانة الجديدة شيئاً فشيئاً في إزاحة الملكية وغدت البوذية التيبتية تيوقراطية متينة التنظيم .

وقد ارتفع مستوى هذه الديانة في مطلع القرن الخامس عشر بفضل راهب مصلح اسمه تسونغ ــ كا ــ با (رجل وادي البصل) أنشأ نظام عزوبية الرهبان وكافح الخرافات والسحر .

على رأس هذه الكنيسة البوذية التي أصلحها تسونغ ــ كا ــ با يوجد

لامايان (مفردهم لاما ومعناه الأعلى) يعتبران تجسيدين لبوذا ، أحدهما وهو الذي يحمل منذ عام ١٥٧٥ لقب الدالاي لاما (أي اللاما الشبيه بالمحيط) يقيم في لاهاسّا ، والثاني وهو البانشتين ـــ إيرديني ـــ لاما (أي اللاما الجوهرة بين الحكماء) يقيم في دير تا ـــ شي ـــ لهوم ـــ بو . ويعتبر الأول تجسيداً لبوذيساتفا أفالوكيتيشفار الإلهي ، والثاني تجسيداً لبوذا أميتابها . بينما يمارس لاما لاهاسّا الكبير السلطة الزمنية فإن الآخر يُعنى بما هو روحي . وعندما يموت أحد اللامات الكبار يبحثون فوراً عن خلف له بين الصبية الذين ولدوا ساعة الوفاة ، وتستند هذه العادة إلى الاعتقاد بأن البوذا المتجسد في اللاما الكبير المتوفى سيسعى فوراً لأن يتجسد في حياة أخرى .

والبوذيون التيبتيون لا يراعون مبدأ اللاعنف إلا بصورة شكلية تماماً . فهم يعتقدون أنهم يحترمون هذا المبدأ إذا تجنبوا إراقة الدم عند القتل . وهكذا فهم عندما يشتهون لحم حيوان من قطيعهم يعرضونه لميتة قاسية عن طريق الخنق وذلك بأن يسدوا له فمه ومنخريه .

من التيبت انتشرت البوذية اللامية في منغوليا في القرن الثالث عشر أي في العصر الذي غزا فيه خانات المغول أرض التيبت . وفي عهد قوبلاي خان أحرزت هداية المغول إلى هذا الدين نجاحات كبيرة .

وقد احتفظت البوذية التيبتية باستقلالها تجاه البوذية الصينية . ومنذ أن نشرت الصين في نهاية القرن السابع عشر سيادتها على التيبت أصبح للدالاي لاما المقيم في لاهاسّا ممثل مقيم في بكين . وهذا الممتل ينظر إليه أيضاً على أنه تجسيد لبوذا . وكذلك كان أمر موظف اللامية المغولي الأعلى المقيم في أورغا .

والمعابد الرائعة الموجودة في ييهول ـــ وهي مقر الإقامة الصيفية لأباطرة مانشو وتقع شمالي بكين وراء السور العظيم ـــ إنما بنيت في القرن الثامن عشر لتكون في خدمة الديانة اللامية ، وقد نهب ما في هذه المعابد من كنوز في نهاية عهد أباطرة الصين .

تجاه البوذية الصينية استطاع أباطرة الصين ألا يكونوا متسامحين ، أما تجاه البوذية اللامية التي انتشرت في شمالي الصين فكان لابد لهم من أن يكونوا عطوفين واسعي الصدور خوفاً من أن يعرضوا للخطر سلطانهم في كل من التيبت ومنغوليا .

القراءة زاد المعرفة ، والتفكير . . لتسخير المعرفة

علي مولا

البوذية في اليابان

عن طريق كوريا، وفي نحو من القرن الرابع للميلاد، دخلت البوذية الماهايانية الصينية إلى اليابان فجندت لها فوراً مريدين في البلاط وبين طبقة النبلاء.

وفي مطلع القرن التاسع اندمجت البوذية في الشنتوية ديانة اليابان القومية وصار ينظر إلى الآلهة الشنتويين على أنهم تجسيدات للبوذات والبوذيساتفات الإلهيين. ويدين هذا الاندماج إلى الراهب البوذي كوبو الذي عاش بين ٧٧٤ ــ ٨٣٥ للميلاد.

أما الديانة الشنتوية البدائية فهي تؤمن بتعدد الآلهة ولم تتطور فيها الأخلاق قط. والآلهة فيها تشخيص لقوى الطبيعة التي يطلبون منها الحماية. والإله الرئيسي هو الشمس ويعتبر كائناً مؤنثاً. وليس من المحتمل إلا قليلاً أن الشنتوية في بداية عهدها كانت تقوم على احترام الأجداد كما يريد منا اليابانيون المحدثون أن نعتقد

وقد تلقت البوذية الشنتوية (Ryôbu-Shintô أي شنتو المزدوج) من

البوذية محرضات دينية وأخلاقية. وفي مجال الأخلاق تأثرت من جهة أخرى بالكونفوشيوسية.

في البدء لم يكن للبوذية اليابانية اتصال ببوذية الصين إلا عن طريق كوريا، ثم ما لبثت أن عقدت معها صلات مباشرة وتحملت نفوذها بشكل أشد، وصار رهبان يابانيون يذهبون إلى الصين لدراسة المذهب المقدس كما فعل كوبو من قبل.

على أن هذه العلاقات انقطعت منذ مطلع القرن العاشر لمدة تقارب المائتي

عام لأسباب سياسية جعلت اليابان تدير ظهرها للصين . ومع ذلك ، وحتى في هذه الفترة ، لم ينقطع بعض الرهبان اليابانيين من الذهاب إلى الصين ، وإلى جانب البوذية انتشرت الكونفوشيوسية في اليابان .

ومنذ مطلع القرن الثاني عشر ، وفي اللحظة التي استؤنفت فيها العلاقات بين اليابان والصين ، أصبح يُحَسُّ تجديد في الشنتوية البوذية حيث تشكلت فيها حركات فكرية شبيهة بحركات المدارس الكبرى في الصين .

من هذه الحركات ما قام به ميـــوان إيساي Myôan Eisai (١١٤١ ـــ ١٢١٥) مؤسس نحلة زِن Zen الذي ساهم مساهمة قوية في أن ينتشر في اليابان البوذية التأملية التي كانت تُدرس في « المدرسة الروحانية » التي أنشأها بوذيذارما* في القرن السادس الميلادي . وقد جندت نِحلة زِن مريديها من طبقة المحاربين بوجه أخص .

ولكي يبقى مريدو هذه النحلة مستيقظين أثناء تدريبات التأمل الليلية ـــ كما يفعل تلاميذ بوذيذارما الصينيون ـــ فإنهم جلبوا معهم من الصين ـــ كما تقول الرواية ـــ حبوباً من شجرة الشاي وأدخلوا زراعتها في بلادهم . وكان اليابانيون من قبل قد حاولوا زراعة الشاي ثم كفوا عن ذلك .

أما نحلة الجودو Jōdo التي تشكلت هي الأخرى في نهاية القرن الثاني عشر ومعناها « نحلة البلاد الطاهرة » أي الجنة فقد دخل تحت لوائها ممثلو المذهب البوذي الصيني الذي يقول بالخلاص بفضل بوذا ـــ أميتابها الذي سموه في اليابان أميدا ـــ بوتسو (لأن اسم بوذا في اليابانية بوتسو) . ومؤسس هذه النحلة هو الراهب جينكو (١١٣٣ ـــ ١٢١٢) الذي كان المشرف الروحي لثلاثة من أباطرة اليابان . ومع ذلك فإن ثالث هؤلاء الأباطرة غو ـــ توبا نفاه إلى جزيرة

---

* بوذيذارما مبشر بوذي هندي قدم إلى الصين في القرن السادس عن طريق البحر كما مر معنا في الحديث عن البوذية الصينية . ـــ المترجم ـــ

شيكوكو مدة ثلاث سنوات رغم أنه كان له من العمر أربعة وسبعون عاماً لأنه نصح إحدى محظيات هذا الامبراطور بأن تصبح راهبة .

ثم قام أحد تلاميذ جينكو وهو شيزان (١١٧٣ ــ ١٢٦٢) فطوّر فكر معلمه وأسس نحلة الجودو ــ شنشو (أي النحلة الحقة للبلاد الطاهرة) . وبينما كان جينكو يعلّم أن شرطي دخول الجنة هما الإيمان بفضل بوذا أميدا وممارسة الأعمال الصالحات فإن شيزان كان يؤكد أنه يكفي الإيمان بفضل بوذا أميدا وأن الإنسان عاجز عن أن ينال أية جدارة بالسعادة الآخرة مهما كانت الطريقة إلى ذلك . ومع ذلك فإنه طلب من مريديه سلوكاً أخلاقياً يكون ثمرة وتجلياً للإيمان المنقذ ، ذلك هو على وجه الدقة موقف لوثر من صالحات الأعمال .

وكما هو شأن لوثر فإن شيزان رفض أنواع الحج والتوبة والصوم والخرافات وكل الممارسات السحرية ، كما ألغى عزوبية الكهنة والرهبان والراهبات وطلب من كل فرد أن يراعي التقوى الحقيقية في عائلته وفي مهنته الدنيوية . وطلب من العلمانيين أن يدرسوا النصوص المقدسة على الدوام وعرض أن يتم إنقاذ الشعب من الجهل بإنشاء المدارس الصالحة .

وقد قاوم شيزان أيضاً فكرة أن النساء كائنات دنيا وأنهن لا يستطعن الوصول كالرجال إلى السعادة السماوية . وألّف كما فعل لوثر تراتيل عن الخلاص المنعم به بفضل من بوذا لتُنشد في الاحتفالات الدينية ، ومثله أسند للوعظ والإرشاد مكانة كبيرة في العبادة .

وقد لاحظ المبشرون الجزويت الذين تسللوا إلى اليابان في منتصف القرن السادس عشر تلك القرابة الواضحة بين بوذية الجودو ــ شينشو وبين « الهرطقة اللوثرية » حيث كتب الأب فرانشيسكو كابرال في هذا الموضوع رسالة ممتعة يعود تاريخها إلى عام ١٥٧١ للميلاد .

وهكذا نرى في اليابان ولادة بوذية يحل فيها تأكيد العالم محل نفيه . ومع ذلك فإن مسألة الموقف الذي يجب اتخاذه من العالم لم تكن محل نقاش . وبسذاجة

مدهشة أدخل مصلحو البوذية اليابانيون في المذهب البوذي مبدأ تأكيد العالم الذي كان مألوفاً في الفكر الياباني . وما لم يتجزه الفكر الصيني نجح الفكر الياباني في إنجازه . ومع ذلك ينبغي الاعتراف بأن هذا الفكر إنما تلقى مساعدة كبيرة من أخلاق الكونفوشيوسية القائمة على تأكيد العالم والتي كان تأثيرها واضحاً أشد الوضوح في اليابان . فبفضل الأهمية التي تمتعت بها الأخلاق تمكنت البوذية من الوصول إلى التلاؤم مع تأكيد العالم .

وعلى الرغم من أن المذهبين البوذي والمسيحي قائمان على إنكار العالم فإنهما يمتلكان مع ذلك بفضل الأهمية التي تعترف بها أخلاق الكمال الداخلي في كل منهما لمبدأ المحبة لكل الكائنات الأخرى ، يمتلكان بعض القرابة من تأكيد العالم . فبفضل مبدأ المحبة كان للمسيحية والبوذية القدرة على أن تتحررا من الإنكار ، ولهذا السبب تمكن الفكر الياباني النزاع إلى تأكيد العالم من تعديل البوذية حسب هواه . أما الفكر الأوروبي الحديث فإنه سعى في البروتستانتية إلى مذهب يسوع كما لو أنه قائم على تأكيد العالم .

وفي كلتا الحالتين يوجد تأويل تعسفي ولكنه مسوَّغ إلى حد ما بواقع أن الأخلاق البوذية والأخلاق المسيحية إنما تنزعان بدافع من مبدأ المحبة إلى الخروج من إنكار العالم لكي يجدا كامل تفتحهما وازدهارهما في تأكيده .

إن الورع المتفائل الفاعل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر الياباني كما أثبت ذلك نجاح البوذية الجودو ــ شنشوية الكبير التي يعتنقها اليوم أربعون بالمائة من سكان اليابان .

وقد اعترض الراهب نيشيرين (١٢٢٢ ــ ١٢٨٢) بكل شدة على التخلي عن الفكر البوذي الأصيل وهذا الاسم الذي أعطاه لنفسه يعني « لوتوس الشمس » . وقد دان كلاً من نحلة زن ونحلة جودو ونحلة جودو ــ شنشو على السواء . ووصف الإيمان بالفضل المنقذ لأميدا ــ بوذا بأنه ضلال لا يحتمل . وفي رأيه لا يمكن الوصول إلى الخلاص إلا باتباع « طريق القداسة » أي طريق التخلي

عن العالم .

وقد اعتقد نيشيرين أنه مرسل من بوذا لإصلاح مذهبه الحق . وأصر على التخلي عن العالم وطالب بالحياة الديرية حياة الرهبنة ، إلا أن نظريته في طبيعة الحياة ليست أبداً نظرية بوذا وفكرُه إنما هو فكر حلولي* . وفي رأيه أن كل ما هو موجود يشاطر بوذا الأولي في حياته ، وعلى هذا الأساس يبني أمله في خلاص العالم . ونصل من وراء مذهبه إلى أن كل النباتات والحيوانات وحتى المعادن مهيأة في يوم من الأيام لأن تصل إلى جلال بوذا وسطوعه وبهائه .

وبما أن نيشيرين لم يوجه اتهاماته إلى البوذية العقلانية المتفائلة فحسب وإنما إلى السلطات التي تتسامح معها أيضاً فقد تعرض لأنواع من الاضطهاد حيث أمضى بضع سنوات في المنفى ووصل به الأمر أن حكم عليه بالموت وألا يصفح عنه إلا في اللحظة التي يركع فيها استعداداً لقطع رأسه . أما مذهبه الذي عرف كيف يوفقه مع الورع الشعبي فقد انتشر بخاصة في أوساط غير المتعلمين .

ثم بدأ التبشير الكاثوليكي في اليابان في عام ١٥٤٩ على يد المبشر الجزويتي الشهير فرانسوا كزافيه . وقد أحرزت الديانة الجديدة نجاحاً هاماً في

باديء الأمر ورأت آفاقاً مستقبلية واسعة تُفتح أمامها بعد ثلاثين سنة من الجهود بفضل الدعم الذي قدمه لها مستشار الإمبراطورية نوبوناغا الذي كان يرغب في تحطيم قوة الإكليروس البوذيين السياسية . ولكن هذا الموظف الكبير اغتيل عام ١٥٨٢ واستؤصلت الكاثوليكية بعد اضطهادات عنيفة .

وانطلاقاً من القرن السابع عشر بدأت تبرز شيئاً فشيئاً حركة قومية هدفُها تجديد وإصلاح كاملان للقوة الإمبراطورية بالحد من حقوق طبقة النبلاء وإصلاح الديانة الشنتوية الأصلية في الوقت نفسه . ثم صدرت سلسلة من الأوامر الإمبراطورية بين عامي ١٨٦٨ ـــ ١٨٧٣ لإنهاء الوحدة القديمة القائمة بين

---

* الحلولية Panthéisme هي التي تقول بوحدة الوجود لا بالعدمية ـــ المترجم ـــ

الشنتوية والبوذية وأعلنت الشنتوية ديانة رسمية للدولة وأضاعت البوذية ممتلكاتها العقارية وحصتها من المعابد .

ولكن الشنتوية ما لبثت في عام ١٨٨٤ أن كفت عن أن تكون الديانة الرسمية للدولة . وفي عام ١٨٨٩ منحت كامل الحرية لجميع الأديان ، ومنذ ذلك الوقت تمكنت البوذية اليابانية بفضل تأكيدها للعالم وأخلاقها النشيطة المنسجمة مع الطباع اليابانية والتي ساهمت في النشاطات الاجتماعية مساهمة فعالة ، تمكنت هذه البوذية أن تنتشر من جديد ودون انقطاع إلى جانب الشنتوية .

على أنه لم يكن بينهم نزاع . فالشنتوية الرسمية لليابان الحديثة ليست ديانة حقيقية . فهي تطلب بكل بساطة من كل المواطنين اليابانيين أن يحترموا الأجداد والإمبراطور والأمة . وهذه الواجبات تتفق كل الاتفاق مع التصرف الذي يطالب به أي دين .

على أن من المهم في النتيجة أن نميز بين الشنتوية الرسمية وبين الشنتوية القديمة التي لا يزال يمارسها حتى اليوم كثير من اليابانيين وبخاصة في الأرياف . والكثيرون منهم يمارسون في الوقت نفسه البوذية إلى جانب هذه الشنتوية .

وقد بدأت اليابان منذ بضع سنوات تهتم بعزم وتصميم بالدعاية للبوذية في العالم وجُعلت طوكيو مقراً للجمعية البوذية الأممية ، ورشحت اليابان نفسها لخلق بوذية عالمية مستأنفةً الأخذ عن بوذية الهند القديمة . ولن نستطيع أن نرى كيف ستنجح بالتوفيق بين البوذية القديمة والبوذية الحديثة وبخاصة في موضوع إنكار العالم الذي تقوم عليه البوذية الأصلية وتوفيقه مع تأكيد العالم الذي تلتزم به البوذية اليابانية .

أقوال الهنود الوثنيين فى بوذا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى المسيح ابن الله
١) كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا	١) كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم
٢) لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل فى جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة	٢) لما نزل يسوع من مقعده السماوى ودخل فى جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة
٣) وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء ويدعونه « نجم بوذا »	٣) وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى المشرق وقال دوان: من الواجبات أن يدعى « نجم المسيح »
٤) لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: ولد اليوم بوذا على الأرض كى يعطى الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصرا للعمى	٤) لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة
٥) وعرف الحكماء بوذا وأدركوا	٥) وقد زار الحكماء يسوع

٥ - دوان ص ٢٩٠

٥ - إنجيل متى الإصحاح الثانى من عدد ١ إلى ١١

بوذا	يسوع
أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إلها	وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة
٦) وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة	٦) وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر
٧) لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً	٧) لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله)
٨) كان بوذا ولدا مخيفا وقد سعى الملك بمسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً	٨) كان يسوع ولدا مخيفا سعى الملك هيرودوس وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده
٩) لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس	٩) لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه

---

٦ - دوان ص ٢٩٠	٦ - إنجيل متى من الإصحاح ٢ عدد ١١
٧ - كتاب هردى المدعو العقائد البوذية ص ١٤٥ ، ١٤٦	٧ - إنجيل الطفولية الإصحاح ١ عدد ٣
٨ - كتاب تاريخ البوذية تأليف نيل ص ١٠٣ ، ١٠٤	٨ - إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد الأول
٩ - كتاب هردى « العقائد البوذية» وتاريخ الديانة البوذية لنيل	٩ - إنجيل الطفولية الإصحاح ٢٠ عدد وإنجيل لوقا

من قبل وفاق الجميع فى الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسية والتنجيم والكهانة والعرافة	يوسف « لقد أتيتنى بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم »
١٠) لما صار عمر بوذا اثنتى عشرة سنة دخل الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه	١٠) لما صار عمر يسوع اثنتى عشرة سنة جاءوا به إلى أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع
١١) ودخل بوذا مرة أحد	١١) وكان يسوع مارا قرب

الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجودا له	حاملى الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجودا له
١٢) ويصلون نسب كوتاما بوذا من أبيه « صدودانا » فى أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وهو على زعمهم أول ملك صار فى الدنيا . والحوادث والأنساب المذكورة فى كتاب « بيوراز » البرهمى	١٢) ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف فى أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبى البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة فى سلالته مذكورة فى التوراة كتاب اليهود .

---

١٠ - بنصن « الملاك المسيح » ص ٣٧	١٠ - إنجيل الطفولية الإصحاح ٢١ عدد ٢١
١١ - بنصن « الملاك المسيح » ٦٧ إلى ٦٩	١١ - إنجيل نيكوديموس الإصحاح الأول العدد ٢٠
١٢ - دوان ص ٢٩١	

بوذا	المسيح
وتجد فى أنسابه غير أنه لايمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخى البوذية اخترعوا فيها أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم فوق اعتبارهم إياه إلها	
١٣) لما عز بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه «مارا» «أى الشيطان» كى يجربه	١٣) لما شرع يسوع فى التبشير ظهر له الشيطان كى يجربه
١٤) وقال مارا «الشيطان» لبوذا لاتصرف حياتك فى الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا	١٤) وقال «أى إبليس» له (أى يسوع) أعطيك هذه «أى الدنيا» جميعها إن خررت وسجدت لى
١٥) فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له اذهب عنى	١٥) فأجابه المسيح وقال اذهب ياشيطان

١٣ ـ دوان ص ٢٩٢	١٣ ـ إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١ : ٨
١٤ ـ دوان ص ٢٩٢	١٤ ـ إنجيل متى الإصحاح ٤ من ١٠ ـ ١١
١٥ ـ دوان ص ٢٩٢	٢٥) إنجيل لوقا الإصحاح ٤ عدد ٨

١٩) ولما ترك مارا أى الشيطان، تجربة بوذا أمطرت السماء زهرا وطيبا ملأ الهواء طيب عرفه

١٩) ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه

١٧) وصام بوذا وقتا طويلا

١٧) وصام يسوع وقتا طويلا

١٨) وقد عمد بوذا المخلص حين عمادته بالماء وكان روح الله حاضراً وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل وروح القدس الذى فيه صار تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا

١٨) ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل والروح القدس الذى فيه تم تجسده عند ما حل بالعذراء مريم فهو الآب والابن وروح القدس

١٩) ولما كان بوذا على الأرض فى أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل « بنـــدافا» أى الأصفر المبيض فى «سيلان» ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل

١٩) لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته ، وبعد ستة أيام أخـذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبـل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه

---

١٦) دوان ص ٢٩٢

١٧) دوان ص ٢٩٢

١٨) كتاب الملاك المسيح ص ٤٥ تأليف بنصن

١٩) كتاب الملاك المسيح ص ٤٥

١٦) إنجيـل متى الإصحاح ٤ عدد ١١

١٧) إنجيـل متى الإصحـاح ٤ عدد ٢

١٨ - إنجيـل متى الإصحـاح ٧ عدد ١ ، ٢

إ كليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضيء كالشمس أو كالقمر وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة وحينما رأى الحاضرون هذا التحول في هيئته قالوا ما هذا بشرا إن هو إلا إله عظيم	كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور
٢٠) وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره	٢٠) وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره
٢١) وفي صلاتهم لبوذا يتأمل المؤمنون به دخول الفردوس	٢١) وفي صلاتهم ليسوع يتأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس
٢٢) لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية « أي بقوة إلهية »	٢٢) لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلهية

٢٠ ـ دوان ص ٢٩٣	٢٠ ـ إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ٢٨ ـ ٣٤ وغيره
٢١) دوان ص ٢٩٣	٢١ ـ دوان ص ٢٩٣
٢٢) كتاب بنصن الملاك المسيح ٤٩	٢٢ ـ إنجيل متى الإصحاح ٢٨ وإنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠

بوذا	يسوع
٣٣) وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض	٢٣) وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله في الأرض
٢٤) ولسوف يأتى بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها	٢٤) ولسوف يأتى يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها
٢٥) وسيدين بوذا الأموات	٢٥) وسيدين يسوع الأموات
٢٦) بوذا الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ،والواحد الأزلى	٢٦) يسوع الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ،والواحد الأبدى
٢٧) قال بوذا فلتكن الذنوب التى ارتكبت فى هذه الدنيا على ، ليخلص العالم من الخطيئة	٢٧) يسوع هو مخلص العالم وكافة الذنوب التى ارتكبت فى العالم تقع عليه عن الذين اقترفوها ، ويخلص العالم

بوذا	يسوع
٢٣ ـ دران ص ٢٩٣	٢٣ ـ أعمال الرسل الإصحاح الأول عدد ١ـ١٢
٢٤) دوان ص ٢٩٣	٢٤ ـ أعمال الرسل الإصحاح الأول
٢٥) دوان ٢٩٣	٢٥) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٢٢
٢٦) دوان ص ٢٩٣	٢٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١ عدد ١
٢٧) كتاب مولر المدعو تاريخ الآداب السنسكريتية ص ٨٠	٢٧ ـ دوان ص ٢٩٣ وكذلك التعليم المسيحى

٢٨) قال بوذا : أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها ، واعترفوا بذنوبكم علانية

٢٨) قال يسوع أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها ، واعترفوا بذنوبكم علانية

٢٩) ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية والشرير مارا ، ويدعونه أيضاً الحية ، ذات مظلمة غير طبيعية

٢٩) ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية ، شمس بر وعدوه الشيطان الحية القديمة

٣٠) وفي أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوذا وهو سائر في البلاد بالمرأة (مناجي) وهي من سبط الكندلاس المرذولين قرب بئر ماء ، فطلب منها قليلا من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لا يجوز له أن يقترب منه ، لأنها من سبط محتقر ، فقال لها يا أختي إني لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك ، إنما سألتك شربة ماء فصارت من ذلك الحين تلميذة بوذية

٣٠) وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ما سار مسافة ، حتى كاد ينهكه التعب ، وبينما هو قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر ، فقال لها يسوع اسقيني شربة ماء فقالت له المرأة السامرية أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين

---

٢٨ - مولر كتابه المدعو العلوم الدينية ص٢٨

٢٩ - بنصن الملاك المسيح ص٣٩ ودوان ص٢٩٤

٣٠) كتاب مولر المدعو العلوم الدينية ص ١٤٠

٢٨) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١ ورسالة يعقوب

٢٩) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ العدد ١ وإنجيل لوقا

٣٠) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ عدد ١ : ١١

٣١) قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة فى سلسلة المعلمين الحكماء .

٣١) قال يسوع لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل

٣٢) وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى

٣٢) وقال يسوع أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم

٣٣) وفى أوائل أيام بوذا التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندينا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له، ومن ذلك الحين صار اينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه

٣٣) وفى أوائل أيام يسوع التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه من ذاك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به

٣٤) وقال بوذا للذين صاروا

٣٤) وقال يسوع للذين صاروا

---

٣١ - كتاب بنصن الملاك المسيح ص ٤٧ ، ٤٨

٣٤ - هاردى فى كتابه المدعو الرهبانية فى الشرق ص ٥ ، ٦٢

٣١ - إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ١٧

٣٢ - إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٤٤

٣٣ - إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٣ - ٢٥

٣٤ - إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ١٩، ٢٠ والإصحاح ١٦ عدد ٢٥ - ٢٨

تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم ويندروا عيشة الفقر والفاقة	تلامذة له ليتركوا غناهم ويندروا عيشة الفقر والفاقة
٣٥) وجاء في كتاب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا علامة «أى آية» ليؤمنوا به	٣٥) وجاء في كتب النصارى المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع آية كي يؤمنوا به
٣٦) لما اقترب انتهاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التي ستقع قال لتلميذه : أناندا ماياقي يا أناندا متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوذا وجود كلا، فالكلام الذي قلته والفرائض التي افترضتها تكون خلفا عني وهي لك كذاتي أنا	٣٦) لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم. وعلموهم أن يحفظوا هم جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر
٣٧) وجاء في التعاليم البوذية أن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه، لأن النفس تبخل	٣٧) وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل ليكون الحياة الأبدية. قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب

---

٣٥) كتاب علم الأديان ص٢٧ تأليف مولر	٣٥) إنجيل متى الإصحاح ١٢ عدد ١٢
٣٦ ـ كتاب المونا شيزم الشرقية ص ٢٣٠ تأليف هاردى .	٣٦) إنجيل متى الإصحاح ٢٤ وإنجيل مرقس الإصحاح ٨ عدد ٣١
٣٧) مولر في كتاب علوم الدين ص ٢٤٤	٣٧) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١٩، ٢٠

بالمال وتتمسك به ، وبوذا قد وهب
وتذر حياته شفقة وحنوا لخير
الناس ، فلماذا تتمسك بغناء الدنيا
الزهيد ولما تخلص بوذا من حب
المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال
المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل
الرجل الحكيم الهاجر للذات الدنيا
الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه
فداء عن الغير ، عندها يصل إلى
المعرفة الحقيقية

وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون
لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى
لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض
حيث يفسد السوس والصدأ وحيث
ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا
لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد
سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب
سارقون ولا يسرقون

٣٨) وكان قصد بوذا تشييد
مملكة دينية أي مملكة سماوية

٣٨) ومن ذلك الزمان ابتدأ
يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه
اقترب ملكوت السموات .

٣٩) وقال بوذا الآن أحببت
إدارة دولاب الشريعة العظيم ومن
أجل هذا فإنى ذاهب إلى مدينة
بينارس لأهب نورا للتائهين فى
الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية

٣٩) من بعد تجربة الشيطان
ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة
دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب
إلى مدينة كفر ناحوم ومن ذلك
الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول

---

٣٨) بيل تاريخ البوذية ص ١٠

٣٩) » » » ص ١٤٤

٣٨) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٧

٣٩) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٢ ، ١٧

توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله ، الشعب الجالس فى ظلمة أبصر نورا عظيما ، والجالسون فى كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور .

٤٠) وقال بوذا للتاميذ الحبيب أنا ندا إن كلامى لاريب فيه فلا يزول قطعيا ولو وقعت السموات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعا

٤٠) الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامى لايزول

٤١) قال بوذا لا يوجد شيء أعظم فعلا فى الإنسان من الاشتهاء والهواء الشهوانى ولحسن الحظ والسعادة لايوجد سوى اشتهاء شهوانى واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم فى النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير

٤١) قال يسوع : قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها قلبه .

---

٤٠) بيل تاريخ البوذية ص ١١

٤١) كتاب تقدم الأفكار الدينية المجلد الأول ص ٢٢٨

٤٠) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٧ وإنجيل لوقا

٤١) إنجيل متى الإصحاح الخامس عدد ٢٧ ، ٢٨

حاضرين معهم وإذا كلمتوهن فاحترسوا على قلوبكم

٤٢) وقال بوذا الرجل العاقل الحكيم لايتزوج قط ويرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنى

٤٣) ومن جملة التعاليم البوذية قولهم إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاما، وهذه الآلام جزاء عليها ، وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام فى هذا الدور الحاضر من حياته لابد أن يكون قد ارتكبه فى أحد الأدوار السابقة من ظهوره « أى فى أحد أدوار تقمصه »

٤٢) فحسن للرجل أن لايمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزويج أصلح من التحرق

٤٣ » وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى

---

٤٢) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣

٤٣) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣

٤٢ » رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ عدد ١ — ٩

٤٣) إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عدد ١ ، ٢

بوذا	يسوع
٤٤ » كان بوذا يعلم أفكار الناس عند ما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها	٤٤) كان يسوع يعلم افكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها
٤٥ » وجاء في كتاب الصوماديفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته	٤٥ » قال يسوع فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك
٤٦ » لما عزم بوذا على التنسك كان راكبا جوادا يدعى كنتاكو ففرشت الملائكة طريقه بالزهر	٤٦ » لما كان يسوع داخلا اورشليم راكبا على حمار فرشت له الجموع الطريق بأغصان النخيل

---

٤٤ » هردى في كتابه المدعو خرافات البوذيين ص١٨	٤٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع كلامه مع المرأة السامرية
٤٥ » كتاب مولر المسمى العلوم الدينية ص ٥٤٢	٤٥) إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٢٩
٤٦ » هردى في كتابه المسمى خرافات البوذيين ص ١٣٤	٤٦) إنجيل متى الإصحاح ٢١ عدد ١ ، ٩

الأدب البوذي

لم تكن السنسكريتية لغة الديانتين البوذية[1] والجاينية. وكان التخلي عنها، قياماً في وجه البراهمانيـة، ورغبة في المخاطبة بلغة قريبة من الشعبية. لكن هذا التخلي كان مؤقتاً، إذ عادت السنسكريتية إلى كلتا الديانتين مع القرن الميلادي الأول. فأحد مذاهب البوذية القديمة، (الهينايات المركبة الصغيرة) احتفظ بالسنسكريتية لغة رسمية، ولم يبق منهاسوى مقاطع وجدت في كشمير، تحوي نصوصـاً من خطب بوذا، ومقاطع في طورفان وأخرى في آسيا الوسطى.

(١) للتوسّع في البوذية، أدباً وديانة، راجع كتاب «البوذية» الصادر لدى «المنشورات العربية»، وهو من تـأليف هنري أرفـون وترجمة هنري زغيب.

ثم نما أدب سنسكريتي تُرجم إلى التيبيتية والصينية فبقيتا واندثر. ومجموعُهُ يكوّن البوذية الشمالية أو الماهايانا (المركبة الكبرى)، على عكس التقاليد الجنوبية (في سيلان) مع المركبة الصغرى.

ثمة، منه، النصوص الوصفية (آفادانا) عن المنجزات التقية عن العلاقات بين الأفعال في الحياة، وما يقابلها من أفعال في الحياة الماضية أو المستقبلية. وأقدم هذه النصوص، من المركبة الصغرى، مجموعة في كتاب من القرن الثاني. وثمة كتاب آخر (الآفادانا السماوية) من مدرسة سارفاستيفادا، بالسنسكريتية، وفيه نصوص مهمة من البوذية. وأخيراً كتاب «جاتاكامالا» (حياة بوذا السابقة)

في نثر وشعر، وضعه آرياديفا في القرن الرابع.

بين خُطَب المركبة الكبرى، أبرزها «سادذارما بونداريكا» (زهرة القانون الخيّر)، نثراً وشعراً (صدرت ترجمته الصينية عام ٣١٦)، حول مثال بوذا، ويمجّده كثيراً. وراج الكتاب حيثما راجت البوذية.

من الكتب المهمة كذلك، «ماهافاستو» (الموضوع الكبير) نثراً وشعراً، من المدرسة الهينايانية، حول بعض أحداث .

من حياة بوذا، مكتوبة بشكل شبه روائي. وكذلك كتاب لاليتافيستارا (النص المفصّل لأساليب بوذا) عن سيرتـه، أساطير وأعجوبات. وكلا الكتابين يعود إلى القرن الثالث، في السنسكريتية الهيبرية.

وبقي، من الناحية التعليمية كتابان: «بوذتشاريا فاتارا» (مـدخـل إلى نمط الحـيـاة المـؤدي إلى الإشـراق)، و«شيكشـاسـامـوتشـايـا» (مجمـوع المعلومـات)، وضعهـما شانتيفيدا (ق ٧). الثاني عَقَدي، والأول ذو إيمـان قوي ومعطيات أدبية.

ومن الكتب الأدبية، ذات القيمة الفنية الأدنى: «ماهايانا سوترا لانكارا» (زخرفة السوترا في المركبة الكبرى) وضعه أزانغـا، شعراً، في خط مـدرسة يـوغاتشـارا، وكذلـك:

«لانكافاتارا» (الكشف لدى لانكا) وهو كتاب من سيلان تُـرجم إلى الصينية عـام ٤٤٣، وهو يتـوسّـع في أفكـار الفيجنافادين، وثمة كتب أخرى من «السوترا» حول كمال بوذا، وخاصة كمال حكمته، أبرزها تُرجم إلى الصينية منذ القرن الثاني. وهي راجت كثيراً وقطفت تعليقات من كبار المـاهايـانا، بـدءاً من نـاغـارجـونـا، والأخـوين آزانغـا، وفاذوبانذو، وجميعها بالسنسكريتية. ولهؤلاء الكبار مؤلفات

أخرى كما كتاب ناغارجونا «ماذياميكا كاريكاس» (أبيات تذكارية من مدرسة ماذياميكا) التي أسسها هو، متعمّقاً في الفاكوية الشاملة. وتبعه كاندراكيرتي (ق ٦). وثمة مدرسة الفيجنافادين (ما إلا الوعي) يمثلها كتاب «أبيذارماكوشا» (ثروة أبيذارما) لفاسوبانذو.

ومما اكتُشف أخيراً: «سوفارنا برابازا» (عظمة الذهب)، وهو نص خلقي فلسفي فيه مدائح إلهية وأساطير، تعود نسخته الصينية إلى القرن الخامس. أما «غانـدافيوهـا»، الذي يمثل ميول مدرسة آفاتاماكا، فانتشر في الصين، كما أكثر الأبحاث التي سَبَقَته.

أما الآثار التي وضعها بوذيون، فوُضعت لاحقاً، بعد التعليقات البراهمانية الأولى. أبرزها تعليق ديغناغا المنطقي البوذي، وذارماكيرتي الذي دافع عن ديغناغا خلال حملات وديوتاكارا عليه، ووضع في السنسكريتية كتابه الأساسي نيايابندو، مع تعليقات ذارموتّارا في القرن الثامن. وتوالت 'صوص حتى القرن الثـاني عشر، حـين انتصر المنـطق البراهماني نهائياً.

وثمة تانترية بوذية تدعى «فاجرايانا» (مركبة الجوهرة) ظهرت منذ القرن السابع وأعطت كتباً طقسية ومدائح ميتولوجية و«أدوات الممارسة السحرية»، والكتاب الرئيسي مانجوشري مولاكالبا (من مدرسة افاتامساكا) المخصص لتمجيد «الصيغ» الطقسية. ووصلت هذه النصوص إلى التيبت والصين منذ القرن الثامن، وكان لها في الهند تأثير كبير على النصوص الهندوسية. وهي مكتوبة بالسنسكريتية البربرية. وأكثر النصوص البوذية تبرز خصائص لغوية تقرّبها من خصائص اللغة الهندية الوسيطة. وهذه تدعى السنسكريتية الجاينية.

وقامت كتب تنافس النماذج البراهمانية في الأسلوب واللغة. في الدرجة الأولى، ثمة قصائد منسوبة إلى أشفاغوشا، المحمي من الملك كانيشكا (ق ٢). وتنسب إليه التقاليد كتباً أكثر مما له. تبرزها «ملحمتان غنائيتان» سبقتا النماذج البراهمانية المعروفة، و«بوذاتشاريتا» (سيرة بوذا) في السنسكريتية، وفيها تناغم وفن دون مبالغات. والمزايا الشعرية نفسها متواجدة في «ساونداراناندا» (ناندا

الجميل)، وهي سيرة ناندا شقيق بوذا، الذي صار كاهن أخيه.

وإلى كاليداسا وأتباعه، تضاف لمحة من أشفاغوشا، بداثية ممزوجة بجمال الاستيحاء ووهج الصور. كما تُنسَب إلى اشفاغوشا مقاطع مسرحية، في: «سوترا لانكارا» (تزيين المواعظ) أو «كالباناماندتيكا» (تزيين التنميق الشعري) وهو مجموع قصص شعرية ونثرية.

ومن اللافت التذكير أن البوذيين ساهموا في عدة أساليب تقنية متخصصة، كما في الطب، والقواعد التي برع فيها تشاندراغومان في القرن السادس (البنغال).

البوذية في ميامر وآيات
بوذا بطل شعبي
البوذية نظرة وأسلوب عيش

البوذية في ميامر وإصحاحات

تُقدِّم البوذيةُ نفسَها على أنها تتوجَّه :

- إلى السائرين نحو التكامل الخُلُقي والصَّفاء الذاتي ؛
- إلى الذين يَنشدون حياةً مزجَت السعادةَ بالفضيلة ، والخير بالفرح ، والعيش الوادع بالطمأنينة الأخلاقية ؛
- إلى كل قلبٍ ممتلىء نعمةً ومحبة ؛

وإلى الذين يأمَلون الوداعةَ الصميمية ، والراحة النفسية المنبَجسة من الذات كلِّها وبأجْمعيتها .

بوذا المتنوِّر والمنوِّر

نستطيع أخْذ بوذا على أنه ، في الفكر الهندي ، بمثابة :

صرخة حقّ في وجه الشر ؛
دعوة محبة في ليل الضغينة ؛
نور في دياجير الظلمة ؛
نداء قيم السيطرة على الذات والارتفاع صوب المتعالي .

ففي إطلالة البشر على الدنيا بمتاعبها وآلامها ، عند الفجر ، فجر العالم الإنساني ، وقف مؤذن ينادي للقداسة ؛ ويدعو للتطهّر ، ويبحث عن الحقيقة مع الخلاص ، ويبحث عن الخير مع الكمال . قيل : وجَد بوذا الحقيقة ، وأدرك مشكلةَ الألم والموت والشيخوخة والمرض ، وعرف سرّ مأساة الحياة . كأنّه بلغ المطلّق ، وحقّق في نفسه الخلود ؛ وهما معاً غاية الوجود البشري .

في بوذا اندغم الخُلق النبيل باللذة الدائمة . فكانت نفس بلا ازدواجيات أو تناقضات داخلية ، بلا عراك بين الأهواء ، بين الغرائز ، بين الميول والعقل . كان ذلك في هنيهة خلودٍ بشري انبجست في نسيج الفناء والوهم . ذلك كان بوذا الأمين .

بوركت يا بوذا : نبي التسامح ، والمحبة ، والخير . . .

* * *

ما تزال المكتبة العربية فقيرة بالكتب التي تبحث في عطاء البوذية ، وتاريخها ،

وفلسفاتها . الهند عالم قائم بذاته[1] ، نمت فيه بذور الفلسفات المختلفة منذ القدم . فهناك ، مثلاً ، حرّك الفكر البشري فكرة الكائن الأحد الدائم الشامل الموجود في ظواهر الكون المتغيرة .

أما الفنون والعلوم الهندية أو ، بكلمة واحدة ، الحضارة الهندية بوجه عام ، فهي ذات قيمة عريقة : لها طابعها الخاص ؛ وكذا القول عن الحكمة الهندية الرفيعة التي قلّ مثيلها في العالم بسموها وشمولها ومعرفتها العميقة بالطبيعة البشرية .

أما الحديث عن الأديان الهندية فأمر متسع الجنبات ، متفرع النواحي ؛ إذ أن الهند تتصف بتعدد « الأنبياء » الصالحين ، أو النساك الداعين لإصلاح النفس وتطهيرها من الأدران والرذائل . ناهيك بأن الحكماء الراشدين كانوا يتوافدون باستمرار ، يعلّمون الناس الحكمة ، والرشد ، والطرق المؤدية إلى الخلاص والتحرر .

من هؤلاء بوذا . وسنرى أن ما حول ولادته وحياته ووفاته ، من القصص والأخبار التي تتشابه من قريب أو بعيد، هناك الكثير منها معروفٌ في القصص الشعبية التي يرددها وجدان الجماهير . بل أن هناك وجهة نظر إسلامية ترى أن بوذا كان نبياً ، وإن لم يرد اسمه في القرآن الكريم الذي لم يتحدث عن جميع الأنبياء والرسل إذْ تقول الآية : ﴿ **منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص** ﴾[2] . ومن ناحية ثانية هناك رأي أو أبحاث عديدة تدور حول بعض الشبه ، أو ما يزعم انه شبه ، بين الإنجيل المسيحي والبوذي . على كل حال ، مما لا شك فيه أن بوذا من عباد الله الصالحين ، ومن أبناء البشرية الافذاذ الذين لا ينكر أثرهم في السير الحضاري للإنسان ، وفي التاريخ الفكري للعقل والأمم .

نقدّم ، أدناه ، بوذا في قالب شعريّ زاهٍ ، مُنَمّق ومزوق ، مقسّم إلى ميامر وأسوار ، وبشكل آياتٍ منسقة ؛ في أسلوب غنائي ، ولغة سهلة مبسّطة ، إنسانية ، ربيعية ، زاهية . وذلك هو أسلوب الكتابة الصوفية ، أو الصياغة

(١) في الهند أكثر من مائتي لغة .

(٢) القرآن ، ٤٠ : ٧٨ ؛ ٤ : ١٦٤ .

العامة ، التي تبدع الهند في اجادتها .

كما إننا اخترنا الأسلوب عينه لعرض أفكار بوذا ، وشرح عقيدته في خطبه ، وأحاديثه ، طوال حياته وابان تطوافه في بلاد الهند الفسيحة . والحقيقة أن ذلك الأمير ، الذي تخلى عن العرش ليجوب الآفاق ، ويعيش من صدقات الكرماء ، ويحيا حياة الرهبان الفقراء ، كان ذا تأثير عميق على أبناء جلدته بسيرته ، وبمسلكه خاصة ، أكثر مما فعله بخطبه وأقواله .

لذا ، وكي نفهم رسالته وغنى دعوته ، لا غنى لنا عن تتبع مراحل حياته والجوانب التي مرّ بها . كان يشع على مريديه ، وكانت نفسه تتألّق بالخير والصفاء فتنير نفوس المؤمنين . كان غريباً ذلك التعاطف الذي يحدث بين المُعلّم وتلاميذه ، وكان عميقاً ذلك التجاوب بينه وبين الذين يدعوهم لدينه ؛ إذ سرعان ما كانوا يؤمنون به أو يتبوّذون .

يقال بحق ، إنّ القديس لا يعلّم ؛ إنّما يحيا رسالته . فهو يسير ، ويَسلك طرق دعوته . فيقتدي به الناس ، ويتأثرون بعيشته ، ويجهدون في اقتفاء خطاه .

إنّ البوذية ـ العقيدة الحية لبضع مئات مليونٍ بشري ـ ليست فلسفة ، ولا عِلماً ، ولا هي دين بالمعنى الخاص للكلمة . إنها طريقة خاصّة في العبادة ، ودعوة للترفع عن الشكليات وما جمد في طقوسٍ ميتة وحركات رتيبة تبعد عن الجوهر . كلما سما الدين ، وكلما عمق إيمان المتدين ، وسَلِمَ سلوكه من الحَرْفي ، أصبح أقرب إلى التصوف والروحانيات ، وأبعد عن القواعدية المرسومة ، والخطاطات المحنطة ، والحركات الجسدية وغيرها من الحسيات الرتيبة والمتكررة .

البوذية نظام حياة ، أو أسلوب حياتي رائع ، يملأ القلب وداعة ونعمة ، ويفعم النفس محبة وطهراً ، ويشرق على الذات فيضاً من الروحية ، ونداءات إلى التجاوز الخلقي أو التسامي . غاية البوذية هي تحقيق تلك الحالة النفسية المتزنة ، بل التامة الاتزان ، التي عرفها العرب الأقدمون في شكل العِرفان الإسْلامي خاصة . أما تلك القمة ، أو الجنة الأرضية التي يصل إليها الممارس أي المؤمن المتديِّن ، فهي بالفعل حالة التسامي والصلابة الداخلية التي يقال إنها من العلوم اللدنية ، أو العلوم التي لا تُشْرح وإنما تُفهم ، وتُحس بالذوق والحال . وقديماً قال أحد المتصوفة في وصف تلك الحالة التي تُعاش أكثر مما تُفسَّر :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه
ومن دراه غدا بالروح يشريه[1] .

والحقيقة أن ما قاله هذا ما يزال صحيحاً حتى اليوم . فالبوذية ، كطريقة في مواجهة الحياة أو كطريقةٍ في الوصول إلى المطلَق والاتصال بالذات العليا تقول إنّ علينا أن نفهمها ونتذوقها أكثر من محاولة تعليلها وتحليلها ؛ إذْ أنها شيء يمّس ذاتَ الإنسان الداخلية ، بل ما هو أسمى أو أكثر الأمور داخليةً في الإنسان .

(١) تعبير شعري عن المعرفة التي تحصل من الداخل ، أو بالتجربة الشخصية والمعاناة .

الفجر والإصباح ، في أسوار وميامر

على أكتاف السفح الجنوبي لجبال هملايا ، عند أقدام جبل غوريسنكار المسمى اليوم : جبل أفِرِسْتْ .

في النيبال :

كانت تعيش أسرة السُكْيا الغنية . وكان السُكْياويون ، حكّام مملكة كبيلافستو ، ينتمون إلى طبقة الكشاتريا (أي : المحاربين) ويتحدرون من سلالة الغوتاميين .

١ - يقال إنهم نزحوا إلى النيبال ، قادمين من بلاد سيثيا الممتدة على شمال شرقي جزيرة القرم ، عند شواطىء بحر آزوف ؛ أو إنهم من سكان الهند الأصليين ؛ إنْ لم يكونوا قد أتوها من بلاد فارس نفسها .

* * *

٢ - في عهد الملك كوسولا ، كان لهذه الأسرة أمير يدعى سوذودانا(*) : وهو أمير كريم مُعتَبر ؛ يحترمه قومه ، ويلقّبونه بالمعتز . وكان للمعتز هذا امرأة جميلة جداً هي مايادفي(**) ابنة الملك سوبْرابوذْها .

(*) Souddhodana.

(**) Maya Devi.

كانت مايادفي[1] ذات جمال أخّاذ ، رائعة الحسن حتى لُقّبت بسبب فتنتها الخارقة بالوهم ، أي المايا . إلى جانب ذلك كانت صاحبة مزايا حميدة ، وذكاء نادر ، وتقى ، وورع . مما جعل اسمها يشتهر ، ويذيع في أطراف البلاد . وصار الناس يبجّلونها ، ويقدّسونها ، ويحبّونها حباً جماً . . .

٣ ـ وانقضت أعوام وأعوام من السعادة والرفاه على الأمير سوذودانا وزوجته ماياشْفي .

٤ ـ ذات صباح ، عندما كانت شمس الخريف تشرق على الأرض وتهديها النور والبسمات ، كانت ماياشفي تودّع ليلة من ليالي الخلوات ـ الليالي التي ينعزل فيها المؤمنون عدة مرات في الشهر لنيل الإستحقاق والنعمة .

في ذلك الصباح الخريفي الجميل ، راحت ماياشفي تروي لزوجها حلم ليلتها الراحلة : رأت في منامها العذب أنّ الله قد حلّ في أحشائها في شكل فيل أبيض كالفضة ، مسربلٍ بهالةٍ بهيجة من الذهب الوهاج ، ويحمل في خرطومه زهرة لوطسٍ ريّانة .

ثم ، دون أن يُقرَع الباب ، دخل غرفتها أربعة ملوك . واقتربوا من سريرها ، ورفعوه برفق وعناية حتى خُيّل إليها أنها تنام على مخدّة من الغيوم ؛ وحملوها في الفضاء حتى رؤوس جبال الهملايا حيث تركوها تحت أفياء شجرة فينانة .

ثم . . . تقدم منها أربع ملكات رائعات ، يحمِلْن في أيديهنّ صناديق مملوءة بزخارف الثياب النفيسة والزاهية الألوان . وقدّمنَ إليها الثياب لترتديها . وهي إبّان ذلك كأنها مرتاحة في بلاط يتلألأ بنور ألقٍ تبدو إزاءه الشمس الساطعة مُعتِمة ، والبدر المنير باهتاً . وكان الندى كاللؤلؤ يغطي أوراق الأزاهير ، وكانت رفوف العصافير تصفّق فوق الخمائل شادية .

وتفتّحت أكمام أزهار اللوطس فوق سطوح الأحواض الرائعة البهاء ، وشرعت آلات الطرب تعزف أنغاماً شجية .

---

(١) أو : ماغاشفي في بعض الكتب العربية . وهناك من يرسمها : ما ياشفي .

ثم أيقظها من حلمها تغريد عصفور .

٥ ـ ودعا الأمير السحرةَ وكبار المنجّمين كي يُفتونه عن معنى ذلك الحلم العجيب . . . وقال كبيرهم للأم : لا تقلقي ، وقرّي عيناً ؛ إنّ حلمك دلالة على نبأ سعيد : سوف تلدين ابناً يحكم الأرض ، ويسيطر على نفوس البشر بالمحبةوالرأفة ، ويكون ملك الملوك بالعطف والألفة لا بالقوة والجبروت .

وتابع كبير المفسرين : سوف يهجر بيته ، ويتخلى عن الدنيا ، ويصبح بوذاً يمزّق حجب الجهل ، ويقرّب للبشر يوم الخلاص .

ثم قدّم الأمير والسحرة آيات الولاء والاحترام للأميرة الحامل .

* * *

٦ ـ ومضت شهور ، وانقضى الربيع .

٧ ـ وعندما شعرت مایاشفي باقتراب الوضع رجت زوجها أن يسمح لها بالذهاب لمنزل أهلها . وفي الطريق ، في إحدى خمائل ضواحي قرية لومبيني قرب كبيلافستو شعرت بآلام الوضع . وفي خيمة من الأشجار التي تعانقت فوراً لتظللها ، وفوق بساط من الأعشاب التي شكّلت للسيدة سريراً رفيقاً ، وضعت الرائعة طفلها بينما كانت تمد ذراعها لتهزّ شجرة البانيان[1] القريبة .

كان الطفل جميلاًذا سحر وروعة، وراحت العصافير تهبّ وتهرع لتأمّله . كان مرتدياً جلباباً من الحرير الناعم ، وقد هبط الأرض وكأنه ينزل عن عرش . ثم سار نحو كل جهة من الجهات ، وأعلن أنه سيعيش حتى آخر مرحلة من مراحل تناسخه .

بعد ذلك جلس على زهرة لوطس بيضاء انبجست للتوّ في نفس المكان الذي كان أول موطىء لقدمه اليسرى .

٨ ـ وشاع النبأ السعيد بسرعة ، وهرع الزوج لمشاهدة الأم . وكان برفقته السحرة ، والمنجمون أيضاً .

---

(١) أي شجرة الحكمة . ويقال إن الولادة تمت عند جذع تينة ؛ ويبدو أن قصة مولد بوذا على هذا الشكل جزء من الإيمان البوذي الراسخ .

٩ ـ في تلك الأيام ، وفي تلك الغابة بالذات ، كان القديس أسيتا يعيش حياة نسكٍ ورهبنة . كان برهمياً ورعاً ، سمع في إحدى لياليه أناشيد دينية ، وترتيلات في السماء . ثم سمع صوتاً يعلِن مولد الطفل الذي ينقِذ العالم . عند ذلك هبّ الزاهد شطر الطريق الذي كانت ترشده إليه العصافير ، والمؤدي إلى كبيلافستو حيث أخبروه عن ميلاد فردٍ جديد من أسرة الغوتاميين .

* * *

١٠ ـ وأمام سوذودانا قال أسيتا جئت أبارك المولود الجديد . ثم حضن الطفل ، وباركه . وقبّله ، فامتلكه النشيج . سأله الأب عن سبب بكائه ، فأجاب : لا شيء يدعو لغير الاطمئنان ، لقد أنجبتَ طفلاً رائعاً سأعبده منذ اليوم عوضاً عن براهما . وسوف تأتي جميع الآلهة وتترك معابدها لرؤيته . وما بكائي إلا لأنني سأموت قبل أن يصبح ابنك « بوذاً » مستنيراً . لن أستطيع الإستماع لكلام هذا المعلّم الأكبر الذي وُلد لكَ اليوم يا سوذودانا : إنه سيخلّص البشر ، وسيكون خيراً لجميع المخلوقات .

سيكون كَبرودةِ البحيرة على نار الشهوات ، فينشر غيوم المحبة التي تتدفق مطراً يطفىء لهيب الألم والشقاء .

سوف يفتح أبواب الأمل المغلقة ، ويحرّر من ربقة العبودية كل الفقراء والمساكين والتعساء .

أما أنتِ أيتها الأم المفضلة من الآلهة والبشر ، فقرّي عيناً . وسوف تَصِلين بدون ألم إلى نهاية الألم بعد سبعة أيام . ثم قفل أسيتا عائداً إلى كهفه المتدثّر بالصمت .

وسَمّوا الطفل : سيذارْتا . وبقي على هذا الاسم حتى أُطلق عليه لقب السَّكْيموني الذي يعني السكياوي المنعزل .

١١ ـ وتذكّرت ماياشْفي أقوال القديس . فأرسلت تستدعي اختها مهابرجابتي لتقول لها إن الأمّ التي تضع البوذيساتْفا ـ البوذا القادم ـ لا يمكنها أن تلد بعده أو تذوق اللذة . يا أختاه : إن قلبي مريض ، سأترك هذه الدنيا ومن

(١) يطلق عليها البعض اسم برجابتي غوتامي .

عليها من الأحياء ، أوصيك بابني وزوجي يا حبيبتي .

وماتت ماياشْفي في اليوم السابع . وصدَقت نبوءة أسيتا .

* * *

ورأى السحرة على جسد الطفل الاثنتين والثلاثين شارة[1] التي يُعرف بها البوذيساتفا .

وربَّت الصغيرَ أختُ أمه التي صارت زوجةَ سوذودانا الثانية .

وكان جماله يزداد ، وذكاؤه ينمو ، وعقله يتسع ويكبر . وكان دائماً موضع تعجّب الجميع واهتمامهم .

قصّ بوذا على أحد حوارييه أن أباه كان هيأ له البُرَك والأحواض الرائعة التي ازدانت بأزاهير اللوطس الزرقاء الحلوة ، والبيضاء الناصعة ، والحمراء الفاقعة التي تُبهج النفس ، وتشرح الصدر ، وتكحّل عينيه بأبهج المناظر وأروعها . . . إلى جانب هذا كانت أجمل الثياب تجلب له من بناريسْ ، ويحيط به أقدر الخدم الساهرين على الاعتناء بأمره . كان له قصر من المرمر للصيف ، وآخر من القرميد للشتاء ، وثالث لفصل الأمطار يقضي فيه أربعة شهور بين تسلية الراقصات ، ووداعة الموسيقى ، وأفخم المآدب والحفلات . ويذكر عنه أنه كان رؤوفاً بالخدم ، يعطيهم فوق ما يُدفع لهم ، ويطعمهم من طعامه .

* * *

١٢ ـ وسارت عجلة الزمن ؛ وراحت تدور ، وتدور . . وبدت وكأنها لن تتحقق نبوءة المنجمين حين ولادته بأنه سيترك العرش ، ويتخلى ليتنسّك ويترهّبن . وذاك ما سرّ الأب ، وأفعم قلبه بالأمل .

لكن سيذارتا كان يقضي أيامه حزيناً ، حالماً . وعكساً للمألوف ، فإنه لم يتزوج . ولم يفكر ببناء أسرة ، رغم بلوغه العام الثالث والعشرين مما أحدث القلق في نفس والده ، وأوجس الوجل في نفوس الحكماء من أن يتزهد قبل أن

---

(١) ليس من حقنا حذف هذه الأخبار أو « التهكم » عليها ، فهي من « المأثور » في البوذية وهي ظاهرة أنتروبولوجية نجدها في شتى أصقاع العالم وملصقة بالأبطال .

ينجب ولداً[1]. لهذا ارتأوا أن الحب قد يكون المفتاح الوحيد لقلب الشاب النبيل ، والحلّ الناجع لتعاسته وتوحّـده .

ورفض الوالد سوذودانا أن يفاتح بنفسه ابنه في هذا الأمر . لكنه ، وهو العارف بطباع ابنه ، ترك للشيوخ حرية العمل على إقناعه بالزواج .

واستمع (المهذّب) للشيوخ بلطفٍ بالغ ، ثم طلب منهم فرصة سبعة أيام للتفكير . حتى إذا حان الموعد المحدد خاطبهم بقوله : « أيها السادة ! سأتزوج إذا وجدتم لي فتاة تتصف بالفضائل المدرجة على هذه اللائحة التي سأعطيكم إياها . ولا يهمني نسبها ، ولا أسرتها ، أو طبقتها » .

١٣ ـ كبيلافستو في عيد هذا اليوم .

اليوم يوم احتفالات وصخب .

وهرع الناس إلى البلاط . وارتدت الجميلات أفخر الثياب ، وأحسن المجوهرات والحلى . ولم يضحك الأمير لواحدة منهن ، رغم أنهن من ذوات الحسن وربّات الجمال . بل بقي غارقاً في صمته ، منصرفاً إلى تأملاته . إلى أن . . .

كانت في آخر الصفّ الطويل غادة حسناء . لما رآها الراهب بوروهيتا أعجب بها ، ونظر للأميركي ينبهه لها فلا حظ عليه الاضطراب والاهتمام . كانت منحوتة من العنبر الخالص ، تبسّمت وقالت للأمير : إنني الأخيرة في هذا الاحتفال ، أليس لي رغم ذلك جائزة ما ، أو أيّ مكافأة ؟

فأجابها ضاحكاً : لقد وزّعتُ كلّ الجوائز . إنما سيحسدك الجميع على هدية خاصة بك ؛ ثم خلع عقده الفاخر ووضعه في عنقها .

* * *

١٤ ـ كانت هذه الفتاة ابنة عاهل القَطر المتاخم ، وكانت غالباً ما تلتقي بالأمير ، الذي لم يكن ينتبه لها ، وتتعجب بما يبدو عليه من إمارات لا تجدها عند غيره من الشبان .

---

(١) طبقاً لعادة الهندوس في أن يترك الرجل بيته بعد ولادة ابن له ليتزهد ، ويحيا مع النساك .

١٥ ـ وانقضت سبعة أقمار ، حتى كان الوقت الذي تزهر فيه الفراشات على أفنان الأشجار . فباحت الأميرة بحبها لسيذارتا . إلا أنّ والد ياسدراها لم يخفِ استياءه من مثل هذا الحب لشاب يعيش في دَعَةٍ بين الحدائق ، بدلا من حياة أمثاله من طبقة الكشاتريا . لكنه إزاء إلحاح ابنته وإصرارها ، وافق شرط التعرّف على قدرات الأمير محتجاً بأنه لا يعطي ابنته لمن يجهل التبارز وأبسط مبادىء الحرب . ثم تذرّع الوالد بالقانون السكياوي الذي يفرض على طالب يد بنتٍ نبيلة أن يُظهِر براعته في فنون الحرب خلال مباراةٍ يشترك بها جميع الراغبين في الزواج بهذه البنت .

وكان الطامعون بقلب ياسدراها عديدين .

١٦ ـ وأُعلِن في المدينة نبأ الاحتفالات المقبلة التي سيشترك فيها سيذارتا ، ويُظهر للملأ كامن مواهبه . وأُعلِن أيضاً أنّ ياسدراها ستكون من تصيب الظافر .

١٧ ـ وبدأت الإحتفالات . واحتدت المنافسة بين المتبارين الذين ساروا في استعراض طويل ظهر في مؤخرته سيذارتا الذي لم يلبث أن تغلّب بيسرٍ على أخصامه في مضمار التمارين والألعاب الجسدية . كذلك كان شأنه في مباريات الخط ، والكتابة ، وشرح كتب الفيدا المقدسة . وبين ذهول الحكام ، ودهشة الحاضرين، كان سيذارتاينتزع الانتصارتلو الانتصار والإحترام تلوالإعجاب .وكان من بين منافسيه اثنان من أقاربه : أناندا الذي آمن به فيما بعد وأصبح أعز حوارييه ؛ ودفداتا الذي دفعته هزيمته لأن يصبح ألد أعدائه وأكبر مناوئيه .

١٨ ـ أما ياسدراها فقد تقدمت عند نهاية الاحتفال من الأمير ، وهنأته ثم سألته إن كان يريدها زوجة له . وحيث أنّ السكوت لغة الحب فإننا نجهل جوابه في تلك الساعة . إلا أنّ هدية الخطبة كانت قصر فسرمغانا الفخم .

وتوالت ليالي الفرح ، وحفلات الابتهاج في المملكة .

١٩ ـ لكن سيذارتا لم ينقطع عن التأمل والتفكير متسائلاً باستمرار : « ألا يمكن أن يكون العالَم شيئاً غير هذا ؟ »

٢٠ ـ وكان أبوه يتذكّر دائماً كلمات القديس أسيتا : « سينتصر ابنك بالمحبة

لا بقوة السيف ، سيهجر بيته وسيصبح بوذا ذات يوم » . وكلما طنَّت هذه الكلمات في أذن الأب ازداد اعتناء به ، وسهراً عليه . لكن تلك الوسائل الوقائية لم تُجْدِ نفعاً . وكان ذات مساء !!!

٢١ ـ خرج من الباب الشرقي للمدينة قاصداً بستان لومبيني الذي يحتفظ له بأعذب الذكريات . كان أبوه يبذل جهوده في إبعاد المناظر المؤلمة عن عينيه . لكن الوالد العطوف لم يكن ذلك المساء ، حيث التقى بوذا بشيخٍ هرم يسير بعناء متوكئاً على عصا . التفت الأمير نحو شانا الحوذي ، وسأله : « من هو هذا الرجل الذي يسير على العكاز ، بجسمه النحيل وقامته المهدودة ؟ » . هل حالته هذه خاصة بعائلته وحدها أم هي قانون طبيعي شامل يسري على جميع المخلوقات ؟

فأجابه الحوذي صديقه الأمين : « إنّ هذا العجوز قد هدَّته الشيخوخة فتقوس ظهره ، وضعفت حواسه ، وحطم الألم قواه . وهذا قانون عام يسري على جميع الناس إذْ تتغلب الشيخوخة على سلامة البدن وصحته الجسمية . ولا مناص لنا من مثل هذه الخاتمة » .

وتنهَّد سيذارتا بحزن متسائلاً في نفسه : « أيّ سعادةٍ يمكن للناس أن يجنوها عندما يعلمون أنّ الشيخوخة ستهاجمهم ، وتجعلهم يتعذبون ؟ أفي كل مخلوقٍ تتغلب الشيخوخة على الشباب وريعانه ؟ فهل هذه هي الحياة ؟

٢٢ ـ وبعد أيام ، وإبّان نزهته المعتادة في بستان قريب كان يرتاح إليه ، رأى رجلاً يئنّ من الألم وقد أعياه المرض . سأل شانا عن سبب إصابة الرجل وأنينه، فقال: « هذا مريض ! إنّ أعضاء جسمه غير سليمة ، ولا هي معافاة . وكلنا عرضة للإصابة بمثل هذه التعاسة : الغني منا ، والفقير ، والجاهل ، والعالِم وجميع المخلوقات الحية » .

وتمتم سيذارتا في نفسه : على هذا فالصحة إذن طيف عابر ، وسريع الزوال . فهل يستطيع المهدَّد بالعطب ان يبقى سعيداً ؟

٢٣ ـ ولم يكد يبتعد عن هذا المنظر المؤلم حتى أوقفه في الطريق منظر أربعة أشخاص ، يجتازون الطريق حاملين على أكتافهم جثماناً يتبعه جمع من الناس يبكون ، ويولولون ، ويضربون صدورهم !

وهنا التفت نحو الحوذي قائلاً : « صديقي شانا ! يا لتعاسة حياتنا ! تصيبها الأمراض العديدة ، وتضنيها الآلام المريرة ، ويتربص بها الشيخوخة والموت ! لا شيء في هذه الحياة غير التألّم والألم ! لو لم توجد الشيخوخة ! لو لم يكن المرض والموت لكان العالَم حرّاً من الآلام ، خالصاً من المتاعب والأوجاع !!! » .
وانخرط في التفكير العميق وهو في طريقه إلى البلاط متسائلاً : أليس من علاجٍ لكل هذا ؟

٢٤ ـ وفي صبيحة اليوم التالي التقى بمتسوّلٍ انعكست على ملامحه السكينة والهدوء ، ويحمل سلة . كان يرتدي ثوب الرهبان . فارتاح سيذارْتا لرؤية ذلك الرجل ، وقال شانا : هذا بِكّهو . إنه راهب تخلّى عن مباهج الحياة ليعيش بشظفٍ وتقشّف ، ويروّض نفسه للسيطرة على أهوائه .

فأجاب سيذارتا : حقاً إنه رائع . فهذا عمل ممتاز . لقد أثنى جميع الحكماء على الحياة الدينية ؛ فمثل هذه الحياة ستكون عياذي وغياثي ، وستصبح لنا ثمرة هناء وخلود ! » .

٢٥ ـ وأزمع على قرار حاسم : أن يكون راهباً !

وكأنه لاقى ما قُدّر عليه .

٢٦ ـ ولما وصل إلى البيت بشرّوه بولادة ابنٍ له ؛ فتمتم قائلاً : « هذا قيد جديد لي » . وأطلق الجدّ اسم راهولا على المولود .

٢٧ ـ وذات ليلة . . .

ليلة . كانت امرأته تتأمل شُهب الكواكب في السماء حين فاجأها برغبته في التحول : إنه يود أن يغدو راهباً ، ويجد البلسم الشافي لتخفيف آلام البشرية . وأردف قائلاً : عند ذلك سأصبحُ أكبر وأكبر ، وستعظم نفسي إذا وجدت السلام. ثم حدّث أباه عن نفس الرغبة طالباً إليه أن لا يضع العراقيل في وجهه ، ورجاه أن لا يحزن أو يقلق عليه قائلاً : « لقد حان وقت ظهوري إلى العالَم والناس » .

---

(١) بكهو : راهب متسول . يلبس رداءً أسود ؛ ويعلق في عنقه نوعاً من الأكياس ، أو صندوقاً ، يجمع فيه الصدقات . ويكون الثوب والسلة هدية من أصدقائه عند انخراطه في السلك .

وعبثاً حاول الوالد أن يغيّر رأيَ ابنه ، أو يقنعه بالعدول عن رغبته . فعرض عليه أن يحقّق له جميع أمانيه : أن يتنازل له عن أملاكه وقصوره وخدمه وكلّ ما يملك . وأجاب سيذارتا انني أرغب في ثلاثة أمور يا سيدي ؛ إنْ أدّيتَها لي بقيتُ قربك ، وستراني دائماً مسروراً ، وأعدك بأني لن أهجر البيت بعد ذلك أبداً .

وتلهّف الوالد لسماع مطالب ابنه . وقال سيذارتا بهدوء :

ـ أودّ أولاً أن لا تَصل إليّ الشيخوخة !

وأن لا يتتابني أيّ مرض !

وأن لا تَعرف حياتي أيّ انحطاط !

وذُهل الأب ، وأجاب بأسى عميق : إنّ رغباتك يا بنيّ مستحيلة . فلا يمكن لأي مخلوق مهما كان جباراً أن يفرّ من الألم والشيخوخة والموت .

ـ والدي ! سأرحل لأفتّش عمّا لم تَقدر أن تهبني إياه .

٢٨ ـ وحدَّث صديقه الحوذيّ فيما بعد عن شكواه من عالم مُنِيَ بالألم والعذاب . وتأوّه لحالة بني البشر الذين ولدوا ، والذين لم يُخلقوا بعد ، قائلاً :

آهٍ لكم أيّها الناس . لقد وقعتم في شباك الموت ، والعذابات ، والحياتات . فيا لها من تعاسة مريرة . إني أشعر بنهاية هذا العالم ، وضحالة مسراته ، وهزال مباهجه ، وعبثية ملذاته . يتحول الفرح إلى ألم ، والشباب إلى شيخوخة ، والحياة إلى موت ، والموت إلى حياتاتٍ مجهولة تعود وتربط الإنسان بدولابها لتجعله يدور ابان تناسخه المتكرر في حلقةٍ من المباهج الوخيمةِ والمتاعب الحقيقية .

وكان الحوذي يَستمع ، فأجاب عند سكوت الأمير : فكِّرْ بالآلهة يا سيّدي !

ـ قد تكون الآلهة أيضاً بحاجةٍ لمساعدة ، وربما كانت من الضعف بحيث لا تقدر على إنقاذ إلاّ من يصلي لها . انني لا أود أن أترك كائناً يبكي إذا كنتُ أقدر على خلاصه !

ـ أعْمِل فكرك جيداً بها يا سيدي .

ـ لقد سمعتُ صوتاً يهمس لي : ثابر على رغبتك فستجدُ ما تبحث عنه ، تابع طريقك حتى الغاية ، لا تتراجع عنها فستحصل على أمنيتك ، كافح بشجاعة وعزم فستنتصر ، آمِن بنفسك ، وثِقْ بها وحدها .

يا عزيزي شانا ! أيا صديقي ! سأذهب اليوم ، سأرحل اليوم بالذات . لقد عرفتُ لماذا جئنا إلى العالم : كي ننتصر !!!

٢٩ ـ ولم ييأس الوالد المفجوع ، ولم يقنط . وأقام له حفلةً زاهرة في البلاط دعا إليها نبلاء كبيلافستو ، وأحاط ابنه بجمعٍ غفير من رجال الحاشية علّه يثنيه عن عزمه . لا بل استعان بخمس مائةِ راقصةٍ وعازفة ومطربة ، يراوده الأمل في صرف ابنه عن دعواه وردّه إلى الصواب .

. . . وانقضت تلك الحفلة مع انقضاء آخر هزيع من الليل . كان القمر ينزلق بين ثنايا الجبل وشعابه ، مودِّعاً بنباح كلبٍ خافت . في تلك الأثناء كان سيذارتا يدلف إلى غرفته لينام . . .

٣٠ ـ وبعد هنيهة ، خرج من غرفته ليدخل صدفة غرفة الراقصات النائمات . هناك رأى الأمير النسوة على طبيعتهنّ ، دون تبرج ولا تجميل ، وقد وقعت الآلات الموسيقية من أيديهن ، وسُمع شخيرهنّ وصرير أسنان البعض منهن ، وقد انحسرت الثياب فاضحةً عيوب الأجسام . فلا لحاظ ساحرة ، ولا عيون فاتنة ، ولا تراتيل عذبة ، ورقصات رائعة ، وأسارير مغناجة . . . وفاحت في جو الغرفة رائحة البشر المقزِّزة . وشعَر الأمير أنّ ابتعاده عن الملذات الحسية قد ازداد ، وتَثبّتَ العزمُ على التحوّل داخل نفسه التي خاطبها بقوله : « يحيط بي الألم من كل الجهات ، كل شيء في الحياة وهم . وليس في الحياة غير الوهم . . . ؛ وتبدّدِ الوهم » .

واتجه بخطوات سريعة نحو خزانة ثيابه ، فانتقى أبسطها وارتداه . ثم توقف لحظة ، إنه لا يريد أن يفارق ابنه قبل أن يقبّله . لذا دخل غرفة زوجته ، فوجدها في سريرها نائمة وقد وضعت يدها على رأس ابنها . أمام هذا المنظر الرقيق ، لم يشأ أن ينزع يد امرأته عن جبين الصغير كي لا يستيقظ ويتوسل إليه

بدموعه كما فعلت أمه قبلا . إنما عزم المهتدي على العودة إلى ذلك بعد أن يصبح بوذاً . وردد على نفسه : « إنّني صاحب رسالة . عليّ أن أبلّغها . يجب عليَّ إنقاذ جميع المخلوقات » . وكان الصبح بدأ يرسم على لوحة الليل ألوانه البيضاء .

* * *

٣١ ـ ذهب ليناديَ صديقه الحوذي ، وكان هذا غارقاً في النوم ؛ فأيقظه بغية أن يُسرِج الحصان كانثاكا الذي أخذ يَصهل فرحاً : لقد وعى قصد فارسه ، وعرف اللحظة الحاسمة في حياة الأمير المهتدي . وبكى شانا حتى ابتل وجهه بالدموع متوسلاً سيده للبقاء وقائلاً له : « لا تُضحِّ بشبابك الريان لأجل قضاء حياة تسوّلٍ ورهبنة . لا تترك منزلك . فكيف تهجر هذا البلاط الفخم ، المفعم بالملذات والمسرات ؟ »

وأجاب سيذارتا بلطف وهدوء : نحن لا نخسر الدنيا إلاّ بالأنانية ، لقد احتقر الحكماء جميع الملذات التي تحدثني عنها والتي هي ليست سوى هادمةِ كلّ فضيلة . إنها محرّمة ، ونجسة . أمّا أنا فقد عرفتُ جميع اللذائذ ، ولا شيء منها الآن يُدخِل السرور على قلبي ويفتح صدري . وإنني لن أتخلى عن رسالتي ، وعن التفتيش عن السلام الدائم فيها ، وعن طريق الخلاص ؛ هذا ، حتى ولو سقطَت عليَّ أمطار من الصواعق ، أو هبّت عليّ عواصف من حديد . لن أرى كبيلافستو قبل أن أحصَل على إبادة الولادة والفناء ، وأصل إلى ذروة الحياة الخالصة من الشيخوخة والألم ، وأبلغ الفكرَ الصافي المشرِق .

٣٢ ـ وسار في طريقه إلى حياة الهُدى . . . وهكذا انفتحت أمامه بوابة القصر الضخمة ، ومرّ بغير أن يَشعر الحراس الغارقون في سبات عميق . ثم اختفى سيذارتا بين حجُب الغابة السوداء .

أسوار شروق الشمس وضُحاها

١ ـ حتى إذا صفّق الشحرور لأوّل شعاع ذهبي من أشعة الشمس ، التي أطلّت تبسم من بين الشعاب ، كان سيذارتا قد ابتعد حوالي عشرة فراسخ عن القصر ؛ كان بلغ بلاد الملّاويين ، إلى قريةٍ تدعى أنومانْريا . هناك أبعد سذارتا مرافقيه ، وأصبح فريداً . لكن أحد القرويين عرفه ، فاقترب منه مرحِّباً . فأجابه : « لستُ الأمير الذي تعرف بعد اليوم ، إنما أنا راهب السكياويين» .وأمام دهشة ذلك القروي راح يحلق شعره ويذريه في الهواء . وخلع ثيابه الملكية ، وبادلها بأطمار بالية كان يلبسها أحد الصيادين المارين من هناك .

٢ ـ كان يلتقي بالعديد من البراهمة الذين كانوا يستضيفونه ، ويعجبون بأفكاره السامية وهدفه النبيل . فسمّوه بالسكيموني ، أي حكيم أسرة السكيا . وما زال ينتقل من مكان إلى مكان حتى بلغ مدينة فسيالي حيث التقى بأشهر البراهمة إطلاقاً وهو : أرادا . كان هذا الغورو أكبر معلم روحي في زمانه : يُرشد إلى طريق الخلاص ، ويُعلِّم التحرر . وكان محاطاً بثلاث مائة تلميذ ، عدا العديد من المستمعين المتوافدين .

رآه سيذارتا وأصغى إليه ، حتى إذا رآه ينهي حديثه راح يباحثه في القوانين البرهمانية ، ووسائل الصلاح والتحرر مما أذهل الحاضرين بسعة معرفة هذا الغريب وعلمه الغزير . بل ان المعلم الروحي رجاه أن يشاطره التبشير والتعليم ، لشدة إعجابه بآرائه .

ورضي السكيموني ظناً منه أنّ عقيدة هذا البرهمي عقيدة صحيحة . إلّا أنّه

سرعان ما عرف نقائصها ، وعجزها عن تحرير النفوس من التعاسة والآلام .بَيْدَ أنه قال في نفسه : « قد أبلُغ التحرّر الحقيقي باتقاني التام هذه العقيدة ، وبحياة الفقر ، وبإفناء رغبات الحواس » .

وبقي ، مع ذلك ، عدة شهور في فيسيالي يَستمع إلى تعاليم أرادا ، ثم قرر الرحيل .

٣ ـ اجتاز نهر الغانْجْ ، ثم بلاد مَغَذة ، متوجهاً نحو راجغريها عاصمة ذلك القطر البديع . وأمضى أسابيع في مجاهل الغابات يعيش متأملاً ، مفكّراً ، وجهاً لوجه مع روحه . كان يسير بين الأشجار الظليلة ، وقببها الخضراء الجميلة ؛ حتى إذا شعر بالإضطراب لانفراده في أماكن موحشة لم يزرها قبله بشر ، أو أخافه حفيف الأغصان وصفير الرياح ، تذكّر النسّاك الأقدمين والبراهمة الذين يستمّرون في تأملهم طوال الليل وآناء النهار دون وجل ولا ملل . ثم كان لا يلبث أن يستقر على أن الخوف ليس إلا الوهم ، الوهم الناتج عن الجهل .

٤ ـ وإذْ سبقته شهرته في الحكمة والجمال إلى مدينة راجغريها ، فقد هبّ الشعب عن بكرة أبيه للقائه . فتوقفت الحياة في المدينة في ذلك اليوم المشهور ، وسارعت الجماهير لرؤية المتسوّل الكريم المحتِد ، والنبيل الأصل ، المتنقّل من بيتٍ إلى بيت يجمع بسلته صدقات المحسنين .

وكلّفَ بمبيسارا ، ملك المدينة ، بعض معاونيه بالتعرّف على سر الشحاذ الذي ازدحمت الجماهير للتبرّك به وتقديم القرابين إليه . وتأثر الملك عندما عرف نبل الراهب الشحاذ صاحب القلب الطيب : ارتدى أفخر ثيابه وحليه ، ثم أخذ يفتش عليه مصحوباً بحاشيته ومستشاريه ؛ حتى التقى به جالساً في ظل شجرة تين كثيفة . انحنى الملك أمامه قائلاً : « إن يديك خلِقتا لتسلّم وتوجيه زمام الحكم ، لا لحمل سلة شحاذ » . وسمع بمبيسارا جواباً مدهشاً ، ورأى في الأمير نبلاً ومزايا جديرة بالإقتداء . فاحتضنه طوال عهده . وكانا في عمر واحد تقريباً .

٥ ـ لكن . . .

على رغم عروض بمبيسارا المغرية . . . ورغم ما رآه من مظاهر تقديس الجماهير له ، وإيمانها به ، فقد ترك المَلِكَ والجميع ليعيش وحيداً فريداً .ولم يكن قد

آمن بعد بكفاءته الشخصية على حمل أعباء رسالته .

٦ ـ هناك ، بالقرب من راجغريها ، كان يعيش برهمي طبّقت شهرته الآفاق ، وعمت أفكاره الشعوب والحكماء . كان ذلك الغورو هو : رَدْراكا الحكيم . واتجه السكيموني نحو الغورو الكبير ليرجوه أن يقبله مريداً بسيطاً يتتلمذ على يديه . إلاّ أنّ رذْراكا ما لبث أن لاحظ ذكاء الشاب ، وذهنيته المتوقدة ؛ فطلب منه أن يشاطره إدارة المدرسة . بل وعرض عليه تعليم عقيدته الجديدة ، ثم أغراه الغورو بالتخلي له عن مركزه في تعليم سبعمائة مريد .

أما سيذارتا الذي بقي عدة أيام في مدرسة ردراكا وبين تلاميذه ، فقد قال للمعلّم : « إنني مقتنع بأنّ الطريق التي التزمتها هنا لا تقودني إلى اللامبالاة إزاء الأشياء ، ولا إلى التخلي عن الأهواء والانتزاع من طوقها ، ولا إلى إزالة الرذائل ولا تدفعني إلى صفاء النفس وسكينتها . سأتابع طريقي يا أستاذي المبارَك حتى أبلغ ما أبحث عنه . إنني أفتش عن التحرر » .

٧ ـ وتابع تجواله . ولم يكن وحده هذه المرة ؛ إذْ لحق به خمسة رهبان أعجبوا بتعاليمه ، وخلبت عقولهم عقيدته الراسخة ، وإيمانه الذي لا يتزعزع . وكان هؤلاء الخمسة أول حوارييه .

٨ ـ وبلَغ السكيموني ورفاقه ضفاف نهر نائرنجانا ، في مقاطعة أوروفيلا الفتانة المناظر . هناك قرّروا البقاء وقد أخذتهم روعة المكان وجماله . قال السكيموني متأملاً المروج الخضراء الممتدة على مرمى النظر : « حقاً إنها بقعة بديعة ، هنا غابة رائعة يجتازها شادياً نهر ينساب رقراقاً بين ضفتين مخمليتي الثوب وتصلحان للإستحمام . وهناك وهنالك تتناثر قرى خلابة تفتن قلوب الراغبين في النزهات والإستجمام والصفاء . إن بقاءنا هنا واجب إذ ينشرح القلب الوادع الذي يتوق إلى الخلاص والإنطلاق » . وأقام في ذلك المكان مدة في تقشف يقاوم بعنف شهوات قلبه ، وأهواءه ، ونزعاته البشرية .

وانقضت أيام . . . وشهور . . .

٩ ـ ستة أعوام من الكفاح والصراع داخل نفس بشرية . وأثارت هذه المثابرة ، وهذا الزهد القاسي ، إعجاب تلاميذه وإكبارهم . وكان هؤلاء الجائعون في ساعات هذيانهم يصيحون ويتخاصمون مع الشيطان أحياناً ، ومع

الآلهة أحياناً أخرى .

١٠ ـ رغم كل هذا . رغم كل هذه التضحيات ، وهذه التأملات والإستغراقات ، لم يَفُضْ عليهم الإشراق ولا هم بلغوه .

حتى كان ذات صباح ذهبوا إلى نزهة طويلة وجدوا المعلم بعد عودتهم مغمىً عليه ، فظنوا أنه قد مات . إلاّ أنّ رشده ثاب إليه بعد حين ، ومن ثم آمن بأنه ما من تكفير وتحسر ، ولا إماتة حواس أو تقشف ، وما من شظف أو قساوة على الجسم ، أو تجويع ، وإذلال الرغائب ، بقادرٍ على إيصاله للمعرفة الحقيقية .

١١ ـ هذا يوم من أيام الصيف . كان الوقت ظهراً والأرض تكاد تحترق من شدة القيظ ولظاه . والماء باردة توحي ، وتدعو للسباحة . وأحسّ سيدارتا برغبة في النزول إلى أحضان المياه ، إلا أنه لم يقدر لهزاله الشديد ، وضعفه البالغ . ورأته راعية كانت تمر قربه ، فلاحظت إعياءه وتعبه . وسألته أن يشرب قليلاً من الحليب الذي يقوّيه .

لكن الحليب محرَّم على النساك .

١٢ ـ وشرب السكيموني !

كذلك فعل في اليوم الثاني ، والثالث ، و . . . ؛ حتى استعاد قوته وتنشّط جسمه .

١٣ ـ ثم قال لتلاميذه : « قد ثبت لديّ أنّ الأخذ بتعذيب الجسم لإزالة الرغبات أمر هراء . يجب أن نتغذّى كي نكون بصحة جيدة ؛ فالأطعمة أساس الحياة ، والحياة مصدر النشاط . وإذا كان المهم هو التغلب على النفس ، فما يهمها عندما تكون مغلوبة أن يكون الجسم هزيلاً أو سميناً ؟

١٤ ـ وذهِل مرافقوه الخمسة الذين حافظوا على وفائهم له حتى ذلك الحين . وظنوا به الظنون ، وشكّوا في عقيدته وإيمانه . إلا أنّ السكيموني عرف ما دار بخلدهم ، فقال لهم عندما شاؤوا توديعه : « كما تخلصتُ من حياة الدعة والرفاه ، فقد تخلصتُ أيضاً من حياة الشظف والتقشف . كنت في شبابي غارقاً في النعيم تقتلني التخمة ، وبالأمس كدت أموت من المسغبة . لا الأمس القديم يا رفاقي ، ولا البارحة القريبة ، مما يناسب الإنسان . اليوم فقط بلغت الحل الوسط

الصحيح . أيها الزملاء : سأعيش بتغذية جسمي كي أتمكن من متابعة الخط الذي رسمته . والسير على الطريق التي أردتها لنفسي » .

١٥ ـ وتركوه متوجهين إلى بناريس . وبقي وحده ؛ بقي معه ظِلّه .

١٦ ـ وانعزل في غابة أوروفيلا ، متابعاً تفكيراته ، وقد اعتدل في قساوته على جسمه ، متذكَراً في كل حين تجربته الأولى . وحدّث فيما بعد تلاميذه عن هذه المدة فذكَر لهم أنّه في تفتيشه عن الحقيقة ، أعواماً وأعواماً ، كان يعذّب نفسه بطريقةٍ مؤسفة دون أن يتساءل لماذا يضيف الآلام إلى الحياة التعسة المملوءة بالآلام ، ولماذا وكيف يزيد في متاعب العمر الحافل بالمتاعب أو المتعِب في حدّ ذاته .

هناك ، في ظلّ الصمت الساكن الذي لا يعكّره سوى حفيف أفنان متهامسة أو عصافير متناغيـة . هناك ، أقام السكيموني أسُس عقيدتِه ، وأشاد قواعد طريقته التي عزم على عرضها على أنصاره بعد أن يلاقي الحقيقة .

١٧ ـ ومن ثَمَّ أخذ يسير على الأسلوب الحياتي الذي ارتآه ، والذي سيعلِنه فيما بعد ويعرضه نظاماً ومسلكاً . ثم فَكَّر . ورأى أن ما وصل إليه لم يَبلغ بعد طريق الحكمة القادر على الإفناء النهائي للمرض والشيخوخة والموت .

فالبشر إلى فناء . والإنسان إناء من فخار ينكسر عند أول صدمة ، كأنه قصر من الرمال لا يرتكز على شيء أو هو كتلك الثروة المستعارة التي يجب إيفاؤها ذات يوم . إنّ كل شيء هو معاً سبب ونتيجة لما يُنتِج التركيبات والتشكيلات ، وليست هذه سوى الفراغ . إنّ الفراغ وحده هو الثابت الذي لا يتغير : الكائنات فارغة من الداخل ومن الخارج ، ولا شيء منها حائز على الثبات الذي هو وحده دلالة القانون الحقيقية .

١٨ ـ وانقضى الشتاء الأول . . . والسابع .

وفي الربيع السابع ، في الوقت الذي تتذَهَّب فيه الشمس وترقص أخيلتها بين الأغصان ، راح يصارع ويفكِّر . وبعد اليوم السابع من صراع عقيم حصل على الإشراق ، وفاض عليه النور الذي طالما تمناه . في ذلك اليوم اجتاز درجات المعرفة واحدة بعد واحدة ، حتى اكتشف المعرفة الكبرى ، واكتنه معاني الضلال

في الحياة البشرية ، وعرف أسباب الألم .

١٩ ـ في ذلك اليوم المشهود تحول الأمير سيذارتا إلى بوذا . . . ، إلى رجُلٍ عارف ، إلى مستنيرٍ ، ومنوِّر .

٢٠ ـ لما بلغ بوذا الإشراق ، ووصل إلى الاستنارة والعرفان ، تفـوه بهذه الأقوال : « تابعتُ دورةَ التولّدات العديدة ، والمتكرِّرة أبداً دون إبطاء ولا كلل ، وبحثتُ دون هوادة ولا راحة عن أسباب التناسخ أو التولد الذي يتكرر ويتكرر ، وتساءلتُ لماذا العودة للحياة بعد كل موت . فوجدتُ أنّ هذا شرّ ، واكتشفتُ المسبِّب : إن باني هذا البيت لن يبني بعد الآن بيوتاً أي حيوات جديدة . فالقلب الذي صار حرّاً ، قد استأصَل كل رغبة » .

٢١ ـ ولبثَ في مكانه لا يبرحه عدة أيام يتذوق سعادة الخلاص ، وينعم بلذة الإشراق والعرفان .

٢٢ ـ وفكّر بوذا ، وفكّر طويلاً في الموت ليرى من بعد أن أسباب الولادة والموت هي الجهل الذي هو المصدر المسموم لكل شر وألم . من هذا الجهل تنبع الرغبة في العيش التي تولّد بدورها الأشكال العضوية في حقول الإدراك الستة التي هي الحواس الخمس والعقل الذي هو يختصرها ويستوعبها . هذه الحقول الستة تتصل بالعالم الخارجي ، ومن التماسها هذا تصدر الأحاسيس التي تنسج الشخصية مع التعلق بالأشياء المادية .

وتخلد الشخصيةُ في الولادات المتعاقبة محدثةً الألم والشيخوخة والموت . وبما أن سبب كل ألم هو الجهل ، فلا مناص من القضاء عليه للقضاء على الألم . وبهذا تزول الرغبات المتولدة . كذلك يزول إدراكنا الخاطيء للعالم الخارجي ، وننقذ أنفسنا من خطأ الوهم والأنانية بوضعنا هذه النفس فوق الموت والتناسخ .

أربع حقائق تقود إلى النرفانا ، إلى السلام الدائم . الأولى تتعلق بالألم : يصيب الألم كل ما اتحد بالمادة وامتزج بها . يعتورُ الألم كل من يرغب في ما لا يقدر على بلوغه . والثانية تقول : إن الألم متولد من الرغبة في الحياة . والحقيقة الثالثة هي أنّ الألم يتوقّف عندما نُخضِع الشخصيةَ ونسيطِر عليها ، فهي مجموعة من الحركات المتتابعة وليست إلا كذلك . أما الرابعة فهي : لكي يتخلص الإنسان من الألم عليه أن يكون صاحب فهم سليم ، وكلام صادق ، ومسلك قويم ،

وفكرٍ نقي ، وروح في سلام واطمئنان . يجب أن يُحِبَّ كلّ ما يدبّ على الأرض ، ويتغلّبَ على كل شهوة ، ويتحرر من كل غضب . وتابع بوذا قائلاً :

إنني أود أن أخلّص جميع الكائنات من العودة إلى جحيم هذا الواقع بدفعها ورفعها نحو النرفانا . فالنرفانا هي اللاوهم ، والراحة ، والتغلب على الموت . . .

٢٣ ـ وراح الراهبُ المبارَك يجوب أطراف الأرض يبلّغ رسالته ، ويُعلّم عقيدته الجديدة لشعوب الغانج .

٢٤ ـ وكان بوذا في عامه السادس والثلاثين .

* * *

الظُّهيرة والزُّهرة

١ ـ عند مغادرته غابة أوروفيلا التقى بتاجرَيْن . سلّما عليه ، قدما إليه الأرز ، وقالا بخشوع : « تنبأ المنجّمون بأنه سيخرج ذات يوم من هذه الغابة مُعلم كبير . ونحن نرى الآن أنك أنتَ هو ذاك المعلم الذي طال انتظاره ، والذي سينقِذ العالم . سنسير منذ الآن في ظلك ، وحسب قانونك . وقد آمنّا بك ، فاقبلنا في دينك » .

٢ ـ تُفسِّر الكتب المقدسة كيف أن التاجرَيْن ، دون سابق معرفة بالراهب المنعزل ، تأكد لديهما أنه هو بوذا المرتقب .

٣ ـ بعد بلوغه الإشراق قال المعلّم : « إنّ القانون النابع منّي عميق ، ومنير . إنما يصعب إدراكه . فلا يجري عليه امتحان ، ولا اختبار . وهو خارج عن أطر التفكير المنطقي ، ولا يحيط به إلاّ العلماء الراسخون والحكماء الراشدون . وحيث أهمَل هذا القانونُ كلَّ فكرةٍ للفردية الإنسانية ، فقد أوقفَ كل وجود . كما ألغى كل رغبة ، وحرّر من كل الميول ، ومنَع كلَّ تكرارٍ للولادة الذي يحرمنا النرفانا . أنا إذا علّمْتُ الناس هذا القانون ، فإنهم لن يفهموه ؛ وسأتعرّض لشتائمهم » .

٤ ـ لقد عرف الحقيقة . ولكن هل يعلّمها ؟ واستغرق في تأملاته العميقة إلى أن لاحت له رؤيا الرب الأعلى ، وسمع براهما يقول له : « يجب أن تمارس عقيدتك » . ثم تابع الإلّه قوله : هناك كائنات نقية من الأدران الأرضية ، وهي

بحاجة لرسالتك كي تَبْلُغَ خلاصَها . إنّ عليك أن ترفع المخلوقات إلى ذروة الحقيقة . فمن هناك يعرفون ما كان مخفياً عنهم عند السفح » . وبقي بوذا متردداً ، وشك في الصوت الذي خاطبه . إلاّ أنّ ذلك الصوت كرر على أذنيّ بوذا القول : « قُمْ يا أيّها المعلم ! انهضْ شجاعاً مقداماً ، فسوف تكون المتبِّصر الأكبر بين البشر كافة » .

واستطرد المُرْسَلُ يُفكّر في الأمر . فرأى الناس ثلاث فئات : فئة في الكذب ومستبقى فيه ؛ وأخرى في الحقيقة ؛ والثالثة في الشكّ . مَثَلُهم في ذلك كمثَل رجُلٍ على ضفة : يرى زهرة اللوطس التي نبتت فوقَ الماء ؛ والتي طفت على السطح ، والتي نبتت تحته . وأنا سواء علّمتُ أم لم أعلّم القانون للذين هم في الخطأ ، فلن يتلقاه ولن يستوعبه غير الحيارى والمتشككين .

٥ ـ كل هذه الشكوك أصابته وهو يرى التاجرَيْن يَبعدان شيئاً فشيئاً عن الغابة ، في طريقهما إلى المدينة ليعلنا لأهلها العقيدة الجديدة ، والنبي الذي ظهر . وسار المعلم نحو راجغريها ليبلّغ مبادىء رسالته لمعلميه الأقدمين .

٦ ـ لكن أرادا كان قد مات .

ثم تذكّر مرافقيه الخمسة الذين تركوه بعد شكوكهم في إيمانه . وعَلِم أنهم يقيمون في حديقة ايسيبّانا بجوار بناريس ؛ فقصدهم وحيداً : ينام في الغابات ، ويسترشِد بالكواكب ، متهيئاً في عزلته هذه للجهاد الروحي الذي عليه أن يؤديه في بناريس مدينة الآلهة والمعابد .

٧ ـ رآه الرهبان من بعيد ، فاتفقوا على أن لا يقيموا أيّ علاقةٍ معه ، وعلى أن لا يقفوا له ، أو يقدموا له الطعام أو الاحترام . حتى إذا وصل المرسَلُ إليهم نهضوا تلقائياً ، واقتربوا منه مهلّلين . واستقبلوه بالتبجيل والإحترام الفائق . إلا أن بوذا حَدَسَ ما اتفقوا عليه وما دار بخلدهم . فبادرهم بقوله : « لا تدْعوني باسمي ، لستُ بعد اليوم أمير السكياويين . فأنا بوذا الذي يَعتبر جميع الكائنات بنفس التعاطف ، ويعامِل الجميع بالمساواة . إنني مقتنع بأنّ التقشّفات لا تؤدّي إلى طريق الخلاص ، لكنّ هذا لا يعني أنني أسلّم نفسي لحياة الدعة والتخمة . إماتة الحواس ، يا إخواني ، وتعذيب النفس ، كالقرابين التي تُقدَّم للآلهة . لا تطهِّر من لم يتحرّر من الخطأ . الإنسان الذي يضع في قنديله الماء بدل الزيت لا يبدد

الظلمات المحيطة به . ونحن بحاجة للنور لنميز العالم القاتم . إنّ من يستفيق على معرفة الحقيقة يخلّص ذاته من كل خوف ، ويبدّل بالهناء والسكينة مطامحه المقلِقة وآلامه اللامجدية » .

وقال له أحدهم : إنني لا أفهم ما تعني . ورد المُعلّم موضِحاً : قد يصدف أن تمسّ قدمك حبلاً فتظنه حية لدغتك ، فيملأ الرعب شغاف قلبك ، إلا أنك سرعان ما تبتهج عندما تعرف خطأك ، إذْ أنّ خوفك كان في جهلك وتوهمك . حتى إذا عرفتَ أنك وطئت حبلاً لاحية ، وعرفت الحقيقة ، وجدت هناءك واطمئنانك . تلك هي حالة الإنسان الذي يعرف وهم الشخصية ، ويعرف من ثمّ أنّ سبب آلامه هو شيء يشبه الطيف الذي يمر بالأحلام .

ـ ثم سأله آخر : ما قولك بشخصيتنا الإنسانية ؟

ـ طوبى للذي يتغلّب على الأنانية إذْ أنه يجد السلام ، ويبلغ الحقيقة التي تنقِذه من الالم . لا تنسوا أبداً أنّ كل ما له بداية ستكون له نهاية . التخلي عن كل خطيئة ، وعملُ كلّ صالحةٍ وخير ، وتطهيرُ القلب ؛ تلك هي عقيدتي .

٨ ـ وأصبح الرهبان الخمسة أول حوارييه .

٩ ـ وجمَعَهم بوذا ، وعرض عليهم في خطبةٍ القانون الجديد : « أيها الرهبان ، هناك حدّان متناقضان يجب أن يبتعد عنهما الذين تخلوا عن حياة الدنيا : الأول هو الإنسياق في الملذات ، وهذا أمر سافل وعقيم . والثاني هو طريق التقشف وإماتة الجسد ، وهذا أمر مؤلم وعقيم أيضاً . ودون أن أتركَ لنفسي العنان وراء أيّ من هذين الطريقين ، فقد وجدتُ بعد تفكير طويلٍ طريقاً وسطاً يفتح العيون ، ويوقِد العقل ، ويقود للراحة والمعرفة والإشراق والنرفانا . إنه طريق طويل بثمانية مسالك هي : « عقل مستقيم ، وحزم ، وقول ، وعمل ، وحياة ، وجهد ، وتفكير ، وتأمل » .

ماذا هي الحقيقة ؟ الولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت : ألم .وألمٌ هو الانفصال عن من نحِبّ ، وكذلك الرغبة التي لم تُشبع . باختصار ، إن العناصر الخمسة التي تربطكم بالحياة هي ألم . وهذه هي الحقيقة عن الألم : إنه تعطّشٌ للفرح ، وللرغْبة التي تولد مرارة التناسخ . بهذا استنارت عيناي وعقلي . أما الآن فقد بلغت أسمى درجات المعرفة ، وأملها . وإنني ألاقي هذه المرة

ولادتي الأخيرة على الأرض إذ بتحرري من الألم قد أزلتُ التقمص ولن أولَدَ مرةً أخرى بعد هذا . لقد منعتُ عودتي للحياة لأدخل في السكينة الدائمة : في النرفانا .

وقال الرهبان المستمعون لأعظم خطبة للمعلم : لا شك أنه عرف الصراط المستقيم . ففي غيابه عنا لاقى الصواب وتوصّل إلى الحق .

١٠ ـ ومرّ أحد الرعاة بقطيعه قريباً منهم ، فشرب بوذا قليلاً من الحليب قدمه إليه الراعي . وكذلك فعل بعده الرهبان ، فشربوا المحرَّم على الزهاد البراهمة ، مظهرين بذلك أنهم اختاروا المعلم وآمنوا برسالته .

١١ ـ وفي تلك الليلة ذاتها جمع بوذا المؤمنين ليقصّ عليهم بعض ما جرى له في حيواته (حياتاته) السابقات . وسأله أصغرهم عما يقصده بحيواته السابقات . فأجابه المُرْسَل المحتَرم : إنّ الإنسان مركّب من جسم وروح ، يفنى الجسم فقط ؛ وتبقى النفس ، ويطول عمرها وتعيش في كثير من الأجساد متعذبة هائمة على الأرض حتى تَنقَى وتَكْمُل . وعندئذ ترتفع إلى النرفانا . إنّ المآسي التي تصيب الإنسان الصالح هي نتيجة الأخطاء التي ارتكبها في إحدى حياتاته السابقة .

ـ سئل عما يحدُث للمجرم فأجاب : إنّ القاتل يعاقَبُ في الدنيا بأن يعود ويعود للحياة (يتناسخ) . لقد جعلَت الآلهةُ من الأرضِ جحيماً أو مكاناً للألم . لكنّ حياة الفرد الروحية طويلة . وكما أن جسمه فانٍ ، فإن الروح بحاجةٍ لعدة أجسامٍ كي تتحرر من التناسخ في عالَم مملوء بالآلام والآثام ، وما الجسد إلا وعاء سريع العطب يحمل الروح مدة من السنين بين جنبيه .

ـ والنرفانا ؟

ـ لا أهمية كبرى لمعرفة ما هي . إنّ مهمة الإنسان هي بلوغ حياة الكمال لتتخلص روحه من الأرض ، وتقدر على اجتياز عتبة النرفانا .

ـ وما قولكِ بالانتحار يا معلّم ؟ ألا يختصر هذه الحياة الأليمة ؟

ـ كلا . فإنه لا يمنع التناسخ . إنّ ما علينا هو إزالة الشر والرغبة . طهِّروا ضمائركم ، فتتخلصوا من دولاب التناسخ ولن تولودوا وتموتوا ثم تولدوا وتولدوا

من بعد أبداً . وقصّ المُعلم عليهم القصص ، وضرب لهم الأمثال :

كانت إحدى الأرانب تعيش في غابة وتقتات بالأثمار والأعشاب دون أن تسبب الأذى للمخلوقات الحية . وكان يعيش معها قرد وابن آوى وابن عرس على أحسن ما يكون الأصدقاء ، وكانت تعلمهم أحيانا الواجبات ، وتدلّهم على الخير والشر ، وتقول لهم : إنّ علينا أن نهيء الصدقات لنعطيها للذين يستحقونها .

وكانت الأرنب تقول لنفسها : أيّ حسَنةٍ يا ترى يمكنني أن أقدمها وأنا لا أملك شيئاً من الفول أو الأرزّ أو السمْن ؟ فالعشب غذائي الوحيد ، ولا أقدر أن أقدّمه لأحد . إلا أنّ الأرنب قررت أن تقدم روحها للمحتاج أو الجائع . وفي ذات يوم رأت ألسِنة النيران تلتهم أخشاب بيتٍ فقيرٍ ، فألقت بنفسها واهبة حياتها لتنقذ المسكين . لكنها نجت إذْ ضحّت بحياتها محبةً بآخرين .

لا تنسوا أنّ المحبة والإحسان هما أقوى قوى العالم .

١٢ ـ ولم يطل مكوثُ المُعلّم في بناريس ، فقد كان يُفضّل مدينة راجغريها . وفي هذه الأخيرة كان تاجر غني اسمه كالانتا يملك بساتين شاسعة قدم بعضها لجماعة من البراهمة ، ثم ندم على ذلك لمّا سمع بالمُعلّم ؛ فاسترجعها منهم ، وأقام بها مسكناً قدمه لبوذا . وبالقرب من المدينة ، كان المُعلّم يسكن في مكان يسمى نالندا . وفي ذلك المكان آمن به أشهر صحابته أمثال : ساربوترا ، مغلانا ، كاتيا يانا .

١٣ ـ وجاء الصيف تهدهده نُسيمات عابقة بشدو العصافير ، ولذة الذكريات ، وتألق بلاط كبيلافستو . ولم يكن ينقص البلاط سوى أميره الذي كان من المستحيل نسيانه .

١٤ ـ كان سوذودانا المفجوع بغياب ولده يقوم بمجهوداتٍ ضخمة كي يستعيد ابنه عن طريق إرسال الرّسُل إليه ، وتذكيره بابنه وبيته وزوجته . لكن الرسُل عند وصولهم إليه كانوا يُعجبون بفصاحته ، وتأخذهم هيبةُ المُعلّم فيؤثِرون صحبته ، ويتبوّذون . ولاحظ الأبُ أنْ لا سبيل للوصول إلى بغيته عن طريق المبعوثين ، فأرسل إليه مستشاره شاركا الذي ما لبث هو أيضاً أن تبوذ وآمن بالراعي الصالح . إلا أنه رجع ليعلن لسوذودانا عن زيارة ابنه القريبة له .

١٥ ـ وأخذ بوذا طريقه إلى وطنه ، مصحوباً ببعض تلاميذه .

١٦ ـ انتشر النبأ السعيد في أرجاء البلاد ، وعرف الناس أنّ المُعلّم سيجتاز الغانج . وتردد الخبر بأن الأمير سيذارتا، الذي ترك قصره منذ اثني عشر عاماً ليحصل على نور المعرفة ، قد عاد مستنيراً إلى أحضان أسرته .

١٧ ـ ولما التقى الأبُ بابنه ذهل لجلالة قامته ، وجمال طلعته . وبادره المُعلم قائلاً : « أنا أعلم أنّ قلبك يطفح بالحب ، وأنك حزين لغيابي . إنّي أرغب إليك أن تقيم نفس الصِلات التي تربطك بي مع جميع المخلوقات . إنك تَستقبل الآن المبشّر بالعدالة والحقيقة » .

وأجابه سوذودانا المفعم بالسرور : « يا له من تحول مذهل يا ولدي ! لستَ الآن حزيناً كما كنتُ أراكَ في الماضي . جميل أن تتخلّى عن العرش ولذة الحكم للقيام برسالتك النبيلة . إنك وجدتَ الهدى والصراط . وأنتَ تقدر على التبشير بالحقيقة في عالمٍ متعطّش للتحرر »

١٨ ـ أطيعوني أيها الناس ! استمعوا إليّ فترفرِف السعادة على قلوبكم . وهرع الناس إلى بوذا من كل حدب وصوب يستمعون .

١٩ ـ في الليل ، وقد استسلم العالم للرقاد وهجع كل من في البلاط ، هبّ يتجول في شوارع المدينة تذكّره أشباحُ المارة المرتدية الظلال بأيام قلقه . واستعاد في مخيلته سيرة حياته السائرة قدماً نحو الكمال المطلق .

٢٠ ـ وفي النهار ، بعد أن تناول فطوره مع ذويه ، ذهب يستلقي تحت شجرة كثيفة في بستان القصر . وتبعته زوجته بعد حين مصحوبة بابنها راهولا الذي دفعته إلى أبيه قائلة له : « تقدم يا راهولا واطلب من أبيك إرثك » . اقترب راهولا من أبيه متردداً حتى وصل إليه فقال : اسمح لي أن أبقى قربك يا أبي حتى الأبد ، فهذه سعادتي .

في هذه الأثناء كان سوذودانا قد وصل مع بعض رجال الحاشية ، فقال له بوذا : إنّ ابني يودُّ أن يتبعني وينضوي تحت راية القانون الجديد . فهذا هو نصيبه من الميراث ، ميراثٌ من السّلام والمحبة والطمأنينة . واعترض الجدّ بقوله : عندما تركتَ حياة البلاط ذات يوم لتلبي نداء الوحي أحزَنت قلبي كآب ، وها

أنذا اليوم أتألم وقد عرفتُ أنّ ابنك أيضاً سيلبس ثوب الرهبنة ويحمل سلة المتسولين . أتضرع إليك أن لا تقبل منذ اليوم في السلك شاباً قبل موافقة أسرته .

٢١ ـ وهذا ما كان بالفعل .

٢٢ ـ وفي جمع من الصحابة والمؤمنين حدَّث المُعلم الكبير أنّ القرون والأجيال والأرض والكون والتغيرات أمور وهمية تُشوِّه لنا دولاب الحقيقة الجبار . لا تنسوا أيها الصحابة أنكم تملكون قدرةً توازي قوة أعظم الأشياء : إنها قدرة الحب وطيبة القلب والكمال . فهذه تقربكم من الآلهة .

وسأله سوذودانا : وما علينا أن نفعل ؟ إنك تقدر على رفع مصيرك حتى مستوى الآلهة ، أو تخفضه حتى الدرك الأسفل . من يرتفع يقدر على الهبوط ، ومن يهبط يستطع الصعود . لا بدّ من الشجاعة والإيمان بالنفس . هناك قوة أدنى من جهنم وأرفع من الجنة ، وراء أبعد النجوم وفوق مكان براهما : إنها سلطة ثابتة وإلاهية . وُجدت قبل البدء ، ولن تنتهي فهي خالدة كالزمن ، أكيدة كاليقين ، لا تخدع . تباً لمن عصاها ، وطوبى لمطيعها . جوهرها المحبة ؛ وهدفها السلام وتحقيق الكمال .

ـ وما هي حياتنا ؟ إنّ حياة الفرد نتيجة لحيواته السابقات ، فالأخطاء تولِّد الأحزان والآلام . أمّا إذا كانت الحياة التي سبقت حياتك الآنية مستقيمة ، فإنها تُحدِث فيك الطمأنينة والهناء . فالإنسان يحصد ما بذر . وإذا عاش الإنسان للمحبة والحقيقة ، فإن مصيره يتحقق سريعاً ؛ وتَبعد عنه متاعب الشيخوخة وأردان الخطيئة ، ويبلغ النرفانا حيث يغدو سعيدا لأنه انقطع من الوجود وانفكّ عن أن يكون .

٢٣ ـ هل تقبلني في السلك ؟ سأله سوذودانا .

٢٤ ـ . . . وهكذا آمن بالدين الجديد امرأته ، ورجال الحاشية . وتحقق بذلك قوله القديم لهم : « إني راحل لأخلّص الذين أحبهم » .

٢٥ ـ ورأى السيّد أنّ الجميع ينضوون تحت قانونه ، فأوصى بقوله : « إني أودّ أن تدخلوا في الدين بحرية تامة ، يجب أن يكون إيمانُكم سلطتكم . لا

تُفرَض الحقيقة بالقهر ، فالقوة سلاحُ من هم على خطأ . وأجابه المؤمنون :
ستكون عقيدتُك إيمانَنا .

في ذلك الحين كان ، في بناريس ، لرجل غني ولد وحيد يُدعى ياسا يعيش على طريقة أبناء النبلاء في حفلات ومسرات . لكن ذلك لم يستطع أن يزيل عن الفتى مسحة الهمّ والكآبة . وهكذا هرب من قصر أبيه ذات يوم ، متوجهاً نحو بستان إيسبتانا كي ينعِش روحه المريضة ، ويُصلِح حياته القلقة . كان بوذا في نفس المكان ؛ وعندما رأى الشابَّ قرأ السيدُ على وجهه مأساة حياته فقال له : « اتبعني يا أخي ، فاعلّمك العقيدةَ الجديدة . كفاك تعذيباً لروحك ! ليست المسرات شيئاً إنْ نحن قابلناها بالسعادة الحاصلة بالتخلي عن لذائذ الدنيا . . . » .

٢٦ ـ وبكت أم ياسا لما افتقدته . وفتشوا عنه كثيراً ؛ حتى وصل أبوه إلى بستان إيسبتانا . هناك أخذ الوالد المفجوع يبحث عن ابنه بين حلقات التلاميذ ؛ وعرفه رفاق ياسا الذين كانوا حول بوذا . هنا أخفى بوذا ياسا ريثما يتفق مع القادم . ولما اقترب هذا من المُعلّم سأله بلهفة عن ياسا . فرجاه المُعلم ان يهدأ ويرتاح . وفي لحظات استراحته كان المُعلم يعرض فضائل الناموس ، ويدعو للتعاليم والإيمان مما أثار دهشة الوالد فقال : طوبى لك أيها المُعلّم والمجد لك ! إني آمنتُ بدينك ، فهو دين السعادة . وإني أهبُ أملاكي كلها لجماعتك ، وأرجوك أن تقبل إيماني على يديك لأصبح عضواً بين المؤمنين الصالحين. عندئذٍ نادى السيد على ياسا المختبيء وراء شجرة قريبة . ولما رآه أبوه صرخ : ابني ، ولدي ياسا ! إن أمك حزينة . اذهبْ إليها ، لتعيد إلى قلبها الانشراح . وتَدخّل المباركُ بقوله للأب : « أتظنّ أنّ ياسا الذكي لم يؤمن بعد ولم يَفهم القانون ؟ إنّ ابنك قد فكّر ، ثم حرّر روحه من زيف هذه الدنيا ومن الفساد المولِّد للخطايا . إنه لن يتمكّن من أن يعيش كما كان في الماضي » . ورد الوالد أنّ كل مراده هو أن يشرح ياسا بنفسه لأمه الأمر . وهكذا فإن الوالدَ دعا المُعلمَ لرفقته كي يتناولوا الطعام على مائدة العشاء ، في مقره في بناريس .

٢٧ ـ وسار بوذا ، وياسا ، والأب ؛ في طريقهم إلى بناريس .

٢٨ ـ ودخلوا في الدين أفواجاً ، ووحدانا . وتبوّذت أم ياسا ، والخدم ،

وكل من في البيت .

٢٩ ـ وعلى المائدة ، وبعد أن انتهوا من الأكل ، راح بوذا يشرح للحاضرين بعض فصول القانون . قال : إنّ المعرفة تتكون من الحواس الخمس والعالم الخارجي . الإنسان مزيج من جسم مـادي وقـوة روحية . تحرّروا من هذا الجسم المادي لتبلغوا الكمال .

وسأل ياسا أيكون ذلك باتباعنا الوصايا المقدسة ؟

ـ أجل ، وبلا شكّ . فأنا أقول : لا تقتُل ، ولا تكذب ، وسيطِرْ على أهوائك . ولأجل هذا لا حاجة بنا للصلاة ، ودفع الأموال للبراهمة . يكفي أن نعطي للفقراء ، ونعمل الخير دون تفرقةٍ بين سائر المخلوقات .

ـ وما هي الجنة ؟

ـ إذا احترمتَ الوصايا فإنك بدلاً من أن تعود للتناسخ ، وتولّد مرة أخرى على هذه الأرض ، تولّد في اللانهاية حيث الغبطة .

وتهامس اثنان : إننا نعرف أنه جاحد ، وها هو الآن يتحدث عن حياة أخرى في الجنة فما تفسير ذلك ؟

وتابع بوذا ، وكأنه يردّ عليهما :

« ربما تكونان قد نسيتما أنه لا قدرة لنا على معرفة المنظر الذي سنلقاه ونعجب به في أعالي النرفانا . شيء واحد هو المهم ! إنه الطريق المؤدي إلى تلك النرفانا »

٣٠ ـ ولم يمضِ أسبوع واحد حتى كان خمسون من أصدقاء ياسا قد دخلوا في الدين الجديد . ولما جمعهم المُعلمُ المرسَلُ قال لهم : « سوف تكونون أول المرسلين من قِبَلي والمبشّرين بالدعوة . أصغوا إليّ أيها الأخوة الكرام ! إني تحررتُ من سائر السلاسل الإنسانية والربانية التي تقيّد الفرد وتأسره . وأنتم أيضاً قد حررتم أنفسكم . فاذهبوا في أرجاء الأرض ، وخلّصوا العدد الأكبر من الكائنات . لتكنْ مواعظكم سعادة العالم ، ولتكنْ طريقتكم في الحياة سبيلاً لأن تخيِّم المحبةُ على العالم . افتحوا الغوامض أمام الأعين ، واكسبوا الأنفس بالحب

لا بالقوة والعنف . عيشوا في سلام ، أحبّوا بعضكم بعضاً ، باركوا أخصامكم ، اصفحوا عن أعدائكم » .

وهكذا توجهوا إلى غزو العالم بالمحبة ، وإلى نشر الدعوة الجديدة لتخليص الإنسان .

٣١ ـ وبقي المعلّم وحيداً يفكّر . وسمع هذا الصوت : « رغم ما كنت تقوله لحوارييك فإنك ما زلتَ مرتبطاً بالسلاسل الآلهية والإنسانية . ولن يمكِنك التخلصُ منّي أبداً » . كان هذا هو مارا ، الشيطان اللعين ، الذي شاء إغواء المرسَلِ الكريم . وتُحدِّث الأخبارُ هنا أنّ المعلم أجاب إبليس بقوله : « إنني تحررتُ منك أيها الرجيم ، أنت المغلوب المدحور . أيها الروحُ الشريرة المتخفية في زهرة حلوة ، أنا حررتُ قلبي من الألم »[1] .

٣٢ ـ وتوجه بوذا تاركاً الغابة نحو بناريس : يستيقظ عند بزوغ الشمس ، ويجمع الحسنات عند القيظ ، ثم يجلس للتأمل والتفكير عندما يجنّ الليل .

وتدور الأيام ، وتتلاشى ؛ وهو يَعْظُم في نفسه وإيمانه وسلوكه .

٣٣ ـ والتقى في طريقه بجماعة من الشبان يلعبون مع زوجاتهم . وكان بينهم أعزب مع صديقته التي ، في خلسة عن الأعين ، سرقت حليّ النسوة وفرّت . ولحقوا بها . حتى التقوا ببوذا ، فسألوه عنها وأخبروه بالقصة . وسألهم المُعلم : « أي شيء أهمّ في نظركم البحث عن هذه المرأة ، أم البحث عن أنفسكم » ؟

ـ البحث عن النفس أهم بكثير ، أيها السيّد .

ـ نِعمَ الجواب يا أصدقائي . اجلسوا الآن واستمعوا إليّ : « الولادة ألم ، والوقوع في براثن الأمراضِ ألم ، ثم الناس والموت ألم . ولا يمكن التخلص من العذاب إلا بالتخلص من الأنانية والرغبات ، وأنا أدعو إلى تعاليم تُختصرَ بكلمات هي : فلتخيِّم المحبة في قلوبكم ، والطّيّب في أعمالكم » . وطال الحديث حتى

---

(١) قا . : الهاتف أو الجني أو الملاك السماوي ، وما إلى ذلك ، في الأديان وفي التصوف وفي الانتروبولوجيا .

أنهاه أحدهم بقوله لرفاقه : « كونوا سعداء . فاليوم لقيت السارقةُ الثروةَ المادية ولقيتم أنتم الغنى الروحي . افرحوا بذلك . فلولا سرقة المجوهرات لما عرفتم الطريق المؤدية إلى الخلاص والتحرر » .

٣٤ ـ كان ناندا ، أخو بوذا لأبيه ، صاحب آراء في الحياة تختلف اختلافاً بيّناً عن نظرات بوذا لها . ناندا شاب عابث ، يطارد حسناوات كبيلافستو ، ويرى فيهن سعادة الدنيا ، ولذة العمر . ثم تزوج . وعاش مع أسرته في بيت قريب من بلاد سوذودانا . ومر بوذا قرب بيت أخيه هذا ، وحسب عادته ، قرع الباب وطلب الحسنة من سكان الدار . فهرع إليه ناندا لما عرف بوجوده ، وقدم له الأرز والثمار . ولم يفه بوذا بكلمة ، ثم خرج . فلحقه ناندا . وسارا معاً حتى وصلا إلى أبواب المدينة . وكان الأخير يفكر في نفسه ويتساءل : هل جُنّ أخي أو أنه أراد أن يرسمني راهباً ؟ ويبدد هذا الصمت قول المعلم : « أحبك يا ناندا كما يُحِبّا الرهبان لأني أحبك وأرغب في إنقاذك . فهذه عقيدتي » .

٣٥ ـ وانقضت ساعات وساعات ، وناندا ما انفك مدهوشاً يفكر في كلام أخيه ، حتى جُنّ الليل ، وزوجة ناندا تنتظر عودة زوجها بخوف من تخليه عنها . لكنه رجع مع أخيه في تلك الليلة . وفي الصباح قاما بنزهة جميلة على ضفاف النهر المجاور ، وعند عودتها قرأت الزوجة في عينيّ ناندا تأثير السيّد عليه . وزار البيت كوتَدَنْتا رئيس براهمة المنطقة ، وقال لبوذا : « الناس يقولون إنّك المستنير ، ولو كنتَ بالحقيقة البوذا لما قدِمْتَ هذه البلاد إلاّ كملِكٍ في أبهة وفخامة » . وأجاب المُعلّم باسماً : « ألا تُبصِر عيناك ؟ لو لم تكونا كذلك لأبصرتا مجد الحقيقة وأبّهتها » . وتلعثم كوتَدَنْتا ، واضطرب مجيباً بحدّة : « أظهِر لي الحقيقة ، فأراها . وما عقيدتك إلا طيف سيزول ، وهي تفتقد للصلابة والوحدة » .

ـ الحقيقة خالدة ولن تزول أبداً .

ـ واعترض كبير البراهمة : يزعمون أنك ترشد للقانون الصحيح رغم أنك تحتقر العبادة ، والشعائر ، والاحتفالات الدينية ، وترفض التضحية في المعابد مدعياً أن ليس هذا هو التقى الحقيقي ولا التديّن . وإني أؤكد أن الأضاحي والقرابين مع الورع تؤلف جوهر الدين .

ـ التضحية ؟ ردّ بوذا متعجباً ، هل هي أفضل من قتل الحيوان؟ ثم قال :

إنّ الذي يضحّي بميوله السيئة ونواياه الشريرة يعرف جيداً عدم جدوى التضحيات والقرابين والورع والتزهد . فمن يجتثّ هذه الرغبات الوضيعة يطهّر قلبه وينقيه . إنّ كل فردٍ قادر على نزع الحياة ، ولا يقدر أحد على منحها . تحب المخلوقات البقاء ، وتكافح بغريزتها في سبيل ذلك . فكلّ تضحيةٍ بالحياة تغدو مخالفة للطبيعة ، وعقيمة الجدوى .

ـ والشفقة ؟

ـ الشفقة هي ـ أيها الحبر الجليل ـ صنعةُ اللطْيف مع الضعيف ، والنبيل مع القويّ . نحن نتوسّل شفقةَ الآلهة ورحمتها بغير أن نمارس ذلك إزاء الحيوانات التي هي تحيا تجاهنا كحياتنا تجاه الله . لا يقدر الفرد أبداً على تطهير روحه بالدم ، فإذا كانت الآلهةُ طيبةً رحيمة فإنّ الدم لن يكون مقبولاً لديها . ولو كانت جبارة طاغيةً لما كفى الدم ليجعلها تُشفق علينا أو تجعلنا من أخيارها .

وسأل الحبرُ البرهميُ : هل تعتقد أنّ الروحَ تتقمص ، وأنها تتطور في مجرى الحيوات المتتابعات ، وأنها بخضوعها لمبدأ السببية يجب عليها أن تجني ما زرعته ؟

ـ ولماذا سألتني عن هذا أيها الصديق الطيّب ؟

ـ قيل لي إنك تعلّم عدم وجود الروح ، وإنّ أحبارك يأملون وينشدون التلاشي الكامل كأقصى نعيم في النرفانا .

ـ ما زال المستقبل يقلقك أيها البرهمي ، وأنت تعذّب نفسك عبثاً . فما زال قلبك متعلقاً بالشخصية الفردية ، ترغب في السماء وتبحث عنها في اللذائذ . وهذا ما يخفي عنك الحقيقة الأبدية . وأنا جئتُ كي أبشرَ بالحياة ، لا لأعلّمَ الموت . وأنت لا تميز بين الحياة والموت .

ـ وأين النرفانا ؟

في كل مكان ، أجاب بوذا ، وحيث نطيع الناموس .

ـ إذن ليست هي في مكان ، ولا وجود لها ، ولا حقيقة .

ـ أين تسكن الروح ؟ أين منزلها ، فهل هي غير موجودة وليست إلا وهماً ؟ فكّر يا صديقي . واعترف كوتدانتا بانهزامه . ولكنه استأذن في سؤال آخر : ـ إذا لم

تكن الروح معروفة فكيف تكون خالدة ؟

ـ إنّ ملكة التفكير عندنا هي التي تزول ؛ لكن تبقى أفكارنا . التفكير ينتهي ، والمعرفة تبقى . تتوقف فعالية الروح ، ولا تتوقف معه أفكارنا . والحال هنا كمن كتب رسالة على ضوء شمعة : فإذا أطفأ الشمعة تبقى الرسالة مكتوبة رغم الظلمة . إن النشء الفكري يتوقف ؛ أما المعرفة فإنها لا تزول . ولا تفنى ثمرة أعمالنا الصالحة .

وبقي كوتدَنْتا صامتاً . وتابعَ المبارَك : ما يكوّن شخصيّتَكَ هو نتيجة أعمالك في حيواتك السابقات ؛ وفي حيواتك القادمات سوف تجني ما تبذره أعمالك في شخصيتك الراهنة .

ـ أيها المُعلّم ! يبدو لي أنّه ليس من العدل في شيء أن يجني آخرون بعدي ما أبذره أنا في الوقت الحاضر .

ـ تخيّل انساناً سيء التربية ، لم يُهذَّب في طفولته ، وكان كسولاً عابثاً في شبابه . ألا يجني هذا مغبة مسلكه السيء بحجة أنّ شخصيته في طفولته ليست هي نفسها في شبابه أو شيخوخته ؟

ـ لن تجد مكاناً في الأرض ولا في السماء ينجيك من مغبة أعمالك غير الصالحة . كما أن عواقب الصالحات لا تفنى ، فالطيّبات الصالحات لا تزول .

وأجاب البرهمي : إني مؤمِن بعقيدتك أيها المُعلم ! لكن كيف أعرف طريق الحقيقة الأزلية ؟ لقد حفظتُ غيباً كل كتب الفيدا ولم أجد شيئاً .

ـ اتقان حفظ الفيدا شيء لا بأس به ، أما المعرفة الحقيقية فلا تُدرَك إلا بالقلب . الطيبة والمحبة عمودان يقوم عليهما معبد الهناء الداخلي الدائم .

. . . وتبوّذ كبيرُ البراهمة .

٣٦ ـ وكان بوذا في عامه الأربعين .

٣٧ ـ فليتّبعْ كل منكم قلبه ! وليرجعْ إلى قلبه ليدعو للتعاليم السمحة . الألم كالنار التي تلتهب بألسنتها قطعات الحطب القاسية . أطفِؤها ، وتخلّصوا منها !؟ ألغوا الألم فتكسبوا الخلاص . إنّ أبواب النرفانا مشرعةٌ لمن زرع

الفضائل ، فجنى المحبة . كلّ الوسائل المتبعة للحصول على النعمة الدينية . وكلّ الطقوس المتبعة للتقرب من الدين ، لا تساوي عُشْرَ قيمة المحبة التي تحرر القلب . المحبة تنيرُ ، وتشع ، وتتألّق . وهي أفضل بكثير من تقديم القرابين والتضحيات في المعابد . . . فَلْتعمُر قلوبنا بالمحبة . ولنساعد بالمحبة على تحرير القلوب المتعبة ، ولنحصل على المحبة ، ولنستعملها بحكمة وتعقل . المحبة تعتقنا ، إنها تُحرِّر . المحبة خلاص .

٣٨ ـ وكان المُعلّم إذا دخل مدينة أو قرية صرخ النسوة في وجهه قائلات : هوذا الراهب الأكبر الذي يُخرِج أزواجنا عن دينهم . ولم يكن يأبه للجماهير وهي تسخر منه ، أو تشتمه . بل يقول لأصحابه : ثابروا على دعوتكم ، فالحقيقة تقنع الناس لا القوة . ولا تبالوا بعنفهم تجاهكم .

٣٩ ـ ويقول للبراهمة : « ما نفع ثيابكم النظيفة وشعركم المجدَّل ؟ الداخل هو الأهم ، وداخلكم نجس . وأنتم لا تُطهِّرون سوى خارجكم » . وهاجموه بشدة . إلا أنّ نجمه كان يسطع ، ويخبو نجمهم . وأظهر للعالم أجمع خبثهم ، ومكرهم ، وفساد عقيدتهم .

٤٠ ـ وأشاد في بساتين أناثبندكا مدينةً دينية مكوَّنة من دير ، ومخادع للنوم ، ومخازن ، وغرف للاجتماعات . وفي سبيل ذلك جمع التبرعات ، وحسنات المؤمنين ، متلقياً بيده اليسرى الهبات الخيرية . وسمعت بالخبر إحدى المؤمنات ، فهرعت إلى حيث الاحتفال . وكانت تأكل تفاحة بقي نصفها في يدها . ولما رأت أنها لا تملك سوى نصف التفاحة قدمتها للمُعلم ، فتناولها الكبيرُ بيده اليمنى شاكراً وهو يقول : نعيش من الصدقات . أعطوا مما تملكون ، فأبواب النرفانا مشرعة أمام الذين بذروا الفضيلة . فأولئك يجنون المحبة .

٤١ ـ كان ساريبوترا المحترَم يتجول ذات يوم في شوارع راجغريها ، والتقى في طريقه برجل قال إنّ اسمه هو أساجي . وترافق الاثنان . وأعجب ساريبوترا بهذا الإنسان الطيب ، ولشد ما كانت دهشته عندما طلب منه الحسنة . ثم عرف منه ساريبوترا أنّ أحد أفراد السكيا ، وهو رجل مستنير ، علّمه عقيدة تدعو للخلاص . وإنها عقيدة تُختصر في أنّ الرغبة والشيخوخة والموت أسباب الألم . ومن الممكن إزالة هذه الأسباب ، وما يخضع للولادة يخضع للموت . والحق

ساريبوترا بالمُعلّم ، وتبوذ . وصار من الصحابة الأوفياء .

٤٢ ـ وجاء المُعلم رجل عجوز يدعى نقولابتي وقال له : « أيها السّيّد ! أشعر أنّ أيامي دنت . فأنا مريض ومتألم ، وقد جئت أرى إذا كنتَ تقدر أن تهبني الصحة والشجاعة » . .

ــ ألا تلاحظ أيها الأب الجليل جسمَك الناحل ؟ أمِنَ المعقول أن تطلب الصحةَ لعدة أيام ؟ إن الواجب هو أن تقول لنفسك : « إن روحي قوية ، وإن كان جسمي ضعيفاً » . ونهض نقولابتي وكأنه رجع شاباً . وسار بدون عصاه ؛ ثم حيا بوذا مودعاً ، وخرج . ورأى شفاء نقولابتي بعض المريدين فتهامسوا : إنها معجزة أخرى من معجزات المعلم . واعترض بوذا بقوله : كلا ! إنها معجزة الإيمان .

٤٣ ـ ومن ياتافا جاء برهمي في ثياب بيضاء ؛ وسأل المعلم : ما هو السيف الذي لا يضاهى والسمّ الذي لا سمّ أشد منه ، والنار الأشد التهاباً . وما هو أكثر الليالي حلكة ؟

ــ الكلام هو أشد السيوف قطعاً ، والشهوة أشد السموم زعافاً ، والملذات الحسية أشد النيران اضطراماً ، والجهل أحلك الليالي .

ــ من هو الرابح الأكبر ، والخاسر المكابر ؛ ما هو السلاح الذي لا يخرق ، وما هو أصلب الدروع وأمضى الأسلحة ؟

ــ وأجاب المُعلّم : الذي يعطي دون رغبة في الأخذ هو الرابح الأكبر ، والذي يأخذ بغير أن يعطي هو الخاسر الأعظم . والصبر خير درع ، والحكمة أفضل سلاح .

ــ أخبرني الآن عما يجذب ، وعما ينفّر . ما هو أشد الآلام وأحسن الرضا ؟

ــ تذكّر أيها البرهمي أنّ الخير هو الذي يجذب ، والشر هو المنفّر . والألم الأكبر هو السلوك المسيء ، والتحرر أحسن الرضا والبهجات .

ــ ما هو المسبّب لخراب العالم ، وماذا يحطّم الصداقة ؛ وما أشد الحمّيات حدة ؟

ــ الجهل يخرب العالم . الحسد والأنانية يصدعان الصداقة . الكراهية أشد الحمّيات وطأة .

ــ عندي شكٌ واحد أيها المُعلم : ما الذي لا يُحرَق ، ولا يُغلَب ، والقادر على بناء العالم بأسره ؟

ــ المحبة ، ومكسب الأعمال الصالحة .

وباحترام جليل انحنى البرهمي أمام المُعلّم الصالح ، وقال : إنكَ وجدتَ الهناء والسلام الروحي . قانونك صحيح ، وقلبك كبير . ورجع البرهمي إلى بلده مسروراً ؛ وسألوه عن تبدله وسروره فأجابهم : لقد ورثت بالأمس كنزاً ثميناً .

ــ وأين هو ؟

ــ إنه في قلبي[1] .

٤٤ـ في كوسينارا حيث كان الناس يستقبلونه بابهة واحتفالات . كان ينهض في ساعات الصباح الأولى ليتأمل . ثم يحادث تلاميذه ، ويردّ على أسئلتهم ، ويسير معهم في شوارع المدينة لجمع الصدقات . أما طعامه فكان يقتصر عادة على الأرز وبعض الثمار .

٤٥ ـ وترك كوسينارا يصحبه أناندا . وسارا حتى التقيا فتاةً جميلة تحمل جرة على كتفيها .

ــ ما رأيك بالنساء أيها المُعلم ؟

ــ يا أناندا يجب على الرهبان الابتعاد عنهنّ . فهن خبيثات ، وكيدهن عظيم . وعلينا أن لا ننظر إليهن ، ولا نكلمهن ، ونأخذ حذرنا منهن . واستدعته ذات يوم مهابرجابتي قائلة : منذ آمنتُ بك وجدتُ الطمأنينة . وإني أرجوك أن تُدخِل في الجماعة جميع النساء ليجدن السلام . ولم يقبل المُعلّم رغم

(١) أهمية المحبة في بعض الفلسفات الحديثة هي ـ كما في الأوغسطينية وما إليها ـ في المنزلة الأولى . لها تلك المنزلة في نظام الوجودية المؤمنة (غبريال مارسيل ، مثلاً) ، وعند فلاسفة الشخصيانية مثل عمانوئيل مونيه ، نيدونسيل ، مادينيه ، إلخ . . . ونرى هنا النظرة الصوفية للطقوس ، وللعبادات الجوانية ، ولإعطاء القلب الأهمية الكبرى .

إلحاحها ، وإلحاح أناندا . إنما شاء للمرأة أن تبقى في بيتها دون أن تحيا حياة الرهبان . ومن الممكن لها الحصول على الخلاص ما دامت تتبع وصايا قلبها . . . لكنه قَبِل ، أخيراً ، أن تتكوّن جماعةُ الراهبات المؤمنات .

٤٦ ـ وخرج من راجغرايها متوجهاً نحو بناريس ، يصحبه تلاميذه . وكان استقبالهم حافلاً في عاصمة البراهمة إذْ كان الناس يشيرون إليه : هوذا الملك الشحاذ ؛ بينما يجيب آخرون : هوذا الرجل الطَّيِّب القلب . وفي ساحة المدينة جلس الجميع على معبد سيفا . وقال المُعلّم : « من نزع من نفسه الكبرياء وحررها من الأدران حسدته الآلهة على غبطته الكبرى . فلنعشْ في بهجةٍ كاملة . فنحن نعرف الحقيقة ، ولا نملك من حطام الدنيا شيئاً » .

٤٧ ـ وذهب لزيارة أحد الأديرة التي يسكنها جماعة من الرهبان البوذيين . كان يودّ إجراء رقابة على مدى انضباط أفراد السلك ، وطاعتهم للقانون .

وأعجب بحياتهم المنعزلة ، وإيمانهم الشديد بالدين . إلا أنه توقف عند حجرة ذات باب مغلق . قَرَعَه ، فسمع صوتاً ضعيفاً يدعوه للدخول . كان فيها راهب عجوز غارت عيناه ، ووهنت قواه ، ويئنّ من الأوجاع . وشكا العجوز إهمال الكهنة . . . ساعده المُعلّم على تسويه فراشه ، واعتنى بأمره . ثم أنّب رئيس الدير على إهماله للمريض ، وقال : « لا تنسوا أنّ هذا المريض يفتح ضمائركم ، ولا تنسوا أنكم لن تدخلوا النرفانا بدون المحبة » .

٤٨ ـ وفي عودته من الدير التقى جماعة من الشبان يتسلّون بتعذيب سمكة في غدير . فاقترب المعلّم منهم ، وقال : ألا يخشى الواحد منكم الألم ؟

ـ نعم ! إننا نخاف الألم ، أجاب كبيرهم !

ـ إذن لماذا تعذبون هذه السمكة ؟ فهي مثلكم تتألم . وتناول من يدهم السمكة والقى بها في الغدير قائلاً : اتركوا الحياة لمن هو في الحياة .

التجربة الهندية في تقديم البطولة
بوذا كبطل شعبي - ديني في الأساطير والرموز والتعاليم

من التجارب الإنسانية الهندية
بوذا في الأسطورة والرموز والتعاليم
أواليات نَظر الأممِ إلى أبطالها ومؤسِّسي الدِّين فيها

١ ـ بوذا ، المعنى والقصد ، المستنير والمخلِّص ، أوالية التفوق والإشعاع :

بوذا كلمة تعني الحكيم ، المستنير ، أو المبارَك . ويَظهر أنَّ الفيدا ، وهي كتب البراهمة « المقدَّسة » ، تبشِّر بحكيم يجدِّد ما طمسه الزمن من معالم الدين البرهمي ، وينقّي ما علق به بتوالي الأجيال . فنرى سواد البراهمة ، والكهنة الراسخين في دراسة الفيدا ، يتوقّعون مجيء حكيم يكون فادياً ، مخلّصاً ، مهديّا[1] . ومن المعروف جيداً أنَّ بوذا نفسه أشار ، في آخار حياته ، إلى أنه ليس أول البوذات ولا آخرهم[2] . لذا نرى البوذيين حتى الآن ينتظرون ظهور حكيم من بينهم يأتي ليخلّص ، ويهدي ، بأن يطهِّر الدين ويجدد التعاليم .

كان معاصرو بوذا على استعداد لقبوله ، إذْ عرفوه من خلال تعاليمه الإيمانية أو الروحية ، ومن زهده في الجاه ، وإصراره على كلمة الحق ، حتى لو كانت لا ترضي الملوك والأمراء والكهّان البراهمة وطبقتهم المتسلطة والمقدسة باسم إدعائيهم أنها مخلوقة من رأس براهما ، من أشرف عرقٍ وأنبل جزء في الإله .

. . . عرفوه من السيرة المستقيمة التي تميز بها طوال أعوام دعوته ، وشعّت في محيطه ؛ وشاهدوا في النور الذي أشرق من أخلاقياته حقيقة ما بشّرت به

---

(١) إنجيل بوذا ، ص ٧٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٦٥ .

أسفار الفيدا من تأثيراتٍ له وتأثير في الأمم .

٢ ـ اهتداؤه ، التعبير القصصي عن مراحل تطوره ، أوالية التميّز والتحول :

بعد قرون من تأسيس البرهمية ، نخالها خمسة عشر قرناً ، وفي القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وُلد بوذا رجل الخير والمحبة[1] ، الداعي لخير الفرد ومصلحة المجموع ، وللتكامل الفردي المستمر ، المتوجّه برسالته إلى كل قلبٍ وكلِ طبقة ، كل لونٍ وأمة ؛ بانفتاحٍ ومحبة .

عاش ٢٩ عاماً كولي العهد لأبيه . . . ثم طرأ عليه ما بدّل مجرى تفكيره ومن ثـم سلوكه ؛ فأخذ يفتّش عن الوسائل التي تدفع أخطار الأمراض ، والشيخوخة ، والبؤس ، والموت أي الوسائل التي تحطّم سلسلة التناسخ الرهيبة التي آمن الهندوس بأنها في أساس الشر والنقص وبأنها سبب الألم والتعاسة في العالم .

وما هي إلا سلّة أعوام ، سلخها منقطعاً للتأمل ، ومراقبة الذات ، والتفكير في العلل التي أثمرت الشر والكوارث ، حتى أصبح حكيماً يكتشف سر النجاة ، ويهتدي بطريق السعادة . فقد تجول ، وتحول ، وتزهد وهدى وأرشد .
فها هو مثلاً يهبط مدينة بنارس منادياً : إليّ إليّ أيها « المتعَبون »!!! وهكذا فعَبْر حياةٍ وتعاليم متميزةٍ نلاحظ أنّ بوذا علَم من أعلام التاريخ العالمي ، ومعلّم إصلاحٍ روحي واجتماعي . إذْ أصلح ، أو حاول إصلاح ، ما انغمس به البراهمة من تقاليد ويقينيات خالوها ديناً ؛ ووضع الأسُس التي أقام عليها محاولو الإصلاح بعده ما أقاموا ، وأثّر في الفكر العالمي لا سيما الروحي ؛ ولا يزال أتباعه المعاصرون يعدون تقريباً بالملايين يذكُرونه كلّ يوم ، ويسعون للاقتداء به من حيث تكوين أو تقويم الروح والبدن ، الفكر والسلوك ، العالَم الباطني الخاص والعالَم الخارجي الإجتماعي .

---

(١) تلفّ الأساطير مولده . تقول إحداها ، على سبيل المثال ، إنه أعلن فور ظهوره إلى هذا العالم أنه سوف يخلّص البشرية من الخطايا والشرور والعذابات . وتقول أخرى إنّ خوارق عديدة مشهودة جرت يوم مولده ؛ وإنّ مجموعاتٍ وفيرة من البراهمة جاءته وسجدت له ، بل إنّ طريقة ومكان ولادته ليسا مألوفينْ ويكشفان عن أعجوبة . . .

ولئن شكّ بعضهم في وجوده ، أو خالوه فكرةً هندية لبِست بالاستمرار ثوبَ حقيقةٍ وواقع ، فالثابت أنّ بوذا شخص وُجِد ، ودعا لعقيدة ، ثم مات مخلّفاً تعاليم منفتِحة ، وطريقة في بناء الإنسان ، ونظرةً للعالم تخطّت حدود الهند أرضاً وروحاً .

لا يصحّ الأدّعاء بعدم حاجتنا إلى الانتفاع من بوذا . وعلى الذين خنقوا أنفسهم بدخان الدائرة الضيقة ، وحجبت الخيمة عنهم أشعة شمس الحقيقة ، أن يحرّروا أنفسهم ، ويتمردوا على قيود الموروثات التقليدية . لا بدّ من الانفتاح على معتقدات الآخرين . بل إن الكتب الدينية نفسها التي بين أيدي الجميع تدفعهم لهذا التحرر : فمثلاً في القرآن ﴿ **وبشرّ عبادي الذين يَستمِعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾» ؛ وفي الانجيل : « امتحِنوا كلَّ شيء » ولنتذكّرْ ، أيضاً وأيضاً ، أن الحكمة ضالة الإنسان أينما وجدها التقطها ؛ وأنّ هذه الحكمة ليست خاصة بقوم ولا بأمة ، وليست حكراً على دين أو جماعة . فالحكمة ، تلك السلوكات والأفكار التي تعمل لخلق الإنسان والمجتمع الأفضلَيْن ، تنتمي إلى الإنسان ؛ لا إلى إنسانٍ معينٍ أو إلى حضارة واحدة ووحيدة .

٣ ـ بوذا والوحي في الفكر العربي الإسلامي ، أوالية العالمية :

من المعروف أنّ الهنود ، قبل بوذا ، يرون « الوحي » للإظهار ممكناً . وكذلك فقد رأى أهل اليونان أنّ سقراط يستمع هاتفاً يوحي له ، وينفخ في روعه ، ويقذف في نفسه الرشدَ ويلهمه الصواب . وحصلت الظاهرة نفسها ، أو ما يحاكيها ، عند الكثير من حكمائنا الكبار : هذا الصوفي أو ذاك ، الغزالي ، العرفاء (العارفون) ، الأئمة الراشدون في الحكمة والاتصال بالله ، الخ . . .

وإنجيل بوذا يصوّر المتنوِّر المهتَدي متعرّضاً لأشعة الوحي . والبعض من الباحثين ، في الفكر العربي الإسلامي ، يرون أنّ بوذا « حين تكلّم ما تكلم كانت روح إبراهيم متقمصة به » ، أي هم يرون بوذا مجدِّداً لما طمسه الدهر من وحي إبراهيم ، وداخلاً من ثم في دائرة الرُسُل الذين لم يقصصهم القرآن .

لقد آمنتُ ، ذات يوم ، بفكرةٍ تتلخص بالقول إنّ بوذا قد يكون رسولاً ، أو مصلِحاً ، يقرّه الإسلام وإنْ لم يرد إسمه في القرآن . فهذا الكتاب الكريم ليس سجلاً تاريخياً متسلسِلاً يعتني بتدوين الحوادث ؛ بل يقتصر على الكليات ،

والخطوط العريضة ، والنداءات إلى الروح والخير تاركاً للدارسين والمؤمنين حق الاستقراء والاستنتاج . فهؤلاء قد يرون إبراهيم ، من نافذة الكتب الثلاثة ، أمة . يجدون في القرآن ﴿ أني جاعِلُكَ للناس إماماً ﴾ ، وفي سفر التكوين[1] : « تتبارك فيك جميع قبائل الأرض » ، وفي سفر غلاطية[2] : « لتصير بركة للأمم » . بل يرون حكماء الصين (أمثال : لاوتْسو ، كونفوشيوس) وحكماء الهند (أمثال بوذا وغيره) وحكماء فارس (أمثال زرادشت) يرددون صوت إبراهيم ، ويجددون ما اعترى وحيه وتعاليمه ، ويرون الجميل من تشريع حورابي مستقى من تعاليم إبراهيم ، وينسبون البرهمية لإبراهيم نفسه إذْ لم يكن هذا الأسم ، في تخيلاتهم ، موجوداً بالهند قبل القرن الذي عاش به إبراهيم ، ولا يفسرون احترام الهنود والمجوس للكعبة؟ إلّا لاعتقادهم بقداسة يد إبراهيم التي أقامتها .

وفق هذه النظرية ، التي نجد لها أتباعاً كثيرين في الفكر العربي المتدّين إسلامياً ، فإن الإنسانية كانت في صدرها الأول موحِّدة ، سليمة العقائد . ثم وقع الإنسان في الشرك لأسباب وظروف عديدة . لكني أرفض التفسيرات اللفظية والافتراضية التي تأخذ إبراهيم كآب للبشر أو كمتوافق مع براهما . وأنا لا أرى أن تلك النوافذ ـ نوافذ الكتب وتشويهات التاريخ وآثار الأمم ـ تؤيد هؤلاء الأدعياء وأولئك المفترضين أنّ إبراهيم مجدِّد بوحيه ما هدمته الأزمنة من معالم وحي إدريس ونوح ، وأنه يلتقي عن طريق الوحي والإله مع قدماء حكماء الهند (من أمثال : كريشنا) بالنقاط الجوهرية الثلاث ·

أ / معرفة الله الواحد والمطلق ؛

ب / خلود الروح ؛

ت / محبة الإنسانية والانفتاح على البشرية كافة .

صحيح أن تلك النقاط الثلاث هي « نقطة البيكار » التي يلتقي عندها الرسل ، والأنبياء ، وفلاسفة متفوقون ، والحكماء الألهيون ، وإن تغايرت أزمانهم وتباينت ديارهم ولغاتهم . لكنها ليست قطعاً نتاج وحي سماوي فقط أو ، على

(١) التكوين ، ١٢ : ٢ .

(٢) غلاطية ، ٣ : ١٤ .

الأقل ، ليست وقفاً على أديانٍ موحِّدة . فهي على سبيل المثال مبادىء عامة جداً ؛ ونجدها متوفرة في تركة بوذا وسواه من الحكماء كزرادشت[1] ؛ وكنفوشيوس . ولا عجب أن يلتقي الرسل والحكماء الآلهيون ؛ إذْ الحقيقة لا تتغير ، وإنْ تعدّدت الأساليبُ وطرائق الأداء . ومنذ القديم قال الفلاسفة الإسلاميون بأنّ العقل البشري يبلغ دون الاستعانة بالوحي مستويات رفيعة من الحقيقة بل ويصل إلى الحقائق المنزلة والدينية كافةً بمفرده .

في الفكر العربي الإسلامي أدرك عدد من المتنورين وحدة الأديان العالمية الكبرى ، ورأوا أن لجميع ما يعاصرنا من الأديان والفِرَق أصلاً سماوياً . هذه النظرية ، وإن لم تصدق تاريخياً أو علمياً ، فإنّ ما يهمّنا منها هنا هو أن تكون دعوة مستقبلية ، وصوفية عملية ، لذلك الاتحاد . من الصعب أن لا أترك اليوم أخيولةً آمنتُ بها قديماً عن الأصل الواحد للعقائد والنبع التوحيدي ، أو عن كون الأساس في الديانات هو التوحيد ، وإنّ الشِّرْك طارىء ولاحق . لكننا جعلنا ذلك ، في نظريتنا ، قمة وغاية أي دعوة للمستقبل . لا نظرية عما كان بل نظرة لما يجب أن يكون . لا بد ، في نظرنا ، من السير بالعقائد التي تعمل لمصلحة الإنسانية والإنسان ، سواء كانت أدياناً أم فلسفات ، صوب التفاعل فيما بينها والتضافر لتحقيق إنسانية كل إنسان وكل ما في الإنسان .

٤ ـ تميّز تلاميذه ، عالَمية دعوته وإنفتاحها على العالَمين كافة وعلى كل إنسان :

لبوذا تلاميذ أوفياء ، مضحّون ، حريصون على تبليغ الأمانة التي تطوعوا لحملها . وما كاد ينتدبهم لتبليغها حتى انبثوا في أطراف الهند النائية ، بل تجاوزوها للصين ، وفارس ، ثم لبلاد العرب أيضاً .

وعلى هذا كان بوذا أول حكيم في العالم أخرج تعاليمه من دور التبشير المحلي إلى العالمي : جاب حواريوه وأتباعه أطراف العالم المتحضر ، المعروف

---

(١) انتشرت الزرادشتية في فارس والعراق وأطراف جزيرة العرب الشرقية وسورية الشمالية . را . : النويري ، نهاية الأرب ، ١٧ ، ٢٧٧ .

حينذاك ، يبلّغون الناسَ والأمم الجوهرة البوذية المثلثة : بوذا والقانون والاجتماع .

شق بوذا الجدار الصفيق الذي ضربه معاصروه من البراهمة واليهود الذين رأوا سواهم غير جديرين بالتمتع بأشعة التعاليم الحية ، مدّعين أنّ الله منحها قوماً دون آخرين . لقد أمر بوذا بإرسال أشعة تبشيره لمطلق مكان : وهكذا رأينا صحابته ومبشّريه يجتازون حدود الهند ، والصين ؛ ويهبطون فارس ، وديارنا العربية .

٥ ـ الكتُب المقدّسة ، الهالة واللاتاريخي في خطاب البطل :

قد تُعتبر الفيدا كالعهد القديم ، وانجيل بوذا كالعهد الجديد . وتحديد زمنٍ دقيق لظهور تلك الكتب أمر صعب ؛ وشبه مستحيلٍ هو الإثبات بدقة لأسماء وتواريخ مؤلفيها . فعلى سبيل المثال ، إن كتب الفيدا قد أعادها قوم لستين قرناً ، وآخرون أعادوها لخمسة عشرة قرناً . . . وفي كلا القولين مبالَغة إلّا أنها أسفارٌ مباركة سبقت عهد بوذا ، دون ريب ، بزمن بعيد ؛ وأُحيطت بالكثير من الرمزي والقداسة والإيمانيات .

٦ ـ نوع من الخلود في الإنسان ، « إنجيل » (؟) بوذا :

رأى بوذا ، قبل سقراط ، الموت مقدمة للحياة فأعلن خلود « الروح » ، وتراكم المعرفة في سيرها نحو الحقيقة .وجاء في إنجيله : « الأحياء يتبدلون ، والحقيقة باقية خالدة بقاء الأبد ؛ الأفكار تضمحل ، وأما المعرفة فتبقى »[١] . وبقليل من التفسير المعاصر ، ومع شيء من سحب المصطلحات الهندية صوب المصطلحات الدينية والفلسفية التي يعرفها العرب ، فإننا نستطيع عندئذ القول إن الباقيات ـ في البوذية ـ هي الحقيقة . و « الروح » تبقى تتعاقب على الأجسام حتى تنال نعمة تكفير الذنوب ، فتحظى بالانطفاء الذي يخلّص الإنسان من العودة المتكررة إلى الحياة . كأن بوذا ، كما نرى ، يسلك هنا الجادة الوسطى : فلم يَرَ الروح عائدةً لعَين الجسم الذي فارقته ـ كما كان يرى قدماء المصريين مثلاً ـ ولم

---

(١) إنجيل بوذا ، صص ١٦٨ ، ١٧٢ .

يرها تموت بموت الجسم كما يرى الصدوقيون وشهود يهوه .

كان البرهمي في عصر بوذا يرى نفسه ريشةً معلقة في الهواء ، كمن يلقي أثقاله على عاتق القضاء والقدر . لكن بوذا حررهم - أو رسم الكليات التي تكفل تحريرهم - من هذا الوهم قائلاً :

« رجل الشهوات هو عبد لشهواته »[1] . . . ؛ « أعمالنا هي التي تنتج الخير والشر »[2] ، الخ . .

وصرّح في مواقف عديدة بأنّ الإنسان يملك زمام نفسه : يستطيع العروجَ بها إلى أوج الكمال ليمنحها مركزاً مرموقاً ، أو الانخفاض ليهوى ويصبح ليس شيطاناً فحسب بل ومعلّماً للشيطان . الإنسان ، في هذا المنظور البوذي ، قادر : يستطيع أن يكتسب كل فضيلة ، وأن يخدم مجتمعه ، وأن يجعل من نفسه مستنيراً ، مرشداً خالداً ، شبه إله بل وإلهاً لها . . .

ومن جهة أخرى رنا بوذا إلى أن يحرر الناس من أوهام التواكل . وقد دفعهم للعمل الحيوي ، والانخراط الجدّي والواقعي ؛ وأفهمهم أنّ الإنسان هو مصدر أعماله ؛ وحذّرهم من طرح التبعات على عاتق القدر والصدف كما كان يفعل معاصروه من البراهمة أو كما نجد في بعض المفاهيم للعالَم والإنسان المتخلفة والكسولة .

٨ - الدعوة إلى الأمل والرجاء في البوذية ، رسالةُ غسْل النفس ورفْعِها المستمر بالإيمان والتزكية :

جاء في الرؤيا الثامنة من الرامايانا : « حذارِ أن تطفىء في نفسك شعلة الأمل ؛ فالخالق لا يسقِط شيئاً حتى يُنهضه » .

تبدو تلك الدعوة قاعدة من القواعد الفردية والإجتماعية التي نشر بوذا أريجها على جميع الناس ودعا إليها . فهو قد قرأ الحياة مشحونة بالآلام والكوارث ، ورأى أنّ ما نناله منها من راحة لا تعدو رفع الألم . فخفّف من أوزار

(١) و(٢) إنجيل بوذا ، ص ٥٨ .

النفس ، وأفسح لها مستقبل الأمل المكافح لتستطيع اجتياز صراط الحياة بسهولة وأمان ، وأعلن أن الأمل رحمة للأفراد في معاشهم ، ورصيد للنفوس التي كبَت في ميدان الحياة فيجدد نشاطها ويخلع عليها ثوب ولادة جديدة . بكلام أوضح إنّ في البوذية ، كتجربة في السلوك الفردي نحو التكامل المستمر ، توقفات كثيرة ومحطات أَمَلِيّة ورجائية تؤكد إمكانية غسل الأخطاء وتجاوز السقطات وتجسيد إنسانية الإنسان .

حاول ملوك وإقطاعيون وتجار روح ـ في عصر بوذا ، وما بعده ـ أن يحولوا دون شعاع بوذا . . . لكن الأمل الكبير ، الذي كان يفعِم قلب المُعلِّم الكبير ، تغلّب على العقبات وذلل المصاعب .

باختصار ، أشاد بوذا على أُسس الأمل العامل برج مستقبل البوذية الروحي والزمني ، وعلّم الناس كيف يضعون في باب الأمل ثقيل أحمالهم ، ويجدون به بلسم آلامهم ، ويتحررون من شوائب الماضي وهفواته ومن الشر والرذائل . بذلك يستطيعون نيل الثقة بالذات والشعور بالقدرة على تكوين الإنسان لنفسه وبنائها وفق معايير الخير والحق ؛ فتلك روحية الرسالة البوذية .

٩ ـ لا طقوس في البوذية ؛ رسالة روحانية مثالية في خلاص النفس :

مما نشدد عليه كون مهمة بوذا تربيةً للضمير ، وتنقيةً للمجتمع من الغَيِّ والشر أو جرثوم الفساد الذي دعاه : راما ، الشيطان . . . ولم يعْنِ بهذا الاسم إلاّ القضاء على رذائل « الأنا » ، وعلى شرّ الأنانية الكامن في النفوس متحفزاً ومحاولاً الإفساد . وفي العقيدة الهندوكية عموماً ، كما هي الحال عند بوذا ، فإن هذا الأنا هو عدو الإنسانية الداخلي أو خصمها الذي يستلزم الإجهازُ عليه معركة يعلنها الشخص على رغباته « المنحطّة » وميوله الغريزية . وهكذا جدّد المُعلم الوسائل الناجعة المؤدية إلى قتل ذلك « الأنا » ، وأعلن أن هذا يخنس ولا يغفل ، ورأى النصر على هذا العدو طريقاً يفضي إلى « الجنة » التي يبحث عنها المؤمن كثيراً ، ولكن لا يجدها إلاّ في هذه الدنيا ، هنا ؛ وفي هذا الملكوت لا في غيره . . . ولا يحصل الإنسانُ على خلاص نفسه ، ولا يتغلّب ويتحقق ويتزكى ، إلاّ في النصر على الشهوات والأهواء ؛ ومن ثمّ بالسيطرة على النفس سعياً وراء حالة نفسية متزنة ، وانطلاقاً نحو غاية بعيدة هي الانطفاء ، « النرفانا » ، الخلاص

والانعتاق .

انتدب المعلم المؤمنين لهذه المعركة ؛ ورأى جائزة المنتصر سعادة مزدوجة حسية ـ وروحية . هنا ركن الدين (أو السلوك الروحي والأخلاقي) البوذي الأول والأخير . أما الابتهال لمطلق قوة ، أما النذور ، والأضاحي ، والترانيم ، والمحروقات ، فقد خلا منها توجيه المعلم[1] .

١٠ ـ إصلاح الأسرة وشأن المرأة :

جاء في الرؤيا الثامنة : « لا تَنْسَلْ إلاّ من امرأة واحدة، فالرجل والمرأة واحد في نظر الله » ؛ وجاء أيضاً :

« لا تقترن ببنات أمك مخافة أن تُنقِص عدد أخوتك ، ولا ترجع ذلك الدم إلى منبعه مخافة أن لا تنمو وتتكاثر » .

ومنذ عهود سحيقة ، أدرك بوذا أنّ الزواج من الأصول والفروع سبب من أسباب انقراض الأسر ؛ فأشار ـ وقد سبق بهذه الإشارة ـ لهذا الخطر ، وحذّر منه بتلك الكناية اللطيفة .

١١ ـ من الوصايا المقدسة ، مبادىء أخلاقية وتعاليم :

« لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزْنِ ، لا تكذب ، لا تشرب خمراً » هذا ما اتفق عليه بحاثو تركة بوذا . أما بقية النهايا ، التي يراها بوذا أقلّ شأناً من هذه الوصايا الخمس ، فهي أيضاً تعبيرات أخلاقية تدعو إلى أسمى المواقف . وهي ـ كالوصايا الخمس الأولى ـ ذات أوامر خمسة هي :

« لا تَشِ ، لا تحلُفْ ، لا تبدّد الوقت بالهذر ، لا تحسد ، لا تشهد زوراً » . وضمن النظرة السلوكية الشاملة فإنّ بوذا يدعو هاتين الخمستين : شروراً عشرة .

ومن المبادىء الأخرى في الرسالة البوذية ، المبادىء الرئيسية والمنظِّمة للحياة والمجتمع ، هناك الحقائق المستقيمة ، والصفات الستة ، والخمسة الثالثة التي

---

(١) م . ع ، ص ٣٩ .

سنراها أدناه (الفقرة : ٢٦) . وتلك الحقائق المستقيمة هي :

١ / الإيمان بالقلب ، والمحافظة على الأسس الروحية ؛

٢ / التفكير الذي يبدد الأوهام والشكوك ؛

٣ / السعي لغايات نبيلة ؛

٤ / طلب العيش من طريقٍ شريف ؛

٥ / حفظ أعمال الناس الجيدة وتناسي أخطائهم ؛

٦ / مزْج الحياة بالحياء والعفة .

تبدو هذه الحقائق كالفاتحة بالنسبة للمسلمين ، أو هي بمثابة « أبانا الذي في السموات » [الصلاة الرّبيّة] بالنسبة للمسيحيين ؛ إذْ لا يجوز أن يجهلها بوذي واحد .

أما الصفات السّت فهي : الصدق ، طهارة النفس ، العلم اللامحدود ، القوة ، الصبر ، محبة الجميع . ولسنا الآن ، هنا ، بصدد التعرّض أو التقييم لتلك الحقائق وهذه الصفات .

١٢ - اللاتناقض في التشريع البوذي ، الحبّ وأغراضه الشمولية ، « أدبيات » البوذيين المعاصرة :

لقد ملكت محبة الإنسانية والروح المثالية نفس المُعلم فودّ لو صعد الناس معه سلّم المثالية ليتخذوا من ضميرهم حاكماً ، ومن وجدانهم جندياً ليستغنوا عن القضاة والحكّام . وفي دراسته وتدبُّره للسلوك البشري لاحظ المُعلم وجود الإنسان الضعيف ، ووجد أمامه قوماً مهزومين أمام شيطان الأنانية ، وعبادة الذات وصنم الأنا ؛ فأباح إقامة قضاةٍ وجلاّدين لهؤلاء المتخاذلين فحسب .

وهكذا فإنه صَبا لأن يوجّه سامعيه صوب تهذيب نفوسهم ، لينقلوا الأمانة للأجيال فتشعر بالقاضي والجلاد في ضميرها ، وتتحقق من أنّ الاعتداء لا يزول إلاّ بالحب وتضحية الأنانية . ان الحب للجميع هو قطب الدائرة في البوذية ؛ وهو بعيد الأفق ، عميق الروح . إنه سبّاق ؛ أساسي وتتويجي ، هدف ووسيلة ، يطال الناس وشتى الكائنات الحية .

فإذا ما رأينا بوذا ينهي عن إقامة قضاة ثم يعود فيبيح ذلك ، فلا ينبغي أن نرى تناقضاً . ذلك أنّ حكماء العالَم القديم في الشرق - لا حكماء حينذاك إلا فيه - عودونا التوجيه العاطفي ، والأسلوب الرمزي الذي يخاطب القلوب ومبدأ النسخ أي التغيير المطوِّر والمنفتح .

فبوذا حين أمر ، مثلاً ، بالرفق بالحيوان ذهب إلى درجة أنه نهى عن قتل الحشرة ؛ والمسيح حين نهى عن الزنى والقتل كمن جعل جزاء النظر للمحرم فقأ العين ، وجزاء الغضب القتل . وهما - بوذا والمسيح - لا يقصدان الوقوف عند حدود الحرْف إذْ أنّ هذا هو - كما قال بولس - يَقتُل .

وشرّاح انجيل بوذا حين شاهدوه يتناول من المرأة الفقيرة شطر التفاحة بيده اليمنى ، ويبارك الأيدي المحسِنة ، ويرى في خدمة الناس ومساعدتهم ومحبتهم وسيلة تدفع لسعادة الحياة ، روّجوا مبادئه ؛ فقالوا :

١ - « دعوا خبزكم على عتبة كهوفكم للجائعين ، واتركوا بعض الثمار على غصونها لعابري الطرق »[١] .

٢ - « اقسم الأرضَ بينك وبين أخيك ، فالله لم يتقاضَ منك مثالها » .

هؤلاء الشرّاح لا يريدون إلا جوهر التعاون الكامن بهذين النصينّ المثاليين اللذين ستتأخر البشرية حتى تجعلهما من النصوص الواقعية ، من النظُم والمؤسسات ، من القوانين الوضعية التي تحكم المجتمع والإنسان والعلائق .

إذن فشريعة بوذا تأمّل ، واعتبار ، وتربية ضمير ، وصولةٌ على « شيطان » الأنانية وعلى « إبليس » النفس بسلاح المحبة والجذب والأحاسيس النبيلة الخيّرة . إنها تبقى - رغم بعض سلبياتها - ارتفاع بالإنسان ، وعملٌ على رفعه صوب الغير وحبّ الناس ،وليس الانقفال للذات على الذات .

١٣ - نظام اللاطبقية في التشريع البوذي ، المجتمع المنفتح :

وتظهر القيمة التي يوليها بوذا للإنسان في رفضه لنظام الطبقات ولمفاضلة

(١) يلاحَظ أن المعنى موجود في العهد القديم ؛ لكن بوذا ينظر إلى عابر الطرق بعين عالمية ؛ ويراه العهد القديم بعينٍ قبَلية اسرائيلية ، متعصِّبة ومتترجسة .

الناس حسب سلّم أصلهم . فقال : « ليس المنبوذ منبوذاً بالولادة وليس البرهمي برهمياً بالولادة بل بالأعمال[1] . وهذا قول هو فعلاً قفزة ، وهذه الثورة من بوذا رد جليل على البراهمة الذين يرون العالم ثلاث طبقات :

أ / طبقة البراهمة : رجال الدين المخلوقين من عين براهما [برَهْمة] ؛

ب / طبقة الملوك ، والحكّام ، والموظفين ، والتجار ، والأعيان ، والمثريين ، المخلوقين من ثديي براهما (كشاتريا) ؛

ت / طبقة المنبوذين النجسين (الشودرا)، المخلوقين من أعضاء براهما السفلى .

لقد مَرّ أنّ تصنيف الطبقات نظام برهمي يرتدي ، قبل بوذا ، رداء دين ولا يستطيع أحد التمرد عليه . وجاء بوذا فأنكر هذا النظام المجحف ، ونادى بالقضاء عليه واستهزأ بما لاقاه من الطبقة الأولى والثانية من معارضة وتآمر . صعب أن نتصور مفاجأة الناس - جميع الناس - حينذاك من دعوة - هي ثورة - إلى هدم النظام الطبقي . ولم يكن مرض نظام الطبقات هذا يعتري البراهمة وحدهم بل كان عالمياً : ذلك أنهم في اليابان ، مثلاً ، كانوا لعهد قريب يرون ملوكهم من سلالة الآلهة المتجسدة بالشمس . ومصر، لم تكن تكتفي بتأليه الملوك في هذا العالم بل كانت ترى جنتهم في سفينة الشمس ، وجنة سواهم في الأرض . وفارس كانت تقسم الشعب إلى : ملوك ، كهنوت (موبذان) ، مرازبة . أما سوى هذه الطبقات الثلاث من الفلاحين وصغار الباعة وذوي المهن فلا يساوون في الحياة نقيراً . فالأرض والظروف وتطور المجتمعات عوامل كانت في جذور نظام العبودية ، ولم تكن الدعوات النادرة لتقويضه ذات صدى . فلنتذكر ، بعد أيضاً ، أنه رغم كل ما نسج حول قيمة اليونان كانوا يقولون بلسان كبار فلاسفتهم أرسطو : سيدوم نظام الطبقات (العبودية) ما دام المغزل بحاجة إلى من يحركه . واليهود - علاوة على نظام الرق الذي يفتح العهد القديم صدره له ، ويقيم تشريعاً يميز الرقيق العبراني عن سواه - يباركون نظام الطبقات ، ويرون لبني لاوي (اللاويين) ميزات لا يزال يشهد بها سفر اللاويين . وإذن فقد جاء بوذا حول

---

(1) إنجيل بوذا ، ص ٢١٩ .

نظام الطبقات بجديد ، وغريب ، بل ومستهجَن. لكنه نثر أقواله دون أن يدعمها بما يكفل تنفيذها . ولم نجد من ملوك البوذية من صمم على تنفيذها تنفيذاً عملياً . ولذا استمر نظام الطبقات لدى البراهمة بل ولدى البوذيين حتى تأسيس المذهب السيخي الذي أعلن مؤسسه نانَك وجوب إلغائه تماماً .

ثم استمر نظام الطبقات ، وعاش أبناء السودرا (المنبوذين) محرومين من الدراسة . حتى استؤنِفت حملة بوذا وناناك ، فأصدر مجلس إدارة بومباي عام ١٩٢٦ قراراً يخول أبناء المنبوذين حق دخول المدارس[١] . وكأن دعوة المعلم الكبير صفقت في عالم الفكر الخالد بكلمتها الخالدة : أنا بوذا الذي بكيت لبكاء إخوتي ، وانسحق قلبي لأجلهم ، أصبحت اليوم ضاحكاً لأن الحرية موجودة .

١٤ ـ عطْفُ بوذا على الحيوان ، غرض آخر من أغراض المحبة :

قال في إنجيله : « كونوا ودعاء مع البهائم فالله الذي خلقها يجب أن نحسن إليها . . . ، ولم يحرمها من ما بعض ما وهبنا » . ويعتبر بذلك بوذا السبّاق المجلي في ميدان الرحمة هذه ، ولو سمعه الذين يفخرون بتأسيس جميعات الرفق بالحيوان ، في الغرب ، لرأوه المؤسس الأول . ولا غرو فالهند ، عموماً ، ذات الفضل الأول في الدعوة للرفق بالمخلوقات ، ولعدم الأذية ، وحتى لعدم احتقار الحشرات مهما كانت درجتها سفلويةً في سلم الكائنات الحية[٢] .

١٥ ـ تشجيع بوذا للزراعة والغرس والعمل في الأرض :

تُنسَب للمُعلِّم بوذا ، السكيموني والمستنير والعارف ، أقوال كثيرة تبني الواقع وتُبقي في المجتمع : « لا تنزع الغصن من الثمرة فطوبى لليد التي تزرع ، وعار على التي تسيء » ؛ أو : « لا تترك الأرضَ عاريةً قاحلة فآباؤك رأوها خصبة عند مجيئهم » . هذا ما يوضح دعوته للاهتمام بالأرض ، والإعتناء بالأشجار والغابات ، لمنفعتها العميمة للإنسان وخاصة في الهند حيث تتكرر المجاعات . مما

---

(١) قدري قلعجي ، غاندي ابو الهند (بيروت ، ١٩٤٨) ، ص ١٧ .
(٢) قا :اهمسا / ahimsa .

يجعلنا ، إثر بعض العلماء لا نستبعد علاقات بين دعوات الزهد والتقشف التي كثرت في بلاد الغانج وبين الحاجة الاقتصادية والموارد الحياتية القليلة . ويقول ثاني ، نرى هنا تعاليم بوذا شمولية : تهتم بروح الفرد ، وأخلاقه ، وبسلوكه في مجتمعه ؛ ثم تهتم بالمجتمع وثروته ، واستمرار الجماعة ، وإعداد البيئة واستصلاح الأرض .

١٦ ـ الحثّ على العلم في الرسالة البوذية :

قد يمر على الإنسان ، برأي بوذا ، ملايين من الأعوام حانياً عنقه لدولاب التناسخ ، مجبوراً على العودة للجسد الترابي ، والمظهر المادي ، ومرتدياً أثواب مخلوقات متباينة .

لكن بوذا يرى وسيلة واحدة تدفع عن الإنسان خطر التناسخ ، وتمكنه من الولادة بجسم نوراني لا تشوبه أشباح هذه الأرض القائمة وينظر إلى هذا العالم نظراً مجرداً من الأهواء . تلك الوسيلة هي العلم ، غير المحدود ، الذي يشمل معرفة القوانين الروحية ، والطبيعية . . . والجدير بالتدبر والنظر هنا هو أن المعرفة ـ في البوذية ـ ذات دور بناء لا في حياة الإنسان وتطور المجتمع فحسب ، بل هي أيضاً ضرورية لجعل الروح ترتفع فوق الجسد وتتجه صوب الخلود بالمعنى البوذي أي صوب الخلاص من دولاب الحيوات المتكررة .

١٧ ـ اللاتعصّب والتسامح في الدعوة البوذية ، مبادىء مثالية أخرى في المعتقد البوذي :

هبط بوذا مدينة بنارس فأطفأ « النار المعبودة » ، وقتل « الحية المقدسة » لا بالماء والحديد ، بل بالحكمة ، والعقل ، والدراية ، والتوجيه الحسن ، والتقويم السليم . والحقيقة ، ان البوذية هي العقيدة الوحيدة التي قل ما نجد حدوث حروب ومعارك بين فئاتها . بل ان التسامح والمحبة ركنا البوذية وأساسها ، وهذا ما اتصفت به ؛ وما تزال ترى فيها قيمة سامية قادوة على النفاذ ، وتخليص الإنسان وتوجيهه صوب ما تراه الصراط الواضح والموعِد .

١٨ ـ عدم الانقطاع عن الطيبات وعدم التخلي ، ضرورات العيش في المجتمع :

دخل بوذا مدينة بنارس ، فاستقبلته ألوف العباد والزهاد الذين سلخوا عشرات الأعوام من حياتهم يصولون على الجسد تطهيراً للجوهر . فالهنود الحكماء والمرشدون يشددون على الانقطاع ، وترك المجتمع ، والانتقال إلى الحياة في غابة بعيداً عن الناس [را : أعلاه ، مراحل حياة البرهمي] .

استقبلوه ليناقشوا ويجادلوا ، لكن إن رمنا إستعمال بعضاً من كلمات صحابته الطنانة قلنا : بهرتهم حكمته ، وأسكتهم منطقه ، وسلب ألبابهم توجيهه . . . لقد منحهم الدواء الشافي مركباً من هذا النص :

١ ـ « والعناية بالجسد واجب ، وإلا فلا نقدر أن نظفر بالحكمة ونحفظ عقلنا قوياً صافياً »[١] . واعتُبِر هذا أمراً إداً ؛ فليس الجسد ، في الحكمة القديمة وفي الهند تخصيصاً وبشدة ، سوى عائق . ظنّوه عدو الحكمة والكمال .

٢ ـ « إن من ينقطع إلى الغابات متنسكاً مبتعداً عن العالم فانقطاعه باطل »[٢] . وهكذا دعا أولئك الرهبان إلى رشدهم ، وعَلَّمهم أن الانقطاع عن تناول ما يقوّم العقل والجسم باطل إن لم يتحرروا من داء الأنانية ، وأدركوا أن النسك والانقطاع عن ميدان الحياة فرار من معركة فرضتها الحياة . وهنا تكمن ثورة ؛ هنا بدأ الفكر الهندي في الانعطاف باتجاه إعطاء نظرة جديدة وتغييرية على التعاليم الدينية واليقينيات البراهمانية .

١٩ ـ اللارهبانية في الرسالة البوذية ، الفضيلة توسّط ، المرأة :

رأى بوذا السلامة توسّطاً مستقيماً ، وجادّة سليمةً بين هاويتين خطرتين هما الإفراط والتفريط[٣] . وأقام الفضيلة والطريق العدل وسطاً بين متناقضَيْن ونادى

---

(١) إنجيل بوذا ، ص ٥٩ .

(٢) م . ع . ، ص ٦٥ .

(٣) م . ع . ، ص ٥٨ .

بأن يضمّ الشخصُ لحواسه الخمسة عقلاً كي تصبح بمعرفته واستشارته حواسا ستة ، وطرق المعرفة الستة[1] .

لم يجعل بوذا من الرجل محتكِراً للمرأة وللدين والمعرفة . وهنا ، على رغم قلة الوضوح ونقص الأوامر القطعية ، فإننا نستطيع القول إنّه ناهض التعدد ، والطلاق ، وحرمان المرأة من العلم والدين ؛ وبارك زواج الواحدة وزواج رجال الدين ؛ ونثر تعاليمه على النساء والرجال ؛ وناهض العقلَ البرهمي الذي يرى الرهبانية ديناً له وحده ، وخاصاً بطبقته ودمه .

٢٠ ـ امتزاج البوذية بعقائد سابقة عليها ، تفاعل وتطور :

من المعروف أنّ العقائد المتأصلة في النفوس والمجتمعات لا تزول عند الانتقال إلى دين أو معتقدات جديدة . بالعكس ، فإذا اعتنقت أمة ديناً جديداً أو نظراً جديداً حاولت أن تجعل الجديد نفس القديم . وقد لا تُبْقي من الجديد إلا الإسم والصورة إذ تلوّن به قديمها : تمزجهما معاً بروحها وأمانيها ، بواقعها وظروفها .

ومعلوم أنّ أمماً كثيرة ، كالبراهمة والشنتو وسواهما من الأمم التي انغمست في الطارئات بعد عهود مؤسسيها ومجدديها ، قد عرفت رايةَ بوذا في الهند ، والصين ، وجزر الملايو ، واليابان ، وفارس ، ونَزْرَةٌ من بلادنا العربية الخ . . . ومن ناحية أخرى ، نرى أن هذه الأمم كان منها من يعبد الله حالاً ، أو متجسداً ، أو مثلث الأقانيم (راجع : التثليث الهندي) ، أو مُتَصَنِّماً ، مصينَماً ، ومتوثِّناً ، الخ . بعد اعتناق البوذية ، احتفظت تلك الأمم برواسب شتى من عقائدها القديمة : فرأينا من البوذيين من يعود للثالوث البرهمي الشهير (برهمة وشيفاوفشنو) ، ويضم له اقنوما رابعاً هو « بوذا » . وهناك من كان يضم لثنويته التقليدية بوذا ويراها ثلاثة مقصودة من كلمة بوذا (بوذا والقانون والإجتماع) . ومنهم من حافظ على أصنامه الموروثة نفسها زاعماً أن بوذا يجسدها ، وروحه حلت بها ؛ فيطوف حول أصنام محلاة بالذهب والأحجار الكريمة . ومنهم من يقيم قبراً موهوماً زاعماً أنه قبر بوذا ،

(١) م . ع . ، ص ٤٧ .

يعكف على عبادته أو يقيم معبداً يحوي هذا الأثر وذاك من رفات المُعلِّم ، الخ . . . لم تبقَ ، إذن ، عقيدة بوذا نقية أو حسب التعاليم الأساسية للسكيموني ؛ فقد شابتها وما زجتها العقائد السابقة عليها هندية ، أو غير هندية وخاصة بالأمم التي اعتنقتها . فقد كانت البوذية من الرحابة بحيث تتسع لعقائد كل معتنق لها ، ومتحول إليها .

٢١ ـ وفاة المعلم ، قبوره المعبودة ، اختلافات وتراكمات على العقيدة :

اتفقت الروايات ، ومنها إنجيل بوذا نفسه ، على وفاة بوذا ـ بعد عمر دام ثمانين عاماً ـ وفاة طبيعية ؛ وعلى أنه قد جرى حرق جثمانه . وفي العقيدة البوذية إنه انتقل من الوجد إلى الخلاص التام ؛ إلى النرفانا حيث الصمت وحده يحيا . ولفّت الأساطير بأرديتها وفاة « البَطَل » ، المبارَك ، الجدير ، الكامل ؛ فقيل إنّ الهواء أصبح آنذاك مضيئاً ، وصدحت موسيقى حزينة ورائعة مجهولة المصدر ، وفاحت رائحة خلابة . وقيل إنّ الشمس كُسِفت آنذاك ، وأنّ الظلام خيَّم . . .

وقيل إن بوذا شاهد نمرة جائعة فوهبها جسمه رحمة بأولادها (لاحظ المعنى والرمز) . وخال البعض أن جوهرته المثلثة لا تعني بعده إلا احترام الرماد الذي أبقته النار من جثمانه . لذا جمعوا ذاك الرماد وأقاموا عليه سبعة قبور ، ثم أخذ بعض الملوك ذاك الرماد وأقام عليه ثمانية وستين قبراً . ثم بوركت القبور ، وأصبحت تملأ الديار البوذية المترامية .

٢٢ ـ لا معابد ولا هياكل إبان عهد بوذا :

تعاليم بوذا ـ كما يقدّمها البوذي المعاصر ـ أشعةٌ تنقّي النفوس من الأنانية ؛ وتعلّم التسامح ونكران الذات ؛ وتنادي بالمحبة . . . لكن الأمم المتعددة التي شكّلت البوذيين أدخلت من نافذة التأويل وجوب إقامة هياكل ومعابد ؛ كما أنها أبقت على ما سبق ، ونقلت إلى المعتقد الجديد ما عرفته في أديانها القديمة من الطقوس والنواقيس ، والأسرار ، والتجسدات ، وحفلات الرقص الديني فرحاً وتقليداً للكواكب السيارة السابحة حول أمها الشمس . بل أصبح الدالاي لا ما نفسه ، على سبيل المثال ، يطوف بأوثانٍ تكاد تضيق بها مدينة اللامات المقدسة : لهاسا .

٢٣ ـ التعبير بالصورة والأسطورة ، عظمه قلَم ودمه حِبر؛ خرافات أخرى ذات دلالات تعليمية ورمزية :

معروف أن الفكر الهندي بشكلٍ خاص ، أو الفكر الإنساني في مراحله الأولى أو الهادف خاصة إلى التعليم ، يعبّر بالاستعارة والأسطورة والرمز . لم يقِف صانعو المبالغة والكنايات عند حدود الإيمان بأنّ المُعلّم كان حريصاً على كتابة ما ينفع لجماعته ، بل صاغوا ذلك بالقول التعبيري وبالأمثال والرموز بأن المعلم كان قطع من جلده رِقّاً ، وبَتر من عظمه قلماً ، واتخذ من دمه مداداً ليكتب جملة حرص على تدوينها وهو بغابة لا ورق فيها ، ولا مِداد وأقلام .

أما الأيقونات والصور التي تُبرزه ذا رؤوسٍ وأذرع عديدة[١] ، فهي ترمز إلى فضائله وصفاته وقدراته التي تدلّ وتهدي وتدعو إلى سلوك الطريق القويم[٢]. نقول الأمر عينه عن الصور والأيقونات والتماثيل التي تقدّم بوذا ، أو إحدى تجسّداته ، بعينٍ ثالثة تقوم في وسط جبينه وبرابعةٍ تَظهر في راحة كفه[٣] . وفي ذلك النوع من التعبير والتعليم نجح الفكر الهندي ؛ والفكر المتديّن عموماً .

٢٤ ـ وعظه مفهوم بلغات كثيرة ، الرمزي والتأويلي :

في الأخبار أنه لمّا هبطَ بوذا مدينة بنارس استهل خطبته الشهيرة بقوله : « سعيدٌ سعيدٌ هو الذي يرى الحقائق ؛ سعيد هو الذي يرى الجوهرة المثلثة : بوذا ، والقانون والإجتماع » !!! وتتابع الأخبار فتقول : . . . وما أن أتمّ خطبته حتى تَبَوَّذَ جمهور ، وفرّ آخرون قائلين : « سنلجأ للجبال ونبحث عن مثوى بين الأرواح الضخمة ؛ وهناك نشيّد صوامع لا تزورها حكمتك » . إلا أنّ بوذا أجابهم بلهجة الحنان والشفقة قائلاً : « الأمان موجود في صحبتي ، وجوار قانوني ، وديني » .

هذا ما رواه الناس في إنجيله . ولكن العقلية أو الشرائح التي تتغاذى مع الرمزي أو الذين يعبّرون بالاستعارة والقصة ، ويحرصون على التعليم بالرمز ،

---

(١) M. Percheron, Le Bouddha et le bouddhisme, PP. 35 -

(٢) Ibid, 108 - 109

(٣) Ibid, 132 - 133

قدّموا هذه الخطبة بقولهم ذي الدلالات الرمزية الكثيرة : لقد كان وعظه مفهوماً بلغات ولهجات كثيرة . ولقد فهمه جميع سامعيه دون ترجمة . . . ومن المعبِّر انّ مثل هذا القول الرمزي عن كلام بوذا نجده ينسب إلى بعض أبطالنا الشعبيين ، وإلى بعض حكمائنا الصوفيين . وذاك ما يعني أنّ هذه الظاهرة عالمية ، يتوصل إليها الإنسان في عراكه مع الطبيعة وفي إسقاط أمانيه على بطلٍ خارق . وهنا أيضاً تجربة أصلية نمطية ومعروفة في الإناسة وفي أواليات التكيّف غير المباشرة .

٢٥ ـ نقش التعاليم ، فن هندي متقدِّم :

محبة بالتعاليم البوذية ، وتقديساً للمعلم ، نُقِشت بعض أحكامه الشهيرة في الصخور . ربما تناسى كثيرون من الملوك والأمراء البوذيين قتْل « شيطان » الأنانية الكامن في نفوسهم ، فاكتفوا بحفر تعاليم بوذا على أعمدة ؛ وذلك تخليداً لذكراهم من جهة ، ولذكرى المستنير من جهة أخرى . فتعددت الأحجار ، ولا يزال بعضها محفوظاً في مدينة الله آباد ؛ وهناك نقوش تعود إلى الملك البوذي الشهير : آسوكاAçoka

٢٦ ـ المبادىء الخمسة الثالثة ، رجال الدين :

أثّر بعض الشرّاح للبوذية في تحريف الكلمات وتنويع الأحاديث ؛ ثم كدّسوا وغيّروا مُدخلين التآويل التي يتبرأ منها بوذا ؛ وآخرون من الأتباع والتلاميذ منحوا أنفسهم ثوب بوذا نفسه ، وجاؤوا بخمس وصايا نسبوها له وهي : لا تأكل على شبَع ، لا تنظر إلى المشاهد المغرية ، لا تلمس الذهب ، لا تَتطيّب ، لا تنمْ على سرير واسع .

هذه « المبادىء » الخمسة ، دون ريب ، من الزيادات الطارئات التي طرأت بعد بوذا أو تأولته ؛ إذْ هو نفسه أكل من الطيبات ، وارتدى ثوباً موشىً بالذهب ، وتطيّب ، ونام على سرير واسع ، وسمح لتلاميذه بارتداء الحلى المزركشة وبالتزيّن . وهنا نرفض أيضاً قولَ بعضهم بانّ هذه الخمسة أرادها بوذا مقتصرة على رجال الدين ؛ فهذا مردود إذ أقام المعلم داراً للتلاميذ تدفع عنهم شر الفقر ، والتسول ، والعري ؛ وبارك مؤمنةً تبرّعت بتشييد تلك الدار .

إن القوانين بسيطة سهلة بالنسبة للعامة ، صارمة بالنسبة لرجال الدين إذ

أنّ « جريمة الكبير كبيرة » ، و« إذا فسد الملح بماذا يملح » كما قال السيد المسيح .
لكن هذا لا يدفعنا لأن تكلف رجال الدين ما لم يكلفهم بوذا نفسه . ولا معلومات كافيةً تجعلنا نأخذ بوذا كرجل منقطع عن المجتمع ، ودعا إلى التخلّي عن الواقع ، ونادى برفض الجسدطمعاً بالانعزال وبلوغ الروحي المحض ، وطبّق السلبية إزاء الناس والأسرة والعياني .

٢٧ ـ عقيدة عدم التثليث والتثنية في البوذية ، « أدبيات » :

كثيراً ما يطلق إنجيل بوذا على علة العلل إسم : دهارما (دارما / Dharma) ؛ ويصفه بسيّد الخير . كما يطلق على أصل الشراسم راما ، ويقصد به في الظاهر ما نقصده من ألفاظ مثل : شيطان ، إبليس ، خصم غير منظور ؛ وهو يعني الرذائل ويرمِّز بذلك مرض الأنانية . وذلك لأنّ إنجيل بوذا لا يرى في دهارما وفي راما إلهيّ خير وشر كالعقيدة التي يراها كثير من الأمم القديمة وبقاياها من المعاصرين . لكن الشراح من الثنويين الذين شكلوا البوذية ، وأصبحوا بتوالي الأجيال مفسِّرين ومَراجع ، فسرّوا لفظتي (دهارما وراما) على ضوء موروثاتهم ؛ فرأوا الأول إلهاً للخير ؛ والثاني إلهاً للشر .

وسرعان ما تأقلم وتعمّق ذلك التفسير الذي صادف هوى واستعداداً مسبقاً في نفوس الأمم الثنوية . . . وهكذا أصبح البعض يرون (راما) يساوي (راكيها) لدى البراهمة ، و(يزدان) لدى المجوس ، و(بيغو) لدى سكان سومطرة . . .

كما أخذوا يرون (دهارما) مساوياً إله الخير الذي هو لدى البراهمة ثلاثة أقانيم هي : برَهما وسيفا وفشنو ، ولدى المصريين ثلاثة أقانيم هي : ايزيس وأوزيريس وهورس ، ولدى سكان صور أدونيس وعشتار وملكرت . . .خلت البوذيةمن أنواع التعدد التي تراها بعض الأمم كالخاموس والسابوع والتاسوع . أما الرابوع الذي نراه لدى بعض معاصرينا من البوذيين فليس من الأصل بل هو من الطوارىء اللاحقة المتراكمة والمتأوّلة .

وأخيرا إن الحديث عن البوذية ، في أثواب متعددة لها أو في أماكن مختلفة تأصلت فيها ، يستدعي شيئاً عن عقيدة الثنوية التي امتصت إيمان كثير من الناس فحمل رايتها ، مثلاً ، الزرادشتيون الذين رووها باستعارات كثيرة وأحاطوها

بكثير من القصص التشبيهية مثل :

اهرمن وهومز وليدا زروان (الزمن) ؛ وبينما كانا حملاً في رحم أبيهما نذر هذا الأب أن السيادة ستكون لمن يرى النور أولاً . فاحتال اهرمن إله الخبث ، وخرج قبل هرمز الطيب الكريم[1]. فتألم أبوهما وعز عليه أن يبدل نذره ، ولذا جعل موعد سيادة اهرمن تسعة آلاف عام ، تعود بعدها السيادة للإله الخير .

إذن ، إلها الخير والشر منذ فارقا أباهما (زروان) ما يزالان بحرب عديمة الهدنة ؛ وما يزال إله الخير مهزوماً . وكثيراً ما وصفت الملاحم الفارسية ـ المجوسية هذه المعارك ، وزعمت أن الملك كيومرت قُتِل جندياً في صفوف إله الخير . وما يزال « البارْسي » يرون إله الشر رمزاً لفكرة الشرّ ؛ ويتخيلون أن ليس قابلاً للوجود مجرداً من الشر ، إذ هما ضدان يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر .

نعود هنا للقول السابق عن أخذ راما أثواباً جديدة ؛ لقد أوّله الشراح بما لم يقصده بوذا . وصار له وظائف كثيرة تخدم الفرد الذي يُسقِط أخطاءه على كائن غير منظور فيتحرر من المسؤولية والإثم ، ويتنفس الصعداء ويتطهّر .

٢٨ ـ ما وراء اللفظة ، استشفاف الرمز في الأساطير :

وصفوة القول : إن الأمم التي دخلت دائرة بوذا في أزمنة وأمكنة مختلفة ألصقت به من المعتقدات والترهات ما عكر نهر تعاليمه . وقد أوجزنا بعضها بهذه الفقرات أعلاه ، على سبيل النموذج لا الحصر . ومنها أيضاً :

١ ـ ولد بوذا ضاحكاً ؛ وأراد الملك قتله فيبست يده ؛ وألقاه في النار فلم يحترق[2]، ثم ألقاه في طريق البقر فأدفأته بقرة بأنفاسها ؛

٢ ـ رأت أمه حين الحمل به فيلاً أبيض يدخل رحمها ؛

٣ ـ سمعته أمه حين الوضع يقول : « أنا سيّد هذا العالم » . وعند الوضع اخضرّ العشب اليابس ؛ وظلل الأمَّ غصنُ شجرة اخضرت للتو ، وانحنى

---

(١) قارن : قصة بكورية عيسو ويعقوب في العهد القديم .

(٢) قا : الحالات المماثلة المعروفة في التصوف والإناسة .

صوبها[1] ؛

٤ ـ حملته خالتُه إلى المعبد ، فتهاوت أمامه الأصنام ؛

٥ ـ أحال الماء خمراً ؛

٦ ـ أعطى ولديه لبرهمي ، وزوجته لبرهمي آخر . . .

هذا وحسبنا أن نستكشف رموز هذه الأساطير ؛ ونعيد كل ترَّهةٍ لأصلها ولدلالاتها ، ونستلّ بوذا من بينها مصلِحاً، داعياً للمحبة والتنوّر والتحقق . وذلك كله من خلال قصص وأمثال وتوريات ؛ بل واستعارات وأساطير تخاطِب عقول العامة ، بقصد الدعوة إلى الأفضل في المجتمع والسلوك وللتعليم الخُلُقي .

كانت تلك التجربة في التعليم صالحة لأمة ، أو لأمم ، ضمن ظروف تاريخية معينة ؛ قامت بدورها ، وأدت خدمات ، ونسقت نظرة للإنسان والكون والمجتمع . ومن الطبيعي أن لا تؤخذ تلك التجربة إلا ضمن سياقها وأوضاعها العامة وإطاريتها السوسيولوجية ؛ عندئذٍ يكون الحكم عليها صائباً ، ويعطيها حقها كتجربة إنسانيةٍ تاريخية في الإصلاح البشري والنظر إلى الإنسان والمصير .

التعبير من خلال القصص والأمثال والأساطير طريقة في التعبير ليست هي الأفضل ؛ ولا هي الوحيدة ولا هي الكافية . ثم إنها طريقة ـ وإن تميزت بها الأديان عموماً ـ فليست في المجتمع المعاصر كلها مناسبة ولا هي للإنسان المعاصر أكثر من طريق غامض ، صوفي ، لذيذ دون وضوح ، وشاعري غير منوِّر ولا منوَّر إن لم يخضع للعقلاني وما هو قانون في الفكر والتطور .

منذ زمن بعيد ، صارت البوذية بوذيات . فأخذت العقيدة في اليابان ، مثلاً ، طابعاً خاصاً وإنْ لم تَبعد بعيداً عن خطّ المُعلم : إنها لا ترفض الواقع والمجتمع ؛ فهي تعمل على بنائها وعلى التحدي وإخضاع الطبيعة بغية السيطرة عليها واستغلالها لخدمة الإنسان ، ولتطوير الجماعات والظروف والاستقرار النفسي .

في تعاليم بوذا وسلوكه ما يمكن أن يؤخذ على أنه سلبي ، أو رافض

(١) قا : الحالات المماثلة المعروفة في التصوف والإناسة .

للمجتمع والناس ، أو إنعزالي وقساوة على البدن ومتطلبات الحياة البيولوجية . وفي تعاليمه ما يدل على دعوة الإنسان إلى الإهتمام المتغلب والقوي بالتصوف ، أو بالروحانيات ، على حساب كل شيء آخر .

وإنّ في إنجيله وعقيدته مصطلحات هندية خاصة لا تتوافق مع ما لهذه المصطلحات من دلالات في قاموسنا العقائدي والفلسفي .

وقد يجد البعض في فهمه للمحبة مستوى لا يجعل منها تلك المحبة التي تنادي بها المسيحية أو بعض متصوفي الإسلام (البسطامي ، رابعة ، الحلاج ، ابن عربي) . ربما كل ذلك صحيح إلى حد ما ، بل وقد نجد سلبيات أكثر أو مآخذ أخرى : فقد تؤاخذ على أنها لم تضع إلهاً في آخر المسار أولتوضيح المسار ، أو على أنها تلجأ إلى اليوغا كوسيلة وحيدة . لكن المهم أن نأخذ البوذية كتجربة تزيد تجاربنا الفكرية ، وتغني فهمنا للإنسان والواقع والخلاص الفردي والجماعي. وعلينا حين الحكم على بوذا أخذه في واقعه ، في ظروفه وتاريخه ، في فضائه . عندئذ ، وفي تلك الحالة ، نجد بوذا وليد ظروف هندية معينة بدا فيها بلا شك مصْلِحاً ، داعياً للإنهاض بالإنسان ولاستيلاد الأوضاع الأفضل . . . ونحن لا نقول إنّ البوذية حلّ لمشكلة الإنسان ، ولا إنّها نظرية في المعرفة وطريق خلاص للفرد لا محيد عنها ، أو إنها تصلح لكل زمان وكل أمة . . . فما أبعدنا عن هذه التعميمات ، وعن مقارنتها بفلسفات حية معاصرة . بل ونحن لا نراها ديناً نظير الأديان الثلاثة الكبرى ، بقدر ما تبدو لنا سلوكاً في الحياة ، أو منهجاً وعقيدة في العيش . البوذية تجربة إنسانية ، وطريق من الطرق التي نلقاها حتى اليوم متبعة عند بعض الأمم . وهي نظرة للإنسان من حيث سلوكه ، وأفكاره ، ونواياه ، وغاية وجوده ، ونسق قيمه . إنها ربيبة الفكر الهندي والأوضاع الهندية المعقدة والكثيفة ؛ لكنها تنفتح على الإنسان ، وعلى قيم بشرية خالدة .إنها تأخذ الإنسان كقائم هنا ، مكتفٍ في ذاته ، بغير ربْط له بعالم المطلق أو بعالم الغيب ، قادر على أن يصنع ذاته بذاته . . .

عرفها العرب قديماً ، وحاكموها كثيراً هي و «أديان الهند» الأخرى . وفي هذه الجولة من انفتاح العرب على العالم ، نجد أنه على الباحثين العودة للإطلالة على الأفكار العالمية أنّى كانت ، وأنّى مصدرها ؛ كي يدرسوها ويسعوا للانتفاع

من كل تجربة وكل عطاء بشري بدون انقفال ، ودون تحيّز ، ودون الظن أن لا فكر إلا في الغرب وعند الأمم الصناعية جداً . إنها عطاء « العقل الشرقي » ، ووجهة مسير ، ونظرة إلى الحياة وإلى قدرتنا على التحرر والتحقق ، وذات فهم للعالم والروح والأخلاق والمسؤولية الذاتية والتربية . إنها تدل على الطريق ؛ وتدعو للسير على أن يكتشف المرء بنفسه صدق ما تدعوه إليه وما تنادي به ، وعلى الأكتفاء بنفسه والتحكّم وحده بقدَره ومصيره .

إلى جانب ذلك كله ، نقدّم البوذية للدراسة حتى لا نظن أن لا فلسفة ولا سلوكات نظر ولا عقائد إلا في الغرب ، وحتى نظهر أو نرى أنّ العقل والفكر ليسا فقط سليليْ العقل الغربي النابع من العقل اليوناني ، أو المتحدّر من « خرافة » الأعجوبة اليونانية التي قلناأعلاه إنها كانت ظاهرة فكرية بِنْتَ ظروفٍ موضوعية لا خلقاً من عدم ، ولا تعبيراً عن عقلٍ فائق أو شعب رائق .

ونافع هو نقدنا لسلبياتها ، للآراء التي تطمس القيمة التي يجب أن تُعطى اليوم للوعي التاريخي ، وللعمل والجسد وما هو مادي والتزام . نقد التجربة البوذية في خلاص الفرد ، وفي الانعتاق ، ضروري إنْ شئنا استيعاب أخْذها للعالم والمعرفة وقيم الإنسان في المجتمع وأمام المصير البشري .

وبالكلمات الختامية نقول : إن تدبر البوذية يدفعنا صوب فهم للأديان السماوية فهماً أوسع ومختلفاً . فها هي البوذية تقدم بطلّها خارقاً من حيث الولادة ، والتأثير ، والفكر ، والسلوك و . . . ، و . . . ، الخ . وتقدمه بمفاهيم وطرائق تجعلنا ننظر أعمق وأوسع إلى الدين وتطوره ووظائفه ومستغليه وبنيته . ولعل هذه النظرة الجديد هي خير ما في مقالٍ عن بوذا ورسالته ومقاله في قدرة الإنسان على أن يحقق ذاته بذاته ، وأن ينجو ، ويتحرر ، ويخلُد . . .

٢٩ ـ السمنية ، طائفة بوذية :

نجد في التراث العربي الإسلامي ذكراً لطائفة هندية هي : السمنية . يقول البعض ، اليوم ، إنها غامضة[١] . لقد تكلم ابن النديم ، مثلا ، عن

---

(١) ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الإسلامية (بيروت ، الدار المتحدة للنشر ، الآفاق ، ١٩٧٤) ، ص ٦٠ .

السمنية[1] ؛ ويذكرها أيضاً البغدادي[2] وغيره . . . وأنا أرى أنّ السمنية هي طائفة الشرْامانا ، أي جماعة « الذين يبذلون الجهد » ، وهم الذين يكرّسون النفس للتنسك والتأمل . وهؤلاء ، الشرامانا ، وُجدوا إلى جانب البراهمانيين . أما كلمة سامانا (سَمَنَ ، بحسب النقل العربي القديم للفظة السنسكريتية) فهي تطور للكلمة السنسكريتية شرْامانا[3] . وبعبارةٍ أخرى فإن السمنية ، أو الشمنية ، أو السَّمَنَ ، أو الشَّمَن ، لقبُ جماعةٍ من الروحانيين البوذيين . هنا يُستدعى ما ورَد في العربية : السَّمنية الشّحّاذون[4] . ليست السمنية هي السامانية (الشامانية / Chamanisme) أي ذلك المذهب القائل بوجود نوعين من الأرواح (شريرة وطيبة) يملآن الأرض والسماء ، وبإمكانية الكاهن (وهو السامان) على ردّ الأرواح الشريرة واجتلاب الطّيبة بواسطة تأمل قبة السماء . وقد ذكر المسعودي السامانية . وكانت هذه عبادة الأتراك قبل الإسلام ؛ ومنها جاء اسم الدولة السامانية فيما بعد . تقول السامانية بالقتل ، ولا تخيف الإنسان من الشر ؛ وليس ذلك هو مذهب السمنية . وبين اللفظتين فرق في النطق ؛ وكان كل منهما مختلفاً عن مكان الآخر .

والخلاصة ، السمنية غير السامانية (دين الترك القديم ، والقائلة بنوعَيْن من الأرواح تحت سلطة السامان أي الكاهن) . فالسمنية طائفة بوذية . وقد اعتبرها البيروني وابن النديم ذات نزعة تشكيكية ، وتقول بان لا معرفة ممكنة خارج متناول الحس[5] .

(1) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٠٨ .

(2) عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفِرَق . . . ، بيروت ، دار الآفاق ، ١٩٧٣) ، ص ٣٤٦ .

(3) فيليوزا ، فلسفات الهند (بالفرنسية ، باريس ، ١٩٧٠) ، ص ٢٣ . وللكتاب ترجمة عربية بقلم علي مقلّد . انظر ، أيضاً ، مقبول أحمد ، العلاقات العربية الهندية (الترجمة العربية ، الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٤) ص ١٥٧ وخاصة ٢٥٥ حيث يقول : إن « شامانا » لفظه أتت من « سرامانا » الناسك أو المتزهد البوذي .

(4) الشحّاذ الهندي قد يعني المُعلّم أو الغورو (را : الفصل السابق حيث يحمل الراهب سلةً للاستعطاء) .

(5) ابن النديم ، ص ٤٠٨ ؛ البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٠ .

البوذية ، نظر وأسلوب عيش

النظر البوذي في الوجود أو في الإنسان وقيمه

بوذا الرجل والمصلح ؛ في التاريخ وفي الأسطورة
العقيدة والفكر

تنظيم المجتمع ؛ في السياسة والأخلاق

ما بعد بوذا ؛ عموميات ومقارنات

أعمومة : النظر البوذي في الوجود أو في الإنسان وقيمه

في البوذية دعوة إلى الانكفاء على الذات كي نعمِّرها ونَعمُرها بالصفاء ، ونقيم منها هيكلاً للحكمة ، ونحقق السعادة في الذات وفي هذا العالم : هي نداء لأقامة علاقات مع الغير تسودها اللاضغينة ، وتفعمها المحبة ، محبة كل المخلوقات . وهي حرب بالخير على الشر ، ورد للكره بنقيضه . وهي صوت للسلطة أن تَعدل ، وللحاكِم أن يعطي ذاته لشعبه . وهي صرخة إلى التوجّه صوب الإنسانية في الإنسان ، كل إنسان بغضّ النظر عن انتماءاته من لون أو طبقة أو دين . وهي قول عالٍ بأنّ الدم البشري أغلى من كل شيء مادي قيمةً وثمناً . لقد أتت البوذية متشبّعةً من الهندوكية ، وكحركة إصلاحية حاربت الكثير من الخرافات ؛ ورفضت طرائق الخلاص وشدة التسلّط الإجتماعي عند البراهمة . وجعلت السلوك القويم في الاعتدال ، وليس في إماتة الجسم ولا في التوقف الحَرْفي عند الطقوس والتضحيات .

لعل البوذية هي العطاء الهندي الكبير الذي تجاوز حدوده الوطنية ، ليجتاح مناطق جمة في آسيا ويبقى فيها العقيدة للملايين . هذا ، مع العلم بأنّ الإجابات البوذية عن المشكلات الماورائية ، حول الحياة والمستقبل والطبيعة ، غامضة ؛ بالإضافة أيضاً إلى قساوتها على الإنسان ، وإلى بعض سلبيتها ، وتشاؤمها .

---

(١) عن البوذية ، را : م . إلياد ، م . ع . ، ج ٢ (بالفرنسية ، بايو ، ١٩٨١) صص ٧٦ ـ ١٠٧ ؛ وصص ٢٠٤ ـ ٢٢٤ (را : أدناه ، المرجعية) .

M. Eliade, Histoire des croyances et des idées religieuses paris, payot, I, 1980.

كان وقت شكّ فيه البعض بوجود بوذا التاريخي ؛ لكن ذلك دُحِض ؛ فقد أثبتت النقوشُ والحفريات بطلان الإدعاءات ، ومكّنت من التعرف على مسقط رأسه ، وبانت بعض الأدلة التاريخية ، التي تعود للقرن الثالث قبل الميلاد ، تدل على عبادة بعض ما لم يُحرق من رفاته .

بوذا الرجل والمفكر ، في التاريخ والأسطورة

١ - بوذا الرجل والمصلح :

نسجَ الخيال الشعبي حول مولد بوذا - مثلما الحال بالنسبة للأبطال الشعبيين - العديد من القصص الأسطورية . لا نستطيع إغفالها إن شئنا توضيح المعتقد ، عدا عن كونها ما تزال تحيا في المؤمنين ، وعن كونها أساسية في الفكر الهندي المشبَع بذلك اللون من العطاء . هناك أجَمَةٌ من التخيلات والمعجزات التي تحيط بمولد بوذا وحياته . ولا شك في أن البحث الأجدى ينصب على مدلولاتها ، لا على صحتها أو إمكانية حدوثها الفعلي . فذلك عينه ما نراه بالنسبة للأديان السماوية ، وهو ما يطالب به المفكّرون الهنود المعاصرون .

من طبقة المحاربين ، من أسرة آلـ سكيا Çakya التي حكمت كبيلافستو Kapilavastu ، عند السفح الجنوبي لجبال هملايا ، في النيبال . لا يُعرف أصل الأسرة ، يَظنّ البعض أنها من الدارفيديين ، السكان الهنود الأصليين ؛ بينما يقول آخرون بأنها قدمت من بلاد فارس ، أو من بلاد شيثيا (أشقوز) الواقعة في شمال شرقي جزيرة القرم عند شواطيء بحر آزوف . . . كان لتلك الأسرة أمير يدعى سودهوداناÇouddhodona ، أي الإنسان الطيب والمحترم ، محبوباً وذا صفات مرموقة . تزوّج من مايادافي التي ستضفي عليها الأسطورة الكثير من الجمال والنبل ، ثم نسبت إليها حلماً فسره المنجمون بأنه سيلد لها ابن يحكم الدنيا ، ويسيطر على النفوس بالمحبة والرأفة ، ويكون ملك الملوك بالعطف والشفقة لا

بالجبروت . إلا أنه سيتخلّى عن العرش ، ويتزهّد . وسيكون مخلّصاً البشرية ، هادياً .

تُروى ولادته مغلّفةً بأجواء عجائبية ، سحرية الرداء . فأمه مايادَفي طريقها لزيارة أبويها ، وداخل حديقة ، داهمتها آلام المخاض . مدّت يدها لغصن شجرة (لمبيني) تستند عليه ، فانحنى الغصن من نفسه . استقبلت المولودَ الهة الجهات الأربع . ووطأ الأرض بقدميه ، وسار سبع خطوات وأعلن : أنا الأول في هذه الدنيا . وهنا يقال إنّ دلالات كثيرة ، ومعجزات ، وتغيرات في الطبيعة حصلت حينذاك : فرِحت الحيّات ، أنشدت العصافير ، انتشر الفرح أينما كان إلا عند مارا ـ أي الشر ـ ثم إنّ القديس أسيتا ، وهو ناسك صالح ، سمع حينذاك تراتيل في السماء ، وصوتاً يعلن عن مولد منقذ العالم . فهبّ الصالح شطر المكان المقصود ، تقوده العصافير حتى بلغ كبيلا فستو حيث هنّأ بالطفل باكياً ، مباركاً وساجداً له . ثم أثنى على المولود ، وعلى التعاليم التي سينادي بها بغية إنقاذ الأحياء من الألم والشر والجهل . . . وسُمّيَ الطفل : سيد هارتا ، أي الذي سيبلغ هدفه ؛ ثم ماتت أمه في اليوم السابع لظهور ابنها لهذا العالم .

تتابع الروايات حياته : يعيش في اعتزال ، يتميز بلطف ، بذكاء خارق ، الخ . . . ثم خوفاً من أن يترك العرش ، أشاروا عليه بالزواج . وبعد احتفال تغلّب فيه على جميع أخصامه وفاز بكل مباراة ، تزوج ياشدراها ابنة ملك القطر المتاخم ثم وِلد لهما راهولا .

٢ ـ إهتداؤه ، انتقاله إلى الدعوة والتبشير بالحقيقة :

أما تحول شيد هارتا واهتداؤه ، من بوذهيساتفا إلى بودها (بوذا) ، فكان رحلة كأداء : كان يُمضي حياة تأمّل وتفكر ، ويميل للانعزال رغم جهود الأب في إسعاد ابنه وإبعاده عن ميله لترك المباهج والقصور . في أحد الأيام ، التقى بشيخ هرم أعيته السنون ؛ فسأل الحوذي ، شانا ، قائلاً : هل الشيخوخة قانون عام يسري على جميع الناس ؟ أحزنه الجواب . ثم ، في اليوم الثاني ، التقى بمريض . سأل عنه شانا . آلمه الجواب ، وهو أن المرض يُهدّد الحياة ، وأنّ الصحة طيف عابر . وفي اليوم الثالث ، صادفته جنازة ، وبعد السؤال عن سبب بكاء المرافقين

قال للحوذي : يا لتعاسة الحياة . تهدّدها الأمراض ، وتضنيها الآلام ، وتتربّص بها الشيخوخة ، وتنتهي بالموت . لا بدّ من سبيل يحرّر . ثم ، في اليوم الرابع ، التقى براهبٍ عليه ملامح الوداعة والاطمئنان . . . ، ومتخلياً عن الأهواء والممتلكات . وأزمع على قرار : أن يكون « بكهو » ، أي راهباً ، أن يقتدي بهذا الحكيم . إذن ، في تلك الأيام الأربعة المتوالية ، رأى إشارات أربع ؛ ذلك أنّ الآلهة أخذت شكل الهرِم ، ثم المريض ثم الميت ، ثم الراهب . وفي ذلك المساء ، من اليوم الرابع ، أبلغ أباه بقراره . فحزن هذا ، وأقام له حفلة إغواء لم تنفع : فقد خرج من باب البلاط الذي فتحته الآلهة ، يرافقه الحوذي ، وحصانه كانتهاكا الذي فهم القصد توّاً ، والذي تعطيه الأساطير قدرات عجائبية . هنا بدأت نقطة التحول من بوذيساتفا ، أي الذي يَستيقِظ ، إلى بودها ، أي المستيقِظ ، أو المتنوِّر . وكان أول ما فعله ، بعد أن ابتعد قليلاً ، أن أمر الحوذي والحصان بالرجوع . مات هذا الأخير كمداً ، وحزناً على صاحبه الأمير . حلق الأمير المتخلي عن العرش شعره ، واستبدل ثيابه الثمينة بثياب صياد فقير ، لتبدأ حياته الجديدة . هنا شرع يتعلّم على أيدي البراهمة . كان هؤلاء يُعجَبون به وعادةً ما كان يفوق معلّميه الذين كان يتعرف عليهم من بلد إلى بلد : في مدينة فسيالي ، ثم في مدينة ماغادها ، وراجاغريها . . . في هذه الأخيرة عرض عليه ملكها العرش ، ولم يقبل بوذا . كانت شهرته تسبقه ، وصيته ينتشر : وآمن به خمسة ، لكنهم تركوه إذ تخلى ، في مقاطعة أروفيلا ، عن الصوم بحجة عدم جدواه لبلوغ النور . تابع تجواله ، وإطلاعه على الكتب المقدسة ، والتعاليم الصوفية ؛ واستمرّ يصعد في سلّم المعرفة ، والبحث عن الحقيقة ، حتى بلغ الأشراق والنرفان ، بعد أن تغلّب على مارا الذي حاربه بالنار والظلمات ، وبأمطار الرمل اللاهب والرماد ؛ بغير أدنى نجاح .

ولما اجتاز بوذا درجات التحقق قال في نفسه : الآن عرفتُ سبب التناسخ المتكرر ، والعودة المتكررة للحياة . كل شيء يحْدِث فينا الألم ، ولا سبب للألم إلا الجهل . لا بد من إنقاذ النفس من الألم والموت والتناسخ . جئتُ أخلّص جميع الناس . النرفانا وحدها هي الخلاص . وكان آنذاك في عامه السادس والثلاثين . نشاطاته التبشيرية كثيفة ، مفعَمة . فهو كما يقول لنا ، عرف الحقيقة ؛ لكنه تردد في إعلانها . لقد أدرك تماماً أنّ الناموس النابع منه عميق : ينير النفوس والحياة ،

لكن يصعب على الناس إدراكه . لذا بقي في تردده ، إلى أن لاح له الإله براهْما يقول : ادُع إلى عقيدتك ، إدفع دولاب الحقيقة الكبرى ليسير ولتتبعه من ثم الكائنات المحتاجة لرسالتك . إنهضْ أيّها المُعلّم ! ستكون المتنصر بين البشر . كثيرون هم أهلٌ لفهمك والايمان بتعاليمك . كانت في مدينة بناريس موعظته الأولى . ثم طفِق يتنقل ويهدي : تاجران آمنا به ، ثم حواريوه الخمسة الذين تخلوا عنه قبلاً ، تحول الواحد منهم إلى أرهات (قديس) . وتتابعَ المؤمنون ، وأخذوا يزدادون أفواجاً وزرافات يوماً بعد يوم ، نساء ورجالاً .

وكان في تـلك الـدعوات العقيـدية ، يخطب ، ويعلّم ، ويهدي ، ويعطي القصص والأعمال ، ويبني طريقته . كان البوذا (المستيقِظ) يهتمّ بالأمة المؤمنة ، ويشجونها . ويسيم الكهنة والراهبات ، وتنتصر عقيدته على عبادة النار ، وتفحِم البرهمانيين ، ويقوم بمعجزاتٍ عديدة ويلقي عظاته في كل مكان : في مدينة كوسينارا ، على ضفاف الغانج ، في مدينة بناريس ، في قوزمبي . . . وبقي في عمله النشيط ، إلى أن بلغ أرذل العمر . وفي أخريات أيامه كثُر عواده ، وكان يرفض إبعادهم عنه . ثم أعلن : لا يظن أحد منكم أنّ كلماتي قد تنتهي بموتي . حقيقة ، إن جسمي سيتحلل ، وإن كل حي يموت ؛ لكن الحقيقة التي أعلنتُها ستبقى ، والناموس الذي علّمته سينير لكم الطريق . ناموسي للجميع ، والناس سواسية . والموت سعادة ؛ إنه الكمال .

. . . لم يصدق بعض الحواريين أنّ المعلم يموت . بكى بعضهم ، وتفجّع آخرون . وتتابع الأسطورة الأمر فتقول : « وللحال أظلمت الشمس ، والقمر لم يعطِ نوره وتزلزلت الأرض . . . »[1] ؛ وأصاب الصحابةَ اضطرابا ، وهواجس ، حول المُعلم وشريعته . وهناك ، في مدينة كوسينارا ، وهي اليوم مدينة كاسيا ، في مقاطعة غوراغبور ، أُحرق جثمانه .

. . . إذن ، ترك غوتاما المباهج ، في التاسعة والعشرين ، بحثاً عن سعادة الخلاص . وبعد سبعة أعوام أمضاها في الصيام ، والرياضات الروحية ، والمميتات البدنية[2] ، تخلى عن ذاك كله واجداً ، تحت شجرة تين في حدائق أحد

(١) بول كاروس ، إنجيل بوذا (ت . ع .) ، ص ٢٦٨ .

(٢) منها مثلاً : كان ينام على الأشواك ، ويشرب من بول البقرة ويأكل روثها ، ويمشي على أربع ، الخ . .

المعابد إشراق المعرفة المحرِّرة (بودْهي / bodhi) أو التنوُّر . واستمر يَنعم بتلك الغبطة المخلصة ، متردداً بين احتكارها لنفسه وبين التبشير بها وتبليغها . ثم كانت موعظته الأولى في إحدى حدائق مدينة بناريس ، ومن ثم راح الناس يعتنِقون الدعوة أفواجاً قادمين من كل حدب .

٣ ـ ألقابه ، نرجَستُه وكَمْلتُه :

أُطلِقت على بوذا عدة ألقاب تعبّر عن شخصيته ومراميه . قيل إنه : تنغاتا أي الكامل ؛ وهو المعلّم ، الفاتح ، العالِم بكل شيء ، العارف ، الرحيم ، العطوف الأكبر ، الحكيم ، المتحقّق ، المستيقظ ، الناهض ، سيد العالم ، المخلِّص . . . كما قيل : سكياموني ، أي المتحدِّر من عائلة سكيا والذي هو موني ، أي منعزل وصموت . ولعل غوتاما أيضاً تعني : راهب ، إن لم تكن تشير ـ من جهة أخرى ـ إلى أسرته . كثيرة هي الأساطير التي ترتبط بحياة بوذا من حيث هو بطل ، ورمز ، ومتقشف ، ومخلِّص . ذكرنا بعضها ، وأغضينا عن الكثير . كلها ذات دلالات ، وعالمية أي تُلصَق بكل بطلٍ شعبي أو بالعظماء وما إليهم . منها مثلاً عن يوم مولده ، ونبوءة أسيتا لأم بوذا ، وعن جمال أمه ، ومناقب أبيه ، وبكاء أو حديث حصانه كانتهاكا ، وعن اهتدائه ، وتغلبه على كافة التجارب وعلى الشيطان ، وإفحامه ثم هديه لرئيس البراهمة ، والأخصام جميعاً[١] . وهناك الكثير الكثير من الأساطير المتحدثة عن شعوره بأنه مرسَل ، وعن طفولته المتميزة ، وعن جماله ، وفصاحته ، وعن الفيء الذي يظلّله من الشمس . بل وكان سهمه أقوى من كل السهام ، وسارت ملعقته وقصعته بعكس التيار عندما ألقيتا في النهر . وقالوا إنّ في يوم مولده بالذات ولدِ أيضاً سبع أطفال كل منهم خارق للطبيعة . وتذكر الأساطير عذرية أمه ، وعدم « تدنّسها » وعدم تألُّمها عند الوضع . . .

---

(١) هدى بوذا خمسة رهبان ، ثم لاحقي سارقة أقنعهم بكلمات قليلة فتركوها واتبعوه ، ثم عابدي اغني ، ثم عدة كاهنات .

العقيدة والفكر

١ ـ حاملات العقيدة :

لم يدوّن بوذا شيئاً إبّان حياته المديدة . اهتمت بالتقميش والتدوين مجامع دينية . إلتقى ، مثلاً ، في إحدى المغائر قرب راجا غريها ٥٠٠ راهب بوذي .

أ / الحاملة (يانا) الصغرى : كُتبت الحامِلة الصغرى (هينيانا) باللغة الباليوية التي هي لهجة سنسكريتية ؛ أو أنها السنسكريتية العامية ، القائمة في الشمال الشرقي للهند . وهي الناموس البوذي الذي يتألف من ثلاث سلات (مجموعات) تريبيتاكا ، هي :

أولاً : الناموس الراهبي أو الدَّيْري / فينايا . ويسمّى فينايابيتاكا .

ثانياً : الخُطَب (شوترا) . هذه هي سوتابيتاكا ، حيث نجد مواعظ بوذا وأقواله التي يَضعف الشكّ بنسبتها إليه . بعضها مدوّن في القرن الثالث أو الرابع ق . م .

ثالثاً : العقيدة المجرَّدة (أبهيدارما) . ينتشر أتباع الحاملة الصغرى في سيلان وبرمانيا والهند الصينية وسيام .

كما أننا نجد كتابات أخرى ، تعرض العقيدة . أشهرها : « أسئلة ميليندا » أو ميناندْرْ . سُميت بذلك إذْ « تضمّ هذه النصوص أجوبة الراهب البوذي ناغسينا عن أسئلة الأمير اليوناني ميناندْر الذي حكَم فيها بين ١٢٥ ـ ٩٥ ق . م . وبسط نفوذه على عدة مقاطعات هندية . تكثر فيها الأساطير

والمختلَقات . إلى جانب ذلك هناك كتب أخرى ، مثل ياتاكا ، وهي مخصَّصة للتبسيط أو لإفهام العامة .

ب / الحاملة الكبرى (ماهايانا) : وضِعت بالسنسكريتية ، في أوائل القرن الميلادي الأول . لم يهتمّ أتباعها بعبادة الحَرْف ، بل انفتحوا أكثر على الأخلاق والتقى ؛ عكس ما فعله أتباع الحاملة الصغرى . نجد أتباع هذه الحاملة فيما سمّي بالبوذية الشمالية : الهند ، كوريا واليابان .

ت / حاملة تانترا : وهي أيضاً حاملة أخرى ، تمثل انشقاقاً بوذياً انتشر في منغوليا الخارجية والتيبت . إنها شديدة القرب من الحاملة الكبرى . وهي كتبٌ (تانترا) دينية اعتبرها البعض مقدَّسة . تبحث في الشرائع والطرائق المؤدية للخلاص . تلك هي أشهر المدارس البوذية . وهي عبارة عن انشقاقات تمثلت الواحدة منها في يانا (حاملة ، زورق ، ناقلة) خاصة يجتاز بها المؤمن النهر في اتجاه شاطىء الخلاص .

٢ ـ العقيدة مركَب لا شاطىء أمان ، أداة وليست الغاية والمقصود :

أُطلِق على العقيدة اسم « يانا » ، أي « المركَبة » أو الحاملة أو « الزورق » . وقد تمسّكت الطوائف البوذية ، على اختلافها ، بتلك التسمية للدلالة على وظيفة وروح العقيدة . فكما أنّ الزورق ضروري في الهند للانتقال والعبور ، كذلك فإن العقيدة زورق ضروري لاجتياز نهر السمسارا المتلاطِم ، وبلوغ ضفة التحرر .

من نافل القول الإشارة إلى أنه من الممكن فهم البوذية باللجوء إلى الاستعارات والصور التي تكلِّم الحدس ، فهماً هو أيسر مما إذا أخذنا التعاليم درساً وتحليلاً . وهكذا فإن الداخل في الزورق البوذي أي الجالس في مركَبة (أو حاملة) النظام البوذي ، يهدف لاجتياز نهر الوجود انطلاقاً من ضفة الجهل الروحي « افيديا » ، والرغبة (كاما) ، والموت (مارا) ، إلى الضفة الأخرى ، ضفة الحكمة المتسامية (فديا / vidya) التي هي تحرُّر وخلاص . ما دام المرء منتظِراً في الضفة الأولى ، يشارك الناس أتراحهم وأفراحهم ، ويرى العالم والواقع بذلك فلا تكون لديه أدنى فكرة عن الضفة الأخرى . ثم يتراءى الزورق ، وكلّما تقدّم هذا كلّما ازددنا رغبةً في التعرف عليه . وعندما يقترب ، نشعر أيضاً أننا

نتنشق شيئاً من هواء العالم الآخر . حتى إذا دخلنا إليه فَلَنْ يفارقنا الحسّ بوجودِ مسافرين معنا ؛ وإذا ألقينا الطرفَ صوب الضفة المقابلة لا نرى أكثر من صورة بعيدةٍ يشوبها الغموض .

وفي انسياب الزورق شيئاً فشيئاً يبدو العالم الذي تركناه وهماً ، بينما يبدأ العالَم المقصود بالتحوّل إلى شيء واقعي / réel . وهكذا دواليك تختفي تدريجياً معالم الضفة الأولى وينجلي ، بالمقابل ، الشاطىء الأمين . وفي منتصف الطريق لا يرى المسافر من واقعةٍ / réalité جسّية سوى الزورق الذي يكافح التيار والمياه . محتويات الزورق وحدها ، في تلك المرحلة المتوسطة ، تبقى من العالَم الحسي . هذه المحتويات هي القواعد في تعاليم بوذا أي : اليوغا ، والتأمل ، وقواعد الحياة الزهدية ، وما إلى ذلك . وكما أننا عندما نبلغ الشاطىء نترك الزورق ، كذلك فإن قاصد النرفانا يتخلّى عن مركبة العقيدة ، لأنها ليست سوى أداة للعبور وليست المكان المنشود . إنّ قواعد العقيدة مُعدّة للشادنين ، للمبتدئين . وهي تصبح حمْلاً بلا جدوى ولا طائل متى دخل المتبوِّدْ في النرفانا أي متى بلغ الإشراق وبالتالي انتهى عنده التمييز بين ضفتين ، وزال نهر التوالدات (التناسخ) بالنسبة له : لا شمشارا ، بل ولا نرفانا أيضاً . وكما سنرى ، فإن تعاليم بوذا ، وحياته أيضاً ، ذات ضرورة توجيهية خاصة بالذين لم يستيقِظوا . إنها تنير الطريق ، لكنها ليست الغاية ؛ أو أنها ترسم الخطوط للمسار ، لمن يرغب في الاستيقاظ والاستنارة . لعلها تشبه حال ذلك الذي اجتاز بالزورق وراح يدعو الناس لاستعمال زورقه [طريقه] كي يتخلصوا أو أن ينتقِلوا إلى النرفانا .

٣ ـ الحقائق السامية الأربع :

هي طرائق لتخليص النفس ، أو أنها عبارة عن السبُل التي تؤدي إلى النور . تقوم على الطّبّ كما كان معروفاً في عصر المعلم ، وتجسد نظرةً شمولية للحياة والإنسان والخلاص ، وتقوم على أن الألم عامِل واحد ووحيد وشامل ، يفسر كل شيء ، ويقدم وحده زورق النجاة والتحرر :

أ / الحقيقة الأولى : هذه الحياة ألم ؛ ولا شيء فيها غير العذاب والأوجاع : الولادة ألم ، العلاقات مع الغير ألم لأننا نرتبط بمن لا نحبّ ، أو نفترق عمّن نحِبّ . تحقيق الرغبات ألم ، وعدم تحقيقها كذلك . في اختصار ، ألم

هي العناصر الخمسة التي تتكون منها الآلام .

ب / الحقيقة الثانية : إنّ سبب الألم هو الجهل . فالجهل يولّد الرغبة ، والرغبة تولد من الجهل ، وجهل هي الأعمال الباحثة عن إشباع تلك الرغبة . من العمل تَنجم رغبات جديدة وشهوات تكون في سبب الآلام .

ت / الحقيقة الثالثة : إنّ التغلّب على الجهل يؤدّي إلى التغلّب على الرغبة؛ والقضاء عليه يقضي على الألم . متحرِّر هو من يقهر شهواته ويزيل رغباته . وممكن هو استئصال الألم ؛ بالقضاء على الجهل فقط تقضي عليه .

ث / الحقيقة الرابعة : هي الممرّ ذو الثماني شعَب ، والذي يقود إلى إزالة الألم . من يقطع هذه الشعب يستأصل جذور الشقاء الثلاثة (الشهوة ، الكره ، والجهل) .إنه يتحرر بعد اجتياز الشعب التي هي : صحة الفهم أو النظر المستقيم المتخلّص من المزاعم والأوهام والمتطهّر من الأحكام المسبقة ، والمتميز بالتسامح والعمق . هدف سليم هو التحرّر من مقيِّدات الشخصية وآلامها . الكلام الحق المخلص والموزون ، السلوك المسالم والشريف والبار . الوسائل الشريفة في الحياة واكتساب العيش ، بحيث تقوم على عدم أذية المخلوقات . الجهد العادل ، المثابر ، والمستمر ، لبلوغ مراقبة الأعمال والأفكار . انتباه مستقيم ، وفكر ثابت ونشيط ، مع ملاحظة ما يجري حول الذات وما تفعل ، وما يسبب الأعمال والأفكار . التركيز والتأمل المحض . احتذاء هذا المنهج المسمى سيلا (sila) ، وكذلك أيضاً سمادهي Samadhi ، هو ما يقود إلى المعرفة والحكمة (بانا Panna) . إنه منهج تفرضه الذات على نفسها لتعلّم الفكر التركيزَ على فكرة وحيدة تنفي ما عداها وتقيم فيه وحدها ، كي يعتاد هذا الفكر على تملّك ذاته وعلى سلامة العقل والنظرة ، ومن ثم السير نحو الانعتاق .

« حكاية » صغيرة عن الممرات الأربعة النبيلة : كان رجل أعمى ينكِر وجود الألوان لأنها لا تُلمَس بيده ، ويَرفض الاقتناع بوجود شمس أو قمر وإنْ تكلّم الناس عنها ، مدّعياً أن لا فرق بين النور والظلمة . واستمر في ادعاءاته تلك حتى جاء طبيب جعله يبصر بأن أعطاه دواء من عناصر أربعة . وكذلك هي الممرات الأربع : إنها العلاج الذي يقود إلى النور ، نور الحقيقة ؛ وما الطبيب سوى « تَتْغاتا » (بوذا) .

٤ ـ نظريتا اللاأنا واللاثبات ، علم الكائن وعلم الظواهر :

تختلف النظرية البوذية حول الكائن عن النظرية البرهمانية القائلة بأن في كل أنا ، أو في كل ذات ، يوجد قبس من البرهمان ، يسمى أتمان ، يقيم في تلك الذات وقابل لأن يعود للنبع ، للبرهمان . فالبوذية ترى أنّ الذات غير واقعية ، تتحلل بُناها وتتجزأ حتى تصبح مجرد طريقة في التعداد ، أو مجرد لفظة ، أو تسمية بسيطة لتسهيل الدلالة والإشارة .

الأنا ، إذن ، هي لا أنا ؛ والذات هي عدم ذات . تلك هي عقيدة اللاشخصية في الشخص ، تلك هي عقيدة اللانفْس (أنيتا ـ Anitta) . إلى جانب هذا هناك مبدأ بوذي آخر يقول باللاثبات (أنيكا ـ Anicca) في الوجود بشكل عام ومستمر : كل شيء يتغير ، في كل لحظة ، داخل الإنسان أم حوله . تتبدل الأمور وتخضع للصيرورة المستمرة . لا شيء ثابت ، ولا وجود لكيانٍ مستقر ؛ بل لا استقرار مطلقاً . الكائن في تغيّر متواصل . الشخصية مركّبة من أحاسيس متغيرة ، ومن انفعالاتٍ وأفكار وأعمال زائلة ومؤقتة . ليس البدن هو « أنا » نفسي ، ولا أستطيع القول عن ملكة الإدراك إنها « أنا » ؛ ولا عن الميول ، ولا عن الوعي أو غير ذلك . لا شيء في الملكات النفسية ، أو في العواطف ، أو في الميول ، أو في البدن إلا وهو زائل وبالتالي غير قمين بأن يدّعي أنه هو « الأنا » . كل شيء خاضع لقانون شامل هو قانون الزوال والفناء . يتلخّص ذلك بالقول للمعلّم قبيل وفاته : « يا إخوتي ! كل شيء إلى زوال ، لا شيء باقٍ ، لا شيء ثابت الأحوال . . . » .

باقتضاب ، لا شيء في حياة الإنسان دائم : لا المبدأ ، ولا النَّفْس ، ولا الأنا ، ولا الشخصية العيانية ، ولا الفِكر أو الإحساس أو الظاهرة ، أو . . . أو . . . ؛ كل شيء هو مؤقّت : يَبرز هنا ، ثم ينطفىء هناك ، وهكذا هكذا . نجد لاواقعية الذات (الأنا) ممثّلةً في أحد أحاديث الراهب ناغاسينا إلى الملك ميلّندا . بدأ الملك : ماذا أسميّك أيها المبجّل ؟ ـ إسمي ناغاسينا ؛ هكذا يدعونني . لكن الأسماء طريقة تعداد أو اصطلاح . ذلك أن لا ذات موجودة داخل ناغاسينا . ثم يعطي الراهب المثال الآتي :

هل أتيتَ راكباً أم سائراً ؟ فيجيب الملك : أتيتُ في مركبة . ثم يأخذ

الراهب بأسئلته : ما هي المركبة ؟ هل هي العمود ؟ هل هي النير ؟ هل جسم تلك المركبة هو المركبة ؟ هل هي المهماز ؟ وكان الملك يجيب بالنفي عن كل من هذه الأسئلة : المركَبة ليست هي العمود ، وليست هي العجلات ، وليست هي النير ؛ ثم يسأل ناغسينا : هل هي مجموعة تلك الأشياء التي عددناها ؟ ويجيب الملك : كَلّا ! ليست هي تلك الأشياء قاطبةً . ولا هي ، من جهةٍ أخرى ، شيء ما بالنسبة إلى أيّ من تلك المكوّنات لها . فالمركبة ، إذن ، صوت فارغ ؛ وهي كلمة بدون مضمونٍ . إنها غير موجودة . إنها طريقة للتعداد فقط ، إنها اصطلاح ، أو هي إشارة إلى شيء ما . هي دلالة وتعيين . هي اسم ، مجرد اسم . العربة مجرّد تجميعٍ لا نستطيع أن نقول إنه موجود ومتمتّع بكيان . كذلك فإنّ الأنا هي مجرد طريقة للعد ؛ وهي اصطلاح ، وتسمية ، ودلالة ، وتعيين على شيء مناسب . الأنا تجميع ، مجرد تجميع ، للعناصر الخمسة ؛ لكن هذا التجميع غير موجود . وكما أنّ الكلمة « عربة » تعني أنّ الأجزاء تتّحد لترسم مجمَلاً ، كذلك العناصر الخمسة عندما تتجمّع وتظهر للوجود فإننا نستعمل عندئذ عبارة « الكائن الحي » .

٥ ـ تناقض عقيدتي الذات اللاواقعية مع نظرية التناسخ :

كل شيء هو بلا ذات ، معدوم الشخصية . كلّ أجزاء الكائن فانية ، ثم إنّ مدة كل منها قصيرة إلى حد لامتناهٍ ؛ إنها أقصر زمناً من طرفات عين (يات تاتْ شاتْ كْشانيكَمْ / yat tat sat Ksamikam . يجب أن يؤخذ كلّ كائنٍ على أنه سيال من الجزيئيات السريعة الزوال . إنه الآن لا كما كان قبل برهة ولا ما سيكون بعدها ؛ وهذا دون أن يختلف أيضاً عن ذاته في الزمن عينه . . . مَثَله كَمَثل نور سراج : في أوّل الليل وفي منتصفه وفي الهزيع الأخير منه ليس هو النور ذاته ؛ ولا هو نور آخرَ أو غير ذاته . إنّ عقيدة لا جوهرية الأنا لا يمكن أن تتوافق مع عقيدة الكارما ، ولا مع الأخلاق أيضاً . واضح تماماً التناقض ذلك ، إذْ كيف يعقل أن يكون للأخلاق مكانةٌ في ذاتٍ لا تتمتّع بأدنى ما يمكن من الثبات والاستمرارية ؟ كما لا يعقل أيضاً ، بالطبع ، أن يتحمّل الأنا مسؤولية أعماله في حياتاته السابقة ، أو أن يكون للكارما معنى ما دام الأنا عالَم من الوهم واللاواقع . . . كما يبدو ، أخيراً ، انّ هذه العقيدة تتناقض مع القول بأكثر من حياة للشخص الواحد .

٦ ـ قانون السببية ، عقيدة الكارما (العمل) :

تؤمن البوذية بالسببية ، فتنفي الصّدَف مشددةً على أنّ لكلّ شيء علة أو عِللاً ؛ ولكلّ علّة نتيجة ، على الصعيد المادي كان ذلك أم النفساني أم الأخلاقي . في عبارةٍ أخرى ، تخضع الأفعالُ ثم الأفكار ـ التي هي أيضاً أفعال بل وأهمّها ـ لقانون السببية . من هنا ينبع الإيمان بأن لا ثواب ولا عقاب ، وبأننا نتحمل نتيجة كل عمل لنا . عقيدة الكارما (العَمل) هذه ، هي سنّة الوجود ؛ تتعدّى الخير والشر والعدالة ، لأنها تجعل الفرد متحمّلاً وحده لمغبة عمله ، وجانياً وحده ثمار تلك الأعمال والأفكار سواء أأتى بها هنا أم هناك ، في هذا الشكل أو ذاك من وجوده . . . بل إنّ الشخصية ذاتها هي تجسيد حيّ لتلك الأعمال والأفكار والنشاطات . دولاب التولّد ، العودة مرة أخرى إلى الحياة ، هو ثمرة العقيدة الكارماوية التي هي المنطلَق نحو الإشراق ومن ثم يكون إلغاء الكارما ومنْع الإنْولاد مجدَّداً .

٧ ـ السمسارا :

لا شيء أخاف الفكر الهندي ، وراوَدَه حتى الهوس ، كالعودة المتكررة إلى الحياة بعد الوفاة . المرء مقيدٌ في حلقاتِ سلسلةٍ من التوالد المتكرر . يولد هنا ، وبعد أن يموت يولد هناك ؛ وهكذا دواليك دون أن يستطيع الفكاك من هذا العالم الحسي . إنه يشبه ثمرةً تؤكل ، ثم تُزرع بذرتها ، ومن هذه البذرة تنمو ثمرة يأكلها آخر ، وتتكرر العملية باستمرار ؛ ويكون رجوع إلى هذه الحياة إثر كل وفاة . السمسارا ، إذن، جريان مستمر وشامل ، وسير أبدي لدولاب الوجودات للشخصِ الواحد . عشرة ارتباطات تَكْدِنُ الكائن تحت نير دولاب الوجود ، هي : الـ مايا ، الشك ، التعلّق بالطقوس والشعائر ، الرغبة الحسية ، الرغبة بعالم الأشكال والصور ، الرغبة بعالم بلا أشكال ، التكبر ، الإرادة السيئة ، الجهل ، الاهتياج . يكون التحرر من هذه الارتباطات حسب درجة السالك ؛ وهناك في القمة ، يكون القديس (ارهات) متحرراً منها كلها .

لا تنفصل الكارما عن السمسارا . إنهما متكاملان إذْ إنّ السمسارا تؤدي ، بالضرورة ، إلى الإيمان بأنّ أعمال الفرد وأفكاره (كارما) هي السبب الذي يجعل المرء ، بحكْم أفعاله الشخصية ، حبيس حلقة التناسخات المستمرة . تؤمن

البوذية ، كما وضح أعلاه ، بحتميةٍ صارمة ؛ لكن دون الوقوع في الجبرية المطبقة . إنها توافقٌ بين الحرية والحتمية ، وبين الألم والانعتاق .

٨ ـ دهارما : دهارما هي الدين القويم ؛ وهي الحقيقة . إنها الشريعة المقدسة . لكن الناموس لا يخلّص الناس وحده من الآلام والجهل والخطايا .

٩ ـ النرفانا : مفهوم متعدد المعاني في الفكر الهندي . وجد قبل بوذا ، في الجئينوية حيث تكمن الغبطة القصوى في انفصال المادة عن النفس كما رأينا . كما أن البرهمانية تراها قائمةً في اتحاد النفس الفردية مع النفس الشاملة الكلية ، أو في رجوع الأولى إلى الثانية . وتأخذ البوذية ذلك المفهوم الأساسي على أنه حالة من الغبطة أو « دخول في الراحة » دخولاً يكون أبدياً ، مع المحافظة على فردية النفس أي دون الاتحاد مع البرهمن . إنّ ذلك « الدخول في الراحة » ، أو تلك الغبطة ، هو ما يصعب تحديده : إنه حالة تفقد فيها النفس وعيها بذاتها ، وتفقد كل إحساس . هذا ما يجعل النرفانا التاجَ في العمارة الفكرية البوذية ، والغاية القصوى فيها . من جهةٍ ثانية ، ما يجعل النرفانا صعبة التحليل كونها سلبية ؛ فالمعلومات التي تعطى عنها هي وفق المنهج الذي ينفي ويقول ما ليس ، بدل التشديد على الإيجاب وإظهار ما هي عليه . فنحن لا نملك تعريفاً إيجابياً للنرفانا : إنها عدَم ، وإن بدت بأنها غِبطة ؛ أو إنها الغبطة داخل العدم ، وبالعكس . وكما سبق ، فلا شكّ في أنّها لا تتوافق مع الأخلاق ، ولا مع الكارما ؛ بسبب ارتكاز البوذية على عقيدة وهميةِ العالَم الظاهري ولا جوهرية الذات . فلو كانت النرفانا هي الغبطة فلن ينتفع منها الأنا إذْ هو غير واقعي . من جهة أخرى ، إذا كانت هي العدم فكيفَ تدعو البوذية الإنسان لبلوغها وهو على قيد الحياة ؟ إذن ، لا داعي ولا ضرورة للتساؤل حول ماهيتها وكيفيتها . الأهم هو واجب اعتبارها الغاية القصوى الواجب نشدانها . لقد شدّد بوذا نفسه على أن لا ضرورة أبداً للمعلومات الدقيقة والواضحة حول النرفانا ، لأنها غير عرضة للتحليل والمعرفة . فهو أجاب، عندما سئل حول كونها عدماً أم غبطة ، قائلاً : لا تسأل إنْ كانت فناء أم استمراراً في العيش ، وإلا لكنتَ كالمصاب بسهم مسموم يودّ معرفة طبقة من رماه ، برهمي هو ، أم شودْرا ، أم . . . ؛ عوضاً عن البدء بالتداوي . يعني هذا أنّ الأوجب هو مداواة النفس بالحقائق النبيلة ، لانقاذها .

إنقاذ النفس هو إذن غاية النرفانا ، وهو إنقاذ من التناسخ . إنه انطفاء

تام ؛ إذْ سبق القول إنّ النرفانا هي فقدان النفس لوعيها بذاتها ، وأيضاً لكل إحساس أو فكر . وكما تنطفىء النار عندما تفقد الوقود ، كذلك ينطفىء الإنسان الذي يتوقف عن تغذية نار رغباته . من جهة ثانية ، كما أنّ تلك النار تخمد إلى الأبد ، فكذلك الإنسان بعد أن يبلغ النرفانا ، أي عندما ينطفىء فإنه يخمد إلى الأبد ، أي يتوقف عن أن ينتقل من حياةٍ إلى حياة أخرى ، ومن تناسخٍ إلى تناسخ آخر . بلا وقود تهدأ . . . وبانطفاء الوعي الفردي ، وتلاشي الرغبات والأحاسيس والوهم والأعمال والأفكار ، يُبْلَغ التحرر ، أو الانعتاق ، أو الحقيقة . الانطفاء هو التحقّق الأسمى ، هو السلام ونهاية كل تشكّل ، هو الحياة الواحدة والخالدة ، هو الراحة الأبدية . النرفانا « نوع من الموت » ؛ إنّها تجربة شخصية . تكون أخلاقيةً من حيث إنها تجتثّ كل هوى ، وتكون ما ورائية أو أبدية من حيث أنها تتخطّى الوهم وتجتاز الجهل (أفديا avidya) . إنها ، في عبارة مقتضبة ، الكمال في الفكر الهندي العام .

من هنا تنبيه بوذا على أنّ النرفانا صعبة المنال في حياة واحدة . فهي تستلزم أكثر من تناسخ ، وأكثر من حياة . لكنها تبقى وعداً ، وتظهر كأمل للهندي الخائف من جحيم السمسارا ولظاها . هذا ما دفع مريدي بوذا والتابعين له لأن يسعوا لتحقيق ذلك الوعد المخلِّص ، وللانعتاق من التناسخ في أقصر مدة ، أي في حياة واحدة بل قبل أن ينتهي العمر . فالقديس القديس هو الذي يبلغ النرفانا على هذه الأرض ، أي ينطفىء وهو حيّ بدل البحث عن الكمال أو الانطفاء في عالمٍ بعيد ومستقبلي ، قادمٍ أو غير محدد الزمن والمكان . الكمال ، في نظر البوذية ، يحصل عليه الإنسان بنفسه ، في نفسه ، في هذا العالم ؛ يخلقه بيده دون أدنى معونة من قوة ماورائية ، أو دون انتظار نعيم موعود . زبدة القول ، المستيقِظ هو ، إذن ، ذلك الذي خمدَ وتوقّفَ عن أن يشتعل . إنه لم يتحلل في اللاكائن ؛ إذْ إنّ ما انطفأ فيه ليس هو ذاته بل وهم الحياة ، أي الأهواء والرغبات والميول التحتية في بدنه ونفسيته . إنه يغدو متحرراً من الكارمن ، وبذلك يتعدى المصير والقدَر والمعيقات والحدود الشخصية .

لأجل وصف أو تصوير المنطفىء لا تصحّ الميزات والصفات البشرية المعروفة والعيانية . ذلك أن أخذه من تلك الوجهات ، أو تصويره ورسمه بحسب العرف البشري ، يُظهره مرتبطاً بروابط الكارمن التي سبق التخلص

منها . يكون البوذا ، المستنير ، بلا كارمن ؛ وبالتالي لا يخضخ للتصوير أو للنقش على حجر أو تمثال . لكن البوذية ، بعد طوارىء عديدة وعبر تطورها ، قد أقامت التماثيل والصور العديدة للمؤسِّس .

فيما يلي مقتطفات تقدم النرفانا والسائر صوبها بلغة لطيفة ؛ أو تصوير لفظي شاعري وصوفي ، غنائي واعتباري :

أ / النرفانا :

١ ـ خفِّفْ أيها الرفيق حِمْل ذلك القارب المثقل . مفرَّغ هو ، فإنه ينساب الهوينا ويتهادى بارتياح . وأنت ! أنتَ أيها الرفيق ! تحرَّرْ من الرغبات والضغائن ؛ إن تحررتَ تتجه نحو النرفانا ؛ وبالغٌ إياها أنت بلا ريب ٢ ـ عندما تتلاطم الأمواج أو ترغي وتزبد ، هل يجد المرء ملاذاً ؟ من رَزَحَ تحت كلكل الشيخوخة والموت هل يلقى جزيرةً تأويه ؟ كلاّ ، وألف كلا ! لا جزيرة إلا هناك حيث لا تعلق ولا ارتباط : تلك هي النرفانا ، نهاية الشيخوخة والموت ٣ ـ كنتُ تائهاً في دهاليز التناسخات ، وعبثاً بحثتُ عن باني البيت (الجسم) . يا له من ألمٍ أن نتناسخ باستمرار : أن نولَد ثم نموت ، ثم نولَد ثم نموت ـ وهكذا . . . أخيراً ، اكتشفتُكَ أيها المشيد للبيت . فكسرتُ الأبواب . وقوّضتُ الركائز والجدران . عندها ، عندما تخلَّصَت نفسي من البدن الفاني والدنيا الزائفة بلغتُ نهاية المطاف ؛ الغبطة القصوى ، النرفانا[1] .

١ ـ ما لا ينعتِق ، ولا يوصَل إليه ، ما لا يفنى ، ولا يكون أبدياً ، ما لا يختفي ، ولا يولد ، تلك هي النرفانا . إنها لا تخضع للتدقيق والفحص . ٢ ـ ليست النرفانا شيئاً من نوع ما ، وإلا لزالت وماتت . فلا أنواع أشياءٍ في العالم إلا وهي عرضة للزوال والفناء . ٣ ـ ليست النرفانا شيئاً ، فكيف تكون إذن مستقلة ؟ الشيء المستقل غير موجود البتة ٤ ـ لو كانت النرفانا شيئاً أو غير شيء ، لكان الانعتاق التام أحديها ، أي الحقيقة وعدم الحقيقة معاً . وهذا لا يمكن أن يكون . ٥ ـ ما هو البوذا الذي يتبع النرفانا ؟ هل هو موجود أم لا ؟ كلاهما معاً ، أم هو لا أي منهما ؟ أبداً لن ندرك ! ٦ ـ حدود النرفانا هي حدود السمسارا . بينهما لا نستطيع أن نجد أدنى ظل من الفروق . ٧ ـ الغبطة تعني توقّف كل فكر ،

(١) الزعبي وزيعور وجنبلاط ، البوذية ، ص ٧٥ .

وتعني سكينة التعدد . . . ؛ سكينة التعدد هي غبطة لأنها توقف الكلام والفكر وتوقف التناسخات ، وتطفىء الأهواء . « إنها غبطة لأن المعرفة ماتت طالما أن كل مواضيع المعرفة قد ماتت »[1] .

ب / السائر صوب النور ، القديس المتحرر (أرهات) :

١ ـ حتى الآلهة تحسد من يُخْضِع حواسه على غرار إخضاع المروّض الحاذق للأحصنة ، وتحسُد من يتحرّر من الكبرياء والشوائب ٢ ـ إنسان كهذا يتحمل الأرض كعتبة الباب ، ويقوم بواجبه من كان كالبحيرة الخالية من الأوحال . لا توجد حلقة حياة ثم موت لِمثل ذلك الإنسان . ٣ ـ الإنسان المتحرِّر من السذاجة ، الذي يعرف اللامخلوق ، الذي فصم كل الارتباطات ، ووضع حداً لكل الظروف (الطالح منها والصالح) ، ذاك الذي رفض الرغبات ، يغتبط هذا وحده من بين الآخرين . ٤ ـ الغابات أمكنة تُسعِد القديسين . وحيث لا يجد الناس أدنى غبطة ، يلقي اللامنفعِلون كل الغبطة ، ذلك أنهم لا ينشدون المتع الحسية .

ت / المتسوِّل :

المتسوّل يضبط كل حركاته وجوارحه ، ويتحكّم في أعماله وأفكاره . . . لا يحسد ، ولا يتكلّم إلا بحكمة ، ويتبع الناموس . . . . حتى الآلهة تثني على المتسول . . . لا يعتبر أنه يملك شكلاً ، أو اسماً ؛ فهو لا يقتني شيئاً ، ولا يحزن لفقدان شيء ، ولا يرغب في اقتناء شيء .

لقد عبَر إلى الضفة الأخرى ؛ تحرر من القيود البدنية ومن الشهوات . يعيش متأملاً بلا حقد ، ولا ضغينة ، بلا تكبر ولا طمع ، بلا انفعالات : في وداعة مترعة ، وسلام داخلي مملوء .

ث / طريق السائر على طريق الاستيقاظ :

بودهيساتفا ، في الهينيانا ، صفة من هو في طريقه إلى أن يصبح بوذا أي

---

(١) راداكرشنا ، الفكر الفلسفي الهندي ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٧ .

حاصل على إشراق . أما في المهايانا فهو صفة من يبقى عند عتبة النرفانا بغية العمل على إنقاذ الناس وإسعادهم والتعاطف معهم . إنه لا ينطفىء تماماً ، بل يقف على الحافة ، على العتبة . يكون البود هيساتفا بلا أنا ، غير معرَّض للرجوع إلى العالم العادي ، يضحّي بجسمه وبحياته ، أو بزوجته وأولاده ، دون أدنى رغبة في إثبات شخصيته الظاهرية اللاواقعية التي تخلى نهائياً عنها .

الأخلاق والسياسة

١ ـ الأخلاق ، أعمومات مدخلية :

يصعب قيام مبادىء أخلاقية فعالة إلا في حقل التعارك الإجتماعي والواقع . وانطلاق البوذية إلى حد ما من رفض للعالم نسبي ، وتنكّرٍ للحركة والنشاطية الإنسانية ، يفسّر كون الأخلاق فيها نظريةً أو تجري على صعيد فكري أكثر مما هو عملي واجتماعي . كونها نظرية هو ما يعطيها ، إلى حد بعيد ، قيمة ما . على عكس البرهمانية ، التي ترى أنّ الأخلاق الحسنة تُعِدّ لتناسخٍ أرقى ؛ تقول البوذية إنّ الأخلاق ضرورية للحصول على التركيز الروحي الحقيقي ، وإنها نافعة للإنسان في حد ذاته حتى تعطيه قوة فاعلة تؤثر في العالم وتحوله أيضاً ، إلى حد ما ، وضمن مبدأ اللاعمل المعروف .

فبالأخلاق يبلغ الإنسان الكمال ، ويتهيأ للانطفاء : لا يدخُل في الراحة إلا من تمتّع بمستوى أخلاقي رفيع ، وأفعم قلبه بالنقاوة والوداعة . من جهة أخرى ، ليست الأخلاق نافعة لصاحبها من تلك الوجهة فقط ؛ إنها تمنحه قدرة مشعّة ومؤثرة فيمن حوله من أناس ، وحيوانات أيضاً ! في جميع الأحوال ، يبقى بوذا أول من صاغ قانونا يرى في الفكر الأخلاقي غِنى للشخص ، وطاقاتٍ تعمل لصالح الخير ، والتغلّب على الشر . إذن فهو صاحب رسالةٍ أخلاقية تشدد على الصدق والوئام ، والسلام ؛ وترفض الكذب ، والنميمة ، والكلام المسيء والمؤلم واللائم . لكن بوذا لا يعمّق ولا يبتعد : لا يدعو للخروج إلى العالم كي نعمل ونمارس من ثم ليبرز الصفح والصدق وما إلى ذلك . إنه يهتم بتغيير الإنسان لا العالم ، أي بأن يُعدّ الإنسان نفسه ليكونه صفوحا إذا عومل بحقد . يدعونا

للتجنب لا للممارسة . ذاك ما يُظهر نظريته الأخلاقية مرتبطة تماماً بمذهبه الماوراثي ، إذا صحت اللفظة ، في فهم الكون والإنسان فهماً سلبياً غير فعال ولا نشيط ، ورافضاً غير ملتزم ، بل وغير موافق على الطبيعة الظاهرة للشخصية .

أ / **الشفقة** : يولي بوذا مكانةً ملحوظة للشفقة في عالم الأخلاق . إنها أساسية وضرورية إزاء جميع المخلوقات الحية : الإنسان المعذَّب ، والخادم المظلوم ، والعالَم المتألِّم الخ . . . وحتى إزاء الحيوانات ، فالشفقة مطلوبة أيضاً . لقد منع بوذا ، كما يُرْوَى ، رهبانه عن استعمال أردية الحرير ضناً بديدان القزّ عن أن تموت . إلاّ أنّنا قد لا نستطيع الذهاب إلى أبعد أي لنقول إنّ بوذا يؤسِّس الأهِمْسا (ahimsa) على الشفقة . إذْ لوقال ذلك ، لكان بوذا ، فعلاً ، أسمى في عالم الأخلاق ؛ ولكان ظهر المؤسِّس الأول لمبدأ الشفقة أخلاقياً. فالحقيقة، أننا لا نجد في الروايات ما يُبيِّنه مهتماً اهتماماً فعلياً بالحيوانات ، ولا نلقاه يوصي بالعمل الفعلي على حمايتها مثلاً . لقد بقي بوذا قريباً ، إلى حد بعيد ، من العقيدة الجينوية [الجائينية] حيث تُمنع أذية أو الإساءة إلى الحيوان ؛ لا عن مبدأ أخلاقي بل فقط انطلاقاً من مبدأ اللانشاط ، وضرورة البقاء بحالة طهارة ، واجتناب أدران العالم . في اختصار ، يبقى بوذا سلبياً ، كما هي المبادىء العامة العقيدية ، تجاه المخلوقات عامة : يوصي بتجنُّب الأذية ؛ دون الوصية بالعمل على مساعدتها . يبقى سجين مبدأ اللانشاط ؛ وبالتالي فإن الشفقة ، في هذا المفهوم ، تشوبها سمة من عدم الكمال لأنها لا تجدي في إزالة الألم الذي يؤخذ على أنه أساسي ولا يزول بالانطفاء . في عبارة أخرى ، لا جدوى من السعي لتخفيف آلام الغير إذْ لن تكون الشفقة أو الرحمة كافية ، لأنها لن تستطيع إزالة الألم أولاً ، ولأن الساعي إلى ذلك سيقع في العمل ، وبالتالي في الألم . لكن ذلك لا يمنع أبداً القول أن بوذا نبي الرحمة (والشفقة) ، وأول من جعل من هذه مبدءاً أساسياً في الأخلاق والمجتمع والعلائق . فيما يلي بعض الأقوال الحِكَمية والأمثالية حول الشفقة والمحبة (مع التفريق الدقيق بينهما) : تأملتُ في الشفقة والمحبة ! عندها نسيتُ الفرق بيني وبين الآخرين . تجنَّبْ الإساءة والأذى بالغير ، أعرضْ عن الاحتقار والغضب وسوء النية . لا تحقد على أحد ، حتى ولا على الذين يسيئون إليك . ليكُنْ لنا إزاء المخلوقات الحية جميعها عواطف ، حُسْن المعاملة والنبل والمحبة . ما هي غاية كل عملٍ أقوم به ؟ إنها المخلوقات التي عليَّ جعلها تعيش

آمنة في هذه الدنيا(١)، وتكسب النعيم في حياة أخرى(٢).

ب / واجب عدم الإساءة للآخر: يقول بوذا بمبدأ اللطف، وبأنّ مقابلة الإساءة بالإساءة خطأ؛ فإصلاح الخاطىء يكون بالوداعة والحلم. وفي «إنجيل بوذا» يَرِد أنّ جاهلاً سمع ذلك القول لبوذا فأساء للمُعلّم وسخر منه. وكان المَثل الذي أعطاه بوذا لذلك الجاهل كفيلاً بإحارته وانصرافه خجلاً، ثم رجع إلى بوذا طالباً قبوله في عداد المؤمنين(٣). وبدون التوقف عند هذا الحد، يذهب بوذا إلى أبعد في دنيا التعامل السَّمح مع الغير، والنظرة الصفوحة إزاء الآخر. على هذا يدعو حوارييه لتحمّل الأسى والمشاق في تبشيرهم، وللتحلّي بالجلَد والصبر إذْ أنهم، كباحث عن الماء في الرمل، يبلغون الغاية بالأناة ورحابة الصدر. التسامح والعفو خلتان ضروريتان لبلوغ تلك الغاية، ولبلوغ الكمال الأخلاقي. فبالتسامح والصبر يجابه الشر والغضب، وبالسخاء واللاكره يحارَب البخل والحقد. تكثر «الروايات» المليّحة على التسامح وعلى طرح الضغينة، بغية الكمال الروحي للفرد من جهة؛ ولتغيير العالَم من جهةٍ أخرى أيضاً. من تلك الروايات ما يرويه بوذا عن أمير تغلّب على جاره المدعو ديغهيتيDighiti وأزال ملكه: تَخَفّى الراهب وزوجه وابنه في عاصمة من غلبه. قُبِض عليه، بعد خيانة، فأوصى ابنه المسمّى ديغهافو Dighavu قائلاً له: «يُزيل الضغينةَ مبدأ اللاضغينة، ويطفىء نيران الحقد أمطار اللاحقد». وكبر ديغهافو وصار مقرباً من الأمير قاتل أبيه. في إحدى الأيام، انفردا. نام الأمير، ولم تطع الشاب يده لقتل خصمه رغم محاولات ثلاث. نهض النائم ورأى السيف، وتنتهي الرواية بأن كل منهما يصفح، ويعود ديغهافو إلى عرش أبيه(٤). تبقى سلبيةً هذه الدعوة البوذية: فالضغينة تزيلها اللاضغينة، أي عدمها ونفيها. إنها لا تنتقل إلى

---

(١) تروي بعض الأساطير المسماة جاتاكاJataka، إن بوذا، في إحدى حياتاته السابقة، عاش صديقاً حمياً للحيوانات ورؤوفاً بها. بل إن إحداها تروي أنه ألقى بنفسه طعاماً إلى لبوة (أو نمرة) جائعة حتى تأكله ولا تأكل صغارها.

(٢) مقتطفات مستلة من: الزعبي وزيعور، وجنبلاط، البوذية وتأثيرها...، ص ٧٢؛ را: أدناه، أيضاً، مسكويه، الحكمة الخالدة، ص ٩١ ـ ١٠١.

(٣) بول كاروس، إنجيل بوذا (ت. ع.)، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٤) معنى اسم الأمير الأول: ألم مديد. أما ديغهافو: حياة مديدة. القصة إذن رمزية وتعليمية.

الميدان العملي ؛ فهي لا تقول : المحبة تزيل الضغينة ، فكأنما هي تكتفي بعدم العمل ، بعدم الحركة المضادة تجاه الكره .

ت / المحبة : لها في البوذية منزلة . ثم إنّ الشفقة ، والتسامح ، وعدم الإساءة ، ومبادلة الشر بالخير ، كلها مفاهيم تحتضنها البوذية وتدعو إليها مبشّرةً بإمكانياتها الروحية في تغيير الإنسان ومساعدته على بلوغ الكمال . وأدهشت هذه المحبة جميع الباحثين في الفكر الهندي بنبلها ، وعدّوها مفهوماً رئيسياً في العمارة البوذية كما في الروح الهندية عامة .

لكن ، وكما سبق ، يشوب المحبةَ البوذية منحاها السلبي فقط . إذْ هي تحقّق كمالها لو أنها تتجه فعلاً نحو الكائنات ولا تكتفي بمجرد موقف المتلقّي المنفعِل . كأنّها ليست محبة نشيطة ، أي لا تقوم على قبول العالم والعمل عليه وفيه بحركة . توصي بأن يكون الإنسان رحوماً ، شفوقاً ، محافظاً على خير كل كائن ، مُترَعاً بالطيبة أكثر مما تقول له ، كما رأينا بصدد المفاهيم الأخلاقية السابقة ، إعملْ بمحبة ، أحْبِبْ هذا أو ذاك . فكأنّ البوذية تخاف من قول « أحبّوا هذا الشيء أو غيره » حتى لا تُناقِض منطلقها من مبدأ عدم النشاط واللاعمل . يرفض بوذا ، أصلاً ، العالم ؛ ولذا يَرفض ، نتيجة وضرورة ، الدعوة لأن نشفق أو نحبّ أحداً . ولذلك تأتي عنده الأخلاق سلبية ، صارمة انقطاعية ، انعزالية وتاركة ، مدْبِرة لا مُقبِلة . في اختصار ، البوذية تصوّف ؛ والتصوف مناقِض للأخلاق ، أو أنه ـ كما رأينا ـ لا يهتم بالأخلاق ولا يُدرجها في المفاهيم التي يبحثها . ينتمي التصوف إلى صعيد معين ؛ أمّا الأخلاق فحقلها غير ذلك . وإذن ، فحيث أنّ المحبة في البوذية غير موجّهة للعمل ، إذ هي لا تدعو للعمل ، فلذلك نراها تنكمش ، تمتنع عن الانخراط ، تذوب في الشروط التي تُعِدّ للانطفاء . الحكيم البوذي ـ والصوفي عموماً ـ مدعو للانكفاء نحو نفسه أكثر من القيام بواجبات تجاه الغير والمجتمع .

ث / أخلاق عامة الناس (اللارهبان أو المدنيّون) : وفي الأخلاق المتعلقة بعامة الناس ، بغير الرهبان ، يبقى مبدأ اللانشاطية قائماً . يتكلم بوذا ، وإنْ بغير الحاح ، عن ذلك الجانب الذي يلخّص بالأقوال : لا تقتل ، لا تأخذ ما لا يخصّك ، لا تقرب زوجة غيرك ، لا تكذب ، لا تشرب المسكرات . ومع هذه الوصايا الخمس ، القريبة جداً مما هو معروف في الأديان السماوية ، هناك أخرى

كالاهتمام بالأهل ، والارتزاق من عملٍ شريف ، والكرم ، والصبر ، والمثابرة ، والاعتراف بالجميل وردّه . . . إنّ أقوالَ الملك أشوكا ، المنقوشة على الصخور ، تمّثل بعض تلك الوصايا والإرشادات الوعظية .

٢ ـ إعادة مراجَعة ، قراءةٌ محاكِمة :

لا تنكّر أصالة الخطاب الهندي في مجال الأخلاقيات ، ولا تُغفَل أقدميته وسبقهُ . ذلك أنّ « البوذيةَ إحدى أقدم المدارس التي تعلّمت الإنسانيةُ فيها الحكمة »[١] . لكنها ، كما أرى ، تبدو فلسفة أخلاقية موجَّهة للعجزة ، للطاعنين في العمر والألم والخوف ؛ ثم إنها قاتمة ، متشائمة . هي فلسفة شخص قتله سوء الظن ، والخيبة ، والفشل أو الوجع الدائم ، والريبة ؛ ولذلك نجده يبشّر بالابتعاد ، والانقطاع ، والانفراد بنفسه بلا معين حتى ولا مع إله .

في البوذية تسامُح ولا استغلال ؛ إنها لا عنفٌ وعدم إساءة . لكن ذلك لا يجيز القول بأنها دعت ، إيجابياً ، لتلك المفاهيم . فهي لم تهتمّ كثيراً بالمجتمع ولا بأن تكون فلسفة اجتماعية أو من أجل التحينُ داخل جماعة أو في نظام .فمثلاً ، يدعو بوذا إلى عمل البرّ ؛ ولا سيما تجاه الرهبان ، لا بشكلٍ عام . ويشدّد على مساعدتهم أكثر بكثير مما يلفِت إلى مساعدة المعذَّبين والتعساء . أغلب اهتمامه ينصبّ على الناحية الصوفية ، كما قلنا ، لا على المجتمع . ورغم أنه دُعي برسول الشفقة ، فإننا لا نجده يؤمن بخلاص كل الناس وكل المخلوقات . إنه يستبعد مثلاً أن يبلغ النرفانا مخلوق ما قبل أن يتقمص جسداً إنسانياً ، أو أن يبلغها إنسان خاطىء تقمص بسبب ذلك بدَن كائنٍ غير بشري .

أكثر ما يشوب البوذية هو فهمها للألم فهماً يكاد يَقْرب من البساطة . يظهر الألم في البوذية عاماً ، شاملاً ، فظاً ؛ يلغي كل خير . الفلسفة الأغنى هي التي تقيم جسراً بين الخير والشر ، وترى في هذا الأخير أكثر من ألم ، أي مصدراً للفرح أو أمراً لا يغلق باب الأمل . فأن يؤمن الإنسان بالمحبة الإيجابية المنفتِحة على الخير وعلى المطلَق ، أن يعطي ويَشعر بحريته ومسؤوليته تجاه الآخرين ومجتمعه ، ذاك هو ما ينقص البوذية لتتحول إلى فلسفة أعرض وأبهج وإيجابية ،

---

(١) R. Le Senne, Traité de Morale, p. 120

تبني الإنسان وتؤمن به فاعلاً ، ومؤثراً في الطبيعة يعمّرها بفكرٍ خلاق ويمنهجية المنطق الباحثِ عن الحقيقة . لكن ذلك لا يمنع وجود قبول « نسبي » للعالم عند بوذا ؛ ذاك ما رأيناه هنا في أكثر من مكان .

٣ ـ الفكر السياسي البوذي :

لا نجد في البوذية دعوةً لنظام سياسي مُمَذْهَب ، أو فلسفةً سياسية شمولية ونقدية ؛ هناك نظرات عمومية ، أقرب إلى التمني والتنبيه والإشارة . أما البناء المحكَم ، والعقيدة المُشادة على نظرةٍ شاملة فلسفية ، فلا مشاحة في أنّ ذلك غير واردٍ في التعاليم ، وليس هو هدفاً . القصص الإرشادية ، والأساطير الوعظية ، هي التي حَملَت الفكر السياسي الهندي برمته ، والبوذي . على هذا فإن التعاليم ، الأخلاقية والسياسية ، تُقدَّم بثوبٍ من الاستعارات والتشابيه . وهنا نجد أنّ السياسة والأخلاق لا ينفصلان ؛ فَهُما يتكاملان ويقصدان غاية واحدة .

من « القصص » التعبيرية نورد فيما يلي مكثفاً لاحداها تمثّل دعوةً للقناعة والوداعة ، وأخرى تنبه إلى خطورة الخداع ، وثالثة تجسد فعالية الإيمان على النفس ، وغيرها تتحدث عن العلاقة المثالية بين الحاكم والرعية :

أ / في الدعوة لممارسة المعرفة ، والمحافظة على الحياة النقية ، جاء إلى بوذا ذات يوم زاهد أضنته آلام المكابدة والمراقبة ، وطالباً العودة لحياة عادية . نبهه الواحد المبارَك إلى خطورة قراره ، وإلى مغبة الاستسلام لشهواته ورغائب نفسه . ذلك أنّ التنكر للمعرفة والعقيدة ، والتخلي عن الأنظمة والقانون ، ضلال عن سبل الحقيقة ، ووقوع في التهلكة . ولتجسيد هذه الدعوة التمسّكية بالفضيلة ، تروي التعاليم البوذية قصة سمكة سعيدة في غدير . ألقى صياد ذات يوم شبكته وكان فيها طعم لذيذ ، فهرعت إليها كي تأكل . وأخذها هذا وشعرت بالأمر ، فندمت على أنها تركت حياتها الأولى الهانئة طمعاً . صادف مرور بوذا ، فاشتراها من الصياد ، وأرجعها للماء منبّهاً إياها إلى عدم تكرار الطمع وإلى الرضى بحياة الوداعة .

ب / من يَخدع سيلاقي من يخدعه ، ومن يكذب سيبلى بمن يكذب عليه . وهكذا ترفض التعاليم البوذية الخداع ، وتنبه إلى سوء عاقبة المخاتلة . عدة كليدِمْنات تحمل بين طياتها ذلك المبدأ ، وقد عرف العرب في كليلة ودمنة البعض

منها .

ت / الإيمان ركن تشاد عليه الأعمال العظيمة ؛ إذْ له قوة لا تُقهر ، وهو محرِّك هائل . ومن آمن بالتعاليم ، وتغلب على شهواته ، وأماط عنه ثوب الجهل والشك ، فإنه سوف يبلغ النور . إنّ إيمان شاريبوترا جعله يمشي على صفحة الماء فلا يغرق ، فقد كان إيمانه قوياً إلى درجة أن سار على الماء من حدة شوقه إلى الاستماع إلى عظات المبارَك .

ث / بوذا ضد الحروب ، فالدم البشري أغلى من أي شيء مادي . وفي هذا الصدد تورد التعاليم أن بوذا توسط بين ملكين متخاصمين اختلفا على ممر ، وكادا يلجآن للحرب ، قائلاً لهما : الدم الذي سيسفك لا يُوازى ، لا قيمةً لشيء أغلى من قيمة الإنسان . السلام خير عميم ، لا تهدرا الدماء هدراً .

ج / عديدة هي القصص الخرافية التي تُروَى بغية إرشاد الحاكم إلى مغبة الفساد والظلم . والبوذية ، كدعوة للسلام والمحبة ، تجعل العدل في أسس النظام السياسي ، وواجباً ، وضرورياً للشعب بل وللحاكم بشكلٍ خاص . فالرعية المقهورة تتحول إلى جائع لا يُشبعه إلا لحم أعدائه ، لحم المستبِد . تلك هي قصة الإله اندرا ـ إله الغابات ـ عندما دخل مصحوباً بالشيطان ماتالي في صورة كلب ، على أحد الملوك . نباح الكلب لم تسكِته ممتلكات ذلك المَلِك . ولما سأل هذا عن عدم شبع الكلب أجابه الصياد : لا يكفيه إلا لحم أعدائه . إذن ، لن تنفع الطاغيةُ أملاكَه ، ولا خزائنه المسروقة من تَعب الشعب ، عندما يهبّ الأخير جائعاً . فلن يسدّ رمقه سوى لحم العدو . ثم تذهب البوذية إلى أعماق النفسية الظالمة ، فتنبئها بأن عذاب الضمير ـ وتشدد التعاليم على النواحي الوجدانية في الإنسان ، كما رأينا ـ والتوبةَ والندامةَ وما إلى ذلك تصبح ، هذه كلها ، بلا تأثير عندما يرغب الظالم في الطمأنينية والصفاء الداخلي ، إذا رغب في ذلك ذات يوم .
لذا ، لا بد للقائد من عدم الركون للشهوات ـ منذ الخطوة الأولى في الحكم ـ ومن الابتعادِ عن الطالحات وشرور الأعمال .في اختصار، يجسّد الفكر البوذي عدة روايات تدور حول مغبة ظلم الرعية ، وابتعاد الحاكم عن جادة العدل وعن الاهتمام بالشعب والمصالح العامة .

٣ ـ الناموس نهج ؛ هو خطة سلوك وليس دينا :

إن تعاليم الناموس (دهاما في اللغة الباليوية pali ، دهارما في السنسكريتية) ليست حقائق جاهزة بل هي أشبه ما تكون بدعوة الإنسان إلى أن يُنير نفسه بنفسه ، أو أن يوقظها ويدفعها للاستكمال ولطلب العرفان . وليست تلك التعاليم عقائد صيغت بإحكام ؛ بل هي تَدلّ ، وتوجّه ، وتقود . إنها خطة سلوكٍ توضع بين يدي كل شخص ، ومنهجُ عملٍ قمين بالإيصال إلى الطمأنينة والخلاص من الألم ، أي إلى النرفانا . على هذا فليست البوذية ديناً ، بالمعنى المعروف للكلمة ؛ إنها أقل طموحاً من الدين وأضيق ميداناً . من جهة أخرى ، ليست فلسفةً بل أوسع من ذلك : إنها نظام : يَهتمّ هذا النظام بالدلالة على الطريق المؤدية إلى الانعتاق . وبحكم كونها نظاماً أو سلوكاً لا دينا ، استطاعت الانتظام في أي دين . ذلك ما كان ، مع عوامل أخرى ، العامل الفعال لانتشارها في آسيا .

لا تؤمن البوذية بزمن ابتدأت فيه الحياة ، ولا بزمنٍ تنتهي فيه . لا بداية ولا نهاية لهذا العالم : ما يولَد هنا ، أو الشكل الذي يَظهر هنا ، يفنى ويختفي هناك . لذلك فلا تقول بخالق ، ولا تحتاج إليه ؛ إذلا شيء يولَد ويُخلَق ، ولا شيء يزول . رأينا أن جهل الكائنات سبَّب عماها ، فأوقعها في سلسلة الوجودات للشخص الواحد . لكن ذلك لا يعني أن البوذية ملحِدة . ليست هي ملحدة ، ولا مؤمنة ؛ بسبب أنها ليست ديناً كما قلنا بقدر ما هي نظام ، وخطة سلوك ، ومنهج لاكتساب الانعتاق من الألم والشهوات وبالتالي من التناسخ المتكرِّر . في عبارات أخرى ، لا تهتم بإلهٍ بسبب انكبابها لا على التعبّد وإنما على تعبيد طرق النفس للحصول على الخلاص . إنها تشبه ، هنا ، السمكهيا . وكما تختلف البوذية مع المسيحية والإسلام من حيث عدم اهتمامها بعقيدة الخلق والخالق ، فكذلك تختلف معهما أيضاً بالنسبة لعدم إيمانها بعالَم آخر ، وما إلى هذا من أُخرويات .

مع تلك الاختلافات العميقة ، تقوم أيضاً نقاط اتفاق طارئة وجوهرية : فهناك مثلاً في البوذية عدة أجوبة على قضايا ما ورائية تهتم بها الأديان السماوية ؛ وهي أيضاً دعوة ترى نفسها رسولية ومن ثم انصرفت إلى التبشير بتعاليمها : فقد بشر بوذا بدعوته وأرسل الدعاة إلى شتى الأمصار . واشتهر عنه اختياره لهؤلاء

بعناية وبَعْد اختبارات . يوضح ذلك قصةُ بوروناً الذي بُعِث إلى أسرة اشتهرت بالفظاظة . سأله بوذا : إذا غضبوا عليك وسَبّوك فما عساك ستفعل ؟ أجاب : أقول إنهم طيبون لأنهم لم يضربوني . وإذا ضربوك بالأيدي؟ ـ أقول إنهم طيبون لأنهم لم يضربوني بالحجارة ، ولا بالعصي ، ولا بالسيف . وإذا ضربوك بالعصي ؟ ـ أقول إنهم طيبون لأنهم . . . ، وإذا حرموك الحياة ؟ ـ أقول إنهم طيبون لأنهم أنقذوني من سجن الجسد . . .[1] . وكذلك فإن الدعوة عرضت على قطاع الطرق والمجرمين ، فاستجابوا : إذْ أنّ فرارهم من القانون لا يؤمّن لهم الفرار من الألم ، والمرض ، والشيخوخة ، وتكرار الولادة[2] .

والطريف في البوذية ، من هذه الوجهة ، كونها دعوة عالمية ، غير خاصة بقوم ، ولا بلونٍ أو عرق . وعلى عكس البرهمانية ، ليست هي ميزةً لطبقة ، ولا محصورة ، ولا سلطة فيها لكهنوتٍ متعصِّب أو مغلَق . . . . كان بوذا المثال على التسامح الديني والمناداة بأن لكل إنسان الحق بالاستبواذ ، والاستنارة ، والاستهداء . فالخلاص بمقدور الفقير ، وبمتناول كل لسان وإنسان . ذلك ما ساعد على انتشارها بين طبقات وأمم مختلفة ،ـ بل وحتى بين اللصوص والزّعّار . أما تبّوذ المرأة فتعبير عن رقي وتقدم في الهند ؛ حينذاك ، وباعتبار ما كان . لكن هذه النظرة المتطورة ، نسبياً بالطبع ، إلى المرأة يشوبها قول المعلم : لا تنظروا ، أيها الرهبان ، إلى النساء وإذا إضطررتم لذلك فلا تتكلموا معهن ، وإذا تكلّمْنَ معكم فكونوا يقظين . ينظر بوذا للمرأة على أنها سيئة ، ولم يوافق على إدخال النساء في الجماعة إلا بعد إلحاح من أناندا[3] وخالته ماهابرا جاباتي[4] . أجاز لهنّ التكرس للرهبنة ؛ مع دوام فرض احترامهن للرهبان ، وقبول سلطة هؤلاء عليهن . على كل حال ، ومع هذه المنزلة الأولى المعطاة للذكور ، فإن بوذا آمن بإمكانية بلوغ المرأة الخلاص .

---

(١) فريد وجدي ، دائرة المعارف ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٩٠ .

(٢) أحمد شلبي ، أديان الهند ، ص ١٤٨ .

(٣) كان الحواري المفضل عند بوذا .

(٤) استلمت رئاسة أول سلك للراهبات البوذيات ، وكانت من أشد المؤمنات ببوذا إذ قالت له : « وجدت الطمأنينة في الناموس الذي علّمته أنت يا معلم »

كانت البوذية ، في البدء ، موجَّهة لتأسيس طائفة (سانْغها) من الرهبان المتسولين ؛ فذاك ما كانَهُ حواريو بوذا الذين رافقوه متخلين عن نشاطاتهم السابقة على اهتدائهم . لكن ذلك لم يمنع توجه المعلّم نحو عامة الناس لدعوتهم ، وتعمير مبادىء أخلاقية متلائمة مع حياتهم في المجتمع .

قلنا إنه لا مؤلّهات في البوذية ، أصلاً ؛ ومن ثمة فإنّ الكاهن (بكهو / Bhikhu) لا يقوم بدور وسيط ، ولا بدور الشفيع[1] . وفي ذلك تكمن بعض نقاط الضعف في البوذية ، إذْ لا سلطة روحية مركزيةً تنظّم الجماعة ، وتلمّ شعوث الأفكار ، أو تقيم تسلسلاً في الرتب الروحية ، وتمنع الإنشقاقات والبدع . إلا أن ذلك دليل آخر على أنها ليست ديانة بقدر ما هي طريق ، وأسلوب عيشيّ ، وفلسفة حياة .

ثم إن الشعائر والطقوس فيها من الروافد من النبع ؛ إلا أنّها لم تلبث أن أخذت تتراكم وتتنظّم ، وعليه فقد أقيمت المعابد[2] ، والأديرة ، والتماثيل . يتلخص التعبد بتقديم قرابين من الأرزّ أو الأزاهير ، والبخّور والعطور ، مع تلاوة أناشيد أو تراتيل بمصاحبة بعض الأدوات الموسيقية أمام تمثال لبوذا . البوذي ، أصلاً ، لا يتعبد ؛ بل يتأمل . يسعى إلى اكتساب الطمأنينة الداخلية واللاإنفعال ؛ ويسعى بالتأمل المنهجي إلى أن يبلغ الطريقَ التي تقوده إلى الانعتاق الأسمى ، إلى النرفانا . إلى جانب ذلك ، هناك واجبات على العامة هي احتذاء الوصايا التي ذكرناها (لا تقتل ، لا تسرق ، الخ) ، ومعاونة يومية للرهبان على العيش وعلى تشييد الأديرة . وكما تمنع البوذية منعاً قاطعاً الأضاحي الدموية فإنها ، بارتكازها على التسامح والشفقة ، تحرّم المِهنَ الدموية أو ذات الطابع المصادِم الذي لا يتوافق مع التعاطف والوداعة .

كذلك فإن الحج من الشعائر المعروفة اليوم في البوذية ، وهو زيارة الأماكن التي شهدت أهم الأحداث في حياة المعلم : مدينة كبيلافستو ، وهي مكان ولادته ، بودهغايا حيث بلغ الاستنارة ، ثم مدينة بناريس (أو بالقرب منها ،

---

(١) تتم السيامة الأولى للكاهن ، عندما يتقدم المرشح لذلك بعد بلوغه السادسة عشرة على الأقل .

(٢) حفرت الأشكال الأولى منها في الصخور ، وظهرت روائعها فيما بين القرنين الرابع والسادس ق . م . أما الباغودا فهو المعبد المبني لا المحفور في باطن الأرض .

على الأصح) حيث أدار للمرة الأولى عجلة الناموس ملقياً موعظته الأولى ، وأخيراً هناك كوسينارا حيث داهمته الوفاة .

عرفت البوذية إقامة التماثيل والصور لبوذا بهيئة ززينة ، متحفظة وجامدة. ذاك ما يوحي ، حسب اعتقاد البعض ، بأنّ الروح التي أحيت تلك الأعمال ليست هندية صرفة ، حيث الأشكال غريبة وخيالية للآلهة وإنما هي - كما يقول بعض الغربيين - متأثرة بالفن اليوناني . ليس من الصعب أبداً ملاحظة بعض الشبه بين التماثيل لبوذا ورسوم بعض الآلهة اليونانيين ، بحيث أن هناك فناً هندياً يونانياً يسمى بالفن اليوناني البوذي كشفت الحفريات في البنجاب وكابول وبيشاور عن بعض آثاره : صورة لبوذا على مسكوكات نقدية وحوله اسطورة يونانية ، أو صور لبوذا تستوحي ابولون من بعض النواحي (تسريحات شعر الرأس مثلاً) .

أخيرا ، هناك تقديس لما لم يُحرق من جثة بوذا . فبعض المدن البوذية حفظت تلك البقايا في أماكن تسمى اشْتوبا/Stupa، وهي عبارة عن مبنى مرتفع يرمز إلى أقسام العالَم المختلفة ، ويمثل العقيدة البوذية النبعية . تفتخر رانغون ، مثلاً ، بما تظنه الشَّعر الحقيقي لبوذا ؛ فتحفظه بعناية بالغة في أشهر معابدها وهو الباغودا المُسمى : أسْ وي ديغون (Swe Dagon) . كذلك فإن ما يُظن أنه سِنّ بوذا محفوظ في باغودا شهير جداً في سيلان . ومع أنّ البرتغاليين ، في القرن السادس عشر ، أخذوا السن وسُحقت ثم رُميت في البحر ، فما زال المواطنون عند موقفهم مدّعين أنّ ما سُرق لم تكن السن الحقيقية . لذلك ما انفكّوا يحيطونها بتبجيل فائق ، وينشدون لها في تلك الشتوبا الصلوات ، والترانيم الدينية ، ويقدمون القرابين والأضاحي . أخيراً ، هناك شجرة تشبه التين (بوBo) المسماة شجرة العِلم والمعرفة ، التي هبط الإشراق تحتها على غوتاما . هي مقدسة عند البوذيين ، وتحتل مكانة مرموقة في تقاليدهم ، إذ هم يزرعون واحدة منها فقط في كل قطر يقطنونه للتبرك والتيمّن . مِثْل هذه الشجرة تزرع في الباغودا (المعبد البوذي) ، وتحظى بعنايةٍ فائقة إذ تُبعدَ عادة عن عبث أيدي الزائرين .

زبدة القول،ليست هذه الطوارىء،كما قلنا، من صلب البوذية التي هي أصلاً مثابرة على التمارين التأملية . فتقديم القرابين ، أو ترنيم الأوراد وما أشبه ، بعيد عن البوذية القويمة التي تضع الفكر في المرتبة الأولى . التأمل ، الذي هو

تركيز الذهن وتَمَعّنِهِ في الأفكار أو الأعمال ، هو الأول . العمل مرتبط بالفكر وملحَق به ، وبالتالي فالطقوس تَمَظْهُرات لحقيقة فكرية صرفة . والأكثر ، فحتى الإنسان نفسه هو محصلة أفكاره السالفة . وهو بأفكاره الحاضرة يخلق مستقبله .
وإذن ، بالتأمل وحده يخضع المرء أفكاره للمراقبة وبالتالي للتكثيف ، ومن ثم لتنقيتها وتزكيتها بطرح الطالح والمرتبط منها بالعالم الزائل والأنا والظاهري .
وللمتأمّل قواعد وتنظيمات : إنه مدعو لأن يكون وديعاً ، شفوقاً ، شريفاً ، مستقيماً ، نقياً ، ورعاً ، مخلصاً ، صبوراً . ثم ، من جهة أخرى، يتخذ جلسة خاصة تساعده على ذلك دون أن يعيقه ضيق أو ألم مهما طالت . ذلك أنه يكون قد نظّم تنفّسه وتحكّم فيه عن طريق اليوغا ، وأزال المعيقات التي هي ارتباطات حسية : الرغبة الجنسية ، الإرادة الضعيفة ، الكسل ، الأفكار التي تراود ، الشك . وعند زوال المعيقات ، وبفعل الوضعية التي تكون للجسم في حالة جلوس معين ، أي نظراً لزوال كل توتر في الفكر وكل تأثير أو وزن للجسم ، فإن المتأمل يأخذ بالتحليل والتمعّن في الموضوع المتأمَّل . بعد التحليل والتمعّن في الموضوع ، ينتقل المتأمّل إلى التوحد مع الفكر أي مع الموضوع المتأمَّل فيه .

ما بعد بوذا

١ - نظرية ناغارْجونا في الفراغ :

عرف القرن الثاني ، أو الثالث ، ب . م . ، مُعلّماً كبيراً درس كتب الفيدا بعمق ويُسر ؛ وهضم سائر العلوم المعروفة ، وأجاد دراسة الناموس البوذي في اللغة الباليوية / pali . ذلك هو ناغارجونا (Nagarjuna) الذي يُنسب إليه تأسيس المهايانا (الزورق الكبير) . وهو ، إلى جانب تأثيره الشخصي الفعال ، يُعَدّ أبرز ممثلٍ لعقيدة الفراغ ، أي لمبدأ أنّ الحقيقة النهائية ليست سوى الفراغ[١] .

لا تُفهم هذه إلا إنطلاقاً من أنّ كل شيء يتغير باستمرار كما قال بوذا . لكن هناك أشياء مطلقة ، لا تُسمّى ولا تفسَّر ، ولا تتغير ، ولا تخضع لتفسير أو كلام أو هدم ؛ إذْ هي فوق الإدراك . مقابل ما هو مطلق هناك الأشياء التي سبق القول إنها زائلة ، ومستمرة التغيّر (تلك هي عودة ، بشكل ما ، إلى القول ببرهمن) . ثم إنّ ذلك المطلَق ، أو الهدف الأسمى للإنسان ، ليس موجوداً ولا هو غير موجود ؛ بل ولا هو مخالف لما هو موجود أو لا موجود .

في عبارات أخرى ، انطلاقاً من عقيدة التغيّر المستمر ، الأنا اللاواقعية ، فإنّ العناصر التي تُركّب هذا الأنا ليست هي أيضاً حقائق واقعية (واقعات / réalités) مطلقة ، لكونها عناصر لا توجد بمعزل الواحدة عن الأخرى . تلك

(١) شكّ البعض بوجوده التاريخي ، لكن دُحض ذلك . يعتبر في الشمال الهندي مبجّلاً وحتى على قدرٍ مساوٍ لبوذا ذاته . يعزى إليه الكثير من الكتب ، منها كتب في الطب والسحر والعلوم الخفية .

هي نظريات الفراغ / صونياçunya ؛ وبالتالي فلا وجود لولادةٍ ولا لموت ، إذْ كلّ شيء وهْم بوهم ، ولا شيء غير الوهم . من هنا نجد أنّ ناغارجونا يذهب إلى أبعد من اللاأدرية التي توقف عندها بوذا ، ويُبطِل حتى الإدراك الذي تؤدّيه الحواس والذي لم يرَ فيه بوذا وهماً . بحسب ناغارجونا ، لا العين تُبصِر ، ولا العقل يفكّر ؛ فتلك هي الحقيقة الأسمى .

إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ ناغارجونا يقول بالعدمية المطلقة التي تلغي كل حقيقة واقعية ، وبالتالي كل عمل ، وكل الوصايا الدينية ، والفروض التعبدية وغيرها . يُسمِّي الفراغ باسم « شونيا » / صونيا لأنه لا يخضع لمقولة معروفة : فإن نُسمِّيه موجوداً نقع في خطأ ؛ وكذا يحصل إذا قلنا إنه ليس موجوداً . لذا فالأفضل عدم تعريفه . إنه حقيقة واقعية [واقعة] نسبية تَبقَى القواعد الدينية في داخلها صالحةً ولا تُلغىٰ . ونحن بممارسة تلك القواعد والطقوس نستطيع بلوغ المعرفة التامة لذلك الفراغ (شونيا) . وهكذا يتضح أن لهذا وظيفة تعليمية في مدرسة مادهياميكا (الطريق الوسطى) . فعقيدة الفراغ ذات تأثير فعال لتجاوز المذاهب التي تقيم ازدواجيةً حادة وتناقضاً بين عالم المطلق والعالم الحسي . والعالمان ، الواقع والنرفانا ، ليسا سوى أوهام أو فراغ مطلَق . وتلك هي العقيدة التي اشتهر بها شنكارا [أو : شنكرا في بعض الكتب العربية] في الفيدانتا . إنها في الطريق الوسط ، والعقيدة الوسطى ، بين عالمي التحرر والواقع . . . رغم كل ما وجِّه إلى هذه الفلسفة من انتقادات ، فإن من الثابت أنها وسيلة أو أسلوب يهدف لخدمة الراهب عملياً لا لتثقيف عقله . أي إنها ماورائيات ذات غاية تطبيقية ؛ وأنها تساعد على بلوغ الانعتاق .

إنّ ناغارجونا يثْبت البُطْلانية التامة للأشياء ، بعد أن قال بوذا بلا ثبوتيتها . وهذا البُطلان يشمل كل ما يَخْضَع للإدراك ، أو للتفكير أيضاً ؛ إنه يشمل حتى الدهارما البوذية عينها ، والنرفانا ، والسمسارا .

هنا ينتقل ناغارجونا للقول بأنّ ذاك لا يعني أنْ لا وجود لكل شيء : تظهر لنا الأشياء وكأنها تتقمص ، وتتغير وتنطفىء . والحقيقة أنه ليس هناك وجود ، ولا تقمص ، ولا خمود . فليس للعالم الظاهري حقيقة مطلقة ؛ ولذلك فالأشياء هنا موجودة بمثابة حجاب لا شيء وراءه أبداً . والجالس أمام هذا الحجاب لا يؤمن بحقيقة تقوم وراء ذلك الحجاب ؛ ولا يؤمن إلا بحقيقة هذا الحجاب .

٢ ـ من أئمة الماهايانية :

أما الفيلسوف الماهاياني أشانغا (عاش في حوالي القرن الخامس ب . م .) فقد سعى لتخليص الماهايانا من مفهوم النسبية ونظرية العدم المطلق ليعيد للعقيدة الوسطى مفهوم المطلق الذي تخلت عنه مدة . ودون التخلي عن رؤية العالم على أنه وهْم وخداع ، فقد آمن بأنّ مصدر تلك الرؤية هو نتاج الوعي (فِجْنانا) . لأجل ذلك أطلِق على عقيدة أشانغا اسم فِجْنانا فادا / vijnanavada ، أي وحدة الحقيقة الواقعية مع الفكر ؛ لأنها ترى في العالم الخارجي تمثّلات فكرية ، وأن لا ثنائية بين ما هو خارجي وما هو في الفكر . وستكون هذه النظرة عقيدة الكثير من المهايانيين بعد أشانغا هذا وبعد أخيه الأصغر فشوبَنْدهُو ذي المؤلفات الكثيرة . ومن أئمة المهايانية الشاعر شانْديتفا في القرن السابع ب . م . ، الذي وضع الكتاب الشهير بودْهيكَرْيافتارا / Bodhicaryavatara / وهو دعوات بليغة للاقتداء ببوذا ، وانتهاج خطته ، ونشْر الشفقة التي هي الفضيلة الأسمى في المهايانية .

٤ ـ نظرية الفراغ تُناقض بعض حقائق البوذية ، الحقيقتان :

قد يبدو أنّ عقيدة ناغارجونا في الفراغ تناقض الإيمان بوجود بوذا ، وبدعوته ، وبالحقائق التي قال بها . . . إلا أنّ ناغارجونا يردّ بأنّ هذا التناقض المزعوم لا يراه سوى الجاهل الذي لا يعرف المعنى العميق ، أو التفسير الحقيقي ، لنظرية الفراغ . ومن هنا يلحّ ناغارجونا على النسبانية (relativisme ، وعلى أن البوذية تميّز بين حقيقتين ، مطلقة ونسبية ، وعلى أنّ من لا يرقى إلى الحقيقة المطلقة لا يحظى بالنرفانا . من جهة أخرى ، تعود تعاليم بوذا إلى نوعين من الحقيقة : الحقيقة النسبية ، المشروطة ؛ والحقيقة المتسامية المطلقة . ومن لا يعرف ذاك الأمر لا يستطيع إلتقاط الدلالة العميقة والدقيقة للبوذية . إنّ تلك العقيدة عرفتها الهند قبل البوذية ، وليست من المجلوبات الجديدة لناغارجونا الذي يصف وفق الشائع آنذاك التجربة الروحية العظمى بأنها لا توصف ولا يعرفها عامة البشر . لأنها حقيقة مطلقة ؛ والحقيقة المطلقة لا تخضع للكلام ولا يُبَشَّر بها تبشيراً كلامياً أي بالعبارات والألفاظ . وهكذا فإنّ الإشراق يبقى سراً مغلقاً عند ناغارجونا ، وعند غيره من قبْل في المدارس الهندية التقليدية . إلا أنّ

ناغارجونا يلحّ على ما ليس هو الإشراق ، أي على دلالاته السلبية ؛ بعكس ما وُجِد في التراث الفيداوي . ـ

٥ ـ فلسفة التمثيل نفيٌ للعالم الخارجي ، خلاصة مراجِعة :

عَرف الفكر البوذي فلسفةً تقترب من الْـ ماذْهيَمَيكا / Madhyamika في عدة نقاط مثل : القول بالبطلان الأساسي للأشياء ، وبإنّ الأشياء تقوم على معطيات نفسانية . تلك هي عقدية التمثيل (فجنانا / vijnana) التي تكلّمنا عنها أعلاه (الفقرة ٤) . قلنا انّ هذه ترى الوعي مُركّب من ملحوظات / فجنابتي / vijnapti ، ولا شيء فيه أكثر أو غير هذه الملحـوظـات و التمثلات / vijnana . ذلك أنّ تحليل الإدراكات والأفكار يؤدي ، في نظر تلك العقيدة ، إلى نفي ما هو قائم في العالم الخارجي وما يكون مماثلاً لهذه الإدراكات والأفكار التي هي تمثلات أو ظواهر ذاتية . بتعبير آخر ، ما يدركه الإنسانُ العادي لا ركيزة له في العالم الواقعي ، تماماً كالحالم أو الإدراكات المختلَقة أو المَرضية الناجمة عن مرضٍ عقلي أو تعطيل في الحواس . والأدلة عديدة : قد نرى القمر الواحد ، إذا ضغطنا على العين ، قمرَيْن ؛ وقد نرى بعينٍ سليمة أحياناً ذبابة ترقص أمامها ، الخ . . . ويعني هذا أنّ وجود شيء ما لَيس دليلاً وضمانة كافية على قيام الملحوظات المقابلة له في الوعي . فما هو ذاتي لا يعني أبداً وجود الشيء الخارجي المقابل له .

هؤلاء القائلون بالفجنانا ، يسمَّوْن أيضاً : يوغانشارا . ويُعنَى بذلك أنهم : ممارسو اليوغا؛ أشهرهم: اشانغا وأخوه ، كما يزعم ، فَشوبَنْدْهو (سبق الكلام عنهما أعلاه) . أما في المنطق فقد بقي البوذيون سائرين في الركاب التقليدي ؛ ويُعَدّ دِغْناغاDignaga (في القرن الخامس) أشهر المناطقة منهم . وقد انتصر هذا لنظرية نفيِ الركيزة الموضوعية لما هو قائم في الوعي ، أي أن التمَثّل الذهني لا يجد في العالم الخارجي ما يقابله .

٦ ـ البوذية والبرهمانية :

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ البوذية مختلفة تماماً عن البرهمانية . إلا أننا كلّما تعمقنا في العقيدة البوذية كلّما ازدادت لنا وضوحاً القرابة بينها وبين المعتقدات الهندية السابقة عليها . وعلى ذلك فإن بوذا هو ، في نهاية التحليل ، وليد التراث

الهندي والذات الهندية بكافة تصوراتها وأفكارها . . . إنه مصلح ؛ لقد أعاد بناء التصورات الهندية أكثر مما خلق أو أبدع . إنه ، إلى حد بعيد ، مُكَمِّل للناموس ؛ لم يأتِ ليهدم أعمال الحكماء السالفين ، بل سار على طريقهم وسلك سُبل المتيقّظين والأبرار السابقين .

وُلِدت البوذيةُ ونشأت بين أحضان البرهمانية ؛ لكنّ الأولى دين عالمي وهي أغنت البرهمانية وجعلتها أوسع من مجموعة طقوس كهنوتية ، وأثّرت فيها إلى درجة أنّ الفيدانتية نفسها تُعتبر وليدة ذلك التأثير البوذي الفعّال . وفي رأي البعض ، ليس هناك أكثر من سِفْرَيْ أوبنيشاد وُجِدا قبل البوذية . أمّا الأسفار الأخرى فإنها تحمل طابع البوذية ، أو أننا نرى فيها ذلك الصدى الخاص بالبوذية . لم تتوقف البرهمانية عن محاربة البوذية ومطاردتها ؛ لكن الثانية اكتسحت لأسباب عديدة منها : أ / شخصية البوذا نفسه التي تميزت بالوداعة والتواضع وما إلى ذلك من أخلاق سامية ؛ ب / إلحاحه على المساواة وعدم تميّز طبقة عن غيرها بمؤهلات خاصة . وكذلك توجد أسباب أخرى منها السياسي العام ، ومنها الفكري الصرف . لقد أثّرت البوذية في الهندوكية . نتذكّر ، مثلاً ، شنكرا الذي استلهم البوذية في قوله بالحقيقة المزدوجة ، وفي رفضه النفس الفردية التي هي بنظرهوهم . كذلك فإنّ الأهيمسا في البوذية لم تكن دون صدى عميق في الهندوكية .

وكما أنّ البوذية ساهمت في تكوين الفيدانتية (آراء شنكرا ، كما سبق) وفي تأثيراتٍ عامة دخلت إلى الهندوكية ، فإنّ بوذا يُعدّ أفضل الصادرات الفكرية الهندية إلى العالم . فبوذا نتاج هندي لكنه شخصية عالمية قدمت للإنسانية مبادىء مثالية حول اللاعنف ، والتسامح ، والمحبة ، والانفتاح على الشمولية والإنسان ، والإيمان بأن الإنسان سيّد نفسه أو صاحب قدرات هائلة يستطيع بها بلوغ التحقق . لقد سعى بوذا إلى إنقاذ الناس من مزاعم برهمانية كثيرة ؛ فرفض تقييد الإنسان بطبقة ، أو بقيودٍ إجتماعية سياسية ، ناظِراً إلى أعلى وإلى المثالي والأمثلي ، إلى البشري . . .

٧ ـ البوذية خارج الهند ، الَملِك أسوكا :

طرأت على البوذية تغيّرات عديدة ، وصبّت فيها روافد من مختلف الأمم والعقائد . وقد بلغت قمة الانتشار في الهند إبّان القرن الخامس الميلادي تقريباً .

وكان إلى جانبها الديانات الهندية الأخرى ؛ إلا أنّها لم تلبث بعد ذلك أن أخذت تتعرض لهجوم البراهمة الذين رأوا فيها خرقاً لمعتقداتهم وحرباً عليها. رفقدت البوذيةُ تدريجياً انتشارها ، فيما عدا بعض المناطق التي حظيت فيها بعطف الحكام . ثم تلقت ضربات قوية مع الفتح العربي الإسلامي بقيادة اختيار الدين محمد بختيار الذي فتح بيهار في عام ١١٩٣[١] .

ممن ساهم في نشر البوذية ، وفي تنظيماتها ، يُذكر الملك أسوكا (أشوكا ، في بعض الترجمات العربية) . فكيف تنظّمت المجامع البوذية ؟ ثم ما هو تأثير بوذا ؟ سبق الكلام عن المجمع الأول الذي أقام ، بعد وفاة المؤسّس ، خمس مائة آرهات (قدّيس ، كاهن مستنير) في راجاغْرها (Rajagrha) ؛ وحدّدوا فيه النظام (ڤينايا / vinaya)والناموس (دهاما ، دهارما) . ثم ، وبعد مضي مائة عام ، عقِد مجمع ثانٍ قصْد تبديع بعض الخارجين . ثم جرى ثالث في حوالي العام ٢٥٠ ق . م . حيث تم وضع النصوص النهائية للقانون الباليوي / pali .

يُعتبر الملك أسوكا (٢٦٤ ـ ٢٢٧ ق . م . ، تقريباً) من أكبر الفاتحين في التاريخ ، ومن عظماء الرؤساء الدينيين في العالم . واعتناقه للبوذية أثّر في مجراها وفي إنتشارها وتنظيمها ، ذلك أنه كان مؤمناً أبدل حفلات الصيد التي كان ينظّمها البلاط بالحج إلى الأماكن التاريخية في مراحل حياة بوذا ؛ واهتمّ بالمعابد التي تضمّ شيئاً من رفات تلاميذه ، واعتنى بالآلاف المؤلفة من الرهبان ، وأرسل المبشّرين يدعون للتبوذ ، إلى سوريا (في عهد انطيوخوس الثاني) ، وإلى مصر (بطليموس الثاني) ، وإلى اليونان ، وإلى سيلان[٢] ، كي يدْعوا جميع الطوائف والطبقات ، للدين الجديد ، وللتفاهم العام معاً . إتسعت مملكة أشوكا فطالت أطرافها أفغانستان وبلوشستان والسند ووادي كشمير والنيبال وسفوح الهملايا . وعمل جهده لتأمين السلم والطمأنينة لرعاياه دون تفريق ، بل واهتم بالرعاية

---

(١) را : عبد المنعم النمر ، تاريخ الإسلام في الهند ، بيروت ، ط ٢ ، المؤسسة الجامعية للدراسات (مجد) ، ١٩٨١ .

(٢) تُعدّ البعثة التي توجهت إلى سيلان ـ بقيادة الأخ الأصغر للملك أو تحت أمرة ابنه ـ أنجح البعثات . كما يقال انّ ابنة الملك أخذت معها إلى تلك الجزيرة غصناً من شجرة بو المقدسة ، وغرستها هناك فنمت وما تزال غضة حتى اليوم .

الطبية للناس والحيوانات أيضاً ، وفتحَ باب المظالم ، وعينَّ الموظفين لاستكشاف المظلومين ومعاونة المحتاجين والعجزة . واشتهر بالمنقوشات الحِكَمية على الصخور : وهي أقوال ومأثورات تدعو للمحبة ، والعطف والإحسان والتقوى والحب الأبوي والبَنَوي والكرم ورباطة الجأش وتبجيل الأهل والرهبان (والراهبات) البوذيين منهم والبراهمة .

خسرت البوذية أرضها في الهند[1] ، لكنها اجتاحت أوساطاً شاسعة من الشرق الأقصى : سيلان ، برمانيا ، سيام ، كمبوديا ، مونغوليا ، التيبت ، أجزاء من الصين ومن اليابان (وهي في هذين البلدين تسمى بوذية زَنْ كما سنرى). لقد كان الملك أشوكا صاحبَ الفضل في نشر البوذية في سيلان ؛ كما أنه فعل الأمر عينه في برمانيا حيث أصبحت البوذية الديانة الرسمية للبلاد في القرن الحادي عشر . وعُرِفَت البوذية في التيبت ، حيث اكتسحت بسرعة ، باسم اللامائية نسبة إلى لقَبٍ هو « لاما » يطلق ، نوعاً ما ، على كل راهب . ثم إنّ اللامائية انتشرت ، بفضل الغزو المنغولي للصين وبفضل جنكيز خان وأحفاده ، في منغوليا ؛ كما عرفتها أيضاً أجزاء من التركستان وسيبيريا والصين .

البوذية في اليابان :

كان دين الشنتو هو السائد في اليابان ، قبل أن تدخلها البوذية في سنة ٥٢٢ ب . م . ؛ وسرعان ما انتشرت هناك ، وصار يعتنقها اليوم حوالي ثلثي السكان . من أهم مميزات البوذية اليابانية المعاصرة تسلّحها بالنظريات الفلسفية والعلمية الحديثة ، وقيام علمائها بالبحث العميق في أصولها بل وبالدعوة التبشيرية لها وإظهارها بحلّةٍ قشيبةٍ وعالمية تمنح السلام والإطمئنان للإنسان والجماعات . والبوذية في اليابان بوذيات كثيرة ؛ فهناك ما يقارب الستين فرقة أو شيعة . وهي ذات حيويةٍ خاصة تتميز بها الروح اليابانية . وهذه الروح ، كما سبق القول ،

(١) كان ذلك لأسباب عدة منها : محاربة البراهمة ، الانحدار الخلقي والديني الذي أصاب الرهبان والراهبات كما كان من العوامل الفعالة تطور البوذية ذاتها لصالح الهندوكية تطوراً كان يقرب بينهما ، وكون البوذية طريقة أكثر منها ديناً يستطيع مقاومة الأديان الأخرى العريقة الجذور . ونحن لا نعتقد بان الدخول العربي ـ الإسلامي كان ، في ذلك المضمار ، العامل الأكبر ؛ إذ أن الداخلين لم يحاربوا البوذية دون غيرها . . .

وجّهت « الديانة الواردة » صوب الواقعية واحترام الشخصية والانخراط واقتبال الحياة . ومن جهة أخرى ، تكيّفت البوذيةُ في اليابان مع التقنية الحديثة ومع مبادىء علمية ومناهج في التكامل والتأمل والسعادة . بل إنها ، من جهة أخيرة أيضاً ، تصالحت مع السياسة ؛ وسارت حتى مع تطلّعات الامبراطورية التوسعية .

٩ ـ اليونان والبوذية :

اهتم عدة امراء يونانيين بالتعرف على البوذية ، وربما اعتنقها بعضهم . إن الأسرة المالكة الهندية ـ السيثية (السيثيون ، Scythes ، الأشقوز) التي تولت الأمور في كوشانا واتخذت مدينة بيشاور عاصمة لها ، هي الأسرة التي تشهد على التعاطف اليوناني البوذي في الهند . ويُعَدّ الملك كَنِشْكا (Kanishka) أبرز ممثلٍ لذلك الاتجاه : كان يكلأ برعايته الرهبان البوذيين ، واتخذ مستشاراً له أحدَ الشعراء البوذيين ؛ ودعا لعقد المجمع البوذي الرابع الذي صدرت عنه عقائد « الحاملة الكبرى » التي اشتهر ، من بين أعاظم حكمائها ، الفيلسوف ناغارجونا ؛ ثم الفيلسوف أشانغا (القرن الخامس ب . م .) ، والشاعر شانتيديفا بعد ذلك بقرنين (السابع ب م .) . اليونان من جهة ، والهند من جهة أخرى ، تؤلّفان مشكلة : فالبعض يشدّد على وضْع اليونان في المرتبة الأولى ، وفي الأسبقية ، والأعظمية ، وما إلى ذلك من مصطلحات تُجَمِّع وتُجمِع على إعطاء العقل اليوناني تفوقاً وقدرات ، دونها قدرات العقل الهندي . وقد قرأنا ، في كتابنا هذا ، تلك الفكرة بأثواب مختلفة . وفي رأينا ، والذي سبق قوله ، إنّ أخذ الفكر اليوناني كظاهرة منعزلة ، قائمة بذاتها ، خالقة لنفسها بنفسها ومن عدم ، هو أخذ غير بريء ، ولا يخضع للعلم التاريخي وللقوانين المعروفة والمقبولة حول تطور المجتمعات والمسار الإنساني . لا تؤخذ الفلسفة اليونانية على أنها نتاج عقل متفوق ، ونتاج شعب منعزل عن غيره أو مقفَلٍ على الحضارات والأفكار . ولا يؤخذ الفكر منقطعاً عن مهاده الإجتماعي ، وظواهر المجتمع والتاريخ والواقع . وفق ذلك المنظور يصبح ما للهند ، وما هو لليونان ، نتاج إنسانٍ أو أناس منغرسين في الزمكانية ويعطون للإنسان ، يعودون للإنسانية كلها وليس لأمةٍ وحدها فقط .

١٠ ـ إعادة قراءة ، أشمولة :

لا شيء جديداً تمام الجدّة عند بوذا : المصطلحات والمرجعية وطرائق التفكير وأنماط الفهم والعمل . وُجِدت هذه كلها قبله . لكنّ بوذا ، مع ذلك كله ، وفي وسط أجمة من الحكماء المماثلين له ، يتميّز بشخصيةٍ فذة تطغى وتبرز في شتى مراحل عمره ودعوته . لقد تمثّل وهضم سائر ما تلقفه ؛ مما جعل تعاليمه تبدو كالأصيلة تماماً ، وتنفتح على العالمية وشتى الطبقات والاعراق بل والكائنات الحية قاطبة . وفي خدمة تلك العالمية في الدعوى ، توفر لبوذا عزم وإرادة على التبشير حمّلها لحواريين درّبهم وأرسلهم للعالمين . . . بحسب البوذية ، وباختصار ووجازة ، إنّ الصلوات والتقديمات ، الطقوس والشعائر والتكاليف الشرعية ، لا تحرّر الإنسان أو لا تؤمّن له الخلاص . المعرفة أقدر من تلك الشكليات على توفير الانعتاق والتحقق . إنّ كلّ إنسان ، أينما كان ومهما كان ، مدعو إلى أن يكون بوذا . وكلّ منا قادر على أن يكون بوذا ، وأن يحرّر نفسه ، ويبلغ بها العلّيين .

لا تهتم البوذية بالمعارف التي تزيد روابط الإنسان بالحياة ، أو تزيد ثروته المادية والفكرية ومن ثم تساهم في الحفاظ على الشخصية التي هي ، بنظر البوذية ، وهمية ولا واقعية . بعبارات أخرى ، ليس مهمّاً أن تعرف أشياء كثيرة فالأهم هو معرفة أنّ على الإنسان التخلّي عن كل روابطه ليبلغ الانعتاق . فقد قلنا إن البوذية ترى في اجتثاث الرغبة قضاءً على الدافع للعمل . وبعد أن يتوقف العمل ، فإنّ ما ينجم عنه من أحاسيس تُجتثّ هي ومن ثم الرغبة أيضاً التي تنبع من تلك الأحاسيس . من جهة ثانية ، ما يزيد هذا التشاؤم قتامةً وعمقاً هو نظرية الأنيكا حيث اللاثبات واللادوام واللاأبدي في كل شيء ؛ ونظرية الأَنَتّا القائلة ، كما مر معنا ، باللاأنا وعدم الحقيقةِ الواقعية للذات ، أي اللانَفْس . في إيجاز ، هذه الفينومينولوجيا ترى العالم الظاهري والأنا الظاهري غير واقعيّينْ . وعلى تلك الظواهرية يقوم فهم البوذية للألم على أنه شامل وعام وكوني ؛ يطال كل الكائنات وليس خاصاً بالإنسان فقط .

بيد أنه ورغم ذلك الجو القاتم حيث يسيطر الألم واللاأنا والتغير المستمر في أجزاء الكائن ، يبقى ممكناً القول بإمكانية تغييرٍ داخل طبيعة الإنسان وبوجودِ قبولٍ نسبي للعالَم ، وتفاؤل ، ودعوةٍ لتغيير الواقع وتطويره لجعل الحياة أفضل .

وقد درسنا ، في فصل خاص ، تلك الناحية الإيجابية في البوذية أو قِسْمها الموجَّه إلى البوذيين المدنيين ، المنغرسين في الواقع والذين يقوم إلى جانبهم قسم المتديّنين أو الذين أعطوا النفس بكاملها للعقيدة أو للتحول التام إلى « بوذات » . في اعتقادي ، إنّ بوذا شخصية عالمية كبرى . قدّم طريقةً ونظراً من الطراز الرفيع والسبّاق على المستوى الإجتماعي وعلى الصعيد الفكري . وتجربة بوذا ، ضمن سياقها التاريخي ، تنتمي إلى التجارب العقائدية الكبرى في الإنسان (الهندوكية ، والابراهيمية الأعرابية حيث اليهودية والمسيحية والإسلام) . وفي الدعوة ضد جمودية التعاليم البراهمانية ، وضد الطبقية والتفرقة الدينية والعنصرية يبدو بوذا معلّماً إصلاحياً رائداً . ومع أنّي لا أحبّ إجراء المقارنات أو حتى الموازاة بين أفكاره وأفكار أخرى ، اليوناني منها بشكل خاص ، فإني لا أستطيع إغفال تذكّر بعض المشابهات الكثيرة والمقارنات : شبّه البعض بوذا ، في سويعاته الأخيرة ، بسقراط قُبَيْل تناوله السمّ . وجرى كلام كثير حول أفلوطين وبوذا ؛ إذْ عرفت سوريا وفلسطين ومصر العقيدة البوذية قبل المسيحية وفي القرون الأولى للمسيحية . ففي الإسكندرية بشكل خاص ، كان للجالية الهندية نشاط ملحوظ . ومن الثابت أنّ نظرية أفلوطين في الواحد ، وفي الوجد ، واتحاد النفس الفردية في النفس الكلية ، نظرية متأثرة إلى حدّ بعيد جداً بالفكر الهندي (يُقْرأ : غينون) . ومقارنات البوذية بالفكر الفلسفي اليوناني الأوروبي تستطيع التوقف مطولاً عند : دور الذهن ، مسؤولية الإنسان عن أفكاره ، نظرية التمثّل ، نظرية المعرفة ، القول بأن لا شيء موجود غير الأفكار. ومن يتذكّر بوذا يتذكر، في التاريخ الأوروبي الذي ما يزال بعضنا به كالمأخوذ أو كالمسحور في أساطيرنا الشعبية ، فرانسوا الأسيزي ، وأمثال الأسيزي ، وهناك الكثرة من معذّبي الجسد والمتصوفين الأوروبيين . بل وأقام الكثيرون من المفكرين نوعاً من الشبه بين تجديد بوذا والحركة المجددة التي مثّلها لوثر . . . كلاهما بحث عن الخلاص : تساءل الثاني عن كيفية التكفير عن الخطايا ؛ والأول عن كيفية التخلص من حلقة التناسخ المستمر . من جهة ثانية ، كلاهما وقف في وجه المعتقدات الشائعة في عصره ، يبحث بانفتاح إزاءها . أخيراً ، مارس كل منهما ، في مستهل حياته ، الطقوس المفروضة ، والأعمال الصالحة ، بغية بلوغ الحقيقة ؛ ثم بدا ، لكل منهما أيضاً ، عقم ذلك فانصرف إلى الجوهر ، إلى الروحاني ، إلى ما وراء الحرْف وما بَعد المبادي .

وأخيراً ، هناك فيلسوف ألماني ، والناس في بلادنا معجَبون بالفكر الأوروبي وبأكثرية الألماني منه . لقد عاش شوبنهور (١٧٨٨ ـ ١٨٥٤) في عصر حروب وفقر ، وحيداً بلا وطن ولا أسرة ، ولا نجاح أو أدنى انفتاح وتفاؤل ؛ وبلا صديق غير كلب أطلق عليه إسماً هندياً . وكان يرى العالم مترعاً بالشر والشقاء ، وان الهدف الأسمى هو القضاء على الرغبة ، وعلى إرادة الحياة ؛ ومن ثم بلوغ النرفانا . وهكذا فهو ينبذ الفكر الغربي ، ويتبنى النظرة الهندية للحياة : الديانة البوذية ، مثلاً ، أعمق من المسيحية لأنها تجعل من تقويض إرادة الحياة منطلقاً وغاية . بل إنّ المسيحية ذاتها لم تنتصر ، في رأيه ، إلا لأنها كانت تشاؤمية إلى حدٍ أكثر من الديانات التي هُزمت أمامها . وحيث إنها أقل عمقاً وتشاؤماً ، فلن تستطيع الانتصار عاجلاً أم آجلاً ، على الديانة الهندية في الشرق . من جهة ثانية ، يرى شوبنهور أن المفكّرين الهنود يفوقون المفكرين الأوروبيين ثم هو يتوقع للتراث الهندي الانتشار ، والتأثير الجم في العقل الأوروبي .

وكثيرون هم أيضاً المعجَبون ببوذا في الفكر العربي الإسلامي : بعضهم يحلّل حصول بوذا على « الإشراق » بحيث يقرّبه من مفهوم الوحي في الأديان السماوية ؛ آخرون يجعلونه نبياً ؛ بل انّ البعض يرى فيه نبياً بالفعل لم يَرِد ذكره في القرآن استناداً على آية ﴿ مِنهم من قصَصْنا عليك ومنهم من لم نَقْصُص عليك ﴾[1] . في جميع الأحوال ، لا مشاحة في كون بوذا شخصيةً بلغت مستوى عالٍ من التحقق والتنور والعرفان ، ورسمت معراج التسامي الصوفي . ولقد عُرِف بهذه الصورة الأخيرة في الفكر الصوفي العربي الإسلامي عموماً . لكن هذا موضوعٌ طويل ؛ لا مجال له الآن .

ما سبق أن قلناه عن الفلسفة الهندية نعود إليه هنا أو نُعيد إنتاجه : الغاية عند البوذي هي خلاص النفس ، وطلب الاستنارة وبلوغ الإشراق. فتلك هي المرجعية الأساسية ، والمصطلحات أو الميدان الخاص ، حيث أنتج الفكر الفلسفي الهندي وتحرّك وقيّم .

إنْ طَلَبْنا ما هو فلسفي محض ـ أي ماهو عمل فكري مجرّد وبحثٌ عقلاني

---

(١) القرآن ، ٤٠ ، ٧٨ ؛ قا : ٤ ، ١٦٤ .

شمّال أو حرّ ومُمْتَهج ـ قد لا نجد الكثير . لكننا سنجد الوافر والغزير جداً إن رمنا تأملات وأحكاماً وآراءات في الحياة والألم ، في خلاص الذات والسعي وراء الهناء الداخلي وصفاء الروح . لكن ، هذا فقط إنْ آمنا بذلك الصفاء ؛ واهتممنا بذلك السلام ، وبتلك الطرائق والمفاهيم في عالَم الآلة والحاسوب أو الصورة والإستهلاك .

قطاع الأقوال الحِكَمية أو الجُمل المأثورة

لم نشأ أن نُعيد هنا نشر كل ما قدَّمه مسكويه من « حِكَم تؤثَر عن الهند » (الحكمة الخالدة ، ص ٩١ ـ ١٠٠) ، وهي « أقوال قصار » أعقد وأغنى مما سنرى أدناه . نكتفي بتقديم عيِّنات .

لا يجب للعاقل أن يزرع العداوة إتكالاً على قوته ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السمّ إتكالاً على أدويته (ص ١٠٠) . أربعة أشياء تُعين على العمل : الصحة ، والغنى ، والعِلم ، والتوفيق (ص ٩٩) . لهَب الشوق أخفّ تحمّلاً من مقاساة الملالة (ص ٩٩) . أربعة لا ينبغي أن يمازَحوا ولا يضاحَكوا : الرجل العظيم الشأن الجبار ، والعالم الناسك ، والدنيء الطبع اللئيم ، والحزين الثاكِل (ص ٩٦) . ثلاثة يعملون بغير الحق : الذي يعطي بلسانه ، ولا يُحقق بفعله ؛ والسريع إلى الأكل ، والبطيء عن العمل ؛ والذي لا يستطيع أن يسكّن غضبه ، ولا يملك هواه ، وإذا هَمَّ بالأمر العظيم ركبه (ص ٩٤) .

---

(١) را : أعلاه ، الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، عن ما هو سلبي ومنجرح في ذلك القطاع من الأدبيات الحكمية والفلسفية ؛ ما هو إيجابي للفكر والسلوك .

١ ـ خواطر بوذية في المحبة :

صارت المحبة في البوذية المحدثة أسمى وأشمل ؛ توسّعت وأخذت صياغة بلا تخوم. ويتقارب المفهومان البوذي وعند الصوفية المسلمين . وللمحبة دورها الأخلاقي الرفيع في الفكر وعند الفلاسفة المعاصرين ؛ إنها الاسم الحقيقي للمثَل الأعلى الأخلاقي ، للعلائقية المؤسَّسة على العدل وما بعده ، والمنفتحة على البشرية كافة ، وحتى على الطبيعة برمتها . ولْنقرأْ عيِّنات :

- تأملت في الشفقة والمحبة فنسيت الفرق بيني وبين الآخـرين (ميلاربا) .
- أحبّوا قريبكم كما تُحبّون نفوسكم . فذلك لخير الجميع ، ومنفعتهم المتبادلة .
- الق جانباً بالإساءة للغير ، وبالغضب . وأعرِضْ عن الاحتقار ، وسوء النية . لا تغذِّ في نفسك الحقد ، حتى ولا على الذين يسيئون إليك . فليكن لنا تجاه جميع المخلوقات الحية عواطف النبل ، والمحبة ، وحسن التعامل .
- ما هي غاية كلّ عملٍ أقوم به ؟ إنّها المخلوقات الأخرى ؛ فأنا أعمل لأجعلها سعيدة آمنة في هذه الدنيا ، ولأجعلها تكسب النعيم في الحياة الأخرى (رقيم على صخرة الملك أسوكا) .

٢ ـ خواطر بوذية في السعادة :

رأينا أنّ السعادة الحقة التي يبتغيها البوذي هي تلك الحالة التي يصل إليها في قضائه على رغباته المتغايرة وأنانيته . ثم إنها في المحبة والفضيلة ، والتحـرك

بالخير وللخير . . . والقناعة هي السعادة ؛ والسعادة هي الفردوس الأرضي الذي ينشده كل بوذي مؤمن بأن سعادته هي في صدره أو على حد القول المعروف : يكون ملكوت السموات هنا ، في نفوسكم . لا يفتش البوذي عن نعيم بعد الموت . كأنّه البسطامي ، أو رابعة مثلاً ، الذي لا ينتظر جنة أو يخاف ناراً بقدر ما يبحث عن الله داخل النفس ويقيم معه الصلة الجيدة ومحبة بلا حدود وبغير أهداف . عيّنات :

ـ إني أعتبر سعادة الحيوانات كهدف عندي ينبغي عليّ أن أكافح دائماً للوصول إليه ، أو بلوغه قدر الإمكان (من أحاديث الملك أسوكا) .

ـ جميع المخلوقات تبغي السعادة . فليشملها عطفك إذن ، وليتسع لها بأجمعها (ماهافيا) .

ـ مفعَماً بالحبّ لجميع الأشياء الموجودة في العالم ، ممارساً الفضيلة وخدمة الغير ؛ ذلك الرجل وحده هو السعيد (فاكهوبيو) .

ـ لجميع الكائنات الحية مهما كانت ، ضعيفة أو قوية ، صغيرة أو كبيرة ، مرئية أو غير منظورة ، الحق في نشدان السعادة (متا سوترا) .

ـ لن يلقى السعادة ذلك الذي يبذل جهده للوصول إلى سعادته الشخصية بأن يسيء معاملة الموجودات ، أو يُبيد الكائنات التي هي أيضاً تنشد السعادة . (ذامابادا) .

ـ هناك ، في موت الأنانية ، تكمن السعادة الحقة (أدانا فارغا) .

ـ يكون القلب القنوع في سعادة أبدية (فوشوهنغ تسان كنغ .

ـ تكون السعادة في الفضيلة ، وفي المحبة ، ونكران الذات. وليست هي في اللذة وإشباع الشهوات (من البوذية المستحدثة) .

٣ ـ تأملات بوذية في الغضب :

إذْ يرى البوذي الراحةَ الذاتية في المحبة ، كما في التغلّب على الأنانية ، فإنه يجد في الغضب رذيلة وأمراً يؤدي إلى التعاسة والهدم الذاتي . وهكذا فإن من التعاليم المهمة على المؤمن أن يكبح غضبه ، ولا يتنازل عن هدوئه .

ـ لم يَخْلُق الجحيمَ أحدٌ من الناس . إنّ نار العقل المُرْخي زمامه للغضب هي التي

توقد الجحيم ، وتحرق فيه صاحبها . (مولا مولي) .

ــ عندما يُحدِث الإنسان شراً يُشعِل بيده نار الجحيم ، فيحترق في جهنّم أوقدها هو بنفسه (مولا مولي) .

ــ سَيْطِرْ على الحنق . ولا تكره أحداً ، صغيراً كان أم كبيراً ، إنساناً كان أم حشرة . إياك أن تنقاد لجوامح القلب المتأجج بالغضب (فوشوهنغ تسان كنغ) .

ــ الغضب ! يا للأسف كم يغيّر من وجوه ، وكم يُذوي جلال الجمال وهيبة الرجل الوادع (فوشو هنغ تسان كنغ) .

ــ الكابح للغضب حوذيّ ماهر لحياته الداخلية ؛ أما المندفع وراء غضبه فما هو إلا ممسِك أعنةً لا يملك زمامها (ذامابادا) .

٤ ـ تأملات في النرفانا :

ــ هي منبع القداسة ، ومصدر الوداعة والجمال الروحي . هي الروعة القائمة في العدالة (عن الملك : ملندا) .

ــ خفِّفْ ، أيها الرفيق ، ذلك القارب الثقيل فهو مفرَّغٌ ينساب الهوينا ويتهادى بارتياح . وأنت ! أيها الرفيق ! تحرر من الرغبات والضغائن . إن أنتَ تحررتَ فإنك بلا شكٍ بالغ النرفانا ، ومتجه إليها (ذامابادا) .

ــ المستغرِقون في التأمل ، المكافِحون ببطولة وشهامة دون كللٍ ، أولئك وحدهم هم الذين يبلغون النرفانا ؛ وهم العاقلون الذين يدركون الغُنْم الذي يتخطى جميع المكاسب الدنيوية (ذامابادا) .

ــ إنّ من عَمَرَت قلبه الطيبة ، ذلك الراهب المتعلق بعقيدة بوذا ، هو الذي سيبلغ الملكوت الأعلى حيث الخلود والاطمئنان والغبطة (ذامابادا) .

ــ عندما ترتفع الأمواج ، أو تزبد وترغي ، هل يجد ملاذاً من رزح تحت عبء الشيخوخة والموت ؟ أو هل يلقى جزيرة تأويه ؟ كلا ! وألف كلا ! فلا جزيرة إلا هناك حيث لا تعلق بشيءٍ ، ولا ارتباط . وهي التي أسميها : النرفانا ، نهاية الشيخوخة والموت (سوتانيباتا) .

ــ كنتُ تهائهاً في دروب التناسخ ، وعبثاً كنتُ أبحثُ عن باني البيت

(الجسم) . يا له من ألم أن نتناسخ دائماً : نموت ، ثم نولد ، ثم نموت ، ثم نولد . . . ! لكني اكتشفتُك ، أخيراً ، أيها المشيد للبيت ؛ فكسرتُ الأبواب ، وهدمتُ الركائز والجدران .

عندها ، عندما تخلصت روحي من الجسم الفاني والدنيا الزائفة ، بلغتُ نهاية المطاف والغبطة القصوى (متاسوتا) .

٥ ـ تأملات في الموت :

المؤمن لا يهاب الحق ، والموت حق . لذا فالبوذي لا يرى في الموت ما يُرهِب ، أو يفني حياته . والنظرات البوذية هنا شديدة القرب والشبه بالنظرات الصوفية في التراث العربي الإسلامي . الموت لا بد منه ، يقول الصوفي والبوذي ؛ فلا ضرورة للتعلق بالدنيا والأشياء أو بالممتلكات والمحبوبات (قا : مذهب الاصطبار أو نظرية التحمّل والتجمّل في الفكر العربي الإسلامي) .

ـ لا يرهَب الموتَ من عرف أن جسمه شبيه بفقاعة الصابون ، وأقلّ صلابة من سراب خدّاع (ذامابادا) .

ـ يُغِمُّ هذه الدنيا الموتُ والزوال . ولا يغتم الحكيم ، ولا يرهب ؛ لأنه يعرف نهاية الأشياء ومصيرها (سالاسوترا) .

ـ لا يعرف الأعمى أنّ كلّ فرد منا ذائق الموت ، وعليه أن يترك الدنيا ذات يوم . أما الذي يفكر ويتأمل في زيف الدنيا وبطلانها فإنه يحوّل إلى غبطة وسلام جميع المتاعب والهموم (ذامابادا) .

ـ من الأحسن أن نموت في العدالة على أن نحيا في الظلم (لودا سنغرهايا) .

ـ من الأفضل لي أن أموت وأنا أُعارك الشهوات والشر على أن أحيا مغلوباً على أمري من جرّائها (بذاما سوتا) .

ـ من الأحسن أن نخسر الحياة على أن نخالف ما نعتبره هدفاً لنا (تاشوانغ يان كنغ لون ، الموعظة ٤٤) .

ـ اعتبرْ الدنيا بنفس النظرة التي تُلقيها على حُباب الماء ، أو بنفس الاعتبار الذي ترى به السراب . إنّ من يرى الحياة بهذه النظرة الفوقية ، لا يراه الموت أبداً (ذامابادا) .

– إلى أين ؟ هل أصبحتَ سيّد العالَم المطلَق ؟ حتّى وإنْ ملكتَ الدنيا قاطبةً فإنك لا بد تاركها ساعة الموت ؛

– إذا تخليت عنها منذ البداية ، إذا زهدت بمباهجها ومسرّاتها ، فستبقى وادعاً إلى الأبد ، هادئاً حتى النهاية (ملاربا)(*) .

(*) عرفت «الأدابية» العربية الإسلامية كثيراً من الحكَم والآداب والأقوال المسبوكة منسوبة إلى الهنود . را : ابن هندو ؛ مسكويه في الحكمة الخالدة ص ۹۱ - ۱۰۰ ؛ المبشر بن فاتك . . . ونجد تلك « الأقوال الخالدة » في ثنايا الكتب العربية التقميشية ، الإنسانية التوجه .


القراءة زاد المعرفة ، والتفكير ..لتسخير المعرفة

الحكمة في الديانة البوذية

.. كان بوذا على جانب عظيم من طيبة النفس وحسن الخلق ولطف المعشر

وكانت نفسه معتركا شديدا للنضال بين نوازع الجسم وما أخذ به نفسه بالرياضة

حتى انتهى بالانتصار على لذاته انتصارا مؤزرا .

ويصور علماء الهند صورة رائعة لبوذا فيقررون أنه كان شديد الضبط قوي الروح,

ماضي العزيمة, واسع الصدر, عزوفا عن الشهوة, بالغ التأثير, بريئا من الحقد

بعيدا عن العدوان, جامدا لا ينبعث فيه حب ولا كراهية ولا تحركه العواطف

ولا تهيجه النوازل, بليغ العبارة فصيح اللسان مؤثرا بالعاطفة والمنطق, له منزلة

كبيرة في أعين الملوك ومجالسه ملتقى العلماء والعظماء.

ومن القصص التي تروى لتدل على تواضعه أن أحد تلاميذه قال له مرة: إنني

أيها السيد أومن بكل ق لبي أنه لم يوجد بعد ولا يوجد الآن ولن يوجد إلى آخر

الدهر مرشد أعظم قدرا وأكثر عقلا من مرشدنا المبارك.

فأجاب بوذا: هل أنت قد عرفت كل العارفين الذين سبقوني؟ وهل عرفت كل

العارفين الذين يأتون بعدي؟

فأجاب التلميذ: لا يا سيدي فلم يتيسر لي ذلك؟

قال بوذا: هل عرفتني كل المعرفة؟ وتوغلت في نفسي كل التوغل؟

فقال التلميذ: لا يا سيدي وكيف لي ذلك؟

فقال بوذا: فلم إذا أسرفت في قولك وجعلتني خير الناس وأنت لا تعرفني ولا

تعرف الناس؟